

مسائل الرازي وأجوبتها

من غرائب أي التنزيل

يحتوي على ١٢٣٨ سؤالاً وجواباً

تأليف

محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي

تحقيق

إسلام الجلدي

مدرس العلوم العربية بالأزهر الشريف

مكتبة جزيرة الورد

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مسائل الرازي وأجوبتها

المؤلف : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي

تحقيق : إسلام الجلدي

صف وإخراج فني : مركز الصفا للكمبيوتر

رقم الإيداع ٢٠١٧/١١٢٨٣

الترقيم الدولي / ٣-١-٠٠١-٨٣٤-٩٧٧-٩٧٨

حقوق النشر محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

ميدان حلیم خلف بنك فيصل الرئيسي

شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

ت : ٢٧٨٧٧٥٧٤ م : ٠١٠٠٠١٠٤١١٥ - ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦

الطبعة الأولى ٢٠١٦م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين الذى أنزل القرآن وخلق الإنسان وعلمه البيان ،
والصلاة والسلام على النبى الكريم صاحب المقام المحمود الذى بعثه الله عز
وجل بخاتم الرسالات وأعظم المعجزات معجزة القرآن الكريم ليكتمل
التحدى والإعجاز .

ما فتى أعداء الإسلام والحاقدون عليه يثون أحقادهم فى كل عصر ومصر
يلبسون على البسطاء دينهم ، ويشككونهم فى ثوابته ، ولكن الله يقيض كل حين
علماء يحفظون للأمة دينها ويجلون عظمة الإسلام وإعجاز القرآن ، وهؤلاء
العلماء لم تخل منهم أمتنا قط .

ومن نماذج الدفاع عن الإسلام هذا المصنّف الرازى - وهو ليس الرازى
المفسر - وهذا المصنّف - غرائب آي التنزيل - فقد استقصى فيه المؤلف كل
الشبهات التى استطاع حصرها حول آيات الذكر الحكيم التى قد يثيرها
المشككون ورد عليها بعقلية وعلم وافرين ، وتلمس فى ردوده العلم الغزير فى
علوم الشريعة واللغة وتلحظ الذكاء الحاضر والبديهة اللامعة .

وما زالت المكتبة القرآنية والحديثية تحتاج لمصنفات من هذا النوع تردّها
على المشككين الذين يظهرون من جحورهم ينتظرون رياحاً أن تدمغهم
فيصيروا زاهقين مدحورين مخدولين .

الله أسأل أن يغفر لصاحب هذا الكتاب العظيم ولكل من أعان على نشره
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

إسلام الجلودى

مدرس العلوم العربية بالأزهر الشريف

التعريف بالمؤلف

محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي^(١)

هو محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، لقبه: زين الدين، نشأ في مدينة البري، وهي أصله، واجتهد في تحصيل العلوم المتنوعة: اللغة والفقه والتفسير والحديث والأدب والتصوف وكان مولعاً بالقراءة وأصبر الناس على المطالعة، لا يملّ من ذلك. لم يقدم المترجمون بدقة سنة ولادته، ولا سنة وفاته.

يُعرف من أخباره القليلة أنه دخل مصر وأقام بها زمناً، وجال في ربوعها، وأخذ عن بعض مشايخها، كما أخذ عن بعض طلبتها، ثم قصد إلى دمشق والشام، وطاف في أرجائها، ودخل بلاد الأناضول وأقام بها في قونية، وفيها صحب العالم المحقق صدر الدين القونوي وسمع منه كثيراً من التأليف.

تنوّعت آثار الرازي بين كتب لغوية وأدبية وتفسير وحديث، منها: "هداية الاعتقاد" في شرح بدء الأمل، و"التوحيد"، و"غرائب القرآن" الذي ذكر فيه أن طلبة العلم وحملة القرآن سألوه أن يجمع لهم تفسير غريب القرآن؛ فأجابهم، ورتبه ترتيب صحاح الجوهري، وضم إليه شيئاً من الإعراب والمعاني، وألف "كنوز البراعة" في شرح مقامات الحريري، وله تاريخ لطيف يتناول أول الخلافة الإسلامية حتى القرن الثامن.

من تصانيفه: "روضة الفصاحة"، و"حدايق الحقائق" في الوعظ، و"دقائق الحقائق" في التصوف، و"معاني المعاني" وهو مختارات شعرية، و"كنز الحكمة" في الحديث النبوي الشريف.

(١) الرازي هنا ليس الرازي المفسر فليتبّه .

والمعروف من كتب الرازي في المكتبة العربية مما هي بين أيدي الناس كتاب "أسئلة من غرائب آي التنزيل"، و"كتاب الأمثال والحكم"، وهو مختصر جمع فيه مؤلفه ما تفرّق من الآيات المفردة وأنصاف الآيات التي ما زال الفضلاء يتمسكون بها في مكاتباتهم ومخاطباتهم، وفيها جوامع الكلم العقلية والنقلية.

ومن خير مؤلفات الرازي كتاب "مختار الصحاح" في اللغة، وبه عُرف واشتهر، وهو مختصر من "صحاح الجوهري"، وعلى ترتيبه. ومع أنه أباح أن يتصرّف - بعد تجريد الصحاح من الشواهد وإيجازه - فإن الأمانة العلمية دفعته إلى أن يشير إلى هذا التصرف في مقدمته فذكر قيمة كتاب الصحاح وأنه أحسن أصول اللغة ترتيباً، وأوفرها تهذيباً، وأسهلها تناولاً، وأكثرها تداولاً، ثم بين منهجه بوضوح فقال: "اقتصرت فيه على ما لا بد لكل عالم فقيه، أو حافظ، أو محدث، أو أديب من معرفته وحفظه لكثرة استعماله وجريانه على الألسن، مما هو الأهم فالأهم، خصوصاً ألفاظ القرآن العزيز والأحاديث النبوية، وتيسيراً على طلاب العلم اجتنبت فيه الغريب وعويص اللغة".

لا يُعلم على وجه الدقة تاريخ وفاته، إلا أنه بعد عام ٦٦٨ هـ بقليل جداً. وهذا الكتاب - الذي بين يديك - من أجّل الكتب، صنفه استجابة لبعض طلبه العلم لبيان غريب القرآن للرد على المفترين والمشككين.

اللهم اغفر لصاحبه وانفع بعلمه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

قال الفقير إلى رحمة ربه ومغفرته : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ،
عفا الله عنه ، وغفر له ولجميع المسلمين :

الحمد لله رب العالمين ، هذا مختصر جمعت فيه أنموذجاً يسيراً من أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها ؛ فمنه ما نقلته من كتب العلماء ، إلا أنى نقحته ولخصته ، ومنه ما فتح الله تعالى على به بسبب مذاكرة أخ لي من إخوان الصفاء في دين الله ومحبة كتابه ، وكان صالحاً تقياً سليم الفطرة وقاد الذهن ، جامعاً لجملة من مكارم الأخلاق وصفات الكمال الإنساني ، أنعم الله تعالى علي بصحبته ومذاكرته في معاني كتابه ، وكان شديد العناية بها كثير البحث والسؤال عنها قد هداه الله إليها وفتح عليه فيها بغرائب لم نسمعها من العلماء ولا رأيناها في كتبهم ، فحملتني فكرته القادحة ونيته الصالحة على جمع هذه الصبابة ، وهي تزيد على ألف ومائتي سؤال : وإن كانت بالنسبة إلى ما في القرآن من العجائب والغرائب كالقطرة من الدماء ^(١) ، والسها ^(٢) من نجوم السماء ، ولكن قصدت اختصار هذا الأنموذج منها وتقريبه إلى الأفهام ، ليكثر الانتفاع به ولا يهجر لدقته وغموضه .

وأما الأسئلة التي تتعلق بوجوه الإعراب ، وبالمعاني التي هي أدق على الأفهام وأخفى ، فإنني وضعت لها مختصراً آخر ، وأودعته أنموذجاً منها أيضاً فليطلب ثمة ، وبالله أستعين ، وعليه أتوكل ، وإليه أنضرع في أن يجعل علمي وعمل خالصاً لوجهه الكريم ، ويتغمدني وأخي الصالح بمغفرته ورحمته إنه غفور رحيم .

(١) في إحدى النسخ الدماء أى من البحر ، يقال : تأدم الماء الشيء إذا غمره .

(٢) السها : كوكب تصعب رؤيته .

سورة فاتحة الكتاب

١ - فإن قيل : الرحمن أبلغ في الوصف بالرحمة من الرحيم بالنقل عن الزجاج^(١) وغيره ، فكيف قدمه ؟ وعادة العرب في صفات المدح الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، كقولهم : فلان عالم نحير ، لأن ذكر الأعلى أولاً ، ثم الأدنى لا يتجدد فيه بذكر الأدنى فائدة ، بخلاف عكسه ؟

قلنا : قال الجوهري^(٢) وغيره : إنها بمعنى واحد كنديم وندمان ، فعلى هذا لا يرد السؤال ، وعلى القول الأول إنما قدمه ، لأن لفظ «الله» اسم خاص بالباري تعالى لا يُسمّى به غيره ، لا مفرداً ولا مضافاً فقدمه ، والرحيم يوصف به غيره مفرداً ومضافاً فأخره ، والرحمن يوصف به غيره مضافاً ، ولا يوصف به مفرداً إلا الله تعالى فوسطه .

٢ - فإن قيل : كيف قدم العبادة على الاستعانة ، والاستعانة مقدمة ، لأن العبد يستعين بالله على العبادة فيعينه الله تعالى عليها ؟

قلنا : الواو لا تدل على الترتيب ، أو المراد بهذه العبادة التوحيد ، وهو مقدم على الاستعانة على أداء سائر العبادات ، فإن من لم يكن موحدًا لا يطلب الإعانة على أداء العبادات .

٣ - فإن قيل : المراد بالصراط المستقيم الإسلام أو القرآن أو طريق الجنة كما قيل بالنقل ، والمؤمنون مهتدون إلى ذلك ؛ فما معنى طلب الهداية لهم بقولهم : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] إذ فيه تحصيل الحاصل ؟

(١) الزجاج : هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج النحوي اللغوي ولد ببغداد ٢٤١هـ وتوفي سنة ٣١١هـ .

(٢) الجوهري : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري سنة ٣٩٣هـ .

قلنا : معناه ثبتنا عليه وأدمننا على سلوكه خوفاً من سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك ، كما تقول العرب للواقف ، قف حتى آتيك ، معناه : دم على وقوفك واثبت عليه ، أو معناه : طلب زيادة الهدى كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧] وقال عز وجل : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦] .

٤ - فإن قيل : ما فائدة دخول «لا» في قوله تعالى : ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ وقوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ والضالين كاف في المقصود ؟ قلنا : فائدته تأكيد النفي الذي دل عليه «غير» .



سورة البقرة

٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] على سبيل الاستغراق ،
وكم ضالٍ قد ارتاب فيه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا
عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ؟

قلنا : المراد أن ليس محلاً للريب ، أو معناه : لا ريب فيه عند الله ورسوله
والمؤمنين ، أو هو نفى معناه النهى : أى لا ترتابوا فيه : إنه من عند الله تعالى ،
ونظيره قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧] .

٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون مهتدون فكأن فيه
تحصيل الحاصل ؟

قلنا : إنما صاروا متقين بما استفادوا منه من الهدى ، أو أراد أنه ثبات لهم
على الهدى وزيادة فيه ، أو خصهم بالذكر لأنهم هم الفائزون بمنافعه حيث
قبلوه واتبعوه كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يُخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] أو أراد
الفريقين من يتقى ومن لم يتقى ، واقتصر على أحدهما كقوله تعالى : ﴿سَرَّيْلَ
تَقِيكُمْ الْخَرَّ﴾ [النحل: ٨١] .

٧ - فإن قيل : المخادعة إنما تتصور في حق من يخفى عليه الأمور ليتم
الخداع في حقه ، يقال : خدعه إذا أراد به المكروه من حيث لا يعلم ، والله تعالى
لا يخفى عليه شيء ، فكيف قال : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] ؟

قلنا : معناه يخادعون رسول الله ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله تعالى : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾
[النساء: ٨٠] أو سمى نفاقهم فساداً خداعاً لشبهه بفعل المخادعة .

٨ - فإن قيل : كيف حصر الفساد في المنافقين بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ومعلوم أن غيرهم مفسد ؟

قلنا : المراد بالفساد الفساد بالنفاق وهم كانوا مختصين به .

٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥] والاستهزاء من باب العبث والسخرية وهو قبيح ، والله تعالى منزّه عن القبيح ؟
قلنا : سمى جزاء الاستهزاء استهزاء مشاكلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] فالمعنى الله لا يجازيهم جزاء استهزائهم .

١٠ - فإن قيل : ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٩] ومعلوم أن الصيب لا يكون إلا من السماء ؟

قلنا : فائدته أنه ذكر السماء معرفة وأضافه إليها ليدل على أنه من جميع آفاقها لا من أفق واحد ، إذ كل أفق يسمى سماء ، قال الشاعر :

وَمِنْ بَعْدِ أَرْضِ بَيْنَنَا وَسَمَاءِ (١)

١١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] مع أن المشركين لم يكونوا عالمين أنه لا ند له ولا شريك له ، بل كانوا يعتقدون أن له أندادًا وشركاء ؟

قلنا : معناه وأنتم تعلمون أن الأنداد لا يقدرّون على شيء مما سبق ذكره في الآية ، أو وأنتم تعلمون أنه ليس في التوراة والإنجيل جواز اتخاذ الأنداد .

١٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [البقرة: ٢٤] فعرف النار هنا

(١) البيت لأبي الجراح وتماه :

فأوه من الذكرى إذا ما ذكرتها وَمِنْ بَعْدِ أَرْضِ بَيْنَنَا وَسَمَاءِ

ونكرها في سورة التحريم^(١) ؟

قلنا : لأن الخطاب في هذه مع المنافقين ، وهم في أسفل النار المحيطة بهم : فعرفت بلام الاستغراق أو العهد الذهني ، وفي تلك مع المؤمنين ، والذي يعذب من عصاتهم بالنار يكون في جزء من أعلاها ، فناسب تنكيرها لتقللها .
وقيل : لأن تلك الآية نزلت بمكة قبل هذه الآية ، فلم تكن النار التي وقودها الناس والحجارة معروفة فنكرها ، ثم نزلت هذه الآية بالمدينة فعرفت إشارة بها إلى ما عرفوه أولاً .

١٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُوا الْحَقَّ ﴾ [البقرة: ٤٢] ليسا فعلين متغايرين فينهما عن الجمع بينهما ، بل أحدهما داخل في الآخر ؟

قلنا : هما فعلاان متغايران ، لأن المراد بتلبيسهم الحق بالباطل كتابتهم في التوراة ما ليس منها ، وبكتماهم الحق قولهم : لا نجد في التوراة صفة محمد ﷺ
١٤ - فإن قيل : قوله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آيَاتَهُمْ مَلَائِكَةُ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤] ما فائدة الثاني ، والأول يدل عليه ويقتضيه ؟

قلنا : قوله : ﴿ مَلَائِكَةُ رَبِّهِمْ ﴾ أي : ملاقو ثواب ربهم وما وعدهم على الصبر والصلاة ، وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أي : موقنون بالبعث ، فصار المعنى أنهم موقنون بالبعث وبحصول الثواب الموعود ، فلا تكرار فيه .

١٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ قَبْدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة: ٥٩] وهم لم يبدلوا غير الذي قيل لهم ، لأنهم قيل لهم : قولوا حطة ،

(١) المقصود قوله تعالى : ﴿ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْلًا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيْهِمْ مَلَكَةٌ غِلَظُ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]

فقالوا : حنطة ؟

قلنا : معناه فبدل الذين ظلموا قولاً قيل لهم ، وقالوا قولاً غير الذى قيل لهم .

١٦ - فإن قيل : قوله : ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة: ٦] العثو : الفساد ، فيصير المعنى ، ولا تفسدوا في الأرض مفسدين .

قلنا : معناه ولا تعثوا في الأرض بالكفر ، وأنتم مفسدون بسائر المعاصي .

١٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ [البقرة: ٦١] وطعامهم كان المن والسلوى ، وهما طعامان ؟

قلنا : المراد أنه دائم غير متبدل وإن كان نوعين .

١٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّكَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٦١] وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق ؟

قلنا : معناه الحق في اعتقادهم ، ولأن التصريح بصفة فعلهم القبيح أبلغ في ذمهم وإن كانت تلك الصفة لازمة للفعل كما في عكسه كقوله : ﴿ قَتَلَ رَبِّ أَخْكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنبياء: ١٢] لزيادة معنى في التصريح بالصفة ، ولأن قتل النبي قد يكون بحق ، كقتل إبراهيم . صلوات الله على نبينا وعليه . ولده لو وجد لكان بحق .

١٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥] وانتقلهم من صورة البشر إلى صورة القردة ليس في وسعهم ؟

قلنا : إن هذا أمر إيجاد لا أمر إيجاب ، فهو من قبيل قوله عز وجل : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] .

٢٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿عَوَانٌ^(١) بَيِّنٌ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] ولفظة

«بين» تقتضى شيئين فصاعداً ، فكيف جاز دخولها على ذلك ، وهو مفرد ؟

قلنا : ذلك يشار به إلى المفرد والمثنى والمجموع ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٦] وقوله تعالى : ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] فمعناه عوان بين الفارض والبكر ، وسيأتي تمامه في قوله عز وجل ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إن شاء الله تعالى .

٢١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة: ٧٤] كلاهما بمعنى واحد ، فما فائدة الثاني ؟

قلنا : التفجر يدل على الخروج بوصف الكثرة ، والثاني يدل على نفس الخروج ، وهما متغايران ، فلا تكرار .

٢٢ - فإن قيل : ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] والكتابة لا تكون إلا باليد ؟

قلنا : فائدته تحقيق مباشرتهم ذلك التحريف بأنفسهم ، وذلك زيادة في تقبيح فعلهم ، فإنه يقال : كتب فلان كذا ، وإن لم يباشره بنفسه ، بل أمر غيره به من كاتب له ونحو ذلك .

٢٣ - فإن قيل : التولى والإعراض واحد ، فكيف قال تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣] ؟

قلنا : معناه : ثم توليتم عن الوفاء بالميثاق والعهد ، وأنتم معرضون عن الفكر والنظر في عاقبة ذلك .

٢٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [البقرة: ٩٦] ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ وهم من جملة الناس ؟

قلنا : إنها خصوا بالذكر بعد العموم ، لأن حرصهم على الحياة أشد لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث .

٢٥ - فإن قيل : قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] يدل على أن الله تعالى أنزل علم السحر على الملكين ، فلم يكن حراماً ؟

قلنا : العمل به حرام ، لأنها كانا يعلمان الناس السحر ، ليجتنبوه كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: ١٠٢] نظيره لو سأل إنسان : ما الزنى ؟ لوجب بيانه له ليعرفه فيجتنبه .

٢٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] كيف أثبت لهم العلم أولاً مؤكداً بلام القسم ، ثم نفاه عنهم .

قلنا : المثبت لهم أنهم علموا علماً إجمالياً أن من اختار السحر ما له في الآخرة من نصيب ، والمنفى عنهم أنهم لا يعلمون حقيقة ما يصيرون إليه من تحسر الآخرة ، ولا يكون لهم نصيب منها ، فالمنفى غير المثبت ، فلا تنافي .

٢٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٣] وإنما يستقيم أن يقال : هذا خير من ذلك ، وإذا كان في كل واحد منهما خير ، ولا خير في السحر ؟

قلنا : خاطبهم على اعتقادهم أن في تعلم السخر خيرًا ، نظرًا منهم إلى حصول مقصودهم الدنيوى به .

٢٨ - فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ [البقرة: ١٢٦] وقال في سورة إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ؟

قلنا : في الدعوة الأولى كان مكانًا فقرًا فطلب منه أن يجعله بلدًا آمنًا؛ وفي الدعوة الثانية كان بلدًا غير آمن فعرفه وطلب له الأمن ، أو كان بلدًا آمنًا فطلب له ثبات الأمن ودوامه ، وكون هذه السورة مدنية وسورة إبراهيم مكية لا ينافي هذا ، لأن الواقع من إبراهيم صلوات الله عليه بلغته على الترتيب الذى قلنا ، والإخبار عنه في القرآن على غير ذلك الترتيب ، أو أن المكى منه ما نزل قبل الهجرة فيكون المدنى متأخرًا عنه ، ومنه ما نزل بعد فتح مكة فيكون متأخرًا عن المدنى ، فلم قلت : إن سورة إبراهيم عليه السلام من المكى الذى نزل قبل الهجرة .

٢٩ - فإن قيل : أى مدح وشرف لإبراهيم صلوات الله عليه في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ رَفِى الْأَخِرَةِ لِمَنِ الصَّلَاحِينَ ﴾ مع ما له من شرف الرسالة والخلقة .

قلنا : قال الزجاج : المراد بقوله : ﴿ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ أى من الفائزين .

٣٠ - فإن قيل : الموت ليس في وسع الإنسان وقدرته حتى يصح أن ينهى عنه على صفة أو يؤمر به على صفة، فكيف قال : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ؟

قلنا : معناه اثبتوا على الإسلام حتى إذا جاءكم الموت متم على دين الإسلام ، فهو في المعنى أمر بالثبات على الإسلام والدوام عليه أو نهى عن تركه .

٣١ - فإن قيل : قوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَتْكُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا ﴾ [البقرة: ٣٧] إن أريد به الله تعالى فلا مثل له ، وإن أريد به دين الإسلام فلا مثل له أيضًا ، لأن دين الحق واحد .

قلنا : كلمة «مثل» زائدة ، معناه : فإن آمنوا بمثل ما آمتم به ، يعنى بمن آمتم به وهو الله تعالى ، أو بما آمتم به ، وهو دين الإسلام ، ومثل قد تراءى في الكلام كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى : ﴿ كُنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ومثل بمعنى واحد ، وقيل : الباء زائدة كما في قوله تعالى : ﴿ بِجُذُعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي مثل إيمانكم بالله أو بدين الإسلام .

٣٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] وهو لم يزل عالماً بذلك ؟
قلنا : قوله لنعلم ، أي لنعلم كائنًا موجودًا ما قد علمناه أنه يكون ويوجد ، أو أراد بالعلم التمييز للعباد كقوله تعالى : ﴿ لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧] .

٣٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَلَنُؤَلِّفَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة: ٤٤] وهذا يدل على أنه « لم يكن راضيًا بالتوجه إلى بيت المقدس ، مع أن التوجه إليه كان بأمر الله تعالى وحكمه ؟

قلنا : المراد بهذا الرضا المحبة بالطبع ، لا رضا التسليم والانقياد لأمر الله تعالى .

٣٤ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٥] ولهم قبلتان ، لليهود قible وللنصارى قible ؟

قلنا : لما كانت القبلتان باطلتين مخالفتين لقبيلة الحق فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبيلة واحدة أى .

٣٤ - كيف يكون للظالمين من اليهود أو غيرهم حجة على المؤمنين حتى قال : ﴿لَيْتَلَىٰ يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] .

قلنا : معناه إلا أن يقولوا ظلماً وباطلاً ، كقول الرجل لصاحبه : ما لك عندى حق إلا أن تظلم أو تقول الباطل ، وقيل : معناه : والذين ظلموا منهم ، فإلا هنا بمعنى واو العطف كما فى قوله تعالى : ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُونِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠، ١١] وقيل : «إلا» فيها بمعنى لكن . وحجتهم أنهم كانوا يقولون لما توجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس : ما درى محمد أين قبلته حتى هديناه ، وكانوا يقولون أيضاً : يخالفنا محمد فى ديننا ويتبع قبلتنا ، فلما حوله الله تعالى إلى الكعبة انقطعت هذه الحجة ، فعادوا يقولون : لم تركت قبله بيت المقدس ؟ إن كانت باطلة فقد صليت إليها زماناً ، وإن كانت حقاً فقد انتقلت عنها ، فهذا هو المراد به قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] وقيل : المراد به قولهم : ما ترك محمد قبلتنا إلا ميلاً لدين قومه وحباً لوطنه ، وقيل المراد به قول المشركين : قد عاد محمد إلى قبلتنا لعلمه أن ديننا حق ، وسوف يعود إلى ديننا ، وإنما سمي الله باطلهم حجة لمشايمته الحجة فى الصورة ، كما قال الله تعالى : ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى: ١٦] أى باطلة ، وقال : ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] .

٣٥ - فإن قيل : ما الفائدة فى قوله : ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ بعد قوله : ﴿وَأَشْكُرُوا﴾ إلى والشكر نقيض الكفر ، فمتى وجد الشكر انتفى الكفر ؟

قلنا : قوله : ﴿وَأَشْكُرُوا﴾ معناه استعينوا بنعمتى على طاعتى ، وقوله : ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ معناه : لا تستعينوا بنعمتى على معصيتى ، وقيل : الأول أمر

بالشكر ، والثاني أمر بالثبات عليه .

٣٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة: ١٦١] وأهل دينه لا يلعنونه إذا مات على دينهم ؟

قلنا : المراد بالناس المؤمنون فقط ، أو هو على عمومه ، وأهل دينه يلعنونه في الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ تَرْثُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨] .

٣٧ - فإن قيل : ما الفائدة في قوله : ﴿ إِلَهٌ ﴾ في : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣] فهلا قال : وإلهكم واحد ، فكان أخصر وأوجز ؟

قلنا : لو قال : وإلهكم واحد لكان ظاهره إخباراً عن كونه واحداً في الإلهية ، يعنى لا إله غيره ، ولم يكن إخباراً عن توجهه في ذاته ، بخلاف ما إذا كرر ذكر الإله ، والآية إنما سبقت لإثبات أحديته في ذاته ، ونفى ما يقوله النصارى : إنه واحد ، والأقانيم ثلاثة ؛ أى الأصول ؛ كما أن زيذاً واحد أعضاؤه متعددة ، فلما قال : ﴿ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ دل على أحدية الذات والصفة ولقائل أن يقول : قوله : ﴿ وَاحِدٌ ﴾ يحتمل الأحدية في الذات ، ويحتمل الأحدية في الصفات ، سواء كرر ذكر الإله أو لم يكرر ، فلا يتم الجواب .

٣٨ - فإن قيل : ما وجه صحة التشبيه في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾ [البقرة: ٧١] وظاهره تشبيه الكفار بالراعى ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، ومثلك يا محمد مع الكفار كمثل الراعى أو الأنعام ، أو تقديره : ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الراعى ، أو ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الناقع بالبهائم ، أو ومثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام كمثل الراعى .

٣٩ - فإن قيل : كيف خص المنعوق بأنه لا يسمع إلا دعاء ونداء ، مع أن كل عاقل كذلك أيضًا لا يسمع إلا دعاء ونداء ؟

قلنا : المراد بقوله لا يسمع ، أنه لا يفهم كقولهم : أساء سمعًا فأساء إجابة أى أساء فيهما .

٤٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [البقرة: ١٧٤] وقال في موضع آخر : ﴿ قَوْلِكَ لَسْتُنَّ لَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] ؟

قلنا : المنفى كلام التلطف والإكرام ، والمثبت سؤال التوبيخ والإهانة فلا تنافي .

٤١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٧٨] أى فرض والقصاص ليس بالفرض ، بل الولي مخير فيه ، بل مندوب إلى تركه ؟

قلنا : المراد به فرض على القاتل التمكين ، لا أنه فرض على الولي الاستيفاء .

٤٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ عطف الأقربين على الوالدين وهما أقرب الأقربين ، والعطف يقتضى المغايرة ؟

قلنا : الوالدان ليسا من الأقربين ، لأن القريب من يدلى إلى غيره بواسطة كالأخ والعم ونحوهما ، والوالدان ليسا كذلك ، ولو كانا منهم لكان تخصيصهما بالذكر لشرفهما كقوله تعالى : ﴿ وَمَلَكِيَّةٍ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ .

٤٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ وصوم هذه الآية ليس كصوم أمة موسى وعيسى عليهما السلام ؟

قلنا : التشبيه في أصل الصوم لا في كيفيته ، أو في كيفية الإفطار ، فإنه كان في أول الأمر الإفطار مباحًا عن غروب الشمس إلى وقت النوم فقط ، كما كان في صوم من قبلنا ، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ﴾ [البقرة: ١٨٧] الآية ، أو في العدد أيضًا على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : فرض على النصارى صوم رمضان بعينه ، فقدّموا عشرة أو أخرّوا عشرة لئلا يقع في الصيف وجبروا التقديم والتأخير بزيادة عشرين فصار صومهم خمسين يومًا بين الصيف والشتاء .

٤٤ - فإن قيل : ما فائدة قوله : ﴿ وَيَنْتَ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] بعد قوله : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ ؟

قلنا : ذكر أو لا أنه هدى ، ثم ذكر أنه بينات من الهدى ، أى من جملة ما هدى الله به عبده ، وفرق به بين الحق والباطل من الكتب السماوية الهادية الفارقة بين الحق والباطل ، فلا تكرار .

٤٥ - فإن قيل : ما الفائدة من إعادة ذكر المريض والمسافر ؟

قلنا : فائدته أن الآية المتقدمة نسخ مما فيها تحخير الصحيح ، وكان فيها تحخير المريض والمسافر أيضًا ، فأعيد ذكرهما لئلا يوهم أن تحخيرهما نسخ كما نسخ تحخير الصحيح .

٤٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ٨٦] يدل على أنه يجيب دعاء الداعين ، ونحن نرى كثيرًا من الداعين لا يستجاب لهم .

قلنا : روى عن النبى ﷺ أنه قال : " ما من مسلم دعا الله بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل

دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها" (١) ولأن قبول الدعاء شرطه الطاعة لله تعالى وأكل الحلال وحضور القلب وقت الدعاء، فمتى اجتمعت هذه الشروط حصلت الإجابة ولأن الداعي قد يعتقد مصلحته في الإجابة، والله تعالى يعلم أن مصلحته في تأخير ما سأل، أو في منعه، فيجيبه إلى مقصوده الأصلي وهو طلب المصلحة فيكون قد أجيب وهو يعتقد أنه منع عنه.

٤٧ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٦] ومعلوم أن ثلاثة وسبعة عشرة، ثم ما فائدة قوله : ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة: ٦] والعشرة لا تكون إلا كاملة، وكذا جميع أسماء الأعداد لا تصدق على أقل من المذكور ولا على أكثر منه ؟

قلنا : فائدة قوله : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ ﴾ أن لا يتوهم أن الواو بمعنى «أو» كما في قوله : ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ﴾ [النساء: ٣] وألا تحل التسع جملة، فنفي قوله : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ ﴾ ظن وجوب أحد العددين فقط، إما الثلاثة في الحج أو السبعة بعد الرجوع، وأن يعلم العددين من جهتين جملة وتفصيلاً فيؤكد العلم به ونظيره فذلّة الحساب، وتصنيف الكتاب، وأما قوله تعالى : ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ فتأكيد كما في قوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أو معناه كاملة في الثواب مع وقوعها بدلا عن الهدى أو في وقوعها موقع المتابع من تفرقها، أو في وقوعها موقع الصوم بمكة مع وقوع بعضها في غير مكة، فالحاصل أنه كمال وصفًا لا ذاتًا.

٤٨ - فإن قيل : ما فائدة تكرار الأمر بالذكر في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَقَضْتُم مِّنْ

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده (١٠٧٠٩) وابن أبي شيبة (٢٤/٧) والحاكم في المستدرک (٣٦٣/٤).

عَرَفْتِ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَكُنَّ ﴿ [البقرة: ١٩٨] ؟

قلنا : إنما كرهه تنبيهًا على أنه أراد ذكرًا مكرراً ، لا ذكرًا واحدًا ، بل مرة بعد أخرى ، ولأنه زاد في الثاني فائدة أخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ كَمَا هَدَكُنَّ ﴾ .
يعنى : اذكروه بأحدثه كما ذكركم بهديته ، أو إشارة إلى أنه أراد بالذكر الأول :
الجمع بين الصلاتين بمزدلفة ، وبالثانى الدعاء بعد الفجر بها فلا تكرر .

٤٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ [البقرة: ١٩٨] إلى أن قال : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩] وأراد به الإفاضة من عرفات بلا خلاف ، وبعد المجيء إلى المزدلفة والذكر فيها مرتين كما فسرنا كيف يفيضون من عرفات ؟

قلنا : فيه تقديم وتأخير تقديره ، من ربكم ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، فإن أفضتم من عرفات .

٥٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] ومعلوم أن المتعجل التارك بعض الرمى إذا لم يكن عليه إلا إثم لا يكون عليه المتأخر الآتى بالرمى كاملاً ؟

قلنا : كان أهل الجاهلية فريقين منهم من جعل المتعجل آثماً ، ومنهم من جعل المتأخر آثماً ، فأخبر الله تعالى بنفى الإثم عنهما جميعاً ، أو معناه لا إثم على المتأخر فى تركه الأخذ بالرخصة مع أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، أو أن معناه أن انتفاء الإثم عنهما موقوف على التقوى لا على مجرد الرخصة أو العزيمة فى الرمى ، ثم قيل : المراد به تقوى المعاصى فى الحج ، وقيل : تقوى المعاصى بعد الحج فى بقية العمر بالوفاء بها عاهد الله تعالى عليه بعرفة وغيرها من مواقف الحج من التوبة والإنابة ، والمشكل فى هذه الآية قوله

تعالى : ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [البقرة: ٦] والتعجيل المرخص فيه إنما هو التعجيل في اليوم الثاني من أيام التشريق ، فكيف ذكر لفظ اليومين وأراد بهما اليوم الثاني فقط .

٥١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ وهو يدل على أنها كانت إلى غيره كقولهم : رجع إلى فلان عبده ومنصبه ؟

قلنا : هو خطاب لمن كان يعبد غير الله وينسب أفعاله إلى سواه ، أخبرهم أنه إذا كشف لهم الغطاء يوم القيامة ردوا ما أضافوه لغيره بسبب كفرهم وظلمهم ، ولأن «رجع» يستعمل بمعنى «صار» و«وصل» كقولهم : رجع على من فلان مكروه ، قال الشاعر :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضُوئِهِ
يَحْوَرُ مَاذَا بَعْدَ إِذْ هُوَ ساطِعُ

ولأنها كانت إليه قبل خلق عبيد ، فلما خلقهم ملكهم بعضها خلافة نيابة ، ثم رجعت إليه بعد هلاكهم ، ومنه قولهم تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ [غافر: ٦] وقوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَ ذَلِكَ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦] وإنما قال : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] ولم يقل إليه وإن كان قد سبق ذكره مرة ، لقصد التعميم والتعظيم ، وذلك في الإيجاز والاختصار .

٥٢ - فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال في قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٥] فإنهم سألوا عن بيان ما ينفقون وأجبوا عن بيان المصروف ؟

قلنا : فد تضمن قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ [البقرة: ٢١٥] بيان ما ينفقونه وهو كل خير ، ثم زيد على الجواب بيان المصروف ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَبِيسَينَكَ يٰمُوسَى ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ ۖ ﴾ [طه: ١٧، ١٨] الآية ، وقوله عليه

الصلاة والسلام وقد سئل عن الوضوء بهاء البحر : «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» (١).

٥٣ - فإن قيل : كيف جاء : ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ثلاث مرات بغير واو : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ ثم جاء ثلاث مرات بالواو : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ - وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى - وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ ؟

قلنا : لأن سؤلهم عن الحوادث الأول وقع متفرقا ، وعن الحوادث الأخر ، وقع في وقت واحد ، فجاء بحرف الجمع دلالة على ذلك .

٥٤ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧] وعزمهم الطلاق مما يعلم ، لا مما يسمع ؟

قلنا : الغالب أن العزم على الطلاق وترك الفىء لا يخلو عن مقالة ودمدمة (٢) وإن خلا عنها ، فلا بد له أن يحدث نفسه ويناجيها بما عزم عليه ، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله تعالى كما يسمع وسوسة الشيطان .

٥٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ولا حق للنساء في الرجعة ، و "أفعل" يقتضى الاشتراك ؟

قلنا : المراد أن الزوج إذا أراد الرجعة وأبت وجب إثارة قوله على قول لأن لها حقا في الرجعة .

٥٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا﴾ [البقرة: ٢٢٨] والزوج أحق بالرجعة سواء أراد الإصلاح أو الإضرار بها بتطويل

(١) صحيح : أبو داود (٨٣) ، والترمذي (٦٩) ، وصححه الألباني .

(٢) دمدمة : من دمدم أى غضب ، والدمدمة : الكلام الذى يزعج ، لسان العرب (٢٠٦/١٢) .

قلنا : المراد أن الرجعة أصوب وأعدل إن أراد الزوج الإصلاح ، وتركها أصوب وأعدل إن أراد الإضرار .

٥٧ - فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ ؟

قلنا : المراد بالآية الأولى أمانة العقوبة مع بقاء الأجل ، وبالآية الثانية الإماتة بانتهاء الأجل ، نظيره قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ ﴾ لأنها كانت إماتة عقوبة ، أو كان إحياءهم آية لنبيهم على ما عرف في قصتهم ، فصار كإحياء العزيز حين مر على قرية وآيات الأنبياء نواذر مستثناة ، فكان المراد بالآية الموتة التي ليست بسبب آية نبي من الأنبياء أو إحياء قوم موسى آية له أيضا ، فكان هذا جوابا عاما ، مع أن في أصل السؤال نظرا لأن الضمير في قوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ ﴾ للمتقين وقوله : ﴿ فِيهَا ﴾ للجنات ، على ما يأتي بيانه في سورة الدخان إن شاء الله تعالى على وجه يندفع به السؤال من أصله .

٥٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ ﴾ والله تعالى لا يؤتى ملكه أحدا ؟

قلنا : المراد بهذا الملك السلطنة والرئاسة التي أنكروا إعطاءها لطالوت ، وليس المراد بأنه يعطى ملكه لأحد ، لأن سياق الآية يمنعه .

٥٩ - فإن قيل : كيف قال في الماء : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ولم يقل : ومن لم يشربه ، والماء مشروب لا مأكول ؟

قلنا : طعم بمعنى أكل وبمعنى ذاق ، والذوق هو المراد هنا وهو يعم .

من غرائب آي التنزيل

٢٧

٦٠ - فإن قيل : كيف خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية ؟

قلنا : لما أوتيا من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة مع الكتابين العظيمين المشهورين .

٦١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وفي يوم القيامة شفاعاة الأنبياء وغيرهم بدليل قوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْفَعُ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبا: ٢٣] ؟

قلنا : هذه الآيات لا تدل على وجود الشفاعاة يوم القيامة ، بل تدل على أنه لا توجد ولا تنفع من غير إذنه ، ولا توجد لغير مرضى عنده ، وهذا لا ينافي نفى وجودها ، بل المنافي له الإخبار عن وجودها لا الإخبار عن إمكان وجودها ، ولو سلم ، فالمراد به نفى شفاعاة الأصنام والكواكب التي كانوا يعتقدونها ، ولهذا عرّض بذكر الكفار بقوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقيل : المراد أنه لا شفاعاة في إثم ترك الواجبات ، لأن الشفاعاة في الآخرة في زيادة الفضل لا غير ، والخطاب مع المؤمنين في النفقة الواجبة وهي الزكاة .

٦٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] على وجه الحصر ، وغيرهم ظالم أيضًا ؟

قلنا : لأن ظلمهم أشد ، فكأنه لا ظالم إلا هم ، نظيره : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

٦٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] بلفظ المضارع ، ولم يقل أخرجهم بلفظ الماضي والإخراج قد وجد ، لأن الإيـان قد وجد ؟

قلنا : لفظ المضارع فيه دلالة على استمرار ذلك الإخراج من الله تعالى في الزمان والمستقبل في حق من آمن بزيادة كشف الشبه ومضاعفة الهداية ، وفي حق من لم يؤمن ممن قضى الله أنه سيؤمن بابتداء الهداية ، وزيادتها أيضًا ، ولفظ الماضي لا يدل على هذا المعنى .

٦٤ - فإن قيل : متى كان المؤمنون في ظلمات الكفر ، والكافرون في نور الإيـان ليخرجوا من ذلك ؟

قلنا : الإخراج يستعمل بمعنى المنع عن الدخول ، يقال : لمن امتنع عن الدخول في أمر : خرج منه وأخرج نفسه منه ، وإن لم يكن دخل فيه ، فعصمة الله تعالى المؤمنين على الدخول في ظلمات الضلال إخراج لهم منها ، وتزيين قرناء الكفار لهم الباطل الذي يصدونهم به عن الحق إخراج لهم من نور الهدى ولأن إيـان رؤساء أهل الكتاب بالنبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يظهر كان نوراً لهم ، وكفرهم به بعد ظهوره خروج منه إلى ظلمات الكفر ، ولأنه لما ظهرت معجزاته عليه الصلاة والسلام كان موافقه ومتبعه خارجاً من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومخالفه خارجاً من نور العلم إلى ظلمات الجهل .

٦٥ - فإن قيل : كيف انتقل إبراهيم عليه السلام إلى حجة أخرى وعدل عن نصره الأولى ، مع أنه لم ينقطع بها عارضه به نمرود من قتل أحد المحبوسين وإطلاق الآخر ، فإن إبراهيم عليه السلام ما أراد هذا الإحياء والإماتة ؟

قلنا : إما لأنه رأى خصمه قاصر الفهم عن إدراك معنى الإحياء والإماتة التي أضافها إبراهيم إلى الله حيث عارض معارضة لطيفة وعمى عن اختلاف

من غرائب آي التنزيل ٢٩

المعنيين ، أو لأن علم أنه فهم الحجة ، لكنه قصد التمويه والتلبيس عن اتباعه وأشياعه ، فعدل إبراهيم إلى أمر ظاهر يفهمه كل أحد ، ولا يقع فيه تمويه ولا تلبيس .

٦٦ - فإن قيل : كيف طبع الله على قلبه فلم يعارضه بالعكس في طلوع الشمس؟

قلنا : لأنه لو عارض به لم يأت الله بها من المغرب ، لأن ذلك أمانة قيام الساعة فلا يوجد إلا قريباً من قيامها ، ولأنه وأتباعه كانوا عالمين أن طلوعها من المشرق سابق على وجوده ، فلو ادعاه لكذبوه .

٦٧ - فإن قيل : كيف قال عزيز عليه السلام منكرًا مستبعدًا : ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٧] وهو نبي ، والنبي لا تخفى عليه قدرة الله تعالى على إحياء قرية خربة وإعادة أهلها إليها؟

قلنا : ما قاله منكرًا مستبعدًا لعظيم قدرة الله تعالى ، بل متعجبًا من عظيم قدرته تعالى ، أو طلبًا لرؤية كيفية الإعادة ، لأن : ﴿أَنِّي﴾ بمعنى «كيف» أيضًا: وقد نقل عن مجاهد : أن المارّ على القرية القائل ذلك كان رجلًا كافرًا شاكًا في البعث ، وإن كان الأول وهو المشهور .

٦٨ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿أَوْكُتُّومِن﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقد علم أنه أثبت الناس إيمانًا؟

قلنا : ليجيب بما أجاب به ، فتحصل به الفائدة الجليلة للسامعين من طلبه لإحياء الموتى .

٦٩ - فإن قيل : كيف يجوز أن يكون النبي غير مطمئن القلب بقدرة الله على إحياء الموتى حتى قال إبراهيم : ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] مع

أن قلبه مطمئن بقدره الله على الإحياء؟

قلنا : معناه ليطمئن قلبي بعلم ذلك عياناً كما اطمأن به برهاناً ، أو ليطمئن بأنك اتخذتني خليلاً ، أو بأنى مستجاب الدعوة ، ولقائل أن يقول على الوجه الأول كيف يزداد يقيناً بالمشاهدة ، وقد روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً لله » وإبراهيم صلوات الله عليه وسلامه أعظم رتبة وأجل ، وجوابه أن علياً أراد بذلك قوة يقينه قبل العيان ، حتى كأن الزيادة الحاصلة له بالعيان يسيرة لا يعتد بها .

٧٠ - فإن قيل : فما فائدة قوله : ﴿ فَصْرُهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أى فضمهن ، ولفظ الأخذ مغن عنه ؟

قلنا : الفائدة فيه تأملها ومعرفة أشكالها وصفاتها ، لئلا يلتبس عليه بعد الإحياء فيتوهم أنه غيرها .

٧١ - فإن قيل : كيف مدح الله التيقن بترك المنّ ، ونهى عن المن أيضاً مع أنه وصف نفسه بالمنان في نحو قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ؟

قلنا : من : بمعنى أعطى ، ومنه المنان في صفات الله تعالى ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوَمَّ إِسْدًا ﴾ [ص: ٣٩] وقوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] أى أنعم عليهم ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ بَدَّدَ ﴾ [محمد: ٤] أى إنعاماً بالإطلاق من غير عوض ، ومنّ بمعنى اعتد بالنعمة وذكرها واستعظمها وهو المذموم .

٧٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧] من القسم الثانى .

قلنا : ذلك اعتداد بنعمة الإيوان ، فلا يكون قبيحاً ، بخلاف نعمة المال؛

من غرائب أي التنزيل ٣١

ولأنه يجوز أن يكون من صفات الله تعالى ما هو مدح في حقه ذم في حق العبد كالجبار والمتكبر والمنتقم ونحو ذلك .

٧٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] ثم قال : ﴿ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] ؟ قلنا : لما كان النخيل والأعناب أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما ، وإن كان فيها غيرهما تغليبا لهما وتفصيلاً .

٧٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣] يدل بمفهومه على أنهم كانوا يسألون الناس برفق ، فكيف قال : ﴿ يَخْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ؟

قلنا : المراد به نفى السؤال والإلحاف جميعاً كقوله تعالى : ﴿ لَا ذُلٌّ لِّثِيْرِ الْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٧١] وكقول الأعشى (١) :

لا يغمز الساق من أين ولا وصب

معناه ليس بساقه أين (٢) ولا وصب (٣) فغمزها .

٧٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الزُّبْرَى ﴾ [البقرة: ٢٧٥] الآية ، ألحق الوعيد بأكمله مع أن لابسه ومدخره وواهبه أيضاً في الإثم سواء ؟

قلنا : لما كان أكثر الانتفاع والهمم بالمال إنما هو الأكل لأنه مقصود لا غناء عنه ولا بد منه ، عبر عن أنواع الانتفاع بالأكل كما يقال : أكل فلان ماله كله ، إذا أخرجته في مصالح الأكل وغيره .

(١) هو الأعشى ميمون بن قيس من كبار الشعراء .

(٢) أين : تعب .

(٣) وصب : مرض .

٧٦ - فإن قيل : كيف خص الأكل بذكر الوعيد دون المطعم ، وكلاهما آثم ؟

قلنا : لأن انتفاعه الدنيوى بالربا أكثر من انتفاع المطعم .

٧٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ، والكلام إذ ذاك في الربا ومقصودهم تشبيهه بالبيع ، فقياسه «إنما الربا مثل البيع» في حله ؟

قلنا : جاؤوا بالتمثيل على طريق المبالغة ، وذلك أنه بلغ من اعتقادهم استحلال الربا أنهم جعلوه أصلاً في الحل والبيع فرعاً كقولهم : القمر كوجه زيد ، والبحر ككفه ، إذ أرادوا المبالغة .

٧٨ - فإن قيل : كيف قلتم : إن أهل الكبائر لا يخلدون في النار ، وقد قال الله تعالى في حق آكل الربا : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ؟

قلنا : الخلود يستعمل بمعنى طول البقاء وإن لم يكن بصفة التأيد ، يقال : خلد الأمير فلاناً في الحبس إذا أطل حبسه ، أو أن قوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى ما عاد إلى استحلال الربا بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥] بعد نزول آية التحريم ، وذلك يكون كافراً ، والكافر مخلد في النار .

٧٩ - فإن قيل : إنظار المعسر فرض بالنص ، والتصدق عليه تطوع ، فكيف قال : ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٠] ؟

قلنا : كل تطوع كان محصلاً للمقصود من الفرض بوصف الزيادة كان أفضل من الفرض ، كما أن الزهد في الحرام فرض وفي الحلال تطوع والزهد في الحلال أفضل كما بينا كذلك هنا .

من غرائب آي التنزيل = ٣٣

٨٠ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿يَدِّينَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وقوله تعالى : ﴿تَدَايَنُورٌ﴾ [البقرة: ٢٨٠] مغن عنه؟

قلنا : فائدته رجوع الضمير إليه في قوله تعالى : ﴿فَأَكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٠] إذا لو لم يذكره لقال : فاكْتُبُوهُ الدين ، فالأول أحسن نظماً ، أو لأن التداين مشترك بين الإقراض والمبايعة وبين المجازاة ، وإنما يميز بينهما بفتح الدال وكسرها ومنه قوله تعالى : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أى الجزاء : ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢] ، فذكر الدين ليتعين أى المعنيين هو المراد .

٨١ - فإن قيل : كيف شرط السفر في الارتهان بقوله : ﴿وإن كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [البقرة: ٢٨٣] الآية ، وجواز الرهن لا يختص بالسفر ؟

قلنا : لم يذكره لتخصيص الحكم به ، بل لما كان السفر مظنة عوز الكاتب ، والشاهد الموثوق بهما أمر على سبيل الإرشاد لحفظ مال المسافرين بأخذ الرهان .

٨٢ - فإن قيل : ما فائدة ذكر القلب في قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُ زَعَاثُرٌ لِّقَلْبِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٣] مع أن الجملة هي الموصوفة بالإثم ، لا القلب وحده ؟

قلنا : كتمان الشهادة هو أن يضمها ولا يتكلم بها ، فلما كان ذلك إثماً مقترناً بالقلب ومكتسباً له أسند إليه ، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ : كما يقال : هذا ما أبصرت عيني ، وسمعت أذني ، ووعاه قلبي .

٨٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وإن تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وما يحدث به الإنسان نفسه لا يَأْثُم به ما لم يفعله ؛ إما لأنه لا يمكن الاحتراز عنه في الوسع والطاقة ، أو بالحديث المشهور فيه ؟

قلنا : قيل : أريد بالآية للعموم ، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقيل : لا نسخ فيه لأنه خبر لا أمر أو نهى ، بل العموم غير مراد ، وإنما المراد ما يمكن الاحتراز عنه ، وهو العزم القاطع والاعتقاد الجازم ، لا مجرد حديث النفس والوسوسة ، ولأنه أخبر عن المحاسبة لا عن المعاقبة ، فهو يوم القيامة يخبر العباد بما أبدوا وما أخفوا ليعلموا إحاطة علمه بجميع ذلك ، ثم يغفر لمن يشاء فضلاً ، ويعذب من يشاء عدلاً ، كما أخبر في الآية .

٨٤ - فإن قيل : أى شرف للرسول في مدحه بالإيمان مع أنه في رتبة الرسالة ودرجتها ، وهى أعلى من درجة الإيمان ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

قلنا : فائدته أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الإيمان حيث مدح به خواصه ورسله ، ونظيره في سورة الصفات قوله تعالى في خاتمة ذكر كل نبي : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصفات: ٨١] .

٨٥ - فإن قيل : روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ : " ملائكته وكتابه " فستل عن ذلك ، فقال : كتاب أكثر من كتب ، فما وجهه ؟

قلنا : قيل فيه ، إنه أراد أن الكتاب جنس والكتب جمع ، والجنس أكثر من الجمع لأن حقيقته في الكل على ما ذهب إليه بعضهم ، ويرد على هذا أن يقال : الكلام في الجمع المضاف ، والمفرد المضاف للاستغراق عرفاً وشرعاً كقوله لعبده : أكرم أصدقائي ، وأمن أعدائي ، وقوله : زوجاتي طوالق وعبيدى أحرار ، بخلاف قوله : صديقى وعدوى ، وعبد وامراتى ، فظهر أن الجمع المضاف أكثر .

٨٦ - فإن قيل : قوله : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] كيف قال ذلك مع أن : ﴿ بَيْنَ ﴾ [البقرة: ٦] لا تضاف إلا إلى اثنين فصاعداً ، فكيف

قال : ﴿ لَا تَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ؟

قلنا : ﴿ أَحَدٌ ﴾ هنا بمعنى الجمع الذى هو آحاد كقوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ [الحاقة: ٤٧] فإنه ثم بمعنى الجمع بدليل قوله تعالى : ﴿ حَاجِزِينَ ﴾ فكأنه قال : لا نفرق بين آحاد من رسله ، كقولك : المال بين آحاد الناس ، ولأن : أحداً يصلح للمفرد المذكر والمؤنث ، وتثنيتهما وجمعهما نفياً وإثباتاً ، تقول : ما رأيت أحداً إلا بنى فلان ، أو إلا بنات فلان سواء ، وتقول : إن جاءك أحد بكتابى فأعطه وديعتى ، يستوى فيه الكل ، فالمعنى لا نفرق بين اثنين منهم أو بين جماعة منهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَنْسَاءَ الَّتِي لَسْتُ كَأَحَدٍ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] .

٨٧ - فإن قيل : من أين دل قوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] على أن الأول فى الخير ، والثانى فى الشر ؟

قلنا : قيل هو من كسبت واكتسبت ، فإن الأول للخير والثانى للشر ، وليس بدليل ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ﴾ [النساء: ١١٢] وقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] وقوله : ﴿ أَوْ يُوقَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ ﴾ [الشورى: ٣٤] وقوله : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ [الشورى: ٢٣] والافتراق والاكْتِسَابُ بمعنى واحد ، وقيل : هو من اللام وعلى ، وليس بدليل أيضاً لقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَحْسَنَهُ أَحْسَنُهُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَاؤُكُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧] وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٧] اللهم إلا أن يدعى أن اللام وعلى عند الإطلاق يقتضيان ذلك ، أو لأنها يستعملان لذلك عند تقاربهما كما فى هذه الآية لا نفرق بين ذكر الحسنة والسيئة ، أو الحسن والقبيح ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ أطلقه وأراد به الشر ، بدليل ما بعده ، وقولهم : الدهر يومان ، يوم لك ويوم عليك ، وقولهم : فلان يشهد لك

وفلان يشهد عليك ، ويقول الرجل لصاحبه : هذا الكلام حجة عليك لا لك
قال الشاعر :

على أننى راضٍ بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا على ولا ليا

وأما قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦]
وإن كان مقيدًا إلا أن فيه دلالة أيضًا من جهة «اللام» و «على» لأن القيد
شامل لطرفيه.

*** ** *

سورة آل عمران

٨٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [آل عمران: ٦] ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣] ؟

قلنا : لأن القرآن أنزل منجماً ، والتوراة والإنجيل نزلا جملة واحدة ، كذا أجاب الزمخشري وغيره ، ويرد عليه قوله تعالى ، بعد ذلك : ﴿ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٤] فإن الزمخشري ^(١) قال : أراد به جنس الكتب السماوية لا الثلاثة المذكورة خصوصاً ، أو أراد به الزبور ، أو أراد به القرآن ، وكرر ذكره تعظيماً ، ويرد عليه قوله تعالى عليه أيضاً قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٧] وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [البقرة: ٤] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢] والذي وقع لى فيه ، والله أعلم أن التضعيف في نزل والهمزة في أنزل كلاهما للتعدي ، لأن نزل فعل لازم في نفسه ، وإذا كانا للتعدي لا يكونان لمعنى آخر ، وهو التكثير أو نحوه ، لأنه لا نظير له ، وإنما جمع بينهما والمعنى واحد وهو التعدي جرياً على عادة العرب في افتتاحهم في الكلام وتصرفهم فيه على وجوه شتى ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وقال في موضع آخر : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الرعد: ٧] .

٨٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري اللغوى المتضلع في علوم النحو والبلاغة والتفسير ، وكان على مذهب المعتزلة وله تأليف عديدة أشهرها الكشاف ، وهو في تفسير القرآن .

ومن التبعض ، وقال في موضع آخر : ﴿ كِتَبُ أَخْكَمَتْ ءَايَتُهُ ﴾ [هود:١] وهذا يقتضى كون جميع آياته محكمة ؟

قلنا : المراد بقوله : ﴿ مِنْهُ ءَايَتٌ مُّخَكَّمَتٌ ﴾ [آل عمران:٧] أى : ناسخات : ﴿ وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَةٌ ﴾ [آل عمران:٧] أى : منسوخات ، وقيل : المحكمات العقلية ، والمتشابهات الشرعية ، وقيل : المحكمات ما ظهر معناها ، والمتشابهات ما كان في معناها غموض ودقة ، والمراد بقوله : ﴿ كِتَبُ أَخْكَمَتْ ءَايَتُهُ ﴾ [هود:١] أن جميع القرآن صحيح ثابت ، مصون عن الخلل والزلل ، فلا تنافى .

٩٠ - فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿ وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَةٌ ﴾ [آل عمران:٧] جعل بعضه متشابهًا وقال في موضع آخر : ﴿ كِتَبًا مُتَشَبِّهًا ﴾ [الزمر:٢٣] وصفه كله بكونه متشابهًا ؟

قلنا : المراد بقوله : ﴿ وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَةٌ ﴾ [آل عمران:٧] ما سبق ذكره ، والمراد بقوله : ﴿ كِتَبًا مُتَشَبِّهًا ﴾ [الزمر:٢٣] أنه يشبه بعضه بعضًا في الصحة وعدم التناقض وتأيد بعضه بعضًا ، فلا تنافى .

٩١ - فإن قيل : ما فائدة إنزال المتشابهات بالمعنى الأخير ، والمقصود من إنزال القرآن إنما هو البيان والهدى ، والغموض والدقة في المعانى ينافى هذا المقصود أو يبعده ؟

قلنا : لما كان الكلام للعرب ينقسم إلى ما يفهم معناه سريعًا ولا يحتمل غير ظاهره ، وإلى ما هو مجاز وكتابة وإشارة وتلويح : والمعانى فيه متعارضة متزاحمة ، وهذا القسم هو المستحسن عندهم والمستبدع في كلامهم ، نزل القرآن بالنوعين تحقيقًا لمعنى الإعجاز ، كأنه قال : عارضوه بأى النوعين شئتم فإنه جامع لهما ، وأنزله الله عز وجل محكمًا ومتشابهًا ليختبر من يؤمن بكلمه ، ويرد علم ما تشابه

منه على الله فيثبته ، ومن يرتاب فيه ويشك وهو المنافق فيعاقبه ، كما ابتلى عباده بنهر طالوت وغيره ، أو أراد أن يشتغل العلماء برّد المتشابه إلى المحكم ، بالنظر والاستدلال والبحث والاجتهاد فيثابون على هذه العبادة ، ولو كان كله ظاهراً جلياً لاستوى فيه العلماء والجهال ، ولما ت الخواطر بعدم البحث والاستنباط ، فإن نار الفكر إنما تقدح بزناد المشكلات ، ولهذا قال بعض الحكماء : عيب الغنى أنه يورث البلادة ويميت الخاطر ، وفضيلة الفقر أنه يبعث على أعمال الفكر واستنباط الحيل في الكسب .

٩٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْغَيْنِ ﴾ [آل عمران: ١٣] أى: ترى الفئة الكافرة الفئة المسلمة مثلى عدد نفسها ، أو بالعكس على اختلاف القولين ؛ وكيفما كان فهو منافٍ لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٤٤] لأنه يدل على أن الفئتين تساوتا في استقلال كل واحدة منهما للأخرى ، فكل منهما ترى الأخرى قليلة ؟

قلنا : التقليل والتكثير في حالين مختلفين ، قلل الله المشركين في نظر المؤمنين أولاً ، والمؤمنين في نظر المشركين حتى اجترأت كل فئة على قتال صاحبها ، فلما التقتا كثر الله المؤمنين في نظر المشركين ، حتى جبنوا وفشلوا فغلبوا ، وكثر الله المشركين في نظر المؤمنين أو أراهم إياهم على ما هم عليه ، وكانوا في الحقيقة أكثر من المؤمنين ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى وكانوا في الحقيقة أكثر من المؤمنين ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى بقوله : ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ [الأنفال: ٦٦] الآية ، فإن المؤمنين غلبوهم في هذه الغزاة وهى غزاة بدر ، مع أنهم كانوا أضعاف عدد المؤمنين وقيل : أرى الله المسلمين المشركين مثل عدد المسلمين ، وكانوا ثلاثة أمثالهم لكنه قللهم في أعين المسلمين ، وأراهم

إياهم بقدر ما أعلمهم أنهم يغلبونهم لتقوى قلوبهم بما سبق من الوعد أن المائة من المؤمنين يغلبون المائتين منهم .

٩٣ - فإن قيل : ما الفائدة تكرار قوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٦٠] في قوله : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] ؟

قلنا : الأول : قول الله عز وجل ، والثاني حكاية قول الملائكة وأولى العلم ، وقال جعفر الصادق ^(١) رحمه الله تعالى ، الأول : وصف ، والثاني تعليم أى قولوا واشهدوا كما شهدت .

٩٤ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ في قوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَتَوْا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣] والتولى والإعراض واحد كما سبق في البقرة ، فلم جمع بينهما ؟

قلنا : معناه ، يتولون عن الداعى ويعرضون عما دعاهم إليه ، وهو كتاب الله ، أو يتولون بأبدانهم ويعرضون عن الحق بقلوبهم ، أو كلتا : الذين تولوا علمائهم والذين أعرضوا أتباعهم .

٩٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] خص الخير بالذكر وبيده تعالى الخير والشر والنفع والضرر أيضًا ؟

قلنا : لأن الكلام إنما ورد ردًا على المشركين فيما أنكروه مما وعد الله تعالى به نبيه ﷺ ، على لسان جبريل عليه السلام مع فتح بلاد الروم وفارس ووعد

(١) هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب لقب بالصادق لأنه لم يعرف بالكذب قط .

من غرائب آي التنزيل = ٤١

النبي ﷺ الصحابة بذلك ، فلما كان الكلام في الخير خصه بالذكر باعتبار الحال ، أو أراه الخير والشر فاكتمى بأحدهما لدلالته على الآخر ، كقوله تعالى : ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْخَرَّ﴾ وإنما خص الخير بالذكر ، لأنه المرغوب فيه المطلوب للعباد من الله تعالى .

٩٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] وإيلاج الشيء في الشيء يقتضى اجتماع حقيقتيهما بعد الإيلاج ، كإيلاج الخيط من الإبرة والإصبع في الخاتم ونحوهما ، وحقيقة الليل والنهار لا يجتمعان ؟

قلنا : الإيلاج قد يكون كما ذكرتم ، وقد يكون مع تبدل صفة أحدهما بغلبة صفة الآخر عليه مع بقاء ذاته فيه ، كإيلاج يسير من خبز في لبن كثير أو بالعكس ، فإن الحقيقتين مجتمعتان ذاتا وصفة إحداهما غالبية على الأخرى ، كذلك الليل والنهار إذا كان الليل أربع عشرة ساعة بالنسبة إلى زمن الاعتدال ، ففيه من النهار ساعتان قطعا ، وكذا على العكس ، أو معناه يولج زمن الليل في زمن النهار وبالعكس ، أو يولج الليل في النهار وبالعكس باعتبار أن ليل قوم هو نهار آخرين ، وبالعكس ، أو معناه أنه خلق ليلاً صرفاً خالصاً ، وخلق ما هو ممتزج منهما وهو ما قبيل طلوع الشمس : وقبيل غروبها والجواب الثالث والرابع يعمان جميع السنة .

٩٧ - فإن قيل : ما فائدة قوله : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦] وهو معلوم من غير ذكر ؟

قلنا : فائدته اعتذارها عما قالتة ظناً ، فإنها ظنت أن ما في بطنها ذكر ، ولهذا نذرت أن تجعله خادماً لبيت المقدس ، وكان من شريعتهم صحة هذا النذر في الذكور خاصة ؛ فلما وضعت أنثى استحييت حيث خاب ظنها ولم يتقبل نذرها ،

فقالت ذلك معتذرة ، تعنى ليست الأنثى بصالحة لما يصلح له الذكر فى خادمة المسجد ، لا أنها أرادت أن الأنثى ليست كالذكر صورة أو قوة أو نحو ذلك ، فلما قالت ذلك منكراً خجلة من الله عليها بتخصيص مريم بقبولها فى النذر دون غيرها من الإناث فقال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

٩٨ - فإن قيل : المستعمل فى مثله إدخال حرف النفى على القاصر ، وحرف التشبيه على الكامل كقولهم : ليس كالذهب الفضة ، وليس العبد كالحر ، فوزانه ، وليس الأنثى كالذكر .

قلنا : لما كان جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً فى التشبيه فى حالة الإثبات يقتضى المبالغة فى المشابهة كقولهم : القمر كوجه زيد ، والبحر ككفه كان يجعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً فى حالة النفى يقتضى نفى المبالغة فى المشابهة لا نفى المشابهة ، وذلك هو المقصود هنا ، لأن المشابهة واقعة بين الذكر والأنثى فى أعم الأوصاف وأغلبها ، ولهذا يقاد أحدهما بالآخر ، وإنما أرادت أم مريم نفى المشابهة بينهما فى صحة النذرية خادماً للبيت المقدس لا غير ، فلذلك عكس ، الثانى : أن ذلك قوله تعالى ، والمعنى ليس الذكر الذى طلبت أن يكون خادماً للكنيسة كالأنثى التى وهبت لما علم الله من جعلها وابنها آية للعالمين ، وهو تفسير للتعظيم والتفخيم المجل فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ [آل عمران: ٣٦] وهى لا تعرف مقدار شرفه ، واللام فى الذكر والأنثى للعهد ، هذا كله قول الزخشرى وتماه فى الكشف .

وقال الفقيه أبو الليث ^(١) رحمه الله تعالى قال بعضهم : هذا قول الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام ، أى وليس الذكر كالأنثى يا محمد ، وقال بعضهم : هو من كلام أم مريم .

(١) هو نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى من أئمة الأحناف توفى فى ٣٧٣ .

من غرائب آي التنزيل = ٤٣

٩٩ - فإن قيل : كيف نادى الملائكة زكريا وهو قائم يصلى فى المحراب وأجابها وهو فى الصلاة ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَادَّاتُهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى ﴾ [آل عمران: ٣٩] الآية ؟

قلنا : المراد بقوله يصلى : أى يدعو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا ﴾ أى بدعائك .

١٠٠ - فإن قيل : ما فائدة تخصيص يحيى عليه السلام بقوله : ﴿ أَنْ اللَّهُ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٣٩] وكل واحد من المؤمنين مصدق بجميع كلمات الله تعالى ؟

قلنا : معناه مصدقا بعيسى الذى كان وجوده بكلمة من الله تعالى ، وهو قوله : ﴿ كُنْ ﴾ [آل عمران: ٦] من غير واسطة أب فى الوجود ، وكان تصديق يحيى بعيسى أسبق من تصديق كل أحد فى الوجود أو فى الرتبة .

١٠١ - فإن قيل : زكريا سأل الولد بقوله : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران: ٣٩] والله تعالى بشره بيحيى عليه السلام على لسان الملائكة ، فكيف أنكر بعد هذا كله قدرة الله تعالى على إعطائه الولد حتى قال : ﴿ رَبِّ أَنْىَ يُكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠] ؟

قلنا : إنما قاله على سبيل الاستفهام والنعجب من عظيم قدرته تعالى ، لا على طريق الإنكار والاستبعاد ، أو اشتبه عليه كيف يعطى الولد وهو شيخ وامرأته عاقر ، أو تزول عنهما هاتان الصفتان لكشف الحال وتقديره ، أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، ولقائل أن يقول : آخر الآية لا يناسب هذا الجواب .

١٠٢ - فإن قيل : ما فائدة تكرار ذكر الاصطفاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ؟

قلنا : الاصطفاء الأول ، العبادة التى هى خدمة البيت المقدس وتخصيصها بقبولها فى النذر مع كونها أنثى ، والاصطفاء الثانى ، لولادة عيسى عليه السلام ، أو أعيد ذكر الاصطفاء ليفيد بقوله : ﴿ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٤] فيندفع بأنها مصطفاة على الرجال .

١٠٣ - فإن قيل : كيف نفى حضور النبى عليه الصلاة والسلام فى زمن مريم بقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَنُكَلِّمُهُمُ ﴾ [آل عمران: ٤٤] الآية ، وذلك معلوم عندهم لاشك فيه ، وترك نفى استماعه ذلك الخبر من حفاظه ، وهو الذى كانوا يتوهمونه ؟

قلنا : كان معلوماً أيضاً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل القراءة والرواية ، وكانوا منكرين للوحى فلم يبق إلا المشاهدة والحضور ، وهى فى غاية الاستحالة ، فنفيت على طريق التهكم بالمنكرين للوحى مع علمهم أنه لا قراءة له ولا رواية ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْقُرْبِيِّ ﴾ [القصص: ٤٤] ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ﴾ [القصص: ٤٦] .

١٠٤ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ والخطاب مع مريم ، وهى تعلم أن الولد الذى بشرت به يكون ابنها .

قلنا : لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب ، فلا ينسب إلا إلى أمه .

١٠٥ - فإن قيل : أى معجزة لعيسى عليه الصلاة والسلام فى تكليم الناس كهلا وأى خصوصية له فى هذا حتى قال : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ [آل عمران: ٤٦] ؟

قلنا : معناه ويكلم الناس فى هاتين الحالتين بكلام الأنبياء من غير تفاوت

بين حال الطفولية وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل وينبأ فيها الأنبياء فكأنه قال : ويكلم الناس في المهد كما يكلمهم كهلاً ، وقال الزجاج : هل خرج مخرج البشارة لمريم أنه عليه الصلاة والسلام سيبقى إلى زمن الكهولة فهو بشارة لها بطول عمره ، وقيل : المقصود منه أن الزمان يؤثر فيه كما يؤثر في غيره ، وينقله من حال إلى حال ، ولو كان إلهاً لم يجز عليه التغيير .

١٠٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى ﴾ [آل عمران: ٥٥] والله تعالى رفعه ولم يتوفه؟

قلنا : لما هدده اليهود بالقتل بشره الله بأنه إنما يقبض روحه بالوفاة لا بالقتل ، والواو لا تفيد الترتيب ، فلا يلزم من الآية موته قبل رفعه .

الثاني : أن فيه تقديمًا وتأخيرًا ، أى أنى رافعك ومتوفيك .

والثالث : أن معناه : قابضك من الأرض تامًا وافيًا في أعضائك وجسدك ، لم ينالوا منك شيئًا ، من قولهم : توفيت حقى على فلان ، إذا استوفيته تامًا وافيًا .

الرابع : أن معناه : إنى متوفيك في نفسك بالنوم من قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] ورافعك إلى . وأنت نائم حتى لا تخاف ، بل تستيقظ ، وأنت في السماء .

١٠٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وآدم خلق من التراب وعيسى خلق من الهواء ، وآدم خلق من غير أب وأم وعيسى خلق من أم .

قلنا : المراد به التشبيه في وجوده بغير واسطة أب ، والتشبيه لا يقتضى المماثلة من جميع الوجوه ، بل من بعضها .

١٠٨ - فإن قيل : كيف خص أهل الكتاب بأن منهم أمينًا وخائنًا بقوله :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران: ٧٥] الآية،
والمسلمون وغيرهم من أهل الملل كذلك ، منهم الأمين والخائن ؟

قلنا : إنما خصهم باعتبار واقعة الحال ، فإن سبب نزول الآية أن عبد الله
ابن سلام أودع ألفاً ومائتى أوقية من الذهب فأدى الأمانة فيها ، وفنحاص بن
عازوراء أودع ديناراً فخانه ، ولأن خيانة أهل الكتاب المسلمين تكون عن
استحلال بدليل آخر الآية ، بخلاف خيانة المسلم المسلم فلذلك خصهم
بالذكر .

١٠٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا

وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران: ٨٣] وأكثر الجن والإنس كفرة ؟

قلنا : المراد بهذا الاستسلام الانقياد لما قضاه الله عليهم وقدره من الحياة
والموت والمرض والصحة والشقاء والسعادة ، ونحو ذلك .

١١٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ تَرْدَادُ كُفْرًا

لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ [آل عمران: ٩٠] ومعلوم أن المرتد وإن ازداد ارتداده كفرًا فإنه
مقبول التوبة ؟

قلنا : الآية نزلت في قوم ارتدوا ، ثم أظهروا التوبة بالقول لستر أحوالهم
والكفر في ضمائرهم ، قاله ابن عباس ، وقيل : نزلت في قوم تابوا من ذنوبهم
غير الشرك ، وقيل معناه : لن تقبل توبتهم وقت حضور الموت .

١١١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ [آل

عمران: ٩٦] وكم من بيت بنى قبل الكعبة من زمن آدم إلى زمن إبراهيم عليه
السلام .

قلنا : معناه إن أول بيت وضع قبله للناس ومكان عبادة لهم ، أو وضع

مباركاً للناس ، أو لأن ابن عباس قال : أول ما بناه آدم عليه السلام لما هبط من السماء أوحى الله تعالى إليه ، ابن لى بيتاً فى الأرض ، واصنع حوله نحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ، فبناه وجعل يطوف حوله .

١١٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولم يقل : أنتم خير أمة ؟

قلنا : معناه كنتم فى سابق علم الله أو كنتم يوم أخذ الميثاق على الذرية فأراد الإعلام بكون ذلك صفة أصلية فيهم لا عارضة متجددة ، أو معناه خلقتهم ووجدتم ، فهى كان التامة ^(١) ، وخير أمة نصب على الحال ، وتام الكلام فى ﴿ كَانَ ﴾ يذكر فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَدْحَةً وَمَقْتًا ﴾ .

١١٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَوْ أَمَّنْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ ولا يصح أن يقال : هذا خبر من ذلك إلا إذا كان فى كل واحد منهما خير ، مع أن غير الإيمان لا خير فيه حتى يقال : إن الإيمان خير منه ؟

قلنا : معناه إيمانهم بمحمد ﷺ مع إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام ، خير من إيمانهم بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فقط .

١١٤ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ [آل عمران: ١١٧] الآية ، والمقصود تشبيه نفقة الكفار وأموالهم فى تحصيل المفاخر وطلب الصيت والسمعة ، أو ما ينفقونه فى الطاعات مع وجود الكفر ، أو ما ينفقونه فى عداوة رسول الله ﷺ بالزرع الذى أصابته ريح شديدة البرد فأهلكته فضاع ولم ينتفع به ، والتشبيه فى الحقيقة بالزرع وفى لفظ الآية بالريح ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صر ، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح ، ونظيره فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ

(١) أى تكفى بمرفوعها ويعرب فاعلاً مثل : أجلس حيث يكون الهدوء .

أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴿ [البقرة: ٢٦١] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾ [آل عمران: ١٧١] الآية ، وقال ثعلب (١) : فيه تقديم وتأخير تقديره : كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم أصابته ريح فيها صر فأهلكته.

١١٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنْ تَسْأَلْهُمْ حَسَنَةً تَسْأَلْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] فوصف الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة ؟

قلنا : المس مستعار بمعنى الإصابة توسعة في العبارة ، وإلا فكان المعنى واحداً ، ألا ترى إلى قوله تعالى في الفريقين : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٥] وقوله : ﴿ إِنْ الْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [آل عمران: ٦] .

١١٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والنبى عليه أفضل التحية يقول : «العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن» (٢) ؟

قلنا : قد استثنى النبى ﷺ خمسة مواضع فقال : «ألا في التوبة من الذنب ، وقضاء الدين الحال ، وتزويج البكر البالغ ، ودفن الميت وإكرام الضيف إذا نزل» (٣) والمسارعة المأمور بها في الآية هي المسارعة إلى التوبة وما في معناها من أسباب المغفرة .

١١٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] عطف عليه بكلمة «أو» وفعل الفاحشة داخل في ظلم النفس ،

(١) هو العباس أحمد بن يحيى إمام الكوفيين في النحو واللغة وسمى ثعلباً لأنه كان عند إجابته للمسائل يجيب عنها من كل الوجه .

(٢) ضعيف الإسناد : رواه الترمذي (١٩٣٥) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٥٥٤) والبيهقي في الكبرى (١/ ١٠٤) .

(٣) إسناده ضعيف : الحلية (٨/ ٧٨) .

بل هو أبلغ أنواع ظلم النفس ؟

قلنا : أريد بالفاحشة نوع من أنواع ظلم النفس وهو الزنى أو كل كبيرة فخص بهذا الاسم تنبيهها على زيادة قبحه ، وأريد بظلم النفس ما وراء ذلك من الذنوب .

١١٨ - فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال في موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧] وقال : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ [الجاثية: ١٤] ؟

قلنا : معناه ومن يستر الذنوب من جميع الوجوه إلا الله ، ومثل هذا الغفران لا يوجد إلا من الله .

١١٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَفَأَنْزِلَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وهلا اقتصر على قوله : ﴿ أَفَأَنْزِلَ مَاتَ ﴾ وكان القتل يدخل فيه فإنه موت ؟

قلنا : القتل وإن كان موتاً لكن إذا أطلق الميت في العرف لا يفهم منه المقتول ، فلذلك عطف أحدها على الآخر .

١٢٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَمَنْ يَعْلَلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١] وقال في موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٤] ؟

قلنا : معناه يأتي به مكتوباً في ديوانه ، أو يأتي به حاملاً إثمه ، ومعنى فرادى : متفردين عن الأموال والأهل ، أو عن الشركاء في الغنى ، أو عن الآلهة المعبودة من دون الله ، وتام الآية يشهد للكل .

١٢١ - فإن قيل : قد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ " أن الغال يأتي يوم القيامة حاملاً عين ما غله على عنقه ، صامتاً كان أو ناطقاً " (١) ، هذا معنى

الحديث ، فاندفع الجواب ؟

قلنا : على هذا يكون المراد بالآية الأخرى فرادى عن مال وأهل يعتزون بهما ويستنصرون ، ويشهد بصحته تمام الآية .

١٢٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ هُمُ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] والعبيد ليسوا نفس الدرجات ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، هم ذوو درجات ، أو أهل درجات ، فحذف المراد بعدم الإلباس ، وقيل : المراد بالدرجات الطبقات ، فلا يكون فيه إضمار ، معناه أنهم طبقات عند الله متفاوتون كتفاوت الدرجات .

١٢٣ - فإن قيل : كيف يجعل لكل الفريقين درجات وأحد الفريقين لهم دركات لا درجات ؟

قلنا : الدرجات تستعمل في الفريقين بدليل قوله تعالى في سورة الأحقاف بعد ذكر الفريقين : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأحقاف: ١٩] وتحقيقه أن بعض أهل النار أخف عذابا ، فمكانه فيها أعلى ، وبعضهم أشد عذابا ومكانه فيها أسفل ، ولو سلم اختصاص الدرجات بأهل الدرجات كان قوله : ﴿ هُمُ دَرَجَتٌ ﴾ راجعا إليهم خاصة تقديره ، أفمن اتبع رضوان الله وهم درجات عند الله كمن باء بسخط من الله وهم دركات ، إلا أنه حذف البعض للدلالة المذكور عليه .

١٢٤ - فإن قيل : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] كانوا في زمن النبي ﷺ ، قالوا ذلك لما سمعوا قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فكيف قال : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ ﴾ [آل عمران: ١٨١] أى ونكتب قتلهم الأنبياء ، وهم لم يقتلوا نبيا قط ؟

قلنا : لما رضوا بقتل أسلافهم الأنبياء كأنهم باشروا ذلك فأضيف إليهم ،

وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيراً .

١٢٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وظلام صيغة مبالغة من الظلم ، ولا يلزم من نفى الظلام نفى الظالم ، وعلى العكس يلزم ، فهلا قال : ليس بظالم ليكون أبلغ في نفى الظلم عن ذاته المقدسة ؟

قلنا : صيغة المبالغة مجيء بها لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] وقال : ﴿ عَلِيمُ الْغُيُوبِ ﴾ [الأنعام: ٧٣] و ﴿ عَلَّمَ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨] لما أفرد المعمول لم يأت بصيغة المبالغة ، ونظيره قولهم : زيد ظالم لعبده ، وعمر ظالم لعبيده ، فهما في الظلم سيان ، وكذلك قال الله تعالى : ﴿ مُخَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ [الفتح: ٢٧] فشدد لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل ، أو الصيغة هنا للنسب أى لا ينسب إليه ظلم ، فالمعنى ليس بذى ظلم .

الثانى : أن العذاب من العظيم القدر ، الكثير العدل لولا سبق الجناية يكون أفحش وأقبح من الظلم ممن ليس عظيم القدر كثير العدل ، فيطلق عليه اسم الظلام باعتبار زيادة قبح الفعل منه لا باعتبار تكرره ، فحاصله أن صيغة المبالغة تارة تكون باعتبار زيادة ذات الفعل ، وتارة باعتبار صفته ، ففعل الظلم لو وجد من الله تعالى وتقدس لكان أعظم من ألف ظلم يوجد من عبيده ، باعتبار زيادة وصف القبح ؛ ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] على ما يأتى بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

١٢٦ - فإن قيل : فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [آل عمران: ٨٤] من حق الجزاء أن يتعقب الشرط ، وهذا سابق له ؟

قلنا : جواب الشرط محذوف ، إذ لا يصلح قوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ

قِيلَ ﴿[آل عمران: ١٨٤] جواباً لأنه سابق عليه ، ومعناه : وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل قبلك ، وضْعاً للسبب ، وهو تكذيبهم موضع المسبب ، وهو التأسى بهم .

١٢٧ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْمُونُ﴾ في قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْمُونُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] والأول مغن عن الثاني ؟

قلنا : معناه ليبينه في الحال ، ويدومون على ذلك البيان ، ولا يكتُمونه في المستقبل ، والثاني أن الضمير الأول للكتاب ، والثاني لنعت النبي ﷺ وذكره ، فإنه قد سبق ذكر النبي ﷺ قبيل هذا .

١٢٨ - فإن قيل : متى بينوا الكتاب لزم من بيانه بيان صفة النبي ﷺ وذكره ، لأنه من جملة الكتاب الذي هو التوراة والإنجيل ، فقوله بعد ذلك لا يكتُمونه تكرار .

قلنا : على هذا يكون تأكيداً .

١٢٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وقال في موضع آخر : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨] ويلزم من هذا أن لا يدخل المؤمنين النار ، كما قالت المعتزلة والخارجية ؟

قلنا : أخزيت به معنى أذلته وأهنته من الخزي وهو الذل والهوان ، وقوله : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨] من الخزية وهى النكال والفضيحة فكل من يدخل النار يذل ، وليس كل من يدخلها ينكل به ويفضح ، أو المراد بالآية الأولى إدخال الإقامة والخلود ، لا إدخال تحلة القسم المدلول عليها بقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] أو إدخال

من غرائب آي التنزيل ٥٣

التطهير الذى يكون لبعض المؤمنين بقدر ذنوبهم ، وقيل : إن قوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [آل عمران: ٦٠] كلام مبتدأ غير معطوف على ما قبله .

١٣٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [آل عمران: ١٩٣] والمسموع نداء المنادى ، لا نفس المنادى ؟

قلنا : لما قال . مناديا ينادى . صار تقديره : نداء مناد ، كما يقال : سمعت زيدا يقول كذا ، أى سمعت قول زيد ، فمناديا مفعول سمع ، وينادى حال دالة على محذوف مضاف للمفعول .

١٣١ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وتكفير السيئات داخل فى غفران الذنوب ؟
قلنا : المعنى مختلف ، لأن الغفران مجرد فضل ، والتكفير محو السيئات بالحسنات .

١٣٢ - فإن قيل : ما فائدة قولهم : ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] مع أنهم لا ينفعهم توفيتهم مع الأبرار ، بل النافع لهم كونهم من الأبرار ، سواء توفاهم معهم أو قبلهم أو بعدهم ؟

قلنا : معناه وتوفنا مخصوصين بصحبتهم ، معدودين فى جملتهم ، كما يقال : أعطانى الأمير مع أصحاب الخلع الجوائز ، أى جعلنى من جملتهم ، وإن تقدم إعطاؤه عنهم أو تأخر .

١٣٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَعَدْتُنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] أى : على لسان رسلك دعوه بإنجاز الوعد مع علمهم ، وقولهم أيضا : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ ؟

قلنا : الوعد من الله تعالى على السنة الرسل للمؤمنين عام يحتمل أن يراد به

الخصوص ، كما في أكثر عمومات القرآن ، فسألوا الله تعالى أن يجعلهم من الداخلين في حكم الوعد ، الثانى أنهم سألوا تعجيل النصر الذى وعدوا ، فإنه تعالى وعدهم النصر على أعدائهم غير مؤقت بوقت خاص .

١٣٤ - فإن قيل : كيف يجوز أن يغتر الرسول بنعم الذين كفروا حتى نهى عن الاغترار بقوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ [آل عمران: ١٩٦] أى تصرفهم فيها بالتجارات متنعين ؟

قلنا : معناه لا يغرنكم أيها المؤمنون ، فإن رئيس القوم ومقدمهم يخاطب بشىء ، والمراد به أتباعه وجماعته ، الثانى أنه عليه الصلاة والسلام كان غير مغتر بحالهم ، ف قيل له ذلك تأكيداً وتشبيهاً على الدوام عليه ، كما قيل له : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهْرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ [الفصص: ٨٦] ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٤] ﴿ فَلَا تَطْعَمْهُمُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [القلم: ٨] .

١٣٥ - فإن قيل : كيف ينهى عن التقلب وهو مما ليس ينهى عنه ؟

قلنا : معناه لا تغتر بتقلبهم ، فيكون تقلبهم قد غرك ، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب ، لأن تقلبهم لو غره لاغتر به فمنع السبب وهو غرور تقلبهم إياه ، ليمتنع المسبب وهو اغتراره بتقلبهم .

١٣٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ [آل عمران: ١٩٦] ولم يقل : لا يغرنك نعمهم وأموالهم ، والذى يحتمل أن يغتر الرسول والمؤمنين النعم والأموال لا التقلب في البلاد ؟

قلنا : المراد بتقلبهم تصرفهم في التجارات والنعم والتلذذ بالأموال ، والفقر إنما يتألم وينكسر قلبه إذا رأى الغنى يتقلب في النعمة ويتمتع بها فلذلك ذكر التقلب ، وقيل معناه : لا يغرنك تقلبهم في المعاصى غير مأخوذین بذنوبهم .

١٣٧ - فلن قيل : كيف قال : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩] مع أن قوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ موضع البشارة بالثواب ، وسرعة الحساب إنما تذكر في موضع التهديد والعقاب ؟

قلنا : معناه لا يشترطون بآيات الله ثمناً قليلاً خوفاً من حسابه ، فإنه سريع الحساب ، فهو راجع إلى ما قبله .

*** ** *

سورة قصة النساء

١٣٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١] إذا كانت حواء مخلوقة من آدم ، ونحن مخلوقون منه أيضًا ، تكون نسبة حواء إلى آدم نسبة الولد لأنها متفرعة منه ، فتكون أختنا لنا لا أمًا ؟

قلنا : قال بعض المفسرين : ﴿ مِنْ ﴾ [النساء: ٦] لبيان الجنس لا للتبعيض ، معناه : وخلق من جنسها زوجها كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

الثاني : وهو الذى عليه الجمهور أنها للتبعيض ، ولكن خلق حواء من آدم لم يكن بطريق التوليد كخلق الأولاد من الآباء ، فلا يلزم منه ثبوت البنوة والأختية فيها .

١٣٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَءَاتُوا آلَ يَتِيمَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٢] واليتيم لا يعطى ماله حتى يبلغ اتفاقًا ؟

قلنا : المراد به إذا بلغوا ، وإنما سموا يتامى لقرب عهدهم بالبلوغ باعتبار ما كان ، كما تسمى الناقة عشاء بعد الوضع ، وقد يسمى البالغ يتيمًا باعتبار ما كان ، كما يسمى الحى ميتًا والعنب خمرًا باعتبار ما يكون ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مِيتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال : ﴿ إِنِّي أَرَبُّنِي أَعِصْرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف: ٣٦] ومنه قولهم للنبي عليه الصلاة والسلام بعد ما نبأه الله : يتيم أبى طالب .

١٤٠ - فإن قيل : أكل مال اليتيم حرام وحده ومع أموال الأوصياء ، فلم ورد النهى مخصوصًا عن أكله معها لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى

أَمْوَالِكُمْ ﴾ [النساء: ٢] أى معها ؟

قلنا : لأن أكل مال اليتيم مع الاستغناء عنه أقبح ، فلذلك خص بالنهاي لأنهم كانوا يأكلونه مع الاستغناء عنه ، فجاء النهي عن ما وقع منهم .

١٤١ - فإن قيل : لما قال : ﴿ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ [النساء: ٧] دخل

فيه الكثير والكثير ، فما فائدة قوله : ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ [النساء: ٧] ؟

قلنا : إنما قال ذلك على جهة التأكيد والإعلام أن كل تركة تجب قسم لثلاث يتهاون بالقليل من التركات ويحتقر ، فلا يقسم ، وينفرد به بعض الورثة .

١٤٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَا يُؤْيِهْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ

كَانَ لِرَّوْلَدٍ ﴾ [النساء: ١١] مع أنه لو كان الولد بنتاً فللأب الثلث ؟

قلنا : الآية وردت لبيان الفرض دون التعصيب ، وليس للأب أو البنت بالفرض إلا السدس .

١٤٣ - فإن قلنا : كيف قطع على العاصي الخلود في النار بقوله : ﴿ وَمَنْ

يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ١٤] ؟

قلنا : أراد به من يعصي الله برد أحكامه وجحودها وذلك كفر ، والكافر يستحق الخلود في النار .

١٤٤ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ ﴾ [النساء: ١٥] والتوفى

والموت بمعنى واحد ، فصار كأنه قال : حتى يميتهن الموت ؟

قلنا : معناه حتى يتوفاهن ملائكة الموت ، الثانى معناه : حتى يأخذهن ملائكة الموت وتتوفى أرواحهن .

١٤٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٧] ولم يقل :

إنما التوبة على العبد ، مع أن التوبة واجبة على العبد ؟

قلنا : معناه إنها قبول التوبة على الله بحذف المضاف .

الثانى : أن معنى التوبة من الله رجوعه على العبد بالمغفرة والرحمة ، لأن التوبة فى اللغة الرجوع .

١٤٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ بَجَهَالَةٍ ﴾ [النساء: ١٧] ولو عمله بغير جهالة ثم تاب قبلت توبته منه ؟

قلنا : معناه بجهالة بقدر قبح المعصية وسوء عاقبتها ، لا بكونها معصية أو ذنباً ، كل عاص جاهل بذلك حال مباشرة المعصية ، معناه أنه مسلوب كمال العلم به بسبب غلبة الهوى وتزيين الشيطان .

١٤٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ تُرِيدُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ٦] مع أنهم لو تابوا بعد الذنب من بعيد قبلت توبتهم ؟

قلنا : ليس المراد بالقرب مقابل البعيد إذ حكمها واحد ، بل معناه قبل معاينة سلطان الموت ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، بقرينة قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ ﴾ [النساء: ١٨] .

١٤٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَءَاتَيْنَهُنَّ قِنطَارًا ﴾ [النساء: ٢٠] الآية ، مع أن حرمة الأخذ ثابتة وإن لم يكن قد أعطاها المهر ، بل كان فى ذمته أو فى يده ؟

قلنا : المراد بالإتياء الضمان والالتزام كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا سَلَّمْتُمَا ۖءَاتَيْنَا ۖ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أى : ما غنمتم والتزمتم .

١٤٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتَانًا ﴾ [النساء: ٢٠] وأخذ مهر المرأة ظلم وليس بيهتان ، لأن البهتان الكذب ؟

قلنا : ابن عباس وابن قتيبة قالوا : المراد بالبهتان الظلم ، وقال الزجاج : إن

المراد به الباطل ، والمشهور في كتب اللغة أن البهتان أن يقول الإنسان على غيره ما لم يفعله ، قالوا : فالمراد به أن الرجل ربما رمى امرأته بتهمة ليتوهم بذلك إلى أن يأخذ منها مهرها ويفارقها ، وقيل : المراد به إنكاره أن لها مهرًا في ذمته .

١٥١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] نهى عن المستقبل ، وإلا ما قد سلف ماض ، فكيف يصح استثناء الماضي والمستقبل ؟

قلنا : قيل إن : ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى «بعُد» كما في قوله تعالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦] وقيل : هو استثناء من محذوف تقديره : فإنكم تعذبون به إلا ما قد سلف ، وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره : إنه كان فاحشة إلا ما قد سلف .

١٥٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢] بلفظ الماضي ، مع أن منكوحة الأب فاحشة في الحال وفي الاستقبال إلى يوم القيامة ؟ قلنا : «كان» تارة تستعمل للماضي المنقطع كقوله : كانت زيد غنيًا وكان الخنزف طينًا ، وتارة تستعمل للماضي المستمر المتصل للحال كما أبى جندب الهذلي :

وَكُنْتُ إِذَا جَارَى دَعَا لِمُضَوْفِهِ أَشْمُرُ حَى يَنْصِفُ السَّاقَ مِثْرِي

أى وإنى الآن ، لأنه إنها يمتدح بصفة ثابتة له في الحال زائلة ذاهبة ، والمضوفة بالفاء : الأمر الذى يشفق منه ، والقاف تصحيف ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧، ٤٠] أشبه ذلك ، وما نحن فيه من هذا القبيل ، وسيأتى الكلام في «كان» بعد هذا إن شاء الله في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] .

١٥٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَرَبِّدْبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] قيد التحريم بكون الربيبة في حجر زوج أمها ، والحرمة ثابتة مطلقاً ، وإن لم تكن في حجره ؟

قلنا : أخرج ذلك مخرج العادة والغالب ، لا مخرج الشرط والقيد ، ولهذا نفى في موضع الإحلال بنفى الدخول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمُوهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] فتأمل .

١٥٤ - فإن قيل : لما قال : ﴿ مِنْ نِسَائِكُمُ أَلَّتِي دَخَلْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء: ٢٣] ثم قال في آخر الآية : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ [النساء: ٢٤] علم من مجموع ذلك أن الربيبة لا تحرم إذا لم يدخل فما فائدة قوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمُوهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] ؟

قلنا : فائدته أن لا يتوهم أن قيد الدخول خرج مخرج العادة والغالب خروج الشرط كما في الحجر .

١٥٥ - فإن قيل : كيف قال في نكاح الإماء : ﴿ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ [النساء: ٢٥] والمهر ملك المولى ، وإنما يجب تسليمه إلى المولى لا إلى الأمة ؟

قلنا : لما كانت الأمة وما في يدها ملك المولى كان أداؤها إليها كأدائه إلى المولى ، الثاني أن معناه : وآتوا مواليهن أجورهن بطريق حذف المضاف .

١٥٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٥] وجواز نكاح الأمة ثابت من غير خوف العنت عند بعض العلماء ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، ذلك الصواب وأصلح لمن خشى العنت منكم فيكون شرطاً لما هو الأرشد والأصلح ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ

من غرائب آي التنزيل
فيهِم خَيْرًا ﴿[النور: ٣٣] .

١٥٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] والإرادة إنها تقرر بأن يقال: يريد أن يفعل ، وقال الله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] ؟

قلنا : قد ورد في الكتاب العزيز اللام بمعنى «أن» كثيرا قال الله تعالى : ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [النساء: ٦] وقال الله تعالى : ﴿وَأَمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٧١] وقال تعالى في موضع آخر : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ [الصف: ٨] فكذلك هذا .

١٥٨ - فإن قيل : كيف خص التجارة بالذكر في قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] مع أن الهبة والصدقة والوصية والضيافة وغيرها تقتضى الحل أيضا كالتجارة .

قلنا : إنما خصها بالذكر ، لأن معظم تصرف الخلق في الأموال إنما بالتجارة ، أو لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها .

١٥٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢] قالوا : معناه أنهم يتمنون أن يجعلوا يوم القيامة ترابا كما جاء في آخر سورة النبأ ، وظاهر اللفظ أنهم يتمنون أن نجعل الأرض مثلهم ناسا ، كما تقول : سويت زيدا بعمر ، ومعناه جعلت زيدا وهو المسوى مثل عمرو وهو المسوى به .

قلنا : قولهم : سويت هذا بهذا له معنيان ، أحدهما إجراء حكم الثاني على الأول كقولك : سويت زيدا بعمر ، وكما تقول : ساويت .

والثاني : أن المسوى مفعولا والمسوى به آلة كقولك : سويت القلم بسكين والثوب بالمقراض ، بمعنى أصلحته به ، قلنا : فقوله : ﴿لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ﴾

الْأَرْضُ ﴿ [النساء: ٤٢] يحمل وجهين : أن يكون بمعنى ساوية ويكون من المقلوب : أى لو يسوون بالأرض يجعلهم تراباً كقوله تعالى : ﴿ لَتَسَوَّاهُ ﴾ [القصص: ٧٦] قوله : ﴿ وَأَمْسَحُوا بَرءُوسَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] في قول من لم يجعل الباء زائدة كقولهم : أدخلت الخاتم في إصبعي ونحوه ، وأن يكون بمعنى الآلة ، معناه : ودوا لو تمهد بهم الأرض وتوطد ، بأن يجعلوا تراباً وبيعثوا في وهادها وحضيضها لتساوى بقاعها وآكامها ، وقوله تعالى : ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٧] انخفاصاً ولا ارتفاعاً ، وإن كان يدل على أن الأرض يوم القيامة متساوية بالسطوح ، فجعلها متساوية السطوح إن كان قبل البعث ، فإذا بعث الموتى من قبورهم خلت منهم قبورهم وحفرهم ، فحصل في الأرض تفاوت ، وإن كان بعد البعث فيجوز أن يكون هذا التمنى سابقاً على جعلها متساوية السطوح .

١٦٠ - فإن قيل : قولنا هذا خير من ذلك ، يقتضى أن يكون في كل واحد منهما خير حتى يصح تفضيل أحدهما على الآخر ، لأن خير في الأصل أفعل تفضيل ، فكيف قال : ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ [النساء: ٤٦] بعد ما سبق من قولهم في أول الآية ؟

قلنا : المراد بالخير هاهنا الخير الذى هو ضد الشر ، لا الذى هو أفعل تفضيل كما تقول : في فلان خير .

١٦١ - فإن قلنا : كيف قال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧] والمفعول مخلوق ، وأمر الله وقوله غير مخلوق ؟

قلنا : ليس المراد بهذا الأمر ما هو ضد للنهى ، بل المراد به ما يحدث من الحوادث ، فإن الحادثة تسمى أيضاً أمراً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١] وقوله ﴿ أَتَنْهَأُ مَرْئَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ [يونس: ٢٤] .

١٦٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ٤٨] مع أن شرك الساهي والمكره والتائب مغفور ؟

قلنا : المراد به شرك غير هؤلاء المخصوص من عموم الآية بأدلة من خارج ، أو تقول : قيد المشيئة متعلق بالفعلين ، المنفى والمثبت ، كأنه قال : إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء ويغفر ما دونه لمن يشاء .

١٦٣ - فإن قيل : هذا الآية تدل على أن غير الشرك من الذنوب لا يقطع بانتفاء مغفرته ، بل ترجى مغفرته ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لَهُمْ فِيهِمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [النساء: ١٦٨] ، يدل على القطع بانتفاء المغفرة في الكفر والظلم وهما غير الشرك ، فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : المراد بالظلم هنا الشرك ، قال مقاتل ^(١) : والشرك يسمى ظلماً قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] فكأنه قال : إن الذين أشركوا ، الثانى أن قوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ليس قطعاً بالمغفرة لغير المشرك وهو تعليق للمغفرة له بالمشيئة ؛ ثم بين بالآية الأخرى أن الكافر ليس داخلاً فيمن يشاء المغفرة له ، فيتعين دخوله فيمن لا يغفر له لأنه لا واسطة بينهما ، الثالث : أنه عام خصص بالآية الثانية كما خصص قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] بالآية الأولى ، ويؤيد هذا إجماع الأمة على أن الكافر والمشرك سواء في عدم المغفرة والتخليد في النار ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [البينة: ٦] .

١٦٤ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُرُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكُرُونَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ذمهم على ذلك ، وقال أيضاً : ﴿ فَلَا تَزْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ (١) هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي أحد مشاهير المفسرين توفي ١٥٠هـ .

أَتَقَى ﴿ [النجم: ٣٢] وقد زكى النبي ﷺ نفسه فقال : «والله إنى لأمين فى السَّاءِ وأمين فى الأرض» ^(١) ، ويوسف عليه السلام قال : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] ؟

قلنا : إنما قال ذلك حين قال المنافقون : اعدل فى القسمة ، تكذيباً لهم حيث وصفوه بخلاف ما كان عليه من العدل والأمانة ، وأما يوسف عليه السلام فإنه إنما قال ذلك ليتوصل به إلى ما هو وظيفة الأنبياء ، وهو إقامة العدل وبسط الحق وإمضاء أحكام الله تعالى ، ولأنه علم أنه لا أحد فى ذلك الوقت أقوم منه بذلك العمل ، فكان متعيناً عليه ، فلذلك طلبه وأثنى على نفسه ، ومع ذلك كله فإنه روى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل : اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة» ^(٢) .

١٦٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَلَزَّرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١] إلى أن قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ حصر لعنته فيهم لأن هذا الكلام للحصر ، وليست لعنة الله منحصرة فيهم ، بل هى شاملة لجميع الكفار .

قلنا : قوله : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ [النساء: ٦] إشارة إلى القائلين للذين كفروا : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١] وهذا القول موجود من جميع الكفار ، فكانت اللعنة شاملة للجميع .

١٦٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمُ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

(١) البزار (٣٨٦٣) والطبراني (٩٨٩) وصححه الألباني فى صحيح الجامع الصغير (٢٢١٧) عن أبي رافع .

(٢) ضعفه الألباني فى السلسلة الضعيفة (٣٢٩) .

من غرائب آي التنزيل ٦٥

لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿ [النساء: ٥٦] أخبر أنه يعذب جلودهم التي لم تعص مكان الجلود العاصية ، وتعذيب البريء ظلم ؟

قلنا : الجلود المجردة وإن عذبت فالألم بتعذيبها إنما يحصل للقلوب ، وهي غير مجردة ، بل هي العاصية باعتقاد الشرك ونحوه .

الثاني : أن المراد بتبديلها إعادة النضيج غير نضيج ، والجلود هي الجلود بعينها ، وإنما قال غيرها باعتبار صفة النضيج وعدمه ، كما قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وأراد تبديل الصفات لا تبديل الذات ، وكما قال الشاعر :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت أعهد

١٦٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧] وليس

في الجنة شمس ليكون فيها حر يحتاج بسببه إلى ظل ظليل أو غير ظليل ؟

قلنا : هو مجاز عن المستقر المستلذ المستطاب ، جرياً على المتعارف بين الناس ، لأن بلاد الحجاز شديدة الحر ، فأطيب ما عندهم موضع الظل ، فخطابهم بما يعقلون ويفهمون ، كما قال عز وجل : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ٦٢] وليس في الجنة طلوع شمس ولا غروبها فيكون فيها بكرة وعشيا ، لكن لما كان في عرفهم تمام نعمة الغذاء وكمال وظيفته أن يكون حاضراً مهياً في طرفي النهار عبر عن حضوره وتهيته بذلك .

١٦٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩] وهذا مدح لمن يطيع الله والرسول ، وعادة العرب في صفات المدح الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، وهذا عكسه لأنه نزول من الأعلى إلى الأدنى ؟

قلنا : هذا ليس من الباب الذى ذكرتموه ، بل هو كلام المقصود منه الإخبار عن كون المطيعين لله ورسوله يكونون يوم القيامة مع الأشراف والخواص ، ثم كأن سائلاً سأل من الأشراف والخواص ، ففصلوا له زيادة فى الفائدة بعد تمام المعنى المقصود بالذكر بقوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء: ٦٩] وأتى فى تفصيلهم بذكر الأشراف فالأشرف والأخص فالأخص ، إذ هو الغالب فى تعديد الأشراف والخواص كما فى قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية ، الدليل على أن المراد من الآية الإخبار جملة لا تفصيلاً ، أنه لما علم عباده أن يسألوه هذا المعنى ، أرشدهم إلى طلبه مجملًا بقوله : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] .

١٦٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦] وقال فى كيد النساء : ﴿ إِنَّ كَيْدُكَ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] ومعلوم أن كيد الشيطان أعظم من كيد النسوان ؟

قلنا : المراد أن كيد الشيطان ضعيف فى جنب نصره الله وحفظ لأوليائه المخلصين من عباده ، كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَئِيسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال حكاية عن إبليس : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٤٠] والمراد بذلك الأخرى أن كيد النسوان عظيم بالنسبة إلى الرجال ، لثانى القائل : إن كيدكن عظيم هو عزيز مصر ، لأن الله تعالى ، فلا تناقض ولا معارضة .

١٧٠ - فإن قيل : كيف عاب على المشركين والمنافقين قولهم : ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ [النساء: ٧٨] ورد عليهم ذلك بقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨] ثم قال

من غرائب آي التنزيل ٦٧

بعد ذلك : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩] وأخبره بعين قولهم المردود عليهم ؟

قلنا : قيل إن الثانى حكاية قولهم أيضاً ، وفيه إضمار تقديره : ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٧٨] فيقولون : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ [النساء: ٧٩] الآية.

وقيل معناه : ما أصابك أيها الإنسان من حسنة ، أى رخاء ونعمة فمن فضل الله ، وما أصابك من سيئة ، أى قحط وشدة فبشؤم فعلك ومعصيتك لا بشؤم محمد عليه الصلاة والسلام كما زعم ، المشركون ، ويؤيد قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كُنْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ وَتَعَفُّوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] .

١٧١ - فإن قيل : كيف قيل : إن الشر والمعصية بإرادة الله ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩] ؟

قلنا : ليس المراد بالحسنة والسيئة الطاعة والمعصية ، بل القحط والرخاء والنصر والهزيمة على ما اختلف فيه العلماء ، ألا ترى أنه قال : ﴿ مَا أَصَابَكَ ﴾ ولم يقل ما علمت من سيئة .

١٧٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] السؤال فيه من وجهين : أحدهما أن يدل من حيث المفهوم على أن فى القرآن اختلافاً قليلاً ، وإلا لما كان للتقليد بوصف الكثرة فائدة ، مع أنه لا اختلاف فيه أصلاً ، الثانى أنه إنما يدل عدم الاختلاف الكثير فى القرآن على أنه من عند الله ، أن لو كان كل كتاب من عند غير الله فيه اختلاف كثير ، وليس الواقع كذلك ، لأن المراد من الاختلاف إما الكذب والتباين فى نظمه ، وإما التناقض فى معانيه ، أو التفاوت بين بعضه وبعضه من الجزالة والبلاغة والحكمة وكثرة الفائدة ؟

قلنا : الجواب عن السؤال الأول أن التقييد بوصف الكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة ، فكأنه قال : لو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فضلاً عن القليل ولكنه عند الله فليس فيه اختلاف كثير ولا قليل فكيف يكون من عند غير الله ، فهذا هو المقصود من التقييد بوصف الكثرة لأن القرآن مشتمل على اختلاف قليل ، وعن السؤال الثاني أن كل كتاب في فن من العلوم إذا كان من عند غير الله يوجد فيه اختلاف ما بأحد التفاسير المذكورة لا محالة ، يعرف ذلك بالاستقراء ، والقرآن جامع لفنون من علوم شتى ، فلو كان من عند غير الله لوجد فيه بالنسبة إلى كل فن اختلاف ما ، فيصير مجموع الاختلاف اختلافاً كثيراً .

١٧٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٨٣] استثنى القليل على التقدير انتفاء الفضل والرحمة ، مع أنه لولا فضله بالهداية والعصمة ورحمته لاتبع الكل الشيطان من غير استثناء ؟

قلنا : الاستثناء راجع إلى ما تقدم ، تقديره : أذاعوا به إلا قليلاً ، وقيل : لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً ، وقيل معناه : ولولا فضل الله عليكم بإرسال الرسل لاتبعتم الشيطان في الكفر والضلال ، إلا قليلاً منكم كانوا يهتدون بعقولهم إلى معرفة الله تعالى وتوحيده ، كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل ونحوهما قبل بعث النبي عليه الصلاة والسلام .

١٧٤ - فإن قيل : على الجواب الأخير إذا كان المراد أن من لوازم نفى الفضل والرحمة بالطريق الخاص ، وهو بإرسال الرسل ، اتباع الشيطان ، ونفى الفضل والرحمة بالطريق الخاص معلوم في حق الرسول ، لأنه لم يرسل إليه رسول ومع هذا لم يتبع الشيطان .

قلنا : لا نسلم لأنه لم يرسل إليه رسول ، بل أرسل إليه الملك وأنه رسول .
الثانى : التقييد فى الفضل والرحمة بتعيين الطريق يكون فى حق الأمة أما فى حق الرسل ومن آمن بغير رسول يكون اللفظ باقياً على ظاهره .

١٧٥ - فإن قيل : هذه الآية تقتضى وجود فضله ورحمته المانع من اتباع أكثر الناس للشيطان مع أن الواقع خلافه ، فإن أكثر الناس كفره ؛ يؤيده قوله ﷺ : «الإسلام فى الكفر كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود» (١) .
قلنا : الخطاب فى هذه الآية للمؤمنين لا لكل الناس .

١٧٦ - فإن قيل : إذا كان الخطاب خاصاً للمؤمنين ، فما معنى الاستثناء ، فإنه إن كان المراد به اتباعه فيما يدعو إليه ويوسوس من المعاصى فأكثر المؤمنين متبعون له فى ذلك ولو فى العمرة مرة واحدة فى بعض الكبائر ، وإن كان المراد به اتباعه فى دعائه إلى الكفر فأحد من المؤمنين لم يتبعه فى الكفر .

قلنا : معناه : ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون ورحمته بالهداية بالرسول ، لاتبعتم الشيطان فى الكفر وعبادة الأصنام وغير ذلك ، إلا قليلاً منكم كقس ابن ساعدة وورقة بن نوفل ونحوهما ، فإنهم لولا الفضل والرحمة بالرسول لما اتبعوا الشيطان لفضل ورحمة خصهم الله تعالى بها غير إرسال الرسول وهو زيادة الهداية ونور البصيرة .

١٧٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧] مع أنه لا تفاوت بين صدق وصدق فى كونه صدقاً كما فى القول والعلم ، لا يقال هذا القول أقول ولا هذا العلم أعلم ولا هذا الصدق أصدق لأن الصدق عبارة عن الإخبار المطابق للواقع ، ومتى ثبت أنه مطابق للواقع لا يحتمل الزيادة والنقصان ؟

قلنا : أصدق هنا صفة للقائل لا صفة للقول ، والقائلان يتفاوتان فى

الصدق في نفس الأمر وإن تساوى في قصة واحدة أخبرا بها وكان كل واحد منهما صادقاً فيها ، وحاصله أن هذا استفهام معناه النفي ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ومعناه : لا أحد يغفرها إلا الله ، فمعناه هنا ، لا أحد أصدق في حديثه من الله ، فيكون ترجيحاً للمحدث على المحدث في الصدق ، لا ترجيحاً لأحد الصديقين على الآخر ، ولا شك أنه لا أحد أصدق في حديث من الله لأن غيره يجوز عليه غير الصدق عقلاً ، ويقع منه أيضاً ولو نادراً ، والله تعالى منزّه عن الأمرين جميعاً .

١٧٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أَرْكَوْا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩١] يقال : ركسه وأركسه ، أى : رده ، فيصير معناه كلما ردوا إلى الفتنة ردوا فيها وهو تكرار .

قلنا : جوابه أن الفاعل مختلف فانتفى التكرار وصار المعنى : كلما دعاهم قومهم إلى الشرك ردهم الله إليه وقلبهم بشؤم نفاقهم ، فالرد الأول بمعنى الدعاء ، والركس بمعنى الرد والنكس .

١٧٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ﴾ [النساء: ٩٢] مع أنه ليس له أن يقتله خطأ ؟

قلنا : إلا بمعنى " ولا " وكما في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ١٠، ١١] وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٠] ، الثانى معناه أنه ليس له أن يقتله مع تيقن إيمانه ، بل له أن يقتله إذا غلب على ظنه أنه ليس بمؤمن ، وهو في صف المشركين وإن كان في نفس الأمر مؤمناً .

١٨٠ - فإن قيل : كيف يقال : إن أهل الكباثر من المؤمنين لا يخلدون في النار والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] ؟

قلنا : معناه متعمداً قتله بسبب إيمانه ، والذي يفعل ذلك يكون كافراً .

الثانى : أن المراد بالخلود طول المكث ، لأن الخلود إذا لم يكن بالأبدية يطلق على طول المكث ، كما يقال : خلد السلطان فلاناً فى الحبس ، إذا أطال حبسه .

١٨١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَلْعِيدِينَ دَرَجَةً ﴾ [النساء: ٩٥] ثم قال : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَلْعِيدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦] ؟

قلنا : المراد الأول التفضيل على القاعدين عن الغزاة بعذر ، فإن لهم فضلاً لكونهم مع الغزاة بالهمة والعزيمة والقصد الصالح ، وهذا قال : ﴿ وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِ ﴾ [النساء: ٩٥] يعنى الجنة ، أى من المجاهدين والقاعدين بعذر ، والمراد بالثانى التفضيل على القاعدين عن الغزاة بغير عذر ، وأولئك لا فضل لهم ، بل هم مقصرون ومسيئون ، فظهر فضل الغزاة عليهم بدرجات لانتفاء الفضل لهم .

١٨٢ - فإن قيل : كيف صح قولهم : ﴿ كُنَّا مُسْتَضَعِّفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء: ٩٧] جواباً لقول الملائكة : ﴿ فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ مع أنه ليس مطابقاً للسؤال ، والجواب المطابق أن يقولوا: كنا فى كذا أو لم نكن فى شىء ؟

قلنا : معنى فیم كنتم : التوبيخ بأنهم لم يكونوا فى شىء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا ، فصار قوله : ﴿ فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ مجازاً عن قوله : لم تركتم الهجرة ؟ فقالوا : كنا مستضعفين ، اعتذار عما وبخوا به تعللاً ، فردت عليهم الملائكة ذلك بقولهم : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧] يعنى أنكم إن كنتم عاجزين عن الهجرة إلى المدينة لبعدها عليكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد القريبة منكم التى تقدرון فيها على إظهار دين الإسلام .

١٨٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠] أى وجب ، والعبد لا يستحق على مولاه أجراً ، لأنه ليس بأجير له ، إنما هو عبد قن ؟ قلنا : معناه وجب من جهة أنه وعد عباده أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، والخلف فى وعده عز وجل محال ، فالوجوب من هذه الجهة ، مع أن ذلك الوعد ابتداء فضل منه .

١٨٤ - فإن قيل : كيف شرط فى إباحة القصر للمسافر خوف العدو بقوله : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء: ١٠١] الآية ، والقصر جائز مع أمن المسافر ؟ قلنا : خرج ذلك مخرج الغالب لا مخرج الشرط ، وغالب أسفار رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأصحابه لم تخل من خوف العدو ، فصار نظير قوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ٢٣] .

الثانى : أن الكلام قد تم عند قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ وقوله : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ ﴾ كلام مستأنف ، وجوابه محذوف تقديره ، فاحتاطوا أو تأهبوا .

الثالث : أن المراد به القصر من شروطها وأركانها حالة اشتداد الخوف بترك الركوع والسجود والنزول عن الدابة واستقبال القبلة ونحو ذلك ، لا من عدد الركعات ، وذلك القصر مشروط بالخوف .

١٨٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنْ الصَّلَاةُ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣] وكان لفظ دالاً على المعنى ، والصلاة فى الحال وإلى يوم القيامة أيضاً على المؤمنين فرض مؤقت ؟

قلنا : ﴿ كَانَ ﴾ فى القرآن العزيز على خمسة أوجه : كان بمعنى الأزل والأبد كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٤] ، وكان بمعنى المضى المنقطع كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ [النمل: ٤٨] وهو الأصل فى معانى كان كما تقول : كان زيد صالحاً أو فقيراً أو مريضاً ونحو ذلك ،

وكان بمعنى الحال كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣] . وكان بمعنى الاستقبال كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧] . وكان بمعنى : صار كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [النساء: ١٠٤] .

١٨٦ - فلان قيل : كيف قال : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤] والكافرون أيضًا يرجون الثواب في محاربة المؤمنين ، لأنهم يعتقدون أن دينهم حق ، وأنهم ينصرون دين الله ويذبون عنه ، ويقاتلون أعداءه ، كما يعتقد المؤمنون ، فالرجاء مشترك ؟

قلنا : قيل : إن الرجاء هنا بمعنى الخوف كما في قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ [الجاثية: ١٤] .

وقول الشاعر :

﴿ إِذَا لَسَعْتَهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لِسْعَهَا ﴾^(١)

وعلى قول من قال إنه بمعنى الأمل نقول : قد بشر الله المؤمنين في القرآن ووعدهم بإظهار دينهم على الدين كله ، ومثل هذه البشارة والوعد لم يوجد في سائر الكتب فافترقا ، وقيل : الرجاء ما يكون مستندًا إلى سبب صحيح ومقدمات حقه ، والطمع ما يكون مستندًا إلى خلاف ذلك ، فالرجاء للمؤمنين ، وأما الكافرون فلهم طمع لا رجاء .

١٨٧ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا ﴾ [النساء: ١١] وظلم النفس من عمل السوء ، فلم لم يقتصر على

(١) أي لم يهتم بلسعها .

الأول مع أن الثاني داخل فيه ؟

قلنا : أو بمعنى الواو فمعناه ويظلم بذلك السوء حيث دساها بالمعصية ، وقيل : المراد بعمل السوء التلبس بها دون الشرك ، ويظلم النفس الشرك ، وقيل : المراد بعمل السوء الذنب المتعدى ضرره إلى الغير ، ويظلم النفس : الذنب المقتصر ضرره على فاعله .

١٨٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ [النساء: ١١٣] ظاهره نفى وجود الهم منهم بإضلاله ، والمنقول في التفاسير أنهم هموا بإضلاله ، وزادوا على الهم الذي هو القصد القول المضل أيضاً يعرف ذلك من تفسير أول القصة وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۖ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦] ؟

قلنا : قوله : ﴿ لَهَمَّتْ ﴾ ليس جواب : ﴿ وَلَوْلَا ﴾ بل هو كلام مقدم على لولا ، وجوابها في التقدير مقول على طريق القسم ، وجواب : ﴿ وَلَوْلَا ﴾ محذوف تقديره : لقد همت طائفة منهم أن يضلوك ولولا فضل الله عليك ورحمته لأضلوك.

١٨٩ - فإن قيل : النجوى فعل ومن اسم ، فكيف صح استثناء الاسم من الفعل في قوله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ﴾ [النساء: ١١٤] ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : إلا نجوى من أمر بصدقة ، فيكون استثناء الفعل من الفعل ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ﴾ [البقرة: ١٧٧] تقديره : برّ من آمن بالله .

١٩٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ ﴾ [النساء: ١١٤] ثم قال :

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ ذَالِكَ﴾ [النساء: ١١٤] ؟

قلنا : ذكر الأمر بالخير ليدل على خيرية الفاعل بالطريق الأولى ، ثم ذكر الفاعل ووعدته الأجر العظيم إظهاراً لفضل الفاعل المؤتمر على الأمر ، الثاني أنه أراد : ومن يأمر بذلك ، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر أنواع الفعل ، وإذا كان الأمر موعوداً بالأجر العظيم كان الفاعل موعوداً به بطريق الأولى .

١٩١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِنَا إِلَّا اِنتِثَارٌ﴾ [النساء: ١١٧] أى ما يعبدون ، من دون الله إلا اللات والعزى ومناة ونحوها وهى مؤنثة ، ثم قال : ﴿وَأِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧] أى ما يعبدون إلا الشيطان ؟

قلنا : معناه أن عبادتهم للأصنام هى فى الحقيقة عبادة للشيطان ، إما لأنهم أطاعوا الشيطان فيما سول لهم وزين من عبادة الأصنام بالإغواء ، والإضلال ، أو لأن الشيطان موكل بالأصنام يدعو الكفار إلى عبادتهم شفاها ويتزيا للسنة فيكلمهم ليضلهم .

١٩٢ - فإن قيل : كيف يقال : إن العبد يحكم بكونه من أهل الجنة بمجرد الإيمان ، والله تعالى شرط لذلك العمل الصالح بظاهر قوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [النساء: ٥٧] وقوله : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤] وإلا لما كان للتقييد فائدة ؟

قلنا : قيل : إن المراد بالعمل الصالح الإخلاص فى الإيمان ، وقيل : الثبات عليه إلى الموت ، وكلاهما شرط فى كون الإيمان سبباً لدخول الجنة .

١٩٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]

والتائب المقبول التوبة غير مجزى بعمله ، وكذلك عن عمل سيئة ثم أتبعها حسنة ، لأنها مذهبها وماحية بنص القرآن؟

قلنا : المراد من يعمل سوءاً ويمت مصراً عليه ، فإن تاب منه لم يجز به ، والثاني أن المؤمن يجازى في الدنيا بما يصيبه فيها من المرض وأنواع المصائب ، والمحن كما جاء في الحديث ، والكافر يجازى في الآخرة .

١٩٤ - فإن قيل : كيف خص المؤمنين الصالحين بأنهم لا يظلمون بقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ [النساء: ١٢٤] الآية مع أن غيرهم لا يظلم أيضاً؟ قلنا : قوله : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤] راجع إلى الفريقين : عمال السوء وعمال الصالحات لسبق ذكر الفريقين .

الثاني : أن يكون من باب الإيجاز والاختصار فاكتفى بذكره عقب الجملة الأخيرة عند ذكر أحد الفريقين لدلالته على إضماره عقب ذكر الفريق الآخر ، ولا يظلم المؤمنون بنقصان أعمالهم ، ولا الكافرون بزيادة عقاب ذنوبهم .

الثالث : أن المراد بالظلم نفى نقصان ثواب الطاعات ، وهذا مخصوص بالمؤمنين ، لأن الكافرين ليس لهم على أعمالهم ثواب ينقص منه .

١٩٥ - فإن قيل : طلب الإيمان من المؤمنين تحصيل حاصل ، فكيف قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [النساء: ١٣٦] الآية ؟

قلنا : معناه : يا أيها الذين آمنوا بعيسى آمنوا بالله ورسوله محمد .

وقيل معناه : يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق آمنوا الآن .

وقيل معناه : يا أيها الذين آمنوا علانية آمنوا سراً .

١٩٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ [النساء: ١٤١] لم سمى ظفر

المؤمنين فتحا وظفر الكافرين نصيباً ؟

قلنا : تعظيماً لشأن المؤمنين وتحقيراً لحظ الكافرين ، لأن ظفر المسلمين أمر عظيم ، لأنه متضمن نصره دين الله وعزة أهله و تفتح له أبواب السماء ، حتى ينزل على أولياء الله ، وظفر الكافرين ليس إلا حظاً دنيئاً وعرضاً من متاع الدنيا يصيبونه وليس بمتضمن شيئاً مما ذكرنا .

١٩٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١] وقد نصر الكافرين على المؤمنين يوم أحد ، وفي غيره أيضاً إلى يومنا هذا ؟

قلنا : المراد به السبيل بالحجة والبرهان ، والمؤمنون غالبون بالحجة دائماً .

١٩٨ - فإن قيل : كيف كان المنافق أشد عذاباً من الكافر حتى قال الله تعالى في حقهم : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥] مع أن المنافق أحسن حالاً من الكافر ، بدليل أنه معصوم الدم وغيره محكوم عليه بالكفر ، ولهذا قال الله تعالى في حقهم : ﴿ مُدْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ فلم يجعلهم مؤمنين ولا كافرين ؟

قلنا : المنافق وإن كان في الظاهر أحسن حالاً من الكافر إلا أنه عند الله في الآخرة أسوأ حالاً منه لأنه شاركه في الكفر وزاد عليه الاستهزاء بالإسلام وأهله والمخادعة لله وللمؤمنين .

١٩٩ - فإن قيل : الجهر بالسوء غير محبوب لله تعالى أصلاً ، بل المحبوب عنده العفو والصفح والتجاوز فكيف قال : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ [النساء: ٦] ، أى إلا جهر من ظلم .

قلنا : معناه ولا جهر من ظلم ، فإن بمعنى : ﴿ وَلَا ﴾ قد سبق نظيره

وشاهد في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ [النساء: ٩٢] .

٢٠٠ - فإن قيل : كيف يجوز دخول «بين» على «أحد» في قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَفِرُّوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] وبين تقتضى اثنين فصاعدا ، يقال : فرقت بين زيد وعمر وبين القوم ، ولا يقال : فرقت بين زيد ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى : ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] وفي آخر سورة البقرة أيضا .

٢٠١ - فإن قيل : ما فائدة إعادة الكفر في الآية الثانية بقوله تعالى : ﴿وَكُفِّرْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٦] بعد قوله : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْهُمْ بِأَيْدِي اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥] الآية .

٢٠٢ - فإن قيل : لأنه قد تكرر الكفر منهم ، فإنهم كفروا بموسى وعيسى عليهما السلام ، ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فعطف بعض كفرهم على بعض .

٢٠٣ - فإن قيل : اليهود كانوا كافرين بعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة ، فكيف أقروا أنه رسول الله ﷺ بقولهم : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] ؟

قلنا : قالوه على طريق الاستهزاء كما قال فرعون : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] .

٢٠٤ - فإن قيل : كيف وصفهم ، بالشك بقوله : ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٥٧] ثم وصفهم بالظن بقوله : ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧] والشك تساوى الطرفين ، والظن رجحان أحدهما ،

من غرائب آي التنزيل

فكيف يكونون شاكين ظانين ، وكيف استثنى الظن من العلم وليس الظن فردًا من أفراد العلم بل هو قسيمه ؟

قلنا : استعمل الظن بمعنى الشك مجازًا لما بينهما من المشابهة في انتفاء الجزم ، وأما استثناء الظن من العلم فهو استثناء من غير الجنس ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾ [مريم: ٦٢] وقيل لأن المراد بالشك هنا ما يشمل الظن ، واستثناء الظن من العلم في الآية منقطع ، ف «إِلَّا» فيها بمعنى " لكن " كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] وما يشابهه .

٢٠٥ - فإن قيل : كيف يكون الناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه لهم من الأدلة العقلية الموصلة إلى معرفته حتى قال : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] ؟

قلنا : الرسل والكتب منبهة من الغفلة ، وباعثة على النظر في أدلة العقل ، ومفصلة لمجمل الدنيا وأحوال التكليف التي لا يستقل العقل بمعرفتها ، فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميمًا لإلزام الحجة ، لئلا يقولوا : ﴿ لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ [طه: ١٣٤] فيوظفنا من سنة الغفلة وينبها لما وجب الانتباه له .

٢٠٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء: ١٦٦] ولم يقل : أنزله بقدرته أو بعلمه وقدرته ، مع أن الله تعالى لا يفعل إلا عن علم وقدره ؟

قلنا : معناه أنزله متلبسًا بعلمه : أى عالمًا به ، أو وفيه علمه ، أى معلومه ، أو معلمه من الشرائع والأحكام ، وقيل معناه : أنزله عليك بعلم منه ، وأنتك أولى بإنزاله عليك من سائر خلقه .

٢٠٧ - فإن قيل : كلام الله صفة قديمة قائمة بذاته ، وعيسى عليه الصلاة والسلام مخلوق ، فكيف صح إطلاق الكلمة عليه في قوله تعالى : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ ﴾ [النساء: ١٧١] ؟

قلنا : معناه أن وجوده في بطن أمه كان بكلمة الله تعالى ، وهو قوله : ﴿كن﴾ من غير واسطة أب ، بخلاف غيره من البشر سوى آدم ، وقيل : المراد بالكلمة الحجة .

٢٠٧ - فإن قيل على الوجه الأول : لو كان صحة إطلاق الكلمة على عيسى صلوات الله على نبينا وعليه لهذا المعنى لصح إطلاقها على آدم عليه الصلاة والسلام ، لأن هذا المعنى فيه أتم وأكمل ، لأنه وجد بهذه الكلمة من غير واسطة أب ولا أم أيضاً .

قلنا : لا نسلم أنه لا يصح إطلاقها عليه لهذا المعنى ، بل يصح .

٢٠٨ - فإن قيل : لو صح إطلاقها عليه لجاء به القرآن كما جاء في حق عيسى عليه الصلاة والسلام .

قلنا : خص ذلك بعيسى لأن المجيء في حق عيسى عليه الصلاة والسلام إنما كان للرد على من افترى عليه وعلى أمه ونسبه إلى أب ، ولم يوجد من المعنى في حق آدم عليه الصلاة والسلام لاتفاق الناس كلهم على أنه غير مضاف إلى أب ولا إلى أم .

*** **

سورة المائدة

٢٠٩ - فإن قيل : كيف الارتباط والمناسبة بين قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وقوله : ﴿أَحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: ١] ؟

قلنا : المراد بالعقود عهود الله عليهم في تحليل حلاله وتحريم حرامه ، فبدأ بالمجمل ثم أتبعه بالمفصل من قوله : ﴿أَحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: ١] وقوله بعده : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] الآية .

٢١٠ - فإن قيل : ما أكله السبع وعدم وتعذر أكله ، فكيف يحسن فيه التحريم ، حتى قال : ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣] ؟
قلنا : معناه وما أكل منه السبع ، يعنى الباقي بعد أكله .

٢١١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] يدل من حيث المفهوم عرفاً على أنه لم يرض لهم الإسلام ديناً قبل ذلك اليوم ، وليس كذلك ، فإن الإسلام لم يزل ديناً مرضياً للنبي ﷺ وأصحابه عند الله منذ أرسله عليه الصلاة والسلام ؟

قلنا : قوله : ﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف للجملتين الأوليين لا للجملة الثالثة ، لأن الواو الأولى للعطف والثانية للابتداء ، فالجملة الثالثة مطلقة غير مؤقتة .

٢١٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤] كيف صلح جواباً لسؤالهم والطيبات غير معلومة ولا متفق عليها لأنها تختلف باختلاف الطباع والبقاع ؟

قلنا : المراد بالطيبات هنا الذبائح ، والعرب تسمى الذبيحة طيبًا ، وتسمى الميتة خبيثًا ، فصار المراد معلومًا ، لكنه عام مخصوص بغيره من العمومات .

٢١٣ - فإن قيل : ما فائدة قوله : ﴿ مُكَلِّينَ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ ﴾ [المائدة: ٤] والمكلب هو المعلم من كلاب الصيد .

قلنا : قد جاء في تفسير المكلب أيضًا أنه المضرى للجوارح والمغرى له ، فعلى هذا لا يكون تكرارًا ، وعلى القول الأول يقول : إنها عم ثم خصص فقال مكلبين بعد قوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم ﴾ لأن غالب صيدهم كان بالكلاب ، فأخرجه مخرج الغالب الواقع منهم .

٢١٤ - فإن قيل : ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ ﴾ يقتضى إباحة الجوارح المعلمة وهى حرام .

قلنا : فيه إضمار وتقديره ، مصيد ما علمتم من الجوارح ، ويؤيده ما فى تمام الكلام من قوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

٢١٥ - فإن قيل : المؤمن به هو الله لقوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٣٦] فالمكفور به يكون هو الله أيضًا ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨] وإذا ثبت هذا فكيف قال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ ﴾ [المائدة: ٥] مع أنه لا يصح أن يقال آمن بالإيمان فكذلك ضده .

قلنا : المراد به ، ومن يرتد عن الإيمان ، يقال كفر فلان بالإسلام إذا رأى عنه ، فكفر بمعنى ارتد لأن الردة نوع من الكفر ، والباء بمعنى " عن " كما فى قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج: ١] وقوله تعالى : ﴿ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقيل : المراد هنا بالإيمان المؤمن به تسمية للمفعول بالمصدر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَحِلَّ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ أى مصيده ، وقولهم : ضرب الأمير ونسج اليمين .

من غرائب آي التنزيل ٨٣

٢١٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩] ولم يقل : وعملوا السيئات ، مع أن الغفران يكون لفاعل السيئات لا لفاعل الحسنات ؟

قلنا : كل واحد لا يخلو من سيئة صغيرة أو كبيرة ، وإن كان ممن يعمل الصالحات ، وهى الطاعات ، والمعنى : أن من آمن وعمل الحسنات غفرت له سيئاته ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] .

٢١٧ - فإن قيل : كيف قال فى آخر قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية : ﴿فَنَ كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢] مع أن الذى كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل ؟

قلنا : نعم ولكن الضلال بعد ما ذكر من النعم أقبح ، لأن قبح الكفر بقدر عظيم النعم المكفورة ، فلذلك خصه بالذكر .

٢١٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ﴾ [المائدة: ١٤] ولم يقل ومن النصارى ؟

قلنا : لأن هؤلاء كانوا كاذبين فى دعواهم أنهم نصارى ، وذلك أنهم إنما سموا أنفسهم نصارى ادعاء لنصرة الله تعالى ، وهم الذين قالوا ليعسى : نحن أنصار الله ، ثم اختلفوا بعده نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارا للشيطان ، فقال ذلك توبيخا لهم .

٢١٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥] مما كتمتموه من الكتاب فلا يظهره ولا يبين كتبناكم إياه ، فكيف يجوز للنبي ﷺ أن يمسك عن إظهار حق كتموه مما فى كتبهم ؟

قلنا : إنما لم يبين البعض لأنه كان يتبع الأمر ولا يفعل شيئاً من الأمور الدينية من تلقاء نفسه بل اتباعاً للوحى ، فما أمر ببيانه بينه ، وما لم يؤثر بيانه أمسك عنه إلى وقت أمره ببيانه ، وعلى هذا الجواب يكون لفظ العفو مجازاً عن الترك ، فيكون قد أعلمه الله به وأطلع عليه ولم يأمره ببيانه لهم فترك تبيانه لهم ، الثانى أن ما كان فى بيانه إظهار حكم شرعى كصفته ونعته والبشارة به ، وآية الرجم ونحوها بينه ، وما لم يكن فى بيانه حكم شرعى ، ولكن فيه افتضاحهم وهتك أستارهم فإنه عفا .

الثالث : أن عقد الذمة اقتضى تقريرهم على ما بدلوا وغيروا من دينهم ، إلا ما كان فى إظهاره معجزة له وتصديقاً لنبوته من نعته وصفته ، أو ما اختلفوا فيه فيما بينهم وتحاكموا إليه فيه ، كحكم الزنى ونحوه .

٢٢٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴿ [المائدة: ١٥، ١٦] مع أن العبد ما لم يهده الله أولاً لا يتبع رضوانه فيلزم الدور ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : يهدى به الله من علم أنه يريد أن يتبع رضوانه، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أى : والذين أرادوا سبيل المجاهدة فينا لنهدينهم سبل مجاهدتنا .

٢٢١ - فإن قيل : لم نر ولم نسمع أن قوما من اليهود والنصارى قالوا : نحن أبناء الله، فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك ؟

قلنا : المراد بقولهم : أبناء الله خاصة الله ، كما يقال : أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، وقيل فيه : إضمار تقديره : أبناء أنبياء الله .

٢٢٢ - فإن قيل : كيف يصح الاحتجاج عليهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ [المائدة: ١٨] مع أنهم ينكرون تعذيبهم بذنوبهم ، ويدعون أن

ما يذنبون بالنهار يغفر بالليل ، وما يذنبون بالليل يغفر بالنهار ؟

قلنا : هم كانوا مقرين أنه يعذبهم أربعين يومًا ، وهى مدة عبادتهم العجل فى غيبة موسى عليه السلام لميقات ربه ، ولذلك قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠] وقيل : أراد به العذاب الذى أوقعه ببعضهم فى الدنيا من مسخهم قرده كما فعل أصحاب السبت ، وخسف الأرض كما فعل بقارون ، وهذا لا ينكرونه ، وعلى هذا الوجه يكون المضارع بمعنى الماضى فى قوله : ﴿ فَلَمْ يَذْكُرْ ﴾ [المائدة: ٦] والإضافة إليهم بمعنى الإضافة إلى آبائهم ، كأنه قال : فلم عذب آباءكم .

٢٢٣ - فلان قيل : قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ١٨] إن أريد به يغفر لمن يشاء منكم أيها اليهود والنصارى ، ويعذب من يشاء ، يلزم جواز المغفرة لهم ، وإنه غير جائز لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ وإن أريد به يغفر لمن يشاء من المؤمنين ويعذب من يشاء من لا يصلح جوابًا لقولهم ؟

قلنا : المراد به يغفر لمن يشاء منهم إذا تاب من الكفر ، وقيل : يغفر لمن يشاء ممن خلق ، وهم المؤمنون ، ويعذب من يشاء وهم المشركون .

٢٢٤ - فلان قيل : كيف قيل : ﴿ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ [المائدة: ٢٠] ولم يكن قوم موسى عليه السلام ملوكًا ؟

قلنا : المراد جعل فيكم ملوكًا ، وهم ملوك بنى إسرائيل ، وهم اثنا عشر ملكًا ، لاثنى عشر سبطًا ، لكل سبط ملك ، وقيل : المراد به أنه رزقهم الصحة والكفاية والزوجة الموافقة ، والخادم والبيت ، فساهم ملوكًا لذلك ، وقيل : المراد به أنه رزقهم المنازل الواسعة التى فيها المياه الجارية .

٢٢٥ - فإن قيل : من أين علم الرجلان أنهم الغالبون حتى قالوا : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٢٣] ؟

قلنا : من جهة وثوقهم بإخبار موسى ﷺ بذلك بقوله : ﴿ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٢١] وقيل : علما ذلك يغلبه الظن ، وما عهده مع صنع الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه .

٢٢٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] يدل على أن من لم يتوكل على الله لا يكون مؤمنا ، وإلا لضاع التعليق ، وليس كذلك ؟

قلنا : " إن " هنا بمعنى إذا ، فتكون بمعنى التعليق كما في قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] .

٢٢٧ - فإن قيل : كيف التوفيق بين قوله تعالى : ﴿ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٢١] وبين قوله : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ٢٦] ؟

قلنا : معناه كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها ، فلما أبوا الجهاد قيل : فإنها محرمة عليهم .

الثاني : أن كل واحد منهما عام أريد به الخاص ، فالكتابة للبعض وهم المطيعون ، والتحريم على البعض وهم العاصون .

الثالث : أن التحريم موقت بأربعين سنة ، والكتابة غير موقته ، فيكون المعنى أن بعد مضي الأربعين يكون لهم ، وهذا الجواب تام على قول من نصب الأربعين بمحرمة ، وجعلها ظرفا ، فأما من جعل الأربعين ظرفا لقوله : ﴿ يَتِيهُونَ ﴾ [المائدة: ٢٦] مقدمة عليه ، فإنه جعل التحريم مؤبدا ، فلا يتأتى على قوله هذا الجواب ، لأن التقدير عنده ، فإنها محرمة عليهم أبدا يتيهون في الأرض

أربعين سنة ، وهو موضع قد اختلف فيه المفسرون ، والفراء من جملة من جوز نصب الأربعين بمحرم ويتيهون ، والزجاج من جملة من منع جواز نصبه بمحرمة ، ونقل أن التحريم كان مؤبداً ، وأنهم لم يدخلوها بعد الأربعين ، ونقل غيره أنه دخلها بعد الأربعين من بقى منهم وذرية من مات منهم ، ويعضد الوجه الأول كون الغالب في الاستعمال تقدم الفعل على الظرف الذي هو عدد لا تأخره عنه ، يقال : سافر زيد أربعين يوماً وما أشبه ذلك ، وقلما يقال على العكس .

٢٢٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿إِذْ قَرَّبْنَا قُرْبَانَا﴾ [المائدة: ٢٧] ولم يقل قربانين ، لأن كل واحد منهما قرب قرباناً ؟

قلنا : أراد به الجنس فعبر عنه بلفظ الفرد كقوله تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ .

الثاني : أن العرب تطلق الواحد وتريد الاثنين ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] ، وقال الشاعر :

* فإني وقيار بها لغريب *

تقديره فإني بها لغريب وقيار كذلك كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ﴾ [البقرة: ٦٢] الآية ، وقيل : إنها أفردة لأن فعلاً يستوى فيه الواحد والمثنى والمجموع .

٢٢٩ - فإن قيل : صلح قوله : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] جوابه لقوله : ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ [المائدة: ٢٧] .

قلنا : لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له ذلك كناية عن حقيقة الجواب وتعريضاً ، معناه إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا منى ، فلم تقتلنى ؟

٢٣٠ - فإن قيل : كيف قال هاويل لقابيل : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ ﴾ [المائدة: ٢٩] أى تنصرف بهما ، مع أن إرادة السوء والوقوع في المعصية للأجنبى حرام ، فكيف للأخ ؟

قلنا : فيه إضمار حرف النفى تقديره ، إني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥] أى أن لا تميد بكم وقوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ تَقْتُلُوا تَذَكُرُ يَوْسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٥] وقول امرئ القيس (١) :

* فقلت يمين الله أبرح قاعدًا *

الثانى : أن فيه حذف مضاف تقديره : إني أريد انتفاء أن تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٣] أى حب العجل .

الثالث : أن معناه : إني أريد ذلك إن قتلتنى ، لا مطلقًا .

الرابع : أنه كان ظالمًا ، وجزاء الظالم تحسن إرادة من الله تعالى فتحسن من العبد أيضًا .

٢٣١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١] يدل على أن قابيل كان تائبًا لقوله عليه الصلاة والسلام " والندم والتوبة " (٢) فلا يستحق النار .

قلنا : لم يكن ندمه على قتل أخيه ، بل على حمله على عنقه سنة ، أو على عدم اهتدائه إلى الدفن الذى تعلمه من الغراب ، أو على فقد أخيه لا على المعصية ، ولو سلمنا أن ندمه كان على قتل أخيه ، ولكن يجوز أن الندم لم يكن

(١) هو حنّج بن حجر أمير شعراء العصر الجاهلى ويعرف بالملك الضليل أو بذي القروح.

(٢) صحيح بشواهده : أحمد (٥٨/١) ، والحاكم (٢٧١/٤) ، وابن حبان (٦١٢).

توبة في شريعتهم ، بل في شريعتنا ، أو نقول : التوبة تؤثر في حقوق الله تعالى ، لا في حقوق العباد ، والدم من حقوق العباد فلا تؤثر فيه التوبة .

٢٣٢ - فإن قيل : كيف يكون قتل الواحد كقتل الكل ، وإحياء الواحد كإحياء الكل ، والدليل يأباه من وجهين ، أحدهما أن الجناية كلما تعددت وكثرت كانت أقبح فتناسب زيادة الإثم والعقوبة ، هذا هو مقتضى العقل والحكمة .

الثاني: أن المراد بهذا التشبيه إما أن يكون تساوى قتل الواحد والكل في الإثم والعقوبة ، أو تقاربهما ، وإنما كان يلزم منه أنه إذا قتل الثانى أو الثالث وهلم جرا ، أن لا يكون عليه إثم آخر ، ولا يستحق عقوبة أخرى لأنه أثم إثم قتل الكل واستحق عقوبة قتل الكل بمجرد قتل الأول أو الأول والثانى ، لأن قتل الواحد إذا كان يساوى قتل الكل أو يقاربه ، فقتل الاثنين يجعل عليه إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل ، فكيف يزداد بعد ذلك بقتل الثالث والرابع وهلم جرا ، ولو قتل الكل لما ازداد عن قتل الكل وعقوبة قتل الكل ، ولا يجوز أن يستحق بقتل الواحد أو الاثنين إثم قتل الكل ، وبقتل الكل إثم قتل الكل ؟

قلنا : أقرب ما قيل فيه إن المراد من قتل نفساً واحدة بغير حق كان جميع الناس خصومه في الدنيا إن لم يكن له ولى ، وفي الآخرة مطلقاً لأنهم من أب وأم واحدة ، وقيل : معناه من قتل نفساً نبياً وإماماً عادلاً فهو كمن قتل الناس جميعاً من حيث إبطال المنفعة على الكل ، لأن منفعتها عامة للكل ، وقيل : المراد بمن قتل هو قاييل ، فإن عليه من الإثم بمنزلة إثم قتل الكل لأنه أول من سن القتل فكل قتل يوجد بعده يلحقه شئ من وزره بغلبة التسبب لقوله عليه الصلاة والسلام "من سن سنة حسنة" ^(١) الحديث ، وهذا أحسن في المعنى ، ولكن اللفظ لا يساعد عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي

الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿ [المائدة: ٣٦] لَأَن هَذَا الْمَعْنَى إِذَا أُريدَ بِهِ قَابِلٌ ، لَا تَخْتَصُ كِتَابَتَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

٢٣٣ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ وَجْهَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا جَزَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المائدة: ٣٣] الْآيَةَ ، وَحَقِيقَةُ الْمَحَارِبَةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ مَمْتَنَعَةٌ ؟

قلنا : فِيهِ إِضْهَارٌ تَقْدِيرُهُ ، يُحَارِبُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ بِالْمَحَارِبَةِ الْمَخَالَفَةَ .

٢٣٤ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ٣٦] وَلَمْ يَقُلْ بِهِمَا ، وَالْمَذْكُورُ شَيْئَانِ ؟

قلنا : قَدْ سَبَقَ جَوَابٌ مِثْلُهُ قَبِيلُ هَذَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِذْ قَرَّبْنَا قَبْرَانَا ﴾ [المائدة: ٢٧] ، وَهُنَا جَوَابٌ آخَرٌ ، وَهُوَ أَنَّ يَكُونُ وَضْعُ الضَّمِيرِ مَوْضِعَ اسْمِ الْإِشَارَةِ ، كَأَنَّهُ قَالَ لَيَفْتَدُوا بِذَلِكَ ، وَذَلِكَ يَشَارُ بِهِ إِلَى الْوَاحِدِ وَالْأَثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ .

٢٣٥ - فَإِنْ قِيلَ : مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٢] وَحَالُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَخْلُو عَنْ هَذَيْنِ الْقَسْمَيْنِ ، لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَوْ يَعْرِضَ عَنْهُمْ ؟

قلنا : فَائِدَتُهُ تَخْيِيرُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْنَ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ وَعَدَمِهِ ، لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا تَحَاكَمُوا إِلَيْهِ ، وَقِيلَ : إِنْ هَذَا التَّخْيِيرُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٦] وَهَبِ الْقُرْآنَ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَوَّلُ الْآيَةِ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨] فِي الْحُكْمِ بِالتَّوْرَةِ .

٢٣٦ - فَإِنْ قِيلَ : لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ صَارَ الْإِنْجِيلُ مَنْسُوخًا بِهِ ، فَكَيْفَ قَالَ : ﴿ وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧] ؟

قلنا : هُوَ عَامٌ مَخْصُوصٌ ، أَيْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ صَدَقَ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِعَلَامَاتِهِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْإِنْجِيلِ ، وَذَلِكَ غَيْرُ مَنْسُوخٍ .

قلنا : معناه لا يهديهم ما داموا مقيمين على ظلمهم ، الثانى : أن معناه لا يهدى من قضى فى سابق علمه أنه يموت ضالاً ، الثالث أن معناه لا يهدى القوم الظالمين يوم القيامة إلى طريق الجنة ، أى المشركين .

٢٤١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] ولم يقل : أذلة للمؤمنين وإنما يقال : ذل له لا ذل عليه ؟

قلنا : لأنه ضمن الذل معنى الخنو والعطف فعدها تعديته ، كأنه قال : حانين على المؤمنين عاطفين عليهم .

٢٤٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦] وكم مرة غلب حزب الله تعالى فى زمن النبى ﷺ وبعده إلى يومنا هذا ؟

قلنا : المراد به الغلبة بالحجة والبرهان ، لا بالدولة والصولة ، وحزب الله هم المؤمنون ، غالبون بالحجة أبداً .

٢٤٣ - فإن قيل : المثوبة مختصة بالإحسان ، فكيف قال : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية ؟

قلنا : لا نسلم أن الثواب والمثوبة مختص بالإحسان ، بل هو الجزاء مطلقاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ هَلْ تُؤْتَى الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين: ٣٦] أى هل جوزوا ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَشَبَّكُمُ غَمًّا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ١٥٣] وهو كلفظ البشارة ، لا اختصاص له لغة بالخير السار ، بل هو عام شامل للشر ، قال الله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١] .

٢٤٤ - فإن قيل : ما فائدة إرسال الكتاب والرسول إلى أولئك الكثيرين الذين قال فى حقهم : ﴿ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: ٦٤] ؟

قلنا : فائدته إلزام الحجة عليهم .

الثانى : تبجيل الكتاب والرسول فإن الخطاب بالكتاب إذا كان عامًا ، والرسول إذ كان مرسلاً إلى الخلق كلهم ، كان ذلك أفخم وأعظم للرسول والمرسل .

٢٤٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٦] الآية يقتضى تعلق الرخاء وسعة الرزق بالإيمان بالكتاب والعمل بما فيه ، وليس كذلك فإن كثيراً من المؤمنين بالكتب الأربعة العاملين بما فيها مما لم ينسخ ، عيشهم فى الدنيا منكدر ، ورزقهم مضيق ؟

قلنا : هذا التعليق خاص فى حق أهل الكتاب ، لأنهم اشتكوا من ضيق الرزق حتى قالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] فأخبرهم الله تعالى أن ذلك التضيق عقوبة لهم بشؤم معاصيهم وكفرهم ، والله تعالى يجعل ضيق الرزق وتقديره نعمة فى حق بعض عباده ، ونقمة فى حق بعضهم ، وكذلك الرخاء والسعة ، فيعاقب بهما على المعصية ، ويثيب بهما على الطاعة ، ويختلف ذلك باختلاف أحوال الأشخاص ، فلا يلزم من توسيع الرزق الإكرام ، ولا من تضيقه الإهانة ولا يلزم عكسه أيضاً ، ولهذا رد الله تعالى ذلك بقوله : ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر: ١٥] إلى قوله تعالى : ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧] أي : ليس الأمر كما ظن الإنسان وزعم من أن توسيع الرزق دليل الكرامة وتضيقه دليل الإهانة ، بل دليل الكرامة هو الهداية والتوفيق للطاعات ، ودليل الإهانة هو الإضلال وحرمة التوفيق .

٢٤٦ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لِرَبِّكَ لَعَزَازَةً﴾ [المائدة: ٦٧] ومعلوم أنه إذا لم يبلغ المنزل إليه لم يكن قد بلغ الرسالة ؟

قلنا : المراد حثه على تبليغ ما أنزل عليه من معائب اليهود ومثالبهم ،

فالمعنى بلغ الجميع ، فإن كتمت منه حرفاً كنت في الإثم والمخالفة كمن لم يبلغ شيئاً ألبته ، فجعل كتمان البعض ككتمان الكل ، وقيل : أمر بتعجيل التبليغ كأنه ﷺ كان عازماً على تبليغ جميع ما نزل إليه ، إلا أنه أخر تبليغ البعض خوفاً على نفسه وحذراً مع عزمه على تبليغه في ثانی الحال ، فأمر بتعجيل التبليغ ، ويؤيد هذا القول قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] .

٢٤٧ - فإن قيل : كيف ضمن الله تعالى لرسوله العصمة بقوله : ﴿وَاللَّهُ يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ثم إنه شج وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته ؟

قلنا : المراد به العصمة من القتل ، لا من جميع الأذى ، فإن جميع العصمة من جميع المكاره لا تناسب أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنهم جامعون مكارم الأخلاق ومن أشرف مكارم الأخلاق تحمل الأذى .

الثاني : أن هذه الآية نزلت بعد أحد ، لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن .

٢٤٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] مع أن بعض الظالمين وهم العصاة من المؤمنين يشفع فيهم النبي ﷺ يوم القيامة فيكون ناصراً لهم ؟

قلنا : المراد بالظالمين هنا المشركون ، يعلم ذلك من أول الآية ووسطها .

٢٤٩ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] بعد قوله : ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧] ؟

قلنا : المراد بالضلال الأول ضلالهم عن الإنجيل ، وبالضلال الثاني ضلالهم عن القرآن .

٢٥٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلَاهُمْ﴾ [المائدة: ٧٩] والنهي عن المنكر بعد فعله ووقوعه لا معنى له ؟

قلنا : فيه إضمار حذف مضاف تقديره : كانوا لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله ، كما يرى الإنسان أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتبهاً فينكر ، ويجوز أن يريد بقوله : ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا يتتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه ، بل يصرون عليه ويدأومون ، يقال : تناهى عن الأمر وانتهى عنه بمعنى واحد ، أي امتنع عنه وتركه .

٢٥١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١] والمراد بقوله منهم : المنافقون أو اليهود على اختلاف القولين ، وكلهم فاسقون ؟ قلنا : المراد به فسقهم بموالاة المشركين ودس الأخبار إليهم ، لا مطلق الفسق ، وذلك الفسق الخاص مخصوص بكثير منهم ، وهم المذكورون في أول الآية في قوله : ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [المائدة: ٨٠] لا شامل لجميعهم .

٢٥٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿إِنَّا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠] وهذه الأعيان كلها مخلوقات لله تعالى ، فأين عمل الشيطان في وجودها ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، إنما تعاطى الخمر والميسر إلى آخره أو مباشرته إلخ .

٢٥٣ - فإن قيل : مع هذا الإضمار كيف قال من عمل الشيطان ، وتعاطى الخمر والقمار ونحوهما من عمل الإنسان حقيقة ؟

قلنا : إنما أضيف إلى الشيطان مجازاً لأنه هو السبب في وجود الفعل بواسطته ووسوسته وتزيينه ذلك للفساق فصار كما لو أغرى رجل رجلاً بضرب آخر فضربه ، فإنه يجوز أن يقال للمغرى هذا من عملك .

٢٥٤ - فإن قيل : كيف جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام في الآية

الأولى ثم خص الخمر والميسر في الآية الثانية ؟

قلنا : لأن العداوة والبغضاء بين الناس تقع كثيرًا بسبب الخمر والميسر وكذلك يشتغلون بهما عن الطاعة ، بخلاف الأنصاب والأزلام فإن هذه المفاسد لا توجد فيها ، وإن كانت فيها مفاسد أخرى .

وقيل : إنما كرر ذكر الخمر والميسر فقط ، لأن الخطاب للمؤمنين ، بدليل قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٩٤] وهم إنما يتعاطون الخمر والميسر فقط ، وإنما جمع الأربعة في الآية الأولى إعلامًا للمؤمنين أن هذه الأربعة من أعمال الجاهلية ، وإنه لا فرق بين من عبد صنمًا أو أشرك بالله تعالى بدعوى علم الغيب ، وبين من شرب الخمر أو قامر مستحلًا لها .

٢٥٥ - فإن قيل : كيف يحسن أن يفعل الله تعالى فعلاً يتوسل به إلى تحصيل علم حتى قال : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ ءَلَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَا حُكْمَ لِيَعْلَمَ ءَلَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] ؟

قلنا : معناه ليميز الله الخائف من غير الخائف عند الناس ، وقيل : معناه ليعلم عباد الله من يخافه بالغيب ، وهو قريب من الأول ، وقيل : معناه ليعلم الخوف واقعًا كما علمه منتظرًا .

٢٥٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥] ووصف العمدية ليس بشرط لوجوب الجزاء ، فإنه لو قتله ناسيًا أو مخطئًا وجب الجزاء أيضًا ؟

قلنا : عند ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم لوصف العمدية شرط لوجوب الجزاء ، فلا يرد عليهم السؤال ، وأما على قول الجمهور فإنما قيده بوصف العمدية ، لأن الواقعة التى كانت سبب نزول الآية كانت عمدًا ، على ما يروى عن الصحابة أنه اعترض حمار وحش بالحديبية

من غرائب آي التنزيل ٩٧

وهم محرمون ، قطعنه أبو اليسر برمحه فقطعه ، فنزلت الآية ، فخرج وصف العمدية مخرج الواقع ، لا مخرج الشرط ، وقال الزهري : نزل الكتاب بالعمد ، ووردت السنة بالوجوب في الخطأ .

٢٥٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ هَذَا بِبَلَدِ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥] مع أن شرط بلوغه إلى الحرم لا غير ؟

قلنا : لما كان المقصود من بلوغ الهدى إلى الحرم تعظيم الكعبة ، ذكر الكعبة تنبيهاً على ذلك ، وقيل : معناه بالغ حرم الكعبة .

٢٥٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَ ذَلِكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧] أى دلالة لهذه الأمور المذكورة على علم الله تعالى بما في السموات وما في الأرض وأنه بكل شيء عليم ؟

قلنا : ذلك إشارة إلى كل ما سبق ذكره من الغيوب في هذه السورة من أحوال الأنبياء والمنافقين واليهود إلى المذكور في هذه الآية .

الثاني : أن العرب كانت تسفك الدماء وتنهب الأموال ، فإذا دخل الشهر الحرام أو دخلوا إلى البلد الحرام كفوا عن ذلك ، فعلم الله تعالى أنه لو لم يجعل لهم زمناً أو مكاناً يقتضى كفهم عن القتل ونهب الأموال لهلكوا ، فظهرت المناسبة .

٢٥٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ ^(١) [المائدة: ١٠٣] والجعل هو الخلق بدليل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا

(١) البهيرة : كانت الناقة التي تلد عشرة أبطن يتركونها ترعى في المرعى ولا ينتفعون بها .

السائبة : إذا ولدت خمسة أبطن فلا ترد عن حوض ولا علف .

الوصيلة : حين تلد ذكر أو أنثى أى وصلت أخاها فلا يذبحون الذكر من أجلها .

الحام : تطلق على الفحل إذا ضرب عشرة أبطن يريدون أنه حمى ظهره .

زَوَجَهَا ﴿الأعراف: ١٨٩﴾ وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]
وخالق هذه الأشياء هو الله تعالى ؟

قلنا : المراد بالجعل هنا الإيجاب والأمر أى : ما أوجبها ، ولا أمر بها ،
وقيل : المراد بالجعل التحريم .

٢٦٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾
[المائدة: ١٠٥] يدل على عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهما
واجبان ؟

قلنا : معنى قوله : ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ ، أى أهل دينكم كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ٢٩] أى أهل دينكم .

وقيل : المراد به آخر الزمان عند فساد الزمان وتعذر الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر ، وهو زماننا هذا .

٢٦١ - فإن قيل : كيف يقول الرسل : ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: ١٠٩] إذا قال
الله تعالى لهم : ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] وهم عالمون بماذا أجيبوا ؟

قلنا : هذا جواب الدهشة والحيرة حين تطيش عقولهم من زفرة جهنم نعوذ
بالله تعالى منها ، ومثله لا يفيد نفى العلم ولا إثباته .

الثانى : أنهم قالوا ذلك تعريضاً بالتشكى من قومهم ، وإظهاراً للالتجاء
إلى الله تعالى فى الانتقام منهم ، كأنهم قالوا : أنت أعلم بما أجابونا به من
التصديق والتكذيب .

الثالث : معناه : لا علم لنا بحقيقة ما أجابونا به ، لأننا نعلم ظاهره وأنت
تعلم ظاهره ومضمرة ، ويؤيد ما بعده .

٢٦٢ - فإن قيل : أى معجزة لعيسى ﷺ فى تكليم الناس كهلاً حتى

قال: ﴿تَكَلَّرَ النَّاسُ فِي السَّهْدِ وَكَهَلًا﴾ [المائدة: ١١٠] ؟

قلنا : قد سبق جوابه في سورة آل عمران مستقصى .

٢٦٣ - فإن قيل : كيف قال الحواريون : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢] شكوا في قدرة الله تعالى على بعض الممكنات ، وذلك كفر ، ووصفوه بالاستطاعة وذلك تشبيه ، لأن الاستطاعة إنما تكون بالحوارج ، والحواريون خلص أتباع عيسى عليه السلام والمؤمنون به ، بدليل قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] ؟

قلنا : هذا استفهام عن الفعل ، لا عن القدرة ، كما يقول الفقير للغنى القادر : هل تقدر أن تعطيني شيئاً ، وهذا يسمى استطاعة المطاوعة لا استطاعة القدرة ، أو المعنى : هل يسهل عليك أن تسأل ربك ، كقولك الآخر : هل تستطيع أن تقوم معي ؟ وأنت تعلم استطاعته لذلك .

٢٦٤ - فإن قيل : لو كان المراد هذا المعنى فلم أنكر عليهم عيسى عليه السلام قوله : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢] ؟

قلنا : إنكاره عليهم إنما كان لأنهم أتوا بلفظ يحتمل المعنى الذى لا يليق بالمؤمن المخلص إرادته ، وإن كانوا لم يريدوه .

٢٦٥ - فإن قيل : كيف قال عيسى عليه السلام : ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وكل ذى نفس فهو ذو جسم ، لأن النفس عبارة عن الجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير ، والله تعالى منزّه عن الجسم ؟

قلنا : النفس تطلق على معنيين ، أحدهما هذا ، والثاني حقيقة الشئ وذاته كما يقال : نفس الذهب والفضة محبوبة ، أى ذاتها ، والمراد به في الآية ثانياً هذا المعنى .

٢٦٦ - فإن قيل : كيف قال عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ [المائدة: ١١٧] الآية ، مع أنه قال لهم كثيراً من الكلام المباح ، غير الأمر بالتوحيد ؟

قلنا : معناه ما قلت لهم فيما يتعلق بالإله .

٢٦٧ - فإن قيل : إذا كان عيسى لم يمت وإنما هو وحى فى السماء فكيف قال : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ [المائدة: ١١٧] ؟

قلنا : أراد بالتوفى إتمام مدة إقامته فى الأرض ، وإتمامه قد سبق فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ زَكَوَاتِكَ وَارْفَعْكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥] والسؤال إنما يتوجه على قول ما قال ، إن السؤال والجواب وجدا يوم رفعه إلى السماء ، وأما من قال : إن السؤال إنما يكون يوم القيامة ، وعليه الجمهور ، فالجواب مطابق ولا إشكال فيه .

٢٦٨ - فإن قيل : لو قال عليه السلام إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، وإن تغفر لهم فإنهم عبادك ، كان أظهر مناسبة ؟

قلنا : معناه إن تعاقبهم فإنهم عبادك ، وتصرف المالك المطلق الحقيقى فى عبيده مباح ، أى تصرف كان ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم الذى لا ينقص من عزه شىء بترك العقوبة والانتقام ممن عصاه ، الحكيم فى كل ما يفعله من العذاب أو المغفرة .

٢٦٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩] يعنى يوم القيامة ، والصدق نافع فى الدنيا والآخرة ، ولفظ الآية فى قوة الحصر ؟

قلنا : لما كان نفع الصدق فى الآخرة هو الفوز بالجنة والنجاة من النار ونفعه فى الدنيا دون ذلك ، كان كالعدم بالنسبة إلى نفعه فى الآخرة ، فلم يقيد به فى

٢٧٠ - فإن قيل : قوله : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩]
إن أراد به صدقهم في الآخرة فالآخرة ، ليست بدار عمل ، وإن أراد به صدقهم
في الدنيا ، فليس بمطابق لما ورد فيه ، وهو الشهادة لعيسى عليه السلام
بالصدق فيما يجب به يوم القيامة ؟

قلنا : أراد به الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم ، وعن قتادة
رحمه الله متكلمان صدقا يوم القيامة فنفع أحدهما صدقه دون الآخر ، أحدهما
إبليس قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]
الآية ، وصدق يومئذ فلم ينفعه صدقه لأنه كان كاذبا قبل ذلك ، والآخر عيسى
عليه الصلاة والسلام كان صادقا في الدنيا والآخرة فنفعه صدقه .

٢٧١ - فإن قيل : ما في السموات والأرض ، العقلاء وغيرهم ، فهلا غلب
العقلاء ، فقال : لله ملك السموات والأرض ومن فيهن ؟

قلنا : لأن كلمة " ما " تتناول الأجناس كلها تناولا عاما بأصل الوضع
" من " لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع ، فكان استعمال " ما " في هذا
الوضع أوفى .



سورة الأنعام

٢٧٢ - فإن قيل : كيف جمع الظلمة دون النور في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ؟

قلنا : ترك جمعه استغناء عنه بجمع الظلمة قبله يدل عليه ، كما ترك جمع الأرض أيضًا استغناء عنه بجمع السماء قبله في قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] .

الثاني : أن الظلمة اسم والنور مصدر "نقله الفضل" والمصادر لا تجمع .

٢٧٣ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَجَهَرَ كُرُوءَهُ﴾ [الأنعام: ٣] بعد قوله : ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُ﴾ [الأنعام: ٣] معلوم أن من يعلم السر يعلم الجهر بالطريق الأولى ؟ قلنا : إنما ذكره للمقابلة كما في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ تَجَلَّى فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْرَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْرَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] في بعض الوجوه .

٢٧٤ - فإن قيل : كيف خص السكون بالذكر دون الحركة في قوله : ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣] على قول من فسر به بما يقابل الحركة ؟

قلنا : لأن السكون أغلب الحالتين على كل مخلوق من الحيوان والجماد ، ولأن الساكن من المخلوقات أكثر عددًا من المتحرك أو لأن كل متحرك يصير إلى السكون من غير عكس ، أو لأن السكون هو الأصل والحركة حادثة عليه وطارئة . وقيل فيه إضمار تقديره : ما سكن وتحرك فاكتفى بأحدهما اختصارًا لدلالته على مقابله كما في قوله تعالى : ﴿سَرَّابِيلٌ تَقِيكُمُ الْخَرَّ﴾ [النحل: ١١] أى البرد .

من غرائب آي التنزيل = ١٠٣

٢٧٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤] ولم يقل وهو ينعم ولا ينعم عليه ، وهذا أعم لتناوله الإطعام وغيره ؟
قلنا : لأن الحاجة إلى الرزق أمس ، فخص بالذكر .

والثاني : أن كون المطعم آكلًا متغوطًا أقبح من كونه منعماً عليه ، فلذلك ذكره .

٢٧٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٩] يقتضى أن يسمى الله تعالى شيئًا ، ولو صح ذلك لصح نداؤه به كالحى القيوم ونحوهما ؟

قلنا : صحة نداؤه تعالى مخصوصة بما يدل على المدح وصفة الكمال كالحى والقيوم ونحوهما ، لا بكل ما يصح إطلاقه عليه ؛ ألا ترى أن الموجود والثابت يصح إطلاقه عليه سبحانه وتعالى ولا يصح نداؤه به ؟ كذا ذكروا .

٢٧٧ - فإن قيل : استشهاد المدعى بالله لا يكفى فى صحة دعواه وثبوتها شرعاً حتى لو قال المدعى : الله شاهدى لا يكفى هذا : فكيف صح ذلك من النبى ﷺ حيث قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩] ؟

قلنا : إنما لم يصح ذلك من غير النبى ﷺ ، لأنه لا يقدر على إقامة الدليل على أن الله تعالى يشهد له ، والنبى ﷺ أقام الدليل على ذلك بقوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ ﴾ [الأنعام: ١٩] لأنه معجز .

٢٧٨ - فإن قيل : فى قوله تعالى : ﴿ تَدْرِكُنَّ أَجَلَهُنَّ الْآلَاءُ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] كيف يكذبون يوم القيامة بعد معاينة حقائق الأمور ، وقد ﴿ بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ وَحُضِلَ مَا فِي الصُّدُورِ [العاديات: ٩، ١٠] ؟

قلنا : المبلى يوم القيامة ينطق بما ينفعه وبما يضره لعدم التمييز بسبب الخيرة

والدهشة ، كحال المبلى المعذب في الدنيا يكذب على نفسه وعلى غيره ، ويتكلم بما يضره ، ألا تراههم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ وقد أيقنوا بالخلود فيها ، وقالوا : ﴿ يَمْلِكُ لِقَضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] وقد علموا أنه ﴿ لَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ قِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦] .

٢٧٩ - فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢] ؟

قلنا : القيامة مواقف مختلفة ؛ ففي بعضها لا يكتُمون ، وفي بعضها يحلفون كاذبين ، كما قال عز وجل : ﴿ فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وقال تعالى : ﴿ قِيَوْمٌ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾ [الرحمن: ٣٩] وقيل : إن حلفهم كاذبين يكون قبل شهادة جوارحهم عليهم : ﴿ وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢] يكون بعد شهادتها عليهم .

٢٨٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلِلْآزَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢] وهو خير لغير المتقين أيضًا كالأطفال والمجانين ؟

قلنا : إنما خصهم بالذكر لأنهم الأصل فيها من حيث إن درجتهم أعلى وغيرهم تبع لهم .

٢٨١ - فإن قيل : كيف قال لمحمد ﷺ : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥] فخاطبه بأفحش الخطابين ، وقال لنوح ﷺ : ﴿ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] فخاطبه بألين الخطابين ، مع أن محمدًا ﷺ أعظم رتبة وأعلى منزلة منه ؟

قلنا : لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام كان معذورًا في جهله بمطلوبه ، لأنه تمسك بوعد الله تعالى في إنجاء أهله ، وظن أن ابنه من أهله ومحمد ﷺ ما كان معذورًا لأنه كبر عليه كفرهم مع علمه أن كفرهم وإيمانهم بمشيئة الله تعالى ،

وأنهم لا يهتدون إلا أن يهديهم الله .

٢٨٢ - فإن قيل : إذا بعث الله تعالى الموتى من قبورهم فقد رجعوا إلى الله بالحياة بعد الموت ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] ؟

قلنا : المراد به وقوفهم بين يديه للحساب والجزاء ، وذلك غير البعث وهو إحيائهم بعد الموت ، فلا تكرار فيه .

٢٨٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ [الأنعام: ٣٧] لو صح من النبي ﷺ هذا الجواب لصح لكل من ادعى النبوة وطولب بآية أن يقول : إن الله قادرٌ على أن ينزل آية ؟

قلنا : إذا ثبتت نبوته بما شاء الله من المعجزة يصح له أن يقول ذلك ، بخلاف ما إذا لم تثبت نبوته ، والنبي ﷺ كان قد ثبتت نبوته بالقرآن ، وانشقاق القمر وغيرهما .

٢٨٤ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٨] والدابة لا تكون إلا في الأرض ، لأن الدابة في اللغة اسم لما يذبت على وجه الأرض ، وما فائدة : ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] والطيران لا يكون إلا بالجنح ؟

قلنا : فيه فوائد : الأولى للتأكيد كقولهم : هذه نعمة أنشى ، وقولهم : كلمته بلسانى ، ومشيت إليه برجلي وكما قال الله تعالى : ﴿لَا تَخْذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١] وقال تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١] .

الثانية : نفى توهم المجاز ، فإنه يقال : طار فلان في أمر كذا إذا أسرع فيه ، وطار الفرس إذا أسرع الجرى .

الثالثة : زيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قال : جميع الدواب الدابة وجميع الطيور الطائفة .

٢٨٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ ﴾ [الأنعام: ٤٠] إلى أن قال : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ٤٠] ومن جملة ما ذكر : الدعاء فيه عذاب الساعة ، وهو لا يكشف عن المشركين ؟ قلنا : لم يخبر عن الكشف مطلقاً ؛ بل مقيداً بشرط المشيئة وعذاب الساعة لو شاء كشفه عن المشركين لكشفه .

٢٨٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠] كيف ذكر القول في الجملة الأولى والثالثة وترك ذكره في الجملة الثانية ؟

قلنا : لما كان الإخبار بالغيب كثيراً مما يدعيه البشر كالكهنة والمنجمين وواضعي الملاحم ، ثم إن كثيراً من الجهال يعتقدون صحة أقاويلهم ويعملون بمقتضى أخبارهم : بالغ في سلبه عن نفسه بسلب حقيقة عنه بخلاف الإلهية والملكية ، فإن انتفاءهما عنه وعن غيره من البشر ظاهر فاكتفى في نفيهما بنفي القول ، إذ غير الدعوى فيهما لا تتصور في نفس الأمر ولا في زعم الناس ، بخلاف علم الغيب فافترقا ، والمراد بقوله : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٠] أى لا أدعى الإلهية ، كذا قاله بعض المفسرين .

٢٨٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٥] كيف ذكر سبيل المجرمين ولم يذكر سبيل المؤمنين ، وكلاهما محتاج إلى بيانه ؟

قلنا : لأنه إذا ظهر سبيل المجرمين ظهر سبيل المؤمنين أيضاً بالضرورة إذ

من غرائب آي التنزيل
السبيل سبيلان لا غير .

٢٨٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أى ما كسبتم ، وهو يعلم ما جرحوا ليلاً ونهاراً ؟

قلنا : لأن الكسب أكثر ما يكون بالنهار لأنه زمان حركة الإنسان ، والليل زمان سكونه لقوله تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] بعد قوله : ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٧٢] .

٢٨٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿تُذَرُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٢] يعنى مولى جميع الخلائق . وقال فى موضع آخر : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] ؟

قلنا : المولى الأولى بمعنى المالك أو الخالق أو المعبود ، والمولى الثانى بمعنى الناصر ، فلا تنافى بينهما .

٢٩٠ - فإن قيل : كيف خص كون : ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣] بيوم القيامة ، فقال : ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣] مع أن قوله الحق فى كل وقت وله الملك فى كل زمان ؟

قلنا : لأن ذلك اليوم ليس لغيره فيه ملك بوجه من الوجوه ، وفى الدنيا لغيره ملك خلافة عنه أو هبة منه وإنعاماً ، بدليل قوله تعالى فى حق داود عليه السلام : ﴿وَعَآثَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقوله : ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقوله فى ذلك اليوم وهو الحق الذى لا يدفعه أحد من العباد ، ولا يشك فيه شاك من أهل العناد ، لانكشاف الغطاء فيه للكل ، وانقطاع الدعاوى والخصومات ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ

لِلَّهِ ﴿[الانفطار: ١٩] وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ لَهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ؟

٢٩١ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ تَعَالَى فِي مَعْرِضِ الْاِمْتِنَانِ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: ٨٤] وَلَمْ يَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ مَعَ أَنَّهُ كَانَ هُوَ الْابْنُ الْأَكْبَرُ ؟
قلنا : لِأَنَّ إِسْحَاقَ وَهَبَ لَهُ مِنْ حُرَّةٍ ، وَإِسْمَاعِيلَ مِنْ أُمَةٍ ، وَإِسْحَاقَ وَهَبَ لَهُ مِنْ عَجُوزٍ عَقِيمٍ ، فَكَانَتِ الْمُنَّةُ فِيهِ أَظْهَرَ .

٢٩٢ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ فِي وَصْفِ الْقُرْآنِ : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ؟

قلنا : مَعْنَاهُ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ إِيْمَانًا نَافِعًا مَقْبُولًا هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، إِمَّا تَصَدِيقًا بِهِ قَبْلَ إِنْزَالِهِ لَمَّا بَشَّرَ بِهِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، أَوْ اتِّبَاعًا لَهُ بَعْدَ إِنْزَالِهِ وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنْ مِنْ لَمْ يَصْدُقْ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَشَارَتِهِمَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنَ أَوْ كَانَ بَعْدَ بَعْثِهِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ، فَإِيْمَانُهُ بِالْآخِرَةِ غَيْرُ مَعْتَدٍّ بِهِ وَلَا مَعْتَبَرٍ .

٢٩٣ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ أَفْرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿أَوْ قَالَ أَوْحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٩٣] بِالذِّكْرِ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] وَذَلِكَ أَيْضًا افْتِرَاءً ؟

قلنا : لِأَنَّ الْأَوَّلَ عَامٌ وَالثَّانِي خَاصٌّ ، وَالْمَقْصُودُ الْإِنْكَارُ فِيهِمَا ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وَجُودِ الْعَامِ وَجُودُ الْخَاصِّ ، وَلَكِنْ يَلْزَمُ مِنَ الذَّمِّ عَلَى الْعَامِ وَإِنْكَارُهُ الذَّمَّ عَلَى الْخَاصِّ وَإِنْكَارُهُ لَا مُحَالَةٌ ، وَمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَالْجَوَابُ الْمَحْقُوقُ أَنَّ يُقَالُ : إِنْ هَذَا الْخَاصُّ لَمَّا كَانَ مَخْصُوصًا بِمَزِيدٍ قَبِحٍ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ الْاِفْتِرَاءِ خُصَّهُ بِالذِّكْرِ تَنْبِيْهًا عَلَى مَزِيدِ الْعِقَابِ فِيهِ وَالْإِثْمِ .

من غرائب آي التنزيل = ١٠٩

٢٩٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١] الآية ، ما فائدة قوله : ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] بعد قوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١] ؟

قلنا : ذكره أولاً استدلالاً به على نفى الولد ، ثم ذكره ثانياً توطئة وتمهيداً لقوله تعالى : ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢] فإن كونه خالق كل شيء يقتضى تخصيصه بالعبادة ، فكانت الإعادة لفائدة جديدة .

٢٩٥ - فإن قيل : في قوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] كيف خص الأبصار بإدراكه لها ، ولم يقل : وهو يدرك كل شيء ، مع أنه أبلغ في التمدح ؟

قلنا : لوجهين : أحدهما مراعاة المقابلة اللفظية فإنه نوع من البلاغة .

الثانى : أن هذه الصفة خاصة بينه وبين الأبصار أنه يدركها ، بمعنى الإحاطة بها وهى لا تدركه ، فأما غيره مما يدرك الأبصار فهى تدركه أيضاً ، فلهذا خصها بالذكر .

٢٩٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] ولم يقل وهو الذى أنزل إلى مع أن الله تعالى قال : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النساء: ١٠٥] ؟

قلنا : لما كان إنزاله إلى النبى ﷺ ليلغى إلى الخلق ويهديهم به كان فى الحقيقة منزلاً إليهم لكن بواسطة النبى ﷺ فصلاح إضافة الإنزال إليه وإليهم .

٢٩٧ - فإن قيل : فى قوله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُرُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ بِعَآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨] كيف علق الكون من المؤمنين بأكل الذبيحة المسمى عليها والكون من المؤمنين حاصل ، وإن لم تؤكل الذبيحة أصلاً ؟

قلنا : المراد اعتقاد الحل ، لا نفس الأكل ، فإن بعض من كان يعتقد حل الميتة من العرب كان يعتقد حرمة الذبيحة .

٢٩٨ - فإن قيل : كيف أبهم فاعل التزيين هنا فقال : ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال في آية أخرى : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [النمل: ٤] وقال في آية أخرى : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الأنعام: ٢٤] فمن هو مزين الأعمال للكفار في الحقيقة ؟

قلنا : التزيين من الشيطان بالإغواء والإضلال والوسوسة وإيراد الشبه ، ومن الله تعالى بخلق جميع ذلك ، فصحت الإضافتان .

٢٩٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَّا يَأْتِيَكُمُ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] والرسول إنما كانت من الإنس خاصة ؟

قلنا : المراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآن من النبي ﷺ ثم ولوا إلى قومهم منذرين كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية .

الثاني : أنه كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] والمراد من أحدهما لأنه إنما يخرج من الملح .

والثالث : أنه بعث إليهم رسل منهم ، قاله الضحاك ومقاتل .

٣٠٠ - فإن قيل : كيف ذكر شهادتهم على أنفسهم في قوله تعالى : ﴿ يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية ، والمعنى فيها واحد ؟

قلنا : المعنى المشهود به متعدد وإن كان في الشهادة واحدا ، إلا أنهم في الأولى شهدوا على أنفسهم بتبليغ الرسل وإنذارهم ، وفي الثانية شهدوا على أنفسهم بالكفر وهما متغايران .

من غرائب آي التنزيل ١١١

٣٠١ - فإن قيل : كيف أقروا في هذه الآية بالكفر وشهدوا على أنفسهم به وجحدوه في قولهم : ﴿وَاللّٰهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ؟

قلنا : مواقف القيامة ومواطنها مختلفة ، ففي بعضها يقرون وفي بعضها يجحدون ، أو يكون المراد هنا شهادة أعضائهم عليهم حين يختم على أفواههم كما قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا﴾ [يس: ٦٥] .

٣٠٢ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠] والسفه لا يكون إلا عن جهل ؟

قلنا : معنى قوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير حجة ، وقيل : بغير علم بمقدار قبحه ومقدار العقوبة فيه ، وعلى الوجهين لا يكون مستفادًا من الأول .

٣٠٣ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] بعد قوله : ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ [الأنعام: ١٤٠] ؟

قلنا : فائدته الإعلام بأنهم بعدما ضلوا لم يهتدوا مرة أخرى ، فإن من الناس من يضل ثم يهتدى بعد ضلاله .

٣٠٤ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١] بعد قوله : ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] ومعلوم أنه إنما يؤكل من ثمره إذا أثمر ؟

قلنا : فائدته نفى توهم توقف الإباحة على الإدراك والنضج بدلالته على الإباحة من أول إخراج الثمر .

٣٠٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية ، وفي القرآن الكريم تحريم أكل الربا ومال اليتيم ومال الغير بالباطل وغير ذلك .

قلنا : محرمة كانوا يجرمونهم في الجاهلية ، وقيل : مما كانوا مما يستحلون فيها .

٣٠٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٧] والموضع موضع العقوبة ، فكان يحسن أن يقال فيه ذو عقوبة شديدة أو عظيمة ونحو ذلك ؟

قلنا : إنما قال ذلك نفياً للاغترار بسعة رحمته في الاجترار على معصيته ، وذلك أبلغ في التهديد ، معناه : لا تغتروا بسعة رحمته ، فإنه مع ذلك لا يرد عذابه عنكم ، وقيل معناه : فقل ربكم ذو رحمة واسعة للمطيعين ، ولا يرد عذابه عن العاصين .

٣٠٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١] ثم فسر بعشرة أحكام خمسة منها واجبة ، والتلاوة وصف اللفظ لا للمعنى كيلا يقال أضدادها محرمة ؟

قلنا : قوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١] لا ينفي تلاوة غيره فقد تلا ما حرم وتلا غيره أيضاً .

الثاني : أن فيه إضماراً تقديره أتل ما حرم ربكم عليكم وأوجب .

٣٠٨ - فإن قيل : كيف خص مال اليتيم بالنهي عن قربانه بغير الأحسن ومال البالغ أيضاً كذلك ؟

قلنا : إنما خصه بالنهي لأن طمع الطامعين فيه أكثر لضعف مالكة وعجزه وقلة الحافظين له والناصرين ، بخلاف مال البالغ .

والثاني : أن التخصيص لمجموع الحكامين وهما النهي عن قربانه بغير الأحسن ، ووجوب قربانه بالأحسن ، أو جواز قربانه بالأحسن بغير إذن مالكة ، ومجموع الحكامين مختص بمال اليتيم ، وهذا هو الجواب عن كونه مغنياً ببلوغ الأشد لأن المجموع ينتفى ببلوغ الأشد لانتفاء الحكم الثاني ، وقيل : إن الغاية لمحذوف تقديره : حتى يبلغ فسلموه إليه .

من غرائب آي التنزيل ١١٣

٣٠٩ - فإن قيل : كيف خص العدل بالقول فقال : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] ولم يقل : وإذا فعلتم فاعدلوا ، والحاجة إلى العدل في الفعل أمس ، لأن الضرر الناشئ من الجور الفعلي أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولی ؟

قلنا : إنما خصه بالقول ليعلم وجوب العدل في الفعل بالطريق الأولى كما قال تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ﴾ [الإسراء: ٢٣] ولم يقل : ولا تشتمهما ولا تضر بهما لما قلنا .

٣١٠ - فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] وبين قوله : ﴿وَلْيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وقوله : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وقد جاء في الحديث المشهور " من عمل سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " (١) ؟

قلنا : المراد بالآية الأولى وزر لا يكون مضافاً إليها بمباشرة أو تسبب التحقيق إضافته إلى غيرها على الكمال ، أما إذا لم يكن كذلك فهو وزرها من وجه فنزرها ، وقيل معناه : لا تزره طوعاً كما زعم المشركون بقولهم للنبي ﷺ : ارجع إلى ديننا ونحن كفلاء بها يلحقك من تبعة في دينك ، وقول الذين كفروا للذين آمنوا : ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] إلى قوله تعالى : ﴿عَمَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣] ومعنى باقى النصوص أنها تحمله كرهاً فلا تنافى بينهما .



سورة الأعراف

٣١١ - فإن قيل : النهى فى قوله تعالى : ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢] متوجه إلى الحرج فما وجهه ؟

قلنا : هو من باب قولهم : لا أرينك هنا ، معناه : لا تقم هنا ، فإنك إن أقمت رأيتك ، فمعنى الآية فكن على يقين منه ولا تشك فيه ، لأن المراد بالخرج الشك .

٣١٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿أَهْلَكَ نَبَاهَا فَبَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس وهو العذاب ؟

قلنا : معناه أردنا إهلاكها كقوله تعالى : ﴿إِذَا قُضِيَ إِلَى الصَّلَاةِ فَانْصَلُوا وَجُوهَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦] وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] .

٣١٣ - فإن قيل : ميزان القيامة واحد فكيف قال تعالى : ﴿فَنَنْقُلَتْ مَوَازِينُهُ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨، ٩] ؟

قلنا : إنما جمعه لأنه أراد بالميزان الموزونات من الأعمال ، وقيل : إنما جمعه لأنه ميزان يقوم مقام موازين ويفيد فائدتها ، لأنه يوزن به ذرات الأعمال وما كان منها فى عظم الجبال .

٣١٤ - فإن قيل : كيف توزن الأعمال وهى أعراض لا ثقل لها ولا جسم ، والأوزان من خواص الأجسام ؟

قلنا : الموزون صحائف الأعمال .

الثانى : أنه قد ورد أن الله تعالى يحيلها فى جواهر وأجسام ، فتتصور أعمال

المطيعين في صورة حسنة ، وأعمال العاصين في صورة قبيحة ، ثم يزنها ، والله على كل شيء قدير .

٣١٥ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] وكلمة ثم للترتيب ، وخطاب الملائكة عليهم السلام بالسجود سابق على خلقنا وتصويرنا ؟

قلنا : المراد ولقد خلقنا أباكم ثم صورناه بطريق حذف المضاف ، وقيل : المراد ولقد خلقنا أباكم ثم صورناكم في ظهره ، والقول الأول أظهره .

٣١٦ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ : ﴿فَأَقْصِبْ عَنْهَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] أَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَيْسَ لَهُ ، وَلَا لغيره أَنْ يَتَكَبَّرَ فِي الْأَرْضِ ، أَيْضًا ؟

قلنا : لما كانت السماء مقر الملائكة المطيعين الذين لا توجد منهم معصية أصلاً كان وجود المعصية منهم أقبح ، فلذلك خص مقرهم بالذكر .

٣١٧ - فإن قيل : كيف أجيب إبليس إلى الإنظار ، وإنما طلب الإنظار لفسد أحوال عباد الله تعالى ويغويهم ؟

قلنا : لما في ذلك من ابتلاء العباد ، ولما في مخالفته من عظم الثواب ، ونظير ذلك ما خلقه الله تعالى في الدنيا من أصناف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي ، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده .

٣١٨ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] ولم يكن غرضه من الوسوسة كشف عورتها ، بل إخراجهما من الجنة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] ؟

قلنا : اللام في " ليبدى " لام العاقبة والصيرورة ، لا لام كى ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَالْقَطْعُ رَاءُ الْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [الأعراف:٦] وقول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى التراب ^(١)

٣١٩ - فإن قيل : أى آية الله تعالى في اللباس والكسوة حتى قال تعالى في آية اللباس والكسوة : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأعراف:٢٦] ؟

قلنا : معناه أن اللباس والكسوة للإنسان خاصة علامة من العلامات الدالة على أن الله تعالى فضله على سائر الحيوانات ، وقيل معناه : ذلك من نعم الله .

٣٢٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى في حق إبليس : ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ [الأعراف:٢٧] ونزع لباسهما هو الله تعالى ؟

قلنا : لما كان ذلك السبب بسبب وسوسته وإغوائه أضيف النزع إليه ، كما يقال : أشبعنى الطعام وأروانى الشراب ، والمشبع والمروى في الحقيقة إنما هو الله تعالى وهما سبب .

٣٢١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف:٢٩] وهو بدأنا أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم لحماً كما ذكر ، ونحن لا نعود عند الموت ولا عند البعث بعد الموت على ذلك الترتيب ؟

قلنا : معناه كما بدأكم أولاً من تراب ، كذلك تعودون تراباً ، وقيل معناه : كما أوجدكم أولاً بعد العدم كذلك يعيدكم بعد العدم ، فالتشبيه في نفس الأحياء والخلق ، لا في الكيفية والترتيب ، وقيل معناه : كما بدأكم سعداء وأشقياء ، كذلك تعودون ، ويؤيده تمام الآية ، وقيل معناه : كما بدأكم لا

من غرائب آي التنزيل ١١٧

تملكون شيئاً كذلك تعودون ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى﴾ [الأنعام: ٩٤] الآية .

٣٢٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى مخبراً عن الزينة والطيبات : ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٣٢] مع أن الواقع المشاهد أنها لغير الذين آمنوا أكثر وأدوم ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا ، لأن المشركين شاركوهم فيها ، خالصة للمؤمنين في الآخرة .

٣٢٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَوَدُّوْا أَنْ تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] والميراث عبارة عما ينتقل من ميت إلى ميت وهو مفقود هنا ؟

قلنا : هو على تشبيه أهل الجنة وأهل النار بالوارث وبالموروث عنه ، وذلك أن الله تعالى خلق في الجنة منازل للكفار على تقدير الإيمان ، فمن لم يؤمن منهم جعل منزله لأهل الجنة .

الثاني : أن نفس دخول الجنة بفضل الله ورحمته من غير عوض ، فأشبه الميراث ، وإن كانت الدرجات فيها بحسب الأعمال .

٣٢٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أما الخلق بمعنى الإيجاد والإحداث فظاهر أنه مختص به سبحانه وتعالى ، وأما الأمر فلغيره أيضاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٧١] وقوله : ﴿وَأْمُرَ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقوله : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ [طه: ١٣٢] ؟

قلنا : المراد بالأمر هنا قوله تعالى : ﴿كُنْ﴾ عند خلق الأشياء ، وهذا الأمر الذي به الخلق مخصوص به كالخلق .

الثاني : أن المراد بالخلق والأمر ما سبق ذكرهما في هذه الآية ، وهو خلق السموات والأرض ، وأمر تسخير الشمس والقمر والنجوم كما ذكر ، وذلك مخصوص به عز وجل .

٣٢٥ - فإن قيل : لم قال نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالٌ ﴾ [الأعراف: ٦١] بالتاء ، ولم يقل : ليس بى ضلال كما وصفه قومه به ، وذلك أشد مناسبة ليكون نافيًا عين ما أثبتوه ؟

قلنا : الضلالة أقل من الضلال ، فكان نفيها أبلغ في نفى الضلالة عنه ، كأنه قال : ليس بى شىء من الضلال ، كما لو قيل : ألك ثمر ؟ فقلت : ما لى ثمرة ، كان ذلك أبلغ في النفى من قولك : ما لى ثمر .

٣٢٦ - فإن قيل : كيف وصف الملأ بالذين كفروا في قصة هود دون قصة نوح عليهما السلام ؟

قلنا : لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم عند هذا القول ، فلم يكن كل الملأ من قومه قائلين له : ﴿ إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف: ٦٦] بخلاف قوم نوح فإنه لم يكن منهم من آمن به عند قولهم : ﴿ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠] فكان كل الملأ قائلين ذلك ، هكذا أجاب بعض العلماء ، وهذا الجواب منقوض بقوله تعالى في سورة هود في قصة نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وكذا في سورة المؤمنين ، وجواب هذا النقض أنه يجوز أن القول كان وقع مرتين ، والمرة الثانية بعد إيمان بعضهم .

٣٢٧ - فإن قيل : كيف قال صالح عليه السلام لقومه بعد ما أخذتهم الرجفة وماتوا : ﴿ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحْيُونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩] ولا يحسن من الحى مخاطبة الميت لعدم الفائدة ؟

قلنا : هذا مستعمل في العرف ، فإن من نصح إنسانًا فلم يقبل منه حتى

من غرائب آي التنزيل = ١١٩

قتل أو صلب ، وممر به ناصحه فإنه يقول له : كم نصحتك يا أخى فلم تقبل حتى أصابك هذا ، وفائدة هذا القول حث السامعين له على قبول النصيحة ممن ينصحهم ، لئلا يصيبهم ما أصاب المنصوح الذى لم يقبل النصيحة حتى هلك .

٣٢٨ - فلان قيل : لم قال شعيب عليه السلام لقومه : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] وهم مازالوا كافرين مفسدين لا مصلحين ؟ .

قلنا : بعد أن أصلحها الله تعالى بالأمر بالعدل وإرسال الرسل ، وقيل معناه بعد أن أصلح الله تعالى أهلها بحذف المضاف ، وقيل : معناه بعد الإصلاح فيها ، أى بعد ما أصلح فيها الصالحون فى الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم ، فإضافته كإضافة قوله تعالى : ﴿بَلْ مَكْرُ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣] يعنى بل مكرهم فى الليل والنهار .

٣٢٩ - فلان قيل : كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود فى الكفر بقولهم : ﴿لُخْرِجْكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] وهو أجابهم بقوله : ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جِئْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩] وهم لم يكن فى ملتهم قط ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز عليهم شئ من الكبائر خصوصاً الكفر ؟

قلنا : العرب تستعمل " عاد " بمعنى صار ابتداء ، ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: ٣٩] .

الثانى : أنهم قالوا ذلك على طريق تغليب الجماعة على الواحد ، لأنهم عطفوا على ضميره الذين آمنوا منهم بعد كفرهم ، فجعلوهم عائدتين جميعاً إجراء للكلام على حكم التغليب ، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه ، ومراده عود قومه المعطوفين عليه .

٣٣٠ - فإن قيل : لم قال فرعون : ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٠٦] بعد قوله : ﴿ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ﴾ ؟

قلنا : معناه إن كنت جئت بآية من عند الله فأتني بها ، أى أحضرها عندي .

٣٣١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩] وفي سورة الشعراء : ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء: ٣٤] فنسب هذا القول إلى فرعون ؟

قلنا : قاله هو وقالوه هم ، فحكى قوله ثم ، قولهم هنا .

٣٣٢ - فإن قيل : السحرة إنما سجدوا لله تعالى طوعاً لما تحققوا معجزة موسى عليه السلام ، فكيف قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٠] ؟

قلنا : لما زالت كل شبهة لهم بما عاينوا من آيات الله تعالى على يد نبيه اضطرهم ذلك إلى مبادرة السجود ، فصاروا من غاية المبادرة كأنهم ألقوا إلى السجود تصديقاً لله والرسول .

٣٣٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى هنا حكاية عن السحرة الذين آمنوا وعن فرعون : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢١] إلى قوله : ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦] ثم حكى عنهم هذا المعنى في سورة طه وسورة الشعراء بزيادة ونقصان في الألفاظ المنسوبة إليهم ، وهذه الواقعة ما وقعت إلا مرة واحدة ، فكيف اختلفت عبارتهم فيها ؟

قلنا : الجواب عنه أنهم إنما تكلموا بذلك بلغتهم لا بلغة العربية ، وحكى الله ذلك عنهم باللغة العربية مراراً لحكمة اقتضت التكرار والإعادة نبينها في سورة الشعراء إن شاء الله تعالى ، فمرة حكاة مطابقاً للفظهم في الترجمة رعاية

من غرائب أي التنزيل = ١٢١

اللفظ ، وبعد ذلك حكاة بالمعنى جرياً على عادة العرب في التفنن في الكلام والمخالفة بين أساليبه ، لئلا يمل إذا تمحض تكراره .

٣٣٤ - فإن قيل : كيف قالوا : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٢] سموها آية ثم قالوا لتسحرنا بها ؟

قلنا : ما سموها آية لاعتقاد أنها آية ، بل حكاية لتسمية موسى عليه السلام على طريق الاستهزاء والسخرية .

٣٣٥ - فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿ وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] أى أهلكنا ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۚ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩] ؟

قلنا : معناه ودمرنا : أى أبطلنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المكر والمكيدة في حق موسى عليه السلام : ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] أى يبنون من الصرح الذى أمر فرعون هامان بينائه ليصعد بواسطته إلى السماء ، وقيل : هو على ظاهره ، لأن الله تعالى أورث ذلك بنى إسرائيل مدة ثم دمره جميعه .

٣٣٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ ۖ وَفِي ذَٰلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ ۖ إِنْ كَانَ إِشَارَةً إِلَى الْإِنجَاءِ فَلَيْسَ فِيهِ بَلَاءٌ بَلْ هُوَ مُحْضٌ نِعْمَةٌ ، وَإِنْ كَانَ إِشَارَةً إِلَى الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ فإضافته إلى آل فرعون بقوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩] أشد مناسبة لسياق الآية ، وهو الامتنان ، ولهذا قال يقتلون ويستحيون فأضاف إليهم الفعلين ؟

قلنا : البلاء مشترك بين النعمة والمحنة ، لأنه من الابتلاء ، وهو الاختبار ، يقال : بلاءه ابتلاه ، أي اختبره : والله تعالى يخبر شكر عباده بالنعمة ويختبر صبرهم بالمحنة ، يؤيده قوله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقوله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فمعنى الآية : وفي ذلك الإنجاء نعمة عظيمة من ربكم عليكم .

٣٣٧ - فإن قيل : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ﴾ [الأعراف: ١٤٢] المواعدة كانت أمره بالصوم في هذا العدد ، فكيف ذكر الليالي مع أنها ليست محلاً للصوم ، بل يقع في القلب أن ذكر الأيام أولى ، لأنها محل الصوم الذي وقعت به المواعدة ؟

قلنا : العرب في أغلب تواريخها إنما تذكر الليالي وإن كان مرادها الأيام ، لأن الليل هو الأصل في الزمان ، والنهار عارض لأن الظلمة سابقة في الوجود على النور ، وقيل : إنه كان في شريعة موسى عليه السلام جواز صوم الليل .

٣٣٨ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّيَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وقد علم مجموع الميقات من قوله تعالى : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ﴾ ؟

قلنا : فيه فوائد إحداها : للتأكيد .

الثانية : أن يعلم أن العشر ليال لا ساعات .

الثالثة : أن لا يتوهم أن العشر التي وقع بها الإتمام كانت داخلة في الثلاثين ، يعني كانت عشرين وأتمت بعشر كما في قوله تعالى : ﴿ وَبَرَكْنَا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَمُوتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ [فصلت: ١٠] على ما نذكره مشروحاً في حم السجدة .

٣٣٩ - فإن قيل : لم قال موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ ﴾

من غرائب آي التنزيل = ١٢٣

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقد كان قلبه كثير من المؤمنين ، وهم الأنبياء ومن آمن بهم ؟

قلنا : معناه وأنا أول المؤمنين بأنك يا الله لا ترى بالحاسة الفانية من الجسد الفانى فى دار الفناء ، وقيل معناه : وأنا أول المؤمنين من بنى إسرائيل فى زمانى ، وقيل : أراد بالأول الأقوى والأكمل فى الإيمان ، يعنى لم يكن طلبى للرؤية للشك عندى فى وجودك أو لضعف فى إيمانى ، بل لطلب مزيد الكرامة .

٣٤٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] أى التوراة ، وهم مأمورون بالعمل بكل ما فى التوراة ؟
قلنا : معناه بحسنها وكلها حسن .

الثانى: أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، ففعل الخير أحسن من ترك الشر .

الثالث : أن فيها حسناً وأحسن كالاقتصاص والعفو ، والانتصار والصبر ، والواجب والمندوب والمباح ، فأمرُوا بالأخذ بالعزائم والفضائل وما هو أكثر ثواباً .

٣٤١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَُوَازِ﴾ [الأعراف: ١٤٨] واتخاذهم العجل كان فى زمن موسى عليه السلام بالنقل ، وفى سياق الآية ما يدل على ذلك ؟

قلنا : معناه من بعد ذهابه إلى الجبل ، وقيل من : بعد الأخذ عليهم ألا يعبدوا غير الله .

٣٤٢ - فإن قيل : كيف عبر عن الندم بالسقوط فى اليد فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩] وأى مناسبة بينهما ؟

قلنا : لأن من عادة من اشتد ندمه وحسرتة على فائت أن يعرض يده غمًا ، فتصير يده مسقوطًا فيها ، لأن فاه قد وقع فيها وسقط مسند إلى قوله : ﴿ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ ، وهو من كنيات العرب كقولهم للنائم : ضرب على أذنه .

٣٤٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ غَضِبْنَاكَ أَسْفًا ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وهما متقاربان في المعنى ؟

قلنا : لأن الأسف الحزين ، وقيل : الشديد الغضب ففيه فائدة جديدة .
٣٤٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [الأعراف: ١٥٤] ولم يقل فيها ، وإنما يقال : نسختها الشيء كتب مرة ثم نقل ، فأما أول مكتوب فلا يسمى نسخة ، والألواح لم تكتب من مكتوب آخر ؟
قلنا : لما ألقى الألواح ، قيل : إنه انكسر منها لوحان ، فنسخ ما فيها في لوح ذهب وكان فيها الهدى والرحمة ، وفي باقى الألواح تفصيل كل شيء ، وقيل : إنما قال : ﴿ وَفِي نُسخَتِهَا ﴾ [الأعراف: ١٥٤] لأن الله تعالى لقن موسى عليه السلام التوراة ثم أمره بكتابتها ، فنقلها من صدره إلى الألواح فسماها نسخة .

٣٤٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ [الأعراف: ١٥٤] أى مع النبى ﷺ يعنى القرآن ، والقرآن إنما أنزل مع جبريل عليه السلام على النبى ﷺ ، لا مع النبى ﷺ ؟

قلنا : معه أى مقارنًا لزمانه ، وقيل معه : أى عليه ، وقيل معه : أى إليه ، ويجوز أن يتعلق معه باتبعوا لا بأنزل ، معناه : واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبى ﷺ والعمل بسنته ، أو اتبعوا القرآن كما اتبعه هو ، مصاحبين له فى اتباعه .

٣٤٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ قَبَدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي

من غرائب آي التنزيل = ١٢٥

قِيلَ لَهُمْ ﴿[الأعراف: ١٦٢] وهم إنما بدلوا القول الذى قيل لهم ، لأنهم قيل لهم :
﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٦١] فقالوا : حنطة ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة .

٣٤٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾
[الأعراف: ١٦٦] وانتقلهم من صورة البشر إلى صورة القردة ليس فى وسعهم ؟
قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة .

٣٤٨ - فإن قيل : الحلم من صفات الله تعالى ، فكيف قال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ
لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ وسرعة العقاب تنافى صفة الحلم ، لأن الحلم هو الذى لا
يعجل بالعقوبة على العصاة ؟

قلنا : معناه شديد العقاب ، وقيل معناه : سريع العقاب إذا جاء وقت
عقابه لا يرده عنه أحد .

٣٤٩ - فإن قيل : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ، ومنها إقامة
الصلاة فكيف قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُسْكُونُ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾
[الأعراف: ١٧٠] ؟

قلنا : إنما خصها بالذكر إظهاراً لمزيتها لكونها عماد الدين بالحديث ، ونهاية
عن الفحشاء والمنكر ... الآية .

٣٥٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِيلَ عَلَيْهِ
يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦] تمثيل لحال بلعام ، فكيف قال بعده : ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٧] والمثل لم يضرب إلا لواحد ؟

قلنا : المثل فى الصورة وإن ضرب لبلعام ولكن أريد به كفار مكة كلهم ،
لأنهم صنعوا مع النبى ﷺ بسبب ميلهم إلى الدنيا وشهواتها من الكيد والمكر

ما يشبه فعل بلعام مع موسى عليه السلام .

الثنى : أن : ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ ﴾ راجع إلى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ [الأعراف: ١٧٧] لا إلى أول الآية .

٣٥١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وهو ﷺ كان بشيراً ونذيراً للناس كافة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبا: ٢٨] ؟

قلنا : المراد بقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] لقوم كتب عليهم في الأزل أنهم يؤمنون ، وإنما خصهم بالذكر لأنهم هم المتفعون بالإنذار والبشارة دون غيرهم ، فكأنه نذير وبشير لهم خاصة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٥] ويجوز أن يكون متعلق النذير محذوفاً تقديره : إن أنا إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون ، فاستغنى بذكر أحدهما عن الآخر كما استغنى بالجملة عن التفصيل في تلك الآية ، لأن المعنى ، وما أرسلناك إلا كافة بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين .

٣٥٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى حكاية عن آدم عليه السلام وحواء رضى الله عنهما : ﴿ جَعَلَا لَّهِ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ وقال عز وجل : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠] والأنبياء معصومون عن مطلق الكبائر ، فضلاً عن الشرك الذى هو أكبر الكبائر ؟

قلنا : المراد بقوله : ﴿ جَعَلَا لَّهِ ﴾ أى جعل أولادهما بطريق حذف المضاف وكذا قوله تعالى : ﴿ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ أى فيما أتى أولادهما ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠] حيث ذكر ضمير الجمع ولم يقل : يشركان ، ومعنى اشراك أولادهما فيما آتاهم الله تعالى تسميتهم أولادهم بعبد العزى ، وعبد مناة وعبد شمس ونحو ذلك ، مكان عبد الله وعبد الرحمن

وعبد الرحيم .

وقيل : الضمير في جعلاً للولد الصالح وهو السليم الخلق ، وإنما قال جعلاً لأن حواء كانت تلد في بطن ذكرٍ وأنثى ، وقيل المراد بذلك : تسميتها إياه عبد الحارث ، والحارث اسم إبليس في الملائكة ، وسبب تلك التسمية يعرف من تفسير الآية ، وإنما قال شركاء إقامة للواحد مقام الجمع ، ولم يذهب آدم وحواء إلى أن الحارث ربه ، بل قصد أنه كان سبب نجاته ، وقال جمهور المفسرين . قوله تعالى : ﴿ قَتَلْنَا اللَّهَ عَمَّا يَشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠] في مشركي العرب خاصة ، وهو منقطع عن قصة آدم وحواء عليهما السلام .



سورة الأنفال

٣٥٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢] إلى آخر الآيتين ، يدل على أن من لم يتصف بجميع تلك الصفات لا يكون مؤمناً ؛ لأن كلمة : ﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره إنها المؤمنون إيماناً كاملاً ، وإنها الكاملون في الإيمان كما يقال : الرجل من تصبر على الشدائد ، يعنى الرجل الكامل .

٣٥٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٤] ينفى إرادة ما ذكرتم ؟

قلنا : معناه أولئك هم المؤمنون إيماناً كاملاً حقاً ، وقيل : إن حقاً متعلق بها بعده لا بما قبله ، والمؤمنون تمام الكلام .

٣٥٥ - فإن قيل : كيف يقال : إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢] ؟

قلنا : المراد هنا آثار الإيمان من الطمأنينة واليقين والخشية ونحو ذلك ؛ لأن تظاهر الأدلة على المدلول مما يزيده رسوخاً في العقائد وثبوتاً ، فأما حقيقة الإيمان فهو التصديق والإقرار بوحدانية الله تعالى ، وكما أن الإلهية والوحدانية لا تقبل الزيادة والنقصان ، فكذا الإقرار بها .

٣٥٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنفال: ٥] تشبيه فأين المشبه والمشبه به ؟

قلنا : معناه امض على ما رأيته صواباً من تنفيل الغزاة في قسمة الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت في خروجك من بيتك للحرب بالحق وهم كارهون ، وقيل .

من غرائب آي التنزيل = ١٢٩

معناه : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فهو خير لكم وإن كرهتم ، كما كان إخراجك من بيتك بالحق .

٣٥٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨] وكلاهما متعذر ، لأنه تحصيل الحاصل ؟

قلنا : المراد بالحق الإيمان ، والباطل الشرك ، فاندفع السؤال .

٣٥٨ - فإن قيل : ما فائدة التكرار في قوله تعالى : ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨] ؟

قلنا : إنما ذكر أولاً لبيان أن إرادتهم كانت متعلقة باختيار الطائفة التي كانت فيها الغنيمة ، وإرادة الله تعالى باختيار الطائفة التي في قهرها نصره الدين ، فذكره أولاً للتمييز بين الإرادتين ، ثم ذكره ثانياً لبيان الحكمة في قطع دابر الكافرين .

٣٥٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] ومعلوم أن المؤمنين يوم بدر قتلوا الكفار ورماهم النبي عليه الصلاة والسلام بكف من حصى والوادي في وجوههم وقال : شأهت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا وقع في عينيه شيء من ذلك ، فشغلوا بعيونهم وانهمزوا ، فتبعهم المؤمنون يقتلون ويأسرون ؟

قلنا : لما أن السبب الأقوى في قتلهم إنما هو مدد الملائكة وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين وتثبيت قلوب المؤمنين وأقدامهم ، وذلك كله فعل الله تعالى ، نفى الفعل عنهم ونسبه إليه ، يعنى إن كان ذلك في الصورة منكم فهو في الحقيقة منى ، فسبيلكم الشكر ، دون العجب والفخر ، وكذلك الرمية أثبتها لرسول الله ﷺ لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى لا يوجد مثله عن رمى البشر فعل الله تعالى ، ونظير هذا قولك لمن يصدر عنه قول حسن

أو فعل مكروه بتسليط من هو أعلى رتبة منه ، هذا ليس قولك ولا فعلك .

وقيل: معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت الحصى في وجوههم ، ولكن الله رمى الرعب في قلوبهم ، ولأهل الحقيقة في هذه الآية وفي نظائرها من الكتاب والسنة مباحث لا يحتملها هذا المختصر ، وهي مستقصاة في كتب التصوف .

٣٦٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ [الأنفال: ٢٠] ثنى في الأمر ثم أفرد في النهي ؟

قلنا : كما يذكر في لغة العرب الاسم المفرد ويراد به الاثنان والجمع ، فكذلك يذكر ضمير المفرد ويراد به ضمير الاثنان كقولهم : إنعام فلان ومعروفه يغشيني ، والإنعام والمعروف لا ينفع من فلان ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] أي يرضوهما ، فكذا هنا معناه : ولا تولوا عنها .

الثاني : أنه إن أفرد باعتبار عود الضمير إلى الله وحده ؛ لأنه الأصل ، مع أن طاعة الله وطاعة رسوله متلازمان ، قال الله تعالى : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] فكان الإعراض عن الرسول إعراضاً عن الله تعالى ، فاكتمى بذكره .

الثالث: أن معناه : ولا تولوا عن هذا الأمر وعن أمثاله ؛ فالضمير للأمر لا للرسول عليه الصلاة والسلام .

الرابع : أنه إنما لم يقل ولا تولوا عنهما لئلا يلزم منه الإخلال بالأدب من النبي عليه الصلاة والسلام عند نهيه للكفار في قرانه بين اسمه واسم الله تعالى في ذكرهما بلفظ واحد من غير تقديم اسم الله ، كما روى " أن خطيباً خطب فقال : من أطاع الله ورسوله فقد رشد ، ومن عصاهما فقد غوى ، فقال له

من غرائب آي التنزيل = ١٣١

النبي ﷺ : " بشس خطيب القوم أنت ، هلا قلت : ومن عصى الله ورسوله فقد غوى " (١) .

٣٦١ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣] الآية ؟

قلنا : معناه ولو علم الله فيهم تصديقًا وإيمانًا في المستقبل لأسمعهم سماع فهم وقبول ، أو لأنطق لهم الموتى يشهدون بصدق نبوتك كما طلبوا ، وقيل : معنى لأسمعهم ، لرزقهم الفهم والبصيرة ، وأسمعهم وحالهم هذه الحال ، وهو أنه لم يعلم فيهم الخير ، لتولوا وهم معرضون لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره .

٣٦٢ - فإن قيل : التولى الإعراض واحد ، فما فائدة قوله : ﴿ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٢] ؟

قلنا : معناه لتولوا عن الإيمان وأعرضوا عن البرهان ، فلا تكرار .

٣٦٣ - فإن قيل : فما فائدة ذكر السماء في قوله تعالى : ﴿ فَأَمْطِرَ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [الأنفال: ٣٢] والمطر إنما يكون من السماء ؟

قلنا : المطر المطلق ، إنما يكون من السماء ، ولكن المطر المضاف هنا وهو مطر الحجارة قد يكون من رؤوس الجبال ومن حيطان المساكن والقصور وسقوفها ، فكان ذكر السماء مفيدًا ، لأن الحجارة إذا نزلت من السماء كانت أشد نكاية وأكثرها ضررًا .

الثاني : أنه لما كانت الحجارة المسومة للعذاب وهى السجيل معهودة النزول

(١) مسلم (١٧٠) ، مسند أحمد (الرسالة) (١٩٤٣٣) وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٨٠) .

من السماء ذكر السماء إشارة إلى إرادة المعهود من الحجارة ، كأنه قال : فأمطر علينا حجارة من سجيل ، فوضع قوله من السماء موضع قوله من سجيل ، كما تقول ، صب عليه مسرودة من حديد ، يعنى درعا .

٣٦٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] ويوم بدر عذبهم الله تعالى بالقتل والأسر ، وهو فيهم ؟

قلنا : معناه وأنت مقيم فيهم مكة ، وكان كذلك ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ما دام بمكة لم يعذبوا ، فلما أخرجوه من مكة وخرجوا لحربه عذبوا ، وقيل معناه : وما كان الله ليعذبهم عذاب الاستئصال وأنت فيهم ، وقيل معناه : وما كان الله ليعذبهم العذاب الذى طلبوه وهوى : إمطار الحجارة وأنت فيهم .

٣٦٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى أولاً : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] الآية ، ثم قال : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٤] الآية ، وهو يوهم التناقض ؟

قلنا : معناه وما لهم أن يعذبهم الله بعد خروجك من بينهم ، وخروج المؤمنين والمستغفرين ، وقيل : المراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال ، وبالثانى عذاب غير الاستئصال ، وقيل المراد بالأول : عذاب الدنيا ، وبالثانى عذاب الآخرة .

٣٦٦ - فإن قيل : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥] والمكاء : الصغير ، والتصدية التصفيق ، وهما ليسا بصلاة ؟

قلنا : معناه أنهم أقاموا المكاء والتصدية مقام الصلاة ، كما يقول القائل زرت فلاناً ، فجعل الجفاء صلتى ، أى أقام الجفاء مقام صلتى ، ومنه قول الفرزدق .

من غرائب آي التنزيل = ١٣٣

أخاف زيادًا أن يكون عطاؤه أداهم سوادًا أو مدرجة سمرًا

أراد بالأداهم القيود ، وبالمدرجة السياط ، ووضعها موضع العطاء .

٣٦٧ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا

قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ [الأنفال: ٣٨] وهم لم ينتهوا عن الكفر ، فكيف قال :

﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ والعود إلى الشيء إنما يكون بعد تركه والإقلاع عنه ؟

قلنا : معناه إن ينتهوا عن عداوة رسول الله ﷺ ومحاربتة يغفر لهم ما قد

سلف من ذلك ، وإن يعودوا إلى قتاله وعداوته : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾

[الأنفال: ٣٨] منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر ، أو فقد مضت سنة الذين

تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية ، وقيل معناه : إن ينتهوا عن الكفر

بالإيمان يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي ، كما قال النبي عليه الصلاة

والسلام : " الإسلام يجب ما قبله " (١) وإن يعودوا إلى الكفر بالارتداد بعد ما

أسلموا فقد مضت سنة الأولين من الأمم من أخذهم بعذاب الاستئصال .

٣٦٨ - فإن قيل : الفائدة في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرة ، وهي

زوال الرعب من قلوب المؤمنين وتثبيت أقدامهم وزيادة اجترائهم على القتال ،

فما فائدة تقليل المؤمنين في أعين الكفار ، حتى قال الله تعالى : ﴿ وَيَقْلِلُ كُفْرُ فِي

أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٤٤] مع أن ذلك زوال الرعب من قلوب الكافرين وتثبيت

أقدامهم واجترائهم على القتال ؟

قلنا : ما فائدته ألا يستعد الكفار كل الاستعداد ، فيجترئوا على المؤمنين

معتمدين على قتلهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيدهشوا ويتحيروا ، وأن يكون ذلك

سببًا يتنبه به المشركون على نصره الحق إذ رأوا المؤمنين مع قتلهم في أعينهم

منصورين عليهم ، وفي التقليل من الطرفين معارضة تعرف بالتأمل .

٣٦٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْزَعُوا أَعْيُنَكُمْ عَنْهَا وَأَنْتُمْ يُخَوِّفُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٤٦] يدل على حرمة المنازعة والجدال أيضًا ، لأنه منازعة ، فكيف تجوز المناظرة وهى منازعة وجدال ؟

قلنا : المراد بالمنازعة هنا ، المنازعة فى أمر الحرب والاختلاف فيه ، لا المنازعة فى إظهار الحق بالحجة والبرهان ، والدليل عليه أن ذلك مأمور به ، قال الله تعالى : ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] لكن للجواز شروط يندر وجدوها فى زمننا هذا ، أحدها أن يكون كل المقصود منها ظهور الحق على لسان أى الخصمين ، كما كانت مناظرة السلف ، وعلامة ذلك : أن لا يفرح بظهور الحق على لسانه أكثر مما يفرح بظهوره على لسان خصمه .

٣٧٠ - فإن قيل : كيف قال إبليس : ﴿إِنِّىْ أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الأَنْفَال: ٤٨] وهو لا يخاف الله ، لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده ؟

قلنا : قال قتادة ما صدق عدو الله فى قوله : ﴿إِنِّىْ أَرَىْ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأَنْفَال: ٤٨] يعنى جبريل والملائكة عليهم السلام معه نازلين من السماء لنصرة المسلمين يوم بدر ، وكذب فى قوله : ﴿إِنِّىْ أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الأَنْفَال: ٤٨] والله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له بهم ، وقيل لما رأى نزول الملائكة على صورة لم يراها قط خاف قيام الساعة التى هى غاية إنظاره فيحل به العذاب الموعود ، وقيل معنى أخاف الله أعلم صدق وعده لنبيه بالنصر ، وقد جاء الخوف بمعنى العلم ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ويحتمل عندى أن يكون خاف أن يحل به من الملائكة ما دون الإهلاك من الأذى ، إذا لم يخف الإهلاك ؛ ثم أقول : كيف تؤخذ عليه كذبة واحدة وهو أفسق الفسقة وأكفر الكفرة ، فلا عجب فى كذبه ، وإنما العجب فى صدقه .

٣٧١ - فإن قيل : أى مناسبة بين الشرط والجزاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿[الأنفال: ٤٩]﴾ ؟

قلنا : لما أقدم المؤمنون وهم ثلاثمائة وبضعة عشر على قتال المشركين وهم زهاء ألف متوكلين على الله ، وقال المنافقون : غر هؤلاء دينهم حتى أقدموا على ثلاثة أمثالهم عددًا أو أكثر ، قال الله تعالى ردًا على المنافقين وتثبيتًا للمؤمنين : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴿[الأنفال: ٤٩]﴾ أَىْ غَالِبٌ يَسْلُطُ الْقَلِيلَ الضَّعِيفَ عَلَى الْكَثِيرِ الْقَوَى وَيَنْصُرُهُ عَلَيْهِ : حَكِيمٌ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ .

٣٧٢ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿[الأنفال: ٥١]﴾ ولم يقل ليس بظالم ، وهو أبلغ في نفى الظلم عن ذاته المقدسة ؟
قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة آل عمران .

٣٧٣ - فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿[الأنفال: ٥٣]﴾ وذلك إشارة إلى إهلاك كفار مكة وآل فرعون ولم تكن لهم حال مرضية غيرها ؟

قلنا : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها وأسوأ ، وأولئك كانوا قبل بعث الرسول إليهم عباد أصنام ، فلما بعث الرسول ﷺ إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وسعوا في قتله ، غيروا حالهم إلى أسوأ منها ، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الإهمال ، وعاجلهم بالعذاب .

٣٧٤ - فَإِنْ قِيلَ : مَا فائدة قوله تعالى : ﴿فَهَذَا لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿[الأنفال: ٥٥]﴾ بعد قوله : ﴿إِنْ شَرَّ الْدَوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿[الأنفال: ٥٥]﴾ ؟

قلنا : مراده أن يبين أن شر الكفار الذين كفروا واستمروا على الكفر إلى وقت الموت .

٣٧٥ - فإن قيل : ما فائدة تكرار المعنى الواحد في مقاومة الجماعة لأكثر منها قبل التخفيف وبعده في قوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥] إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ؟

قلنا : فائدته الدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة ، لا تتفاوت ، بل كما ينصر الله تعالى العشرين على المائتين ينصر المائة على الألف ، وكما ينصر المائة على المائتين ينصر الألف على الألفين .

٣٧٦ - فإن قيل : كيف أخبر الله تعالى عن هذه الغلبة ونحن نشاهد الأمر بخلافها ، فإن المائة من الكفار قد تغلب المائة من المسلمين ، بل المائتين في بعض الأحوال ؟

قلنا : إنما أخبر الله عز وجل عن هذه الغلبة بشرط الصبر الذي هو الثبات في موقف الحرب ، أو الذي هو الموافقة بين المسلمين ظاهراً وباطناً ، فمتى وجد الشرط تحققت الغلبة للمسلمين مع قلتهم لا محالة ، ولقائل أن يقول : إن هذه الغلبة مخصوصة بطائفة كان النبي ﷺ أحدهم ، وسياق الآية يدل عليه .

٣٧٧ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧] مع أنه يريد الدنيا أيضاً ، لأنه لولا إرادته إياها لما وجدت ، فما فائدة هذا التخصيص .

قلنا : المراد بالإرادة هنا الاختيار والمحبة ، لا إرادة الوجود والكون ، فالمعنى ، أحببون عرض الحياة الدنيا وتختارونه ، والله يختار ما هو سبب الجنة ، وهو إعزاز الإسلام بالإيثان في القتل .

سورة التوبة

٣٧٨ - فإن قيل : لأى سبب تركت كتابة البسملة فى أول هذه السورة بخلاف سائر السور ؟

قلنا : لما تشابهت هى والأنفال واختلفت الصحابة فى كونها سورتين أو سورة واحدة ، تركت بينهما فرجة ، عملاً بقول من قال : هما سورتان ، وتركت البسملة بينهما عملاً بقول من قال : هما سورة واحدة ، ومن قال بذلك قتادة رحمه الله .

الثانى : أن اسم الله تعالى سلام وأمان ، وبراءة فيها قتل المشركين ومحاربتهم ، فلا يناسب كتابتها .

٣٧٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٢] خص الأمر بالقتال بأئمة الكفر ، مع أن النكث والطعن ليس مخصوصاً بهم ، بل هو مسند إلى جميع المشركين ؟

قلنا : المراد بأئمة الكفر رؤوس المشركين وقادتهم ، وقيل : كفار مكة لأنهم كانوا قدوة جميع العرب فى الكفر ، فكأن النكث والطعن لم يوجد إلا منهم لما كانوا هم الأصل فيه ، فلذلك خصهم بالذكر .

٣٨٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] ونحن نسأل اليهود والنصارى عن ذلك فينكرونه ويحيدونه ؟

قلنا : طائفة من اليهود وطائفة من النصارى هم الذين يقولون ذلك لا

كلهم ، فالألف واللام للعهد لا للجنس ولا للاستغراق ، أو أطلق اسم الكل وأراد البعض ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَئِمَّا تَبْعُكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٢] وإنما قال لها جبريل وحده .

٣٨١ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] وقول كل أحد إنها يكون بفمه ؟

قلنا : معناه أنه قول لا تعضده حجة وبرهان ، إنما مجرد لفظ لا أصل له وقيل : ذكر ذلك للمبالغة في الرد عليهم ، والإنكار لقولهم ، كما يقول الرجل لغيره : أنت قلت لي ذلك بلسانك .

٣٨٢ - فإن قيل : دين الحق هو من جملة الهدى فما فائدة عطفه على الهدى في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] ؟
قلنا : المراد بالهدى هنا القرآن ، وبدين الحق الإسلام ، وهما متغايران .

الثاني : أنه وإن كان داخلا في جملة الهدى ، ولكنه خصه بالذكر تشريفاً له وتفضيلاً ، كما في قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله تعالى : ﴿وَمَلَائِكِيهِ وَرُسُلِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] .

٣٨٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] ولم يقل على الأديان كلها ، مع أنه أظهره على الأديان كلها ؟

قلنا : المراد بالدين هنا اسم الجنس ، واسم الجنس المعروف باللام يفيد معنى الجمع ، كما في قولهم : كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس .

٣٨٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا يَنْفَعُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] والمذكور الذهب والفضة ، فأعاد الضمير على أحدهما ؟

قلنا : أعاد الضمير على الفضة لأنها أقرب المذكورين ، أو لأنها أكثر وجوداً

كانت أبعد ، ومؤنثة أيضًا لأنها أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله تعالى من اللهو ، لأن المشتغلين بها أكثر من المشتغلين باللهو ، أو لأنها أكثر نفعًا من اللهو ، أو لأنها كانت أصلًا واللهو تبعًا لأنه ضرب بالطبل لقدمها على ما عرف من تفسير الآية ، وأعاده في الآية الثانية على الإثم رعاية لمرتبة القرب والتذكير .

٣٨٥ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: ٣٦] وهى عند الناس أيضًا كذلك فى كل ملة سواء كانت الشهور قمرية أو شمسية ؟

قلنا : فائدته أن يعلم أن هذا التقسيم والعدد ليس مما أحدثه الناس وابتدعوه يعقوبهم من ذات أنفسهم ، وإنما هو أمر أنزله الله فى كتبه على السنة رسله .

٣٨٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] خص الأربعة الحرم بذلك وظلم النفس منهى عنه فى كل زمان ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما الضمير فى قوله تعالى : ﴿فِيهِنَّ﴾ راجع إلى قوله : ﴿إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: ٣٦] لا الأربعة الحرم فقط ، فاندفع السؤال .

الثانى : أن الضمير راجع إلى الأربعة الحرم فقط ، إما لأنها أقرب ، أو لما قاله الفراء ، إن العرب تقول فى العشرة وما دونها لثلاث ليال خلون وأيام خلون وهن وهؤلاء ، فإذا جاوزت العشرة قالت خلت ومضت ، للفرق بين القليل وهو العشرة فما دونها ، وبين الكثير وهو ما زاد عليها ولهذا قال : فى الاثنى عشر : "منها" وقال فى الأربعة "فيهن" فعلى هذا يكون تخصيصها بالذكر إما لزيد فضلها وحرمتها عندهم فى الجاهلية فيكون ظلم النفس فيها أقبح ، ونظيره

من غرائب أي التنزيل ١٤١

قوله تعالى : ﴿فَلَا رَفَتْ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] وإن كان ذلك منهياً عنه في غير الحج أيضاً ، أو لأن المراد بالظلم النسب ، وهو كان مخصوصاً بها ، أو قتال الكفار فيها ابتداءً أو ترك قتالهم إذا ابتدؤوا وكل ذلك مخصوص بها .

٣٨٧ - فإن قيل : الشهر مذكر فقياسه : فيها ؟

قلنا : الضمير بالهاء والنون لا يختص بالموث ، ولو اختص فالمراد بقوله : " فيهن " ساعات الأشهر وهي مؤنثة .

٣٨٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] والإنسان لا يظلم نفسه بل يظلم غيره ؟

قلنا : لا نسلم أنه لا يظلم نفسه قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ١١٠] وقال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١] .

الثاني : أن معناه فلا يظلم بعضكم بعضاً كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] وقال تعالى : ﴿فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِكِكُمْ فَأَقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] .

الثالث : أن معناه فلا تنقصوا حظ أنفسكم من الآخرة بالمعصية ، فإن من عصى فقد ظلم نفسه بنقصه ثوابها وتوجيه العقاب والذم إليها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١] .

الرابع : أن كل ظالم لغيره فهو ظالم لنفسه في الحقيقة ، لأن ضرر ظلمه في حق المظلوم ينقطع عن قريب لأنه لا يتعدى الدنيا ، وضرر ظلمه في حق نفسه يراه في الآخرة حيث لا ينقطع ، أو يكون أشد وأدوم .

٣٨٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ٣٧] يدل على قبول الكفر للزيادة والنقصان ، فكذلك الإيمان الذي هو ضده ، فيكون حجة للشافعي رحمة الله عليه في قوله : الإيمان يقبل الزيادة والنقصان ؟ قلنا : معناه زيادة معصية في الكفر .

٣٩٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: ٤٤] إن كان نهيًا فأين الجرم ، وإن كان نفيًا فقد وقع المنفى ، لأن كثيرًا من المؤمنين المخلصين استأذنوه في التخلف عن الجهاد لعذر ، ويعضده ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢] فقول : إن المراد به كل أمر طاعة اجتمعوا عليه كالجهاد والجمعة والعيد ونحوها ؟

قلنا : هو نهي بصيغة النفي كقوله تعالى : ﴿ فَلَا رَفْتَ وَلَا فَسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

الثاني : قال ابن عباس رضى الله عنهما هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ .

الثالث : أن المراد بقوله : ﴿ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ ﴾ الآية الاستئذان في التخلف عن الجهاد من غير عذر ، وكذا المراد بالآية التي بعدها ، وبقوله : ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ إباحة الاستئذان في التخلف عن الأمر الجامع لعذر فلا نسخ لإمكان العمل بالآيتين ، لأن محل الحكم مختلف ، وهو وجود العذر وعدمه .

٣٩١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦] أخبر أنهم أمروا بالقعود ، وذمهم على القعود والتخلف عن الخروج للجهاد والاستئذان في القعود ؟

من غرائب آي التنزيل ١٤٣

قلنا : ليس في الآية ما يدل على أن الله تعالى هو الأمر لهم ، فقليل : الأمر لهم بذلك هو الشيطان بالوسوسة والتزيين .

الثاني : أن بعضهم أمر بعضاً .

الثالث : أن النبي ﷺ قال لهم ذلك غضباً عليهم .

الرابع : أنه أمر توبيخ وتهديد من الله تعالى لهم كقوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] يعضده قوله تعالى : ﴿مَعَ الْقَلْعِدِينَ﴾ أى : مع النساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم فى البيوت .

٣٩٢ - فإن قيل : إذا كان الله تعالى علم أن المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للجهاد ما زادوهم إلا خبالاً ، أى : فساداً ، ولأوضعوا خلاهم : أى : ولأسرعوا السعى بينهم بالنائم ، فكيف أمرهم بالخروج مع المؤمنين ؟

قلنا : أمرهم بالخروج لإلزامهم الحجة ولإظهار نفاقهم .

٣٩٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿قُلْ أَتَقْنُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٥٣] يدل على أن الفسق يمنع قبول الطاعات ؟

قلنا : المراد بالفسق هنا بالكفر والنفاق لا مطلق الفسق ، وذلك محبط للطاعات ومانع من قبولها ، ويعضده قوله عز وجل : ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فُتِنًا﴾ [التوبة: ٥٤] الآية .

٣٩٤ - فإن قيل : لم عدل فى آية الصدقات عن اللام إلى " فى " فى المصارف الأربعة الأخيرة ؟

قلنا : للتنبيه على أنهم أقوى فى استحقاق الصدقة ممن سبق ذكره ، لأن " فى " للظرفية والوعاء ، فنبه بها على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات

ويجعلوا مصبًا لها ، ولما ورد في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر وفي فك الغارمين عن الدين من التخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر ، ومثل هذه العبادة الشاقة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقير والغربة عن الأهل والمال ، ولا يرد المؤلف قلوبهم ؛ لأن بعضهم كفار وبعضهم مسلمون ضعيفو النية في الإسلام .

فكيف يعارض بهم من ذكرنا ، أو لأن الله تعالى علم أن وجوب إعطائهم سينسخ ، فلذلك جعلهم في القسم المقدم الذي هو أضعف .

٣٩٥ - فإن قيل : لم كرر " في " في الأربعة الأخيرة ولم يكرر اللام في الأربعة الأولى ؟

قلنا : للتنبيه على ترجيح استحقاق المصرفين الآخرين على الرقاب والغارمين من جهة أن إعادة العامل تدل على مزيد قوة تأكيد كقولك : مررت بزيد وبعمرو .

٣٩٦ - فإن قيل : لم عدى فعل الإيذان إلى الله تعالى بالبلاء وإلى المؤمنين باللام في قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١] ؟

قلنا : لأنه قصد التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به ، فعدها بالبلاء كما يعدى ضده بها ، وقصد التسليم والانقياد للمؤمنين فيما يخبرون به لكونهم صادقين عنده ، فعدها بما يعدى به التسليم والانقياد ، وبعضه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧] وقوله تعالى : ﴿ أَتَقَطَّعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٧٥] وقوله تعالى : ﴿ فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ [يونس: ٨٣] وقوله تعالى : ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] وأما قوله تعالى : ﴿ قَالَ ءَامِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه: ٧١] فمشارك الدلالة لأنه قال في موضع آخر : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ

من غرائب آي التنزيل = ١٤٥

لَكُمُ ﴿[الأعراف: ١٢٣] وقال ابن قتيبة في الجواب عن أصل السؤال : إن الباء واللام زائدتان ، والمراد بالإيمان التصديق ، فمعناه يصدق الله ويصدق المؤمنون .
٣٩٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿الرَّيَّةَ لَعَنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ [التوبة: ٦٣] يدل على تخليد أصحاب الكبائر في النار ، لأن المراد بالمحاداة المخالفة والمعادة ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿الرَّيَّةَ لَعَنَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٦٣] خبر عن المنافقين الذين سبق ذكرهم ، فيكون المراد به المحادة بالكفر والنفاق ، وذلك موجب للتخليد في النار .

٣٩٨ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ [التوبة: ٦٤] وسورة القرآن إنما تنزل على النبي ﷺ لا على المنافقين ؟
قلنا : معناه أن تنزل فيهم ، ف " على " هنا بمعنى " في " كما في قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقولهم كان ذلك على عهد فلان .
الثاني : أن الإنزال هنا بمعنى القراءة ، فمعناه أن تقرأ عليهم .

٣٩٩ - فإن قيل : الحذر في هذه الآية واقع منهم على إنزال السورة ، فكيف قال تعالى : ﴿قُلْ أَسْتَهْزِئُ وَإِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤] ؟
قلنا : قوله تعالى : ﴿مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى : مظهر ما تحذرون ظهوره من نفاقكم بإنزال السورة ، وهو مناسب لقوله تعالى : ﴿تَبْتَئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] .

الثاني : أن معناه مظهر ومبرز ما تحذرون من إنزال السورة .

٤٠٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿تَبْتَئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وإنباؤهم بما في قلوبهم تحصيل الحاصل لأنهم عالمون به فما فائدته ؟

قلنا : معناه تنبئهم بأن إسرارهم وما كتموه من النفاق شائعة ذائعة ،
وتفضحهم بظهور ما اعتقدوا أنه لا يعرفه غيرهم ولا يطلع عليه سواهم ، وهذا
ليس تحصيل الحاصل .

٤٠١ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ
بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال بعده : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾
[التوبة: ٧١] وكلمة " من " أدل على المشابهة والمجانسة من حيث أنها تقتضى
الجزئية والبعضية ، فكانت بالمؤمنين أولى وأحرى ؛ لأنهم أشد تشابهاً وتجانساً
في الصفات والأخلاق ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أى : بعضهم على دين بعض
أى : على عاداتهم وخلقهم بإضمار لفظة " الدين " أو " الخلق " ونحوه ؛ لأن
" من " تأتى بمعنى " على " ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِنِائِنَّا﴾ [الأنبياء: ٧٧] وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أى
يخلفون على وطء نسائهم ، وهذا هو المعنى المراد فى قوله عليه الصلاة والسلام :
" فمن رغب عن سنتى فليس منى " ^(١) وقوله عليه الصلاة والسلام : " من
غشنا فليس منا " ^(٢) والمراد بقوله تعالى : ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى : أنصارهم
وأعوانهم فى الدين ، وكل واحدة من العبارتين صالحة للفريقين ، إلا أنه خص
المنافقين بتلك العبارة تكديباً لهم فى حلفهم السابق فى قوله تعالى : ﴿وَيَخْلِفُونَ
بِأَنَّهُ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] وتقريراً لقوله تعالى : ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾
[التوبة: ٥٦].

٤٠٢ - فإن قيل : أى فائدة فى قوله تعالى : ﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾

(١) البخاري (٤٦٧٥) .

(٢) مسلم (١٤٦) من حديث أبي هريرة .

﴿يَخْلَقُهَا﴾ [التوبة: ٦٩] مع أن قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَمْتَعُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا أَتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٩] بوضع الظاهر موضع الضمير مغن عنه ، كما قال تعالى : ﴿وَخُضْتُكَ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩] من غير تكرار ؟

قلنا : فائدته تصدير التشبيه بدم المشبه بهم باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا واشتغالهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة الباقية وطلب الفلاح في الآخرة ، وتهجين حالهم وتقييح صفتهم ليكون التشبيه بعد ذلك أبلغ في ذم المشبهين بأولئك الأولين ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويظلم ويفسق وأنت تفعل مثل فعله ، وأما قوله تعالى : ﴿وَخُضْتُكَ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ فإنه لما كان معطوفاً على ما قبله وهو التشبيه المصدر بتلك المقدمة أغنى ذلك عن إعادة تلك المقدمة المذكورة للتقييح والتهجين .

٤٠٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٦٩] حبوط العمل وإن كان عبارة عن بطلان ثوابه فذلك إنما يكون في الآخرة ، وإن كان عبارة عن بطلان منفعته فأعمال المنافقين في الدنيا ليست باطلة المنفعة ، لأنهم ينتفعون بها في حقن دمائهم وأموالهم وجريان أحكام المسلمين عليهم ؟

قلنا : المراد بالأعمال إن كانت نوعى أفعالهم الدينية والدنيوية ، فالحبوط في الدنيا راجع إلى أفعالهم الدنيوية وهى كيدهم ومكرهم وخداعهم ونفاقهم الذى كانوا يقصدون به إطفاء نور الله تعالى ورفع آياته وبيناته ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، فلم ينالوا من ذلك ما أملوه وقصدوه من إبطال دين الله تعالى وستر نبوة محمد عليه الصلاة والسلام والحبوط في الآخرة راجع إلى أفعالهم الدينية وهى عباداتهم وطاقاتهم لأنهم فعلوها نفاقاً ورياءً فبطل ثوابها

في الآخرة ، وإن كان المراد بأعمالهم مجرد الأعمال الدينية فحبطوها في الدنيا هو عدم قبولها ، لأن الله تعالى يقبل العبادة في الدنيا ، ثم يثيب عليها في الآخرة ، والمراد بحبوطها في الدنيا عدم قبولها وعدم إطلاق الأسماء الشريفة عليها ، كالعبادة والقرابة والحسنة ونحو ذلك ، وهذا ضد قوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَتْهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فدل على أن للطاعات أجراً معجلاً في الدنيا غير الأجر المؤجل إلى الآخرة وهو القبول وحسن الثناء والذكر وإلقاء المحبة في قلوب الخلق ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] قيل معناه : يحبهم ويحبهم إلى عبادة من غير سبب بينه وبينهم يوجب المحبة ، وكذلك على العكس حال العصاة والفساق يبغضهم ويبغضهم إلى عبادة من غير سبب بينه وبينهم يوجب البغض .

٤٠٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤] لم خص الأرض بالنفي مع أن المنافقين ليس لهم ولي ولا نصير من عذاب الله في الأرض ولا في السماء في الدنيا ولا في الآخرة ؟

قلنا : لما كان المنافقون لا يعتقدون الوجدانية ولا يصدقون بالآخرة ، كان اعتقادهم وجود الولي والنصير مقصوراً على الدنيا ، فعبّر عن الدنيا ، بالأرض وخصها بالذكر لذلك .

الثاني : أنه أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة فكأنه قال : وما لهم في الدنيا والآخرة من ولي ولا نصير .

٤٠٥ - فإن قيل : لم خص السبعين بالذكر في قوله : ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] مع أن الله تعالى لا يغفر للمنافقين ولو استغفر لهم الرسول ﷺ ألف مرة بدليل قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ

من غرائب أي التنزيل ١٤٩

تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿[المنافقون:٦] ولأنهم مشركون ، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به ؟

قلنا : جرت عادة العرب بضرب المثل في الأحاد بالسبعة ، وفي العشرات بالسبعين ، وفي المئات بسبعمئة استعظاماً لها واستكثاراً ، لا أنهم يريدون بذكرها الحصر ، فكأنه قال : إن تستغفر لهم أعظم الأعداد وأكثرها فلن يغفر الله لهم ، ويعضده ما ذكره بعد ذلك من بيان الصارف عن المغفرة في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨١] .

٤٠٦ - فإن قيل : لو كان المراد ما ذكرتم لما خفى ذلك على النبي ﷺ وهو أفصح العرب وأعلمهم بأساليب الكلام وتمثيلات ، حتى قال لما نزلت هذه الآية : " إن الله تعالى قد رخص لي فسأزيد على السبعين " ، وفي رواية أخرى : " فسأستغفر لهم أكثر من السبعين لعل الله أن يغفر لهم " (١) .

قلنا : لم يخف عليه ذلك وإنما أراد بما قال إظهار غلبة رحمته ورأفته بمن بعث إليهم ، كما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] الآية وفي إظهار النبي ﷺ الرأفة والرحمة لطف لأمته ، وحث لهم على التراحم ، وشفقة بعضهم على بعض ، وهذا دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ألا ترى إلى قول إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] .

٤٠٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١] والمغفرة والرحمة إنما تكون للمسيئين لا للمحسنين ؟

قلنا : معناه والله غفور رحيم للمسيئين إذا تابوا ، فهو متعلق بمحذوف لا بالمحسنين ، لأنهم قد سدوا بإحسانهم طريق العقاب والذم ، فليس عليهم

(١) ورد بمعناه في صحيح البخاري (٤٣٠٢) .

سبيل فيهما .

الثاني : أن المحسن من الناس وإن تناهى في إحسانه لا يخلو عن إساءة بينه وبين الله تعالى ، أو بينه وبين الناس ، لكنه إذا أحسن باجتناب الكبائر غفر الله له صغائر سيئاته ورحمه ، كما قال تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء: ٣١] الآية .

٤٠٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ تَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: ١٠٥] أى : سيعلم ، لأن السين للاستقبال ، والرؤية من الله تعالى بمعنى العلم ، والله تعالى عالم بعلمهم حالاً وما لا ؟

قلنا : معناه في حق الله أنه سيعلمه واقعاً موجوداً كما علمه غيباً ، لأن الله تعالى يعلم كل شيء على ما هو عليه ، فيعلم المنتظر منتظراً ويعلم الواقع واقعاً ، وأما في حق الرسول عليه الصلاة والسلام فهو على ظاهره .

٤٠٩ - فإن قيل : إن الله تعالى قد وصف العرب بالجهل في القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩٧] فكيف يصح الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟

قلنا : هذا وصف من الله لهم بالجهل في أحكام القرآن ، لا في ألفاظه ، ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الأحكام ، بل نحتج بلغتهم في بيان معانى الألفاظ ؛ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم .

٤١٠ - فإن قيل : كيف قال في صفة المنافقين : ﴿ مَرَدُوا عَلَى الْإِتِّاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠١] وقال في موضع آخر : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠] ؟

قلنا : هذه الآية نزلت قبل تلك الآية فلا تناقض ، لأنه نفى علمه لهم في

زمان ثم أثبتته بعد ذلك في زمان آخر .

٤١١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾

[التوبة: ١٠٢] قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فأين المخلوط به ؟

قلنا : كل واحد مخلوط ومخلوط به ، لأن معناه : خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك ، خلطت الماء واللبن ، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه ، وفيه من المبالغة ما ليس في قولك ، خلطت الماء باللبن ، لأنك بالباء جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به ، وبالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولهم ، بعت شاة ودرهما ، يعنون شاة بدرهم .

٤١٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَأَلْتَا هُوَ عَنِ الْمُتَكَبِّرِ ﴾ [التوبة: ١١٢]

بالواو وما قبلها من الصفات بغير واو ؟

قلنا : لأنها صفة ثامنة ، والعرب تدخل الواو بعد السبعة إيداناً بتهام العدد ، فإن السبعة عندهم هي العقد التام كالعشرة عندنا ، فأتوا بحرف العطف الدال على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَذِبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢] بعدما ذكر العدد مرتين بغير واو ، وقوله تعالى في صفة الجنة : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣] بالواو لأنها ثمانية ، وقال في صفة النار نعوذ بالله منها : ﴿ فَتُحَّتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣] بغير واو لأنها سبعة ، وليس قوله تعالى : ﴿ تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا ﴾ [التحریم: ٥] من هذا القبيل ، لأن الواو لو أسقطت فيه لاستحال المعنى لتناقض الصفتين ، وقيل إنما دخلت الواو على الناهين عن المنكر إعلالاً بأن الأمر بالمعروف ناه عن المنكر في حال أمره بالمعروف ، فهما صفتان متلازمتان بخلاف باقى الصفات المذكورة ؛ فإنها ليست متلازمة ، ولا ينقض هذا بقوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَكُونُ الْأَلْسِنُودُونَ ﴾ [التوبة: ١١٢] لأنها ليستا

صفتين متلازمتين ، لأن السجود يلزم الركوع ، أما الركوع فلا يلزم السجود ،
بدليل سجود التلاوة وسجود الشكر ، والزخشرى لم يتكلم على هذه الواو .

٤١٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[التوبة: ١٢١] أى : بأحسن الذى كانوا يعلمون بإضمار حرف الجر ، مع أنهم
يُجزون بحسنة أيضًا لقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] ؟

قلنا : معناه بحسن الذى كانوا يعملون ، وهو الطاعات كلها ، لا بسيئته
وهو العاصى ، فالأحسن هنا بمعنى الحسن ، وسيأتى فى سورة الروم فى قوله
تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ما يوضح هذا إن شاء الله تعالى .

الثانى : أن معناه ليجزيهم الله بأحسن من الذى كانوا يعملون .

٤١٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾

[التوبة: ١٢٤] يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة ؟

قلنا : قال مجاهد : معناه فرادتهم علمًا ، لأن العلم من ثمرات الإيمان فجعل
مجازًا عنه ، والله أعلم .



سورة يونس عليه السلام

٤١٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿يُفْضِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥] والله تعالى فضل الآيات للعلماء والجهال أيضًا ؟

قلنا : لما كان يقع تفضيل الآيات مخصوصًا بالعلماء وانتفاعهم بالتفضيل أكثر ، أضاف التفصيل إليه وخصهم به .

٤١٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] مع أن أقوال أهل الجنة وأحوالهم لا آخر لها ، لأن الجنة دار الخلود ؟

قلنا : معناه وآخر دعائهم في كل مجلس دعاء أو ذكر أو تسبيح ، فإن أهل الجنة يسبحون ويذكرون للتعيم والتلذذ بالذكر والتسبيح .

٤١٧ - فإن قيل : قد أنكر الله تعالى على الكفار احتجاجهم بمشيئته في قوله تعالى : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ولهذا لا يجوز للعاصي أن يحتج في وجود المعصية منه بقوله لو شاء الله ما فعلت هذه المعصية ، فلا يقيموا على أحدها : فكيف قال النبي ﷺ : " لو شاء الله ما تلوته عليكم " ؟

قلنا : النبي ﷺ قال هذه الجملة بأمر الله تعالى ، لأن الله عز وجل قال له : ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ [يونس: ١٦] وللعبد أن يحتج بمشيئة الله إذا أمره الله أن يحتج بها ، أما ما ليس كذلك فليس له أن يحتج بمجرد المشيئة ، وما أوردتموه كذلك .

٤١٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ

أَلْحَقَ ﴿يونس: ٢٣﴾ والبغى لا يكون إلا بغير الحق ، لأن البغى هو التعدى والفساد ، من قولهم بغى الجرح ، إذا فسد ، كذا قاله الأصمعي ^(١) ، فما فائدة التقيد ؟

قلنا : قد يكون الفساد بالحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفار وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم ، كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة .

٤١٩ - فإن قيل : كيف شبه الله تعالى الحياة الدنيا ، بماء السماء دون ماء الأرض فقال : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [يونس: ٢٤] ؟
قلنا : لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه ولا حيلة للعبد في زيادته ونقصانه ، كما أن الحياة لا حيلة للعبد في زيادتها ونقصانها .

الثانى : أن ماء السماء يستوى فيه جميع الخلائق ، الوضيع والشریف ، والغنى والفقير والحيوان وغيره أيضا كالمدر والحجر والشوك والثمر ، كما أن الحياة كذلك فكان تشبيه الحياة بماء السماء أشد مناسبة ومطابقة .

٤٢٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ﴾ [يونس: ٢٨] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [البقرة: ١٧٤] ؟

قلنا : يوم القيامة مواقف ومواطن ، ففى موقف لا يكلمهم ، وفى موقف يكلمهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قِيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] وقوله : ﴿ قُورَبِكَ لَسْتَ لَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ٩٢] ، [٩٣] .

(١) هو أبو سعيد عبد الله بن قريب بن أصمع الباهلي راوية الشعر واللغة ولد فى البصرة ١٢٢هـ وتوفى ٢١٦هـ .

الثاني : المراد أنه لا يكلمهم كلام إكرام ، بل كلام توبيخ وتقريع .

٤٢١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

[يونس: ٣١] إلى آخر الآية يدل على أنهم معترفون أن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدير لجميع المخلوقات ، فكيف يعترفون بذلك كله ثم يعبدون الأصنام ؟

قلنا : كانوا يعتقدون في عبادة الأصنام أنهم يتقاربون بها عبادة الله ، فطائفة كانت تقول ، نحن لا نتأهل لعبادة الله تعالى بغير واسطة لعظمة إجلاله ونقصنا وحقارتنا ، فجعلوا الأصنام وسائط كما قال تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣] وطائفة كانت تقول : نتخذ أصناماً على هيئة الملائكة ونعبدهم لتشفع لنا الملائكة عند الله ليقربونا إلى الله ، وطائفة كانت تقول : الأصنام قبله في عبادة الله ، كما أن الكعبة قبله في عبادته ، وطائفة وهى الأكثر كانت تقول : على كل صنم شيطان ، موكل به من عند الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه على وفق مراده بأمر الله ، ومن قصر في عبادة الصنم أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله ، فكل الطوائف من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرب إليه ، ولكن بطرق مختلفة .

٤٢٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ

يُعِيدُهُ ﴾ [يونس: ٣٤] وهم غير معترفين بوجود الإعادة أصلاً ، لا من الله ولا من غيره ؟

قلنا : لما كانت الإعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها ، وهو القدرة على ابتداء الخلق ، والإعادة أهون بالنسبة إلينا ، لزمهم الاعتراف بها ، فصاروا كأنهم مسلمون وجودها من حيث حيث ظهور الحجة ووضوحها .

٤٢٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ قَالِ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا

يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] رتب كونه شهيداً على أفعالهم على رجوعهم إليه في

القيامة، مع أنه شهيد على أفعالهم في الدنيا والآخرة ؟

قلنا : ذكر الشهادة وأراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب والجزاء ، فكأنه قال : ثم الله يعاقب على ما يفعلون ، أو مجاز على ما يفعلون ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧] ونظائره في القرآن العزيز كثيرة .

٤٢٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَبْتَئُونَ نَهَارًا﴾ [يونس: ٥٠] ولم يقل ليلاً أو نهاراً ، وهو أظهر في المطابقة استعمالاً مع النهار في القرآن العزيز وغيره ؟
قلنا : لأن المعهود المؤلف في كلام العرب عند ذكر البطش والإهلاك والوعيد والتهديد ذكر لفظ البيات سواء قرن به النهار أولاً ، فلذلك لم يقل : ليلاً .

٤٢٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠] أى ماذا يستعجلون مله ، وأول الآية للمواجهة ؟

قلنا : أراد بذكر المجرمين ، الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجماع ، لأن من حق المجرم أن يخلف التعذيب على إجرامه ويفزع من مجيئه وإن أبطأ ، فضلاً عن أن يستعجله .

٤٢٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] ولم يقل فبذيتك ، والمشار إليه اثنان ، الفضل والرحمة ؟
قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة ، في قوله تعالى : ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] .

٤٢٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [يونس: ٦٠] تهديد ، لأن فيه محذوفاً تقديره : وما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم ، فكيف يناسبه قوله تعالى بعده : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

قلنا : هو مناسب لأن معناه إن الله لذو فضل على الناس . حيث أنعم عليهم بالعقل والوحى والهداية ، وتأخر العذاب وفتح باب التوبة ، فكيف يفترون على الله الكذب مع توافر نعمه عليهم .

٤٢٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ [يونس: ٦١] ، فأفرد ثم قال : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس: ٦١] فجمع ، والخطاب للنبي ﷺ ؟

قلنا : قال ابن الأنباري : إنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي ﷺ في الفعلين الأولين ، وقال غيره : المراد بالفعل الثالث أيضًا : النبي ﷺ وحده ، وإنما جمع تفخيماً له وتعظيماً ، كما في قوله تعالى : ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ﴾ [البقرة: ٧٥] على قول ابن عباس رضى الله عنهما ، وكما في قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] والمراد به النبي ﷺ ، كذا قاله ابن عباس والحسن وغيرهما ، واختاره ابن قتيبة والزجاج .

٤٢٩ - فإن قيل : كيف قدم الأرض على السماء في قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١] وقدم السماء على الأرض في قوله تعالى في سورة سبأ : ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] ؟

قلنا : حق السماء أن تقدم على الأرض مطلقاً لأنها أشرف ، لكنه لما ذكر هنا في صدر الآية شهادته على شؤون أهل الأرض وأقوالهم وأعمالهم ثم أردفه بقوله : ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ [يونس: ٦١] تناسب ذلك تقديم الأرض على السماء .

الثاني : أن العطف بالواو نظير التشنية وحكمه حكمها ، فلا يعطى رتبة

كالتثنية .

٤٣٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥] وقال في موضع آخر : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ؟

قلنا : أثبت الاشتراك في نفس العزة التي هي في حق الله تعالى القدرة والغلبة ، وفي حق الرسول ﷺ علو كلمته وإظهار دينه ، وفي حق المؤمنين نصرهم على أعدائهم ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥] أراد به العزة الكاملة التي يندرج فيها عزة الإلهية والخلق والإمامة والإحياء والبقاء الدائم وما أشبه ذلك فلا تنافي .

٤٣١ - فإن قيل : إذا كانت السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما وراءهما كل ذلك لله تعالى ملكًا وخلقًا ، فما فائدة التخصيص في قوله تعالى : ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦] ؟

قلنا : إنما خص العقلاء المميزين بالذكر وهم الملائكة والثقلان ، ليعلم أن هؤلاء إذا كانوا عبيدًا له وهو ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا للشركة معه ، فما وراءهم مما لا يعقل كالأصنام والكواكب ونحوهما أحق أن لا تكون له ندًا وشريكًا .

٤٣٢ - فإن قيل : كيف قال لهم موسى عليه السلام : ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ [يونس: ٧٧] على طريق الاستفهام ، وهم إنما قالوا ذلك على طريق الإخبار أو التحقيق المؤكد بأن واللام لا على طريق الاستفهام ، قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : أتعولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين ثم قال أسحر هذا ، إنكار لما قالوه ، فالاستفهام من قول موسى عليه السلام لا مفعول لقولهم .

٤٣٣ - فإن قيل : كيف نوّع الخطاب في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧] فثنى أولاً ثم جمع ثم أفرد ؟

قلنا : خوطب أولاً موسى وهارون أن يتبوأ لقومهما بيوتاً ويختاراهما للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم سيق الخطاب عامّاً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيماً لها أو تعظيماً له عليه السلام .

٤٣٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] أضافها إليهما والدعوة إنما صدرت من موسى عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ [يونس: ٨٨] إلى آخر الآية ؟

قلنا : نقل أن موسى عليه السلام كان يدعو وهارون كان يؤمن على دعائه ، والتأمين دعاء في المعنى فلهذا أضاف الدعوة إليهما .

الثاني : أنه يجوز أن يكون هارون دعا أيضاً مع موسى ، إلا أن الله تعالى خص موسى بالذكر لأنه أسبق بالدعوة أو أحرص عليها أو أكثر إخلاصاً فيها .

٤٣٥ - فإن قيل : لو كان كذلك لقال تعالى دعونا كما بالثنائية ؟

قلنا : لما كانت الدعوة مصدراً اكتفى بذكرها في موضع الإفراد والثنائية والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] .

٤٣٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] وإنما تدخل على ما هو محتمل الوجود ، وشك النبي ﷺ في

القرآن منتف قطعاً ؟

قلنا : الخطاب ليس للنبي ﷺ بل لما كان شاكاً في القرآن وفي نبوة محمد ﷺ، فكأنه قال : " فإن كنت أيها الإنسان في شك " .

٤٣٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ ﴾ [يونس: ٩٤] يدل على أن الخطاب للنبي ﷺ لا لغيره .

قلنا : لا يدل ، قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤] وقال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ [يونس: ٦٤] .

الثاني : أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره كما في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [الأحزاب: ١] ويعضده هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤] ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعده : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ [يونس: ١٠٤] .

الثالث : أن تكون " إن " بمعنى " ما " تقديره : فما كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل ، المعنى لسنا نأمرك أن تسأل أحبار اليهود والنصارى عن صدق كتابك ، لأنك في شك منه ، بل لتزداد بصيرة و يقيناً وطمأنينة .

الرابع : أن الخطاب للنبي ﷺ مع انتفاء الشك منه قطعاً أو المراد به إلزام الحجة على الشاكرين الكافرين كما يقول لعيسى ﷺ : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَتَمِّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦] وهو عالم بانتفاء هذا القول منه لإلزام الحجة على النصارى .

٤٣٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] ما فائدة ذكر " جميعاً " بعد قوله : " كلهم " وهو يفيد

قلنا : كل يفيد الشمول والإحاطة ، ولا يدل على وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع وجميعاً يدل على وجوده منهم في حالة واحدة ، كما تقول : جاءني القوم جميعاً : أى : مجتمعين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠] .

٤٣٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١] كيف يصح هذا الأمر مع أنا لا نعلم جميع ما فيها ولا نراه ؟

قلنا : هو عام أريد ما ندركه بالبصر مما فيها كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والمعادن والحيوانات والنبات ونحو ذلك مما يدل على وجود الصانع وتوحيده وعظيم قدرته ، فيستدل به على ما وراءه .

٤٤٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرٍ ﴾ [الأنعام: ١٧] الآية ما الحكمة في ذكر المس في الضر والإرادة في الخير ؟

قلنا : لاستعمال كل من المس والإرادة في كل من الضر والخير ، وأنه لا مزيل لما يصيب به منهما ولا راد لما يريد به فيهما ، فأوجز الكلام بأن ذكر المس في أحدهما والإرادة في الآخر ليدل بها ذكر على ما لم يذكر مع أنه قد ذكر المس فيهما في سورة الأنعام ، وإنما عدل هنا عن لفظ المس المذكور في سورة الأنعام إلى لفظ الإرادة لأن الجزاء هنا قوله تعالى : ﴿ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس: ١٠٧] والرد إنما يكون فيما لم يقع بعد ، والمس إنما يكون فيما وقع ، فلهذا قال ثم : ﴿ وَإِنْ يَسْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧] ومعناه : فإن شاء أدام ذلك الخير ، وإن شاء أزاله ، فلا يطلب دوامه وزيادته إلا منه تعالى .

سورة هود عليه السلام

٤٤١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾

[هود:٣] مع أن التوبة مقدمة على الاستغفار ؟

قلنا : المراد استغفروا ربكم من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ، كذا قاله مقاتل : وهذا الاستغفار مقدم على هذه التوبة .

الثاني : أن فيه تقدماً وتأخيراً .

الثالث قال الفراء : ثم هنا بمعنى الواو ، وهى لا تفيد ترتيبياً فاندفع

السؤال .

٤٤٢ - فإن قيل : من لم يستغفر ولم يتب فإن الله يمتعه متاعاً حسناً إلى

أجله ، أى : يرزقه ويوسع عليه كما قال ابن عباس ، أو يعمره كما قال ابن قتيبة ،

فما فائدة قوله تعالى : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُتَعَبَّكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ

أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود:٣] ؟

قلنا : قال غيرهما المتاع الحسن المشروط بالاستغفار والتوبة وهو الحياة في

الطاعة والقناعة ، ومثل هذه الحياة إنما تكون للمستغفر التائب التقى .

٤٤٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود:٦] كيف لم

يقل على الأرض مع أنه أشد مناسبة لتفسير الدابة لغة فإنها ما يدب على وجه

الأرض ؟

قلنا : " في " هنا بمعنى " على " ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا صَلْبَيْنِكَ فِي جُدُوعِ

الْخُلِّ﴾ [طه:٧١] وقوله تعالى : ﴿أَمْرُهُمْ سُرٌّ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨] .

من غرائب آي التنزيل _____ ١٦٣

الثانى : أن لفظة " فى " أعم وأشمل ، لأنها تتناول كل دابة على وجه الأرض وكل دابة فى باطن الأرض بخلاف على .

٤٤٤ - فإن قيل : كيف خص الدابة بذكر ضمان الرزق ، والطير كذلك رزقه على الله تعالى ، وهو غير الدابة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ؟

قلنا : إنما خص الدابة بالذكر ، لأن الدواب أكثر من الطيور عددًا ، وفيها ما هو أكبر جثة من كل فرد من أفراد الطير كالفيل والحوت ، فيكون أحوج إلى الرزق ، فلذلك خصه بالذكر .

٤٤٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وعلى الوجوب ، والله تعالى لا يجب عليه شيء وإنما يرزقها تفضلاً منه وكرماً ؟

قلنا : " على " هنا بمعنى " من " كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين: ٢] .

الثانى : أنه ذكره بصيغة الوجوب ليحصل للعبد زيادة سكون وطمأنينة فى حصوله .

٤٤٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧] والخطاب عام للمؤمنين والكافرين ، فإنه امتحن الفريقين بالأمر بالطاعة والنهى عن المعصية وأعمال المؤمنين هى التى تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأما أعمال الفريقين فتفاوتها إلى حسن وقييح ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ [هود: ٧] عام أريد به الخاص وهم المؤمنون تشریفًا لهم وتخصيصًا فصح قوله أحسن عملًا .

٤٤٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ بِهِ يَدَاكَ ﴾ [هود: ١٢] ولم

يقول : وضيق ؟

قلنا : ليدل على أن ضيقه عارض غير ثابت ، لأن النبي ﷺ كان أفسح الناس صدرًا ، ونظيره قولك : زيد سائد وجائد ، فإذا أردت وصفه بالسيادة والجدو الثابتين المستقرين قلت : زيد سواد وجواد كذا قال الزمخشري .

٤٤٨ - فإن قيل : قال تعالى : ﴿ فَأَتُوا بِمِثْلِهِ مِثْلَهُ مُفْتَرِي ﴾ [هود: ١٣] أمرهم بالإتيان بمثله وما يأتون به لا يكون مثله ، لأن ما يأتون به مفترى والقرآن ليس بمفترى ؟

قلنا : أراد به مثله في البلاغة والفصاحة وإن كان مفترى ، وقيل : معناه مفتريات ، كما أن القرآن مفترى في زعمكم واعتقادكم فيتمثالان .

٤٤٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا ﴾ [هود: ١٣] فأفرد في قوله " قل " ثم جمع فقال : ﴿ فَأَلْزَمْتَهُمْ لَكُمُ فَاَعْلَمُوا ﴾ [هود: ١٤] ؟

قلنا : الخطاب للنبي ﷺ في الكل ، ولكنه جمع في قوله : ﴿ لَكُمُ فَاَعْلَمُوا ﴾ [هود: ١٤] تفخيماً له وتعظيماً .

الثاني : أن الخطاب الثاني للنبي ﷺ وأصحابه ، لأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يتحدوهم بالقرآن ، وقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ ﴾ [القصص: ٥٠] يعضد الوجه الأول .

الثالث : أن يكون الخطاب في الثاني والثالث للمشركين ، والضمير في يستجيبوا لمن استطعتم ، يعنى فإن لم يستجب لكم من تدعونه المظاهرة على معارضته لعجزهم فاعلموا أيها المشركون إنما أنزل بعلم الله ، وهذا وجه لطيف .

٤٥٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا ﴾ [هود: ١٦] يدل على بطلان عملهم ، فما فائدة قوله بعده : ﴿ وَتَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٦] ؟

المؤمنين ونجاهم وهو السفينة ، ويناسب هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ أَزْكِبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرسِنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [هود:٤١] وهذا لأن ابن نوح عليه السلام لما جعل الجبل عاصماً من الماء رد نوح عليه السلام ذلك ، ودله على العاصم وهو الله تعالى ، أو المكان الذي أمر الله بالالتجاء إليه وهو السفينة .

٤٥٣ - فإن قيل : كيف صح أمر السماء والأرض بقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَتَّأَرَضُ آبُلَي مَاءِكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَي ﴾ [هود:٤٤] وهما لا يعقلان ، والأمر والنهي إنما يكون لمن يعقل ويفهم الخطاب ؟

قلنا : الخطاب لهما في الصورة ، والمراد به الخطاب للملائكة الموكلين بتدبيرهما .

الثاني : أن هذا أمر إيجاد لا أمر إيجاب ، وأمر الإيجاد لا يشترط فيه العقل والفهم ، لأن الأشياء كلها بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعة متقادة لله تعالى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل:٤٠] وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِمَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [فصلت:١١] كل ذلك أمر إيجاد .

٤٥٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ ﴾ [هود:٤٥] بالفاء ، وقال في قصة زكريا عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [مريم:٣، ٤] ؟

قلنا : أراد بالنداء هنا إرادة النداء فجاء بالفاء الدالة على السببية ، فإن إرادة النداء سبب للنداء ، فكأنه قال : وأراد نوح نداء ربه فقال كيت وكيت وأراد به في قصة زكريا عليه الصلاة والسلام حقيقة النداء ، فلهذا جاء بغير فاء لعدم ما يقتضى السببية .

٤٥٥ - فإن قيل : هود عليه الصلاة والسلام كان رسولاً ولم يظهر معجزة ،

من غرائب آی التنزیل = ۱۶۷

ولهذا قال له قومه: ﴿يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] فبأى شىء لزمتمهم رسالته؟

قلنا : إنما يحتاج إلى المعجزة من الرسل من يكون صاحب شريعة لتتقاد أمته لشريعته ، فإن في كل شريعة أحكامًا غير معقولة فيحتاج الرسول الآتي بها إلى معجزة لتشهد بصحة صدقه ، فأما الرسول الذي لا تكون له شريعة ولا يأمر إلا بالعقليات فلا يحتاج إلى معجزة ، لأن الناس ينقادون إلى ما يأمرهم به لموافقته للعقل ، وهوود كان كذلك .

الثاني : أنه نقل أن معجزة هود كانت الريح الصرصر فإنها كانت سخرت

٤٥٦ - فَإِنْ قِيلَ : عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ لَوْ كَانَ أَمْرُهُمْ مَقْصُورًا عَلَى الْعَقْلِيَّاتِ
لَمَا خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَنَسَبُوهُ إِلَى الْجَنُونِ بِقَوْلِهِمْ : ﴿يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]
إِلَى قَوْلِهِ : ﴿بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٥٤] ؟

قلنا : إنما صدر ذلك القول من قاصري العقول أو المعاندين المكابرين كما قيل ذلك لكل رسول بعد إتيانه بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات .

۴۵۷ - فإن قيل : هلا قال : " إني أشهد الله وأشهدكم " ليتناسب الحملتان ؟

قلنا : لأن إشهد الله تعالى على البراءة من الشرك إشهد صحيح مفيد تأكيد التوحيد وشد معاقده ، وأما إشهداهم فما هو إلا تهكم بهم وتهاون ودلالة على قلة المبالاة لأنهم ليسوا أهلاً للشهادة ، فعدل به عن اللفظ الأول وأتى به على صورة التهكم والتهاون كما يقول الرجل لصاحبه إذا لاحاه ، أشهد إنى لأحلك، تهكماً به واستهانة له .

٤٥٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ﴾ [هود:٥٧] جعل التولى شرطاً والإبلاغ جزاء ، والإبلاغ كان سابقاً على التولى ؟

قلنا : ليس الإبلاغ جزاء التولى ، بل جزاؤه محذوف تقديره : فإن تولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ أو تقصير فيه ، ودل على الجزاء المحذوف قوله : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ﴾ [الأعراف:٩٣] .

الثاني : قال مقاتل تقديره ، فإن تولوا فقل : لهم قد أبلغتكم .

٤٥٩ - فإن قيل : ما فائدة تكرار التنجية في قوله تعالى : ﴿ وَنَجِّنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود:٥٨] ؟

قلنا : أراد بالتنجية الأولى تنجيتهم من عذاب الدنيا الذي نزل بقوم هود ، وهو سموم أرسلها الله تعالى عليهم فقطعتهم عضواً عضواً ، وأراد بالتنجية الثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذي استحقه قوم هود بالكفر ولا عذاب أغلظ منه ولا أشد .

٤٦٠ - فإن قيل : ﴿ بُعْثَا ﴾ [هود:٦٠] معناه عند العرب الدعاء عليهم بالهلاك بعد هلاكهم ؟

قلنا : معناه الدلالة على أنهم متسأهلون له وحقيقون به ، ونقيضه قول الشاعر :

إخوتي لا تبعدوا أبداً وبلى والله قد بعدوا^(١)

أراد بالدعاء لهم بنفى الهلاك بعد هلاكهم الإعلام بأنهم لم يكونوا مستأهلين له ولا حقيقين به .

٤٦١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [هود:٨٤]

(١) البيت لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية .

من غرائب آي التنزيل = ١٦٩

نهى عن النقص فيهما، والنهى عن النقص أمر بالإيفاء معنى ، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك : ﴿وَيَقَوْمٍ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٥] ؟

قلنا : صرح أولاً بنهيهم عن النقص الذى كانوا يفعلونه لزيادة المبالغة فى تقبيحه وتغييرهم إياه ، ثم صرح بالأمر بالإيفاء بالعدل الذى هو حسن عقلاً لزيادة الترغيب فيه والحث عليه .

٤٦٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥] والعتو الفساد ، فيصير المعنى ، ولا تفسدوا فى الأرض مفسدين ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة ، وجواب آخر معناه : ولا تعتوا فى الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بنقص المكيال والميزان .

٤٦٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦] فشرط الإيمان فى كون البقية خيراً لهم ، وهى خير لهم مطلقاً لأن المراد ببقية الله ما يبقى لهم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن وذلك خير لهم وإن كانوا كفاراً ، لأنهم يسلمون معه فى عقاب البخس والتطفيف ؟

قلنا : إنما شرط الإيمان فى خيرية البقية ، لأن خيريتها وفائدتها مع الإيمان أظهر ، وهو حصول الثواب مع النجاة من العقاب ، ومع فقد الإيمان أخفى لإنغماس صاحبها فى عذاب الكفر الذى هو أشد العذاب .

الثانى : أن المراد إن كنتم مصدقين فيما أقول لكم وأنصح .

٤٦٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا قَوْمٌ لَّوْطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] ولم يقل ببعيدين والقوم اسم لجماعة الرجال ، وما جاء فى القرآن الضمير العائد إليه إلا ضمير جماعة ، قال الله تعالى : ﴿أَن أُنذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ [نوح: ١] وقال تعالى : ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا﴾

[الحجرات: ١١] ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، وما هلاك قوم لوط أو مكان قوم لوط ، ومكان قوم لوط كان قريباً منهم ، وإهلاكهم أيضاً كان قريباً من زمانهم .

الثانى : أن فعلاً يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، قال الجوهري : يقال : ما أنتم منا ببعيد ، وقال الله تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤] وقال : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] .

٤٦٥ - فإن قيل : قولهم : ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتُكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾ [هود: ٩١] كلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله : ﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٢] ؟

قلنا : تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله ، فحين عز رهطه عليهم دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [هود: ٦] وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] .

٤٦٦ - فإن قيل : قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته ، ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه ومنهم ، فكان المطابق والموافق في ظاهر الفهم أن يقول : من يأتيه عذاب يخزيه حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إليهم ، ومن هو صادق إليه ؟

قلنا : القياس ما ذكرت ، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال : ومن هو كاذب ، يعنى فى زعمكم ودعواكم تجهيلاً لهم .

٤٦٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢] والقرى لا تكون ظالمة ، لأن الظلم من صفات من يعقل أو من صفات الحيوان دون الجهاد ؟

قلنا : هو من الإسناد المجازى ، والمراد به أهلها ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥] لكن لما أمن اللبس

من غرائب أي التنزيل ١٧١

أسند الظلم إلى القرية لفظاً كما في قوله تعالى : ﴿وَسَّعِلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] .

٤٦٨ - فإن قيل : كيف التوفيق بين قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ النَّفْسُ إِلَّا

بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥] وقوله : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]

وقوله : ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]

فإن الآية الثالثة تناقض الآية الأولى بنفى الإذن ، وتناقض الآيتين جميعاً بنفى النطق ؟

قلنا : أما التوفيق بين الآيتين الأوليين فظاهر ، لأن معناه تجادل عن نفسها بإذنه فتوافقت الآيتان ، وأما الآية الثالثة فإنها لا تناقض الآية الأولى بنفى الإذن ، إن قلنا إن الاستثناء من النفي ليس بإثبات لأن الآية الأولى لا تقتضي وجود الإذن حينئذ بل تقتضي نفي الكلام عند انتفاء الإذن ، فأما إن قلنا إن الاستثناء من النفي إثبات ناقضت الآية الثالثة الأولى ولا تناقض الآيتين بنفى النطق ، لأن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف ومواطن ، ففي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم فيه ، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ، وهذا جواب عام عن مثل هذه الآيات ويرد على هذا أن يقال قوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] نفي النطق عنهم يوم القيامة ، فيقتضي انتفاءه في جميع أجزاء ذلك الزمان عملاً بعموم النفي ، كما يعم النفي جميع أجزاء المكان في قولنا : لا وجود لزيد في الدار ، فاندفع الجواب باختلاف المواقف والمواطن ، فيكون الجواب أن الآية الثالثة أريد بها طائفة خاصة غير الطائفتين الأوليين فلا تناقض.

٤٦٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]

وكلمة "من" للتبعيض ، ومعلوم أن الناس كلهم إما شقى أو سعيد ، فما معنى التبعيض ؟

قلنا : التبعض هنا على حقيقته ، لأن أهل القيامة ثلاثة أقسام : قسم شقى وقسم سعيد وهم أهل النار والجنة كما ذكر في هذه الآية مفصلاً ، وقسم لا شقى ولا سعيد وهم أهل الأعراف .

الثانى : أن معنى كلام : فمنهم شقى ومنهم سعيد ، وهذا لا يقتضى أن يكون الشقى بعض الناس والسعيد بعض الناس ، والأمر كذلك ، ولا يقتضى أن يكون الشقى والسعيد كلاهما بعض الناس بل كل واحد منهما بعض ، وكلاهما كل كما تقول من الحيوان إنسان ، ومن الحيوان غير إنسان ، وكل الحيوان إما إنسان أو غير إنسان .

٤٧٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ خَلِّدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [هود: ١٠٧] وأراد به بيان دوام الخلود ، مع أن أهل الجنة وأهل النار مخلدون فيهما خلوداً لا نهاية له ، والسموات والأرض ودوامهما منقطع لأنهما يوم القيامة يندمان ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكِّ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [الفجر: ٢١] وقال تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار: ١] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ونظائره كثيرة مما يدل على خراب السماوات والأرض ؟

قلنا : للعرب فى معنى الأبد ألفاظ تعبر بها عن إرادة الدوام دون التآقوت منها هذا ، يقولون : لا أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار ، ما دامت السماء والأرض ، وما أطمى الإبل ، ويريدون بذلك لا أفعله أبداً مع قطع النظر عن كون المؤقت به له نهاية أو لا نهاية له .

الثانى : أنه خاطبهم على معتقدهم أن السماوات والأرض لا تزول ولا تتغير .

الثالث : أنه أراد به كون الفريقين فى قبورهم إما منعمين أو معذبين ، كما

من غرائب أي التنزيل ١٧٣

جاء في الحديث "أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفرة النار" (١) ومن كان في روضة من رياض الجنة فهو في الجنة ، ومن كان في حفرة من حفرة النار فهو في النار ، فعلى هذا يكون المراد بالتأقيت بدوام السموات والأرض مدة الخلود إلى يوم القيامة ، الرابع : أن المراد بها سموات الآخرة وأرضها ، قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وتلك دائمة لا تزول ولا تفتنى ، ولأنه لا بد لأهل الجنة مما يقلهم ويظلمهم ، إما سماء يخلقها الله تعالى ، أو العرش ، كما جاء في الأخبار أن أهل الجنة تحت ظل العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء ، وجاء في الأخبار أيضًا في صفة الجنة أن تراهها من زعفران ، فدل أن لها أرضًا ، والمراد تلك السماوات وتلك الأرض .

٤٧١ - فإن قيل : إذا كان المراد بهذا التأقيت دوام الخلود دوامًا لا آخر له ، فكيف يصح الاستثناء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ؟

قلنا : قال الفراء "إلا" هنا بمعنى "غير" و "سوى" فمعناه : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] سوى ما شاء الله تعالى من الخلود والزيادة ، فكأنه قال : خالدين فيها قدر مدة الدنيا غير ما شاء الله من الزيادة عليها إلى غير نهاية ، وهذا الوجه إنما يصح إذا كان المراد سموات الدنيا وأرضها .

قال ابن قتيبة : ومثله في الكلام قولك : لأسكننك في هذه الدار حولًا إلا ما شئت ، يريد سوى ما شئت أن أزيدك على الحول .

الثاني : أنه استثناء لا يفعله كما تقول : لأهجرنك إلا أن أرى غير ذلك ، وعزمك على هجرانه أبدًا وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما ، : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وقد شاء أن يخلودا فيها ، قال الزجاج : وفائدة هذا الاستثناء

(١) الحديث حكمه الألباني بالوضع (١٩٤٥) .

إعلامنا أنه لو شاء أن لا يخلدهم لما خلدهم ، ولكنه ما شاء إلا خلودهم .

الثالث : أنه استثناء لزمان البعث والحشر والوقوف للعرض والحساب ، فإن الأشقياء والسعداء في ذلك الزمان كله ليسوا في النار ولا في الجنة .

الرابع : أن " ما " بمعنى " أن " والمستثنى من يدخل النار من الموحدين فيعذب بقدر ذنوبه ثم يخرج من النار ويدخل الجنة ، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من الأشقياء فقط .

الخامس : أن المستثنى زمان كون أهل الأعراف على الأعراف قبل دخولهم الجنة ، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من السعداء ، لأنهم لم يدخلوا النار لأن مصيرهم إلى الخلود في الجنة .

والسادس : أنه استثناء من الخلود في عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة ، الأشقياء لا يخلدون في عذاب النار بل يعذبون بالزمهرير وغيره من أنواع العذاب سوى النار وهو سخط الله عليهم فإنه أشد ، كذلك السعداء لهم سوى نعيم الجنة ما هو أجل منها ، وهو الزيادة التي وعدهم الله تعالى إياها بقوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ورضوان الله كما قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وقوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] فهو المراد بالاستثناء ، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعد ذكر الاستثناء : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعَلَّ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وقوله تعالى بعد ذكر السعداء : ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ يعني أنه يفعل بأهل النار ما يريد من أنواع العذاب ، ويعطى أهل الجنة أنواع العطاء الذي لا انقطاع له ، باختلاف المقطعين يؤكد صرف الاستثناء إلى ما ذكرنا ، فتأمل كيف يفسر القرآن بعضه بعضاً .

٤٧٢ - فَإِنْ قِيلَ : مَا فائدة قوله تعالى : ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩] بعد قوله : ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيهَةٌ﴾ [هود: ١٠٩] والتوفية والإيفاء إعطاء الشيء وافيًا : أى : تامًا، نقله الجوهري ، وغيره ، والتام لا يكون منقوصًا ؟ قلنا : هو من باب التأكيد .

٤٧٣ - فإن قيل قوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّكَ خَلْقُهُمْ﴾ [هود: ١١٩] إشارة إلى ماذا؟ قلنا: هو إشارة إلى ما عليه الفريقان من حالى الاختلاف والرحمة، فمعناه أنه خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة، وقد فسره ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال: خلقهم فريقين، فريقاً رحيمهم فلم يختلفوا، وفريقاً لم يرحمهم فاختلفوا.

وقيل : هو إشارة إلى معنى الرحمة وهو التراحم ، وعلى هذا يكون الضمير في خلقهم للذين رحمهم فلم يختلفوا .

وقيل : وهو إشارة إلى الاختلاف والضمير في خلقهم للمختلفين ، واللام على الوجه الأول والثالث لام العاقبة والصيرورة لا لام كى وهى التى تسمى لام الغرض والمقصود ، لأن الخلق للاختلاف فى الدين لا يليق بالحكمة ، ونظير هذه اللام قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ نَفْسُ أَلْ فِرْعَوْنَ لَيَكُونَنَّ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨] وقول الشاعر :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ فَكَلِّمُوا بِصَبْرٍ إِلَى التُّرَابِ (١)

وقيل : إنها لام التمكين والاقتدار كما في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِنَسْكُوتٍ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦٧] وقوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَكُونُنَّ لَهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ [النحل: ٨] والتمكين والاقتدار حاصل وإن لم يسكن بعض الناس في الليل ولم يركب بعض هذه الدواب ، ومعنى التمكين والاقتدار هنا أنه سبحانه وتعالى

أقدرهم على قبول حكم الاختلاف وممكنهم منه ، وقيل : اللام هنا بمعنى " على " كما في قوله تعالى : ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣] وقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُونَ لِلْذِّقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] .

٤٧٤ - فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيْنِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ [هود: ١٢٠] وقوله تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] ؟

قلنا : معناه وكل نبأ نقصه عليك من أنباء الرسل هو ما ثبت به فؤادك "فما" في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف ، فلا يقتضى اللفظ قص أنباء جميع الأنبياء ، فلا تناقض بين الآيتين .

الثانى : أن المراد بالكل هنا البعض كما في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله تعالى : ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] وقوله تعالى : ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُقْبِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] وقول لبيد الشاعر :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وكثير من الأشياء غير الله تعالى حق ، كالنبي عليه الصلاة والسلام والإيمان والجنة وغير ذلك ، وكذلك نعيم الجنة والآخرة ليس بزائل ، ولبيد صادق في هذا البيت لقوله ﷺ أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ^(١) إلى آخره .

(١) البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦٦) .

لبيد بن ربيعة: شاعر جاهلي جواد أدرك الإسلام وأسلم وتوفي في أول خلافة معاوية ، يقال : أنه عاش مائة وسبعاً وخمسين سنة ، ويروى أنه حفظ القرآن كله ، وألفاظه قوية جزلة ، ومعلقاته مشهورة ، وقد شهد له النابغة حين سمعها بأنه أشعر هوازن .

٤٧٥ - فإن قيل : ما فائدة تخصيص هذه السورة بقوله تعالى : ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ [هود:١٢٠] مع أن الحق جاء في كل سور القرآن ؟

قلنا : قالوا فائدة تخصيص هذه السورة بذلك زيادة تشریفها وتفضيلها مع مشاركة غيرها إياها في ذلك كما في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨] قوله تعالى : ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة:٩٨] بعد قوله : ﴿وَمَلَكِيكِهِ﴾ [البقرة:٩٨] وقوله تعالى : ﴿وَالصَّلَاةَ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:٢٣٨] بعد قوله : ﴿الصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٢٣٨] ووجه المشابهة بينهما أنه حمل قوله تعالى : ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة:٩٨] على التشریف والتفضيل عند تعذر حمله على تعليق العداوة به لثلا يلزم تحصيل الحاصل ، وكذا في المثال الأخير تعذر حمله على إيجاب المحافظة لما قلنا ، وهنا تعذر حمله على حقيقته وهو الجنس بأن حقيقته انحصار كل حق في هذه السورة وهو منتف ، أو حمل الحق على معهود سابق وهو منتف وحمله على بعض الحق يلزم منه وصف هذه السورة بوصف مشترك بينها وبين كل السور ، وأنه لا يحسن كما لو قال : وجاءك في هذه الحق آيات الله أو كلام الله أو كلام معجز ، فجعل مجازا عن التفضيل والتشريف .

وقيل : الإشارة بهذه إلى الدنيا لا إلى السورة ، والجمهور على القول الأول . ولا يقال إنما خصت هذه السورة بذلك لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢] والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين لأننا نقول الأمر بالاستقامة جاء أيضاً في سورة "حم عسق" قال الله تعالى : ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥] ولا يصلح هذا علة للتخصيص ، والله أعلم .

سورة يوسف عليه السلام

٤٧٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] ولم يقل ثلاثة عشر كوكبًا وهو أوجز وأخصر ، والذي رآه كان أحد عشر كوكبًا غير الشمس والقمر ؟

قلنا : قصد عطفها على الكواكب تخصيصًا لها بالذكر وتفضيلاً لها على سائر الكواكب لما لها من المزية والرتبة على الكل ، ونظيره تأخير جبريل وميكائيل عن الملائكة عليهم السلام ثم عطفها عليهم إن قلنا إنها غير مرادين بلفظ الملائكة وكذا قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] إن قلنا إنها غير مرادة بلفظ الصلوات .

٤٧٧ - فإن قيل : ما فائدة تكرار رأيت ؟

قلنا : قال الزمخشري : ليس ذلك تكراراً ، بل هو كلام مستأنف وضع جواباً لسؤال مقدر من يعقوب عليه السلام ، كأنه قال له بعد قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [يوسف: ٤] كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها ، فقال مجيباً له : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال الزجاج : إنما كرر الفعل تأكيداً لما طال الكلام كما في قوله تعالى : ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] - : ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال غيره ، إنما كرره تفخيماً للرؤية وتعظيماً لها .

٤٧٨ - فإن قيل : كيف أجريت مجرى العقلاء في قوله : ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ [يوسف: ٤] وفي قوله : ﴿سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وأصله رأيتها ساجدة ؟

قلنا : لما وصفها بما هو من صفات من يعقل وهو السجود أجرى عليها

من غرائب آي التنزيل = ١٧٩

حكمه كأنها عاقلة ، وهذا شائع في كلامهم أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطى حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابس المقارنة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا﴾ [النمل: ١٨] وقوله تعالى في وصف السماء والأرض : ﴿قَالَتْ أَتَبْنَاءُ طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] .

٤٧٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿يَرْتَعَ وَيَلْعَبُ﴾ [يوسف: ١٢] وكانوا عاقلين بالغين وأنبياء أيضًا في قول البعض ، وكيف رضى يعقوب عليه السلام لهم بذلك ؟

قلنا : على قراءة الياء لا إشكال لأن يوسف عليه السلام كان يومئذ دون البلوغ فلا يحرم عليه اللعب ، وعلى قراءة النون نقول كان لعبهم المسابقة والمناضلة ليعودوا دون أنفسهم الشجاعة لقتال الأعداء لا للهو وذلك جائز بالشرع ، ويعضد هذا قولهم : ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧] وإنما سموه لعبًا ، لأنه في صورة اللعب ، ويرد على أصل السؤال أن يقال : كيف يتورعون عن اللعب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من اللعب وأشد وهو إلقاء أخيهم في الجب على قصد القتل .

٤٨٠ - فإن قيل : كيف اعتذر إليهم يعقوب عليه السلام بعذرين أحدهما : ﴿إِنِّي لَيْخَزْنَتِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٣] لأنه كان لا يصبر عنه ساعة واحدة ، والثاني خوفه عليه من الذئب ، فأجابوه عن أحد العذرين دون الآخر ؟

قلنا : حبه وإياه وإيثاره له وعدم صبره على مفارقه هو الذى كان يغيظهم ويؤلمهم فأضربوا عنه صفحًا ولم يحيبوا عنه .

٤٨١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ١٥] وهو يومئذ لم يكن بالغًا ، والوحي إنما يكون بعد الأربعين ؟

قلنا : المراد به وحى الإلهام لا وحى الرسالة الذى هو مخصوص بها بعد الأربعين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧] وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨] .

٤٨٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [يوسف: ٢٢] وقال فى حق موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [القصص: ١٤] .

قلنا المراد : ببلوغ الأشد دون الأربعين سنة على اختلاف مقداره ، والمراد بالاستواء بلوغ الأربعين أو الستين ، وكان إتياء كل واحد منهما الحكم والعلم فى ذلك الزمان فأخبر عنه كما وقع .

٤٨٣ - فإن قيل : كيف وحد الباب فى قوله : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ [يوسف: ٢٥] بعد جمعه فى قوله : ﴿ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ [يوسف: ٢٣] ؟

قلنا : لأن إغلاق الباب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق جميع أبواب الدار سواء كانت كلها فى جدار الدار أو لا ، وأما هربه منها إلى الباب فلا يكون إلا إلى باب واحد إن كانت كلها فى جدار الدار ، ولأن خروجه فى وقت هربه لا يتصور إلا من باب واحد منها ، وإن كانت بعض الأبواب داخل بعض ، فإنه أول ما يقصد الباب الأدنى لقربه ، ولأن الخروج من الباب الأوسط والباب الأقصى ، موقوف على الخروج من الباب الأدنى ، فلذلك وحد الباب .

٤٨٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [يوسف: ٢٦] ولم يكن قوله شهادة ؟

قلنا : لما أدى معنى الشهادة فى ثبوت قول يوسف عليه السلام وبطلان قولها سمي شهادة ، فالمراد بقوله شهد : أعلم وبين وحكم .

من غرائب آي التنزيل = ١٨١

٤٨٥ - فإن قيل : ﴿ قَمِيصَهُ رَقْدًا مِنْ دُبُرٍ ﴾ [يوسف: ٢٨] يدل على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته وجذبت قميصه من خلفه فقدته ، وأما قده من قبل فكيف يدل على أنها صادقة .

قلنا : يدل من وجهين ، أحدهما : أنه إذا كان طالبها وهي تدفعه عن نفسها بيدها أو برجلها فإنها تقد قميصه من قبل بالدفع .

الثاني : أنه يسرع خلفها وهي هاربة منه فيعثر في مقدم قميصه فيشقه ، ويرد على الوجه الثاني أنه مشترك الدلالة من جهة العثار الذي هو نتيجة الإسراع ، لأنه يحتمل أن يكون إسراعًا في الهرب منها وهي خلفه فيعثر فيقد قميصه من قبل .

٤٨٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنِ ﴾ [يوسف: ٣١] وإنما يقال : خرجت إلى السوق وطرقت عليه الباب فخرج إلى ؟

قلنا : إذا كان الخروج بقهر وغلبة أو بجمال وزينة أو بآية وأمر عظيم فإنها يعدى بعلى ومنه قولهم خرج علينا في السفر قطاع الطريق ، وقوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ [القصص: ٧٩] وقوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ [مريم: ١١] .

٤٨٧ - فإن قيل : كيف شبهن يوسف عليه السلام بالملك فقلن : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١] وهن ما رأين الملائكة قط ؟ قلنا : إن كن ما رأين الملائكة فقد سمعن وصفها .

الثاني : أن الله تعالى قد ركز في الطباع حسن الملائكة كما ركز فيها قبح الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن بالملك ، وكل متناه في القبح بالشيطان .

٤٨٨ - فإن قيل : كيف قال يوسف عليه السلام : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] وترك الشيء إنما يكون بعد ملابسته والكون فيه ، يقال : ترك فلان شرب الخمر وأكل الربا ونحو ذلك إذا كان فيه ثم أقلع عنه ، ويوسف عليه السلام لم يكن على ملة الكفار قط ؟

قلنا : الترك نوعان : ترك بعد الملابسة ويسمى ترك انتقال ، وترك قبل الملابسة ويسمى ترك إعراض كقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وموسى عليه السلام ما لبس عبادة فرعون ولا عبادة آلهته في وقت من الأوقات وما نحن فيه من النوع الثاني وسيأتى نظير هذا السؤال في سورة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِيْ مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] .

٤٨٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَمْرًا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] فسر الأمر بالنهى أو بما جزؤه النهى وهما ضدان ؟

قلنا : فيه إضمار أمر آخر تقديره أمر أمراً اقتضى أن لا تعبدوا إلا إياه وهو قوله تعالى : ﴿فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦] فإنه باعتبار تقديم المفعول في معنى الحصر كما قال في قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] .

الثاني : أن فيه إضمار نهى تقديره : أمر ونهى ، ثم فسر الأمرين بقوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] .

الثالث : أن قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ [يوسف: ٤٠] وإن كان مضاداً للأمر من حيث اللفظ فهو موافق له من حيث المعنى ، فلم قلتهم : إن تفسير الشيء بما يضاده صورة ويوافقه معنى غير جائز بيان موافقته معنى من وجهين ، أحدهما : أن النهى عن الشيء أمر بضده ، وعبادة الله ضد عبادة غير الله ، والثاني : أن معنى مجموع قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]

اعبدوه وحده فيكون تفسيراً للأمر المطلق بفرد من أفردته وأنه جائر .

٤٩٠ - فإن قيل : الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس زهداً في الدنيا ورغبة في الآخرة ، فكيف قال يوسف عليه السلام : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ٥٥] طلب أن يكون معتمداً على الخزائن متولياً لها وهو من أكبر المناصب الدنيا ؟

قلنا : إنما طلب ذلك ليتوصل به إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ونحوه مما يبعث له الأنبياء ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلب التولية ابتغاء لوجه الله تعالى وسعيًا لمنافع العباد ومصالحهم ، لهم لا لحب الملك والدنيا ، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ [الأعراف: ٨٨] يعني لو كنت أعلم أى وقت يكون القحط لادخرت لزمن القحط طعاماً كثيراً ، لا للحرص لكن لأتمكن من إعانة الضعفاء والفقراء وقت الضرورة والمضايقة ، ويحتمل أن يكون علم تعينه بذلك العمل ، فكان طلبه واجباً عليه .

٤٩١ - فإن قيل : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يأمر المؤذن أن يقول : ﴿ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠] وذلك بهتان وتسريق بالصواع لمن لم يسرقه ، وتكذيب للبريء واتهام من لم يسرق بأنه سرق ؟

قلنا : قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠] تورية عما جرى منهم مجرى السرقة وتصور بصورتها من فعلهم بيوسف ما فعلوه أولاً .

الثانى : أن ذلك القول كان من المؤذن بغير أمر يوسف عليه السلام ، كذا قاله بعض المفسرين .

الثالث : أن حكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التى يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية ، كقوله تعالى لأَيُّوب عليه السلام : ﴿ وَخُذْ بِدِكَ ضِغْتًا

فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَنْ ﴿[ص: ٤٤] وقول إبراهيم عليه السلام في حق زوجته وهي أختي لتسلم من يد الكافر ، وما أشبه ذلك .

٤٩٢ - فإن قيل : كيف تأسف يعقوب عليه السلام على يوسف دون أخيه بقوله : ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] والرزء الأحدث أشد على النفس وأعظم أثرًا ؟

قلنا : إنما يكون أشد إذا تساوت المصيبتان في العظم ولم يتساويا هنا ، بل فقد يوسف كان أعظم عليه وأشد من فقد أخيه ، فإنما خصه بالذكر ليدل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده ما زال غضبًا طريًا .

٤٩٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ [يوسف: ٨٤] والحزن لا يحدث بياض العين : لا طبًا ولا عرفًا ؟

قلنا : قال ابن عباس : أى : من البكاء ، لأن الحزن سبب البكاء ، فأطلق اسم السبب وأراد به المسبب ، وكثرة البكاء قد تحدث بياضًا في العين يغشى السواد ، وهكذا حدث ليعقوب عليه السلام وقيل : إذا كثرت الدموع محقت سواد العين وقلبت إلى بياض كدر .

٤٩٤ - فإن قيل : كيف قال يعقوب عليه السلام : ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] مع أن من المؤمنين من يئس من روح الله ، أى من فرجه وتنقيسه أو من رحمته على اختلاف القولين ، إما لشدة مصيبته أو لكثرة ذنوبه ، كما جاء في الحديث في قصة الذى أمر أهله إذا مات أن يحرقوه ويذروا رماده في البر والبحر ففعلوا به ذلك ، ثم إن الله غفر له كما جاء مشروحًا في الحديث المشهور وهو من الصحاح ^(١) ، مع أنه يئس من رحمة الله تعالى وضم إلى يأسه ذنبًا آخر وهو اعتقاده : أنه إذا أحرق وذرا رماده لا يقدر

الله على إحيائه وتعذيبه ومع هذا كله يغفر له ، فدل على أنه لمن يمت كافراً ؟
قلنا : إنما ييأس من روح الله الكافر لا المسلم عملاً بظاهر الآية ، وكل مؤمن يتحقق من اليأس من روح الله فهو كافر في الحال حتى يعود إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله ، وأما الرجل المغفور له في الحديث فلا نسلم أنه لم يكفر ، ثم إن الله تعالى لما أحياه في الدنيا عاد إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله تعالى فلذلك غفر له ، وقد يكون قد عاد إلى رجاء روح الله تعالى قبل موته الأولى ، ولم يتسع له الزمان أن يرجع عن وصيته التي أوصى بها أهله ، فمات مسلماً فلذلك غفر له .

٤٩٥ - فإن قيل : في قوله تعالى : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ [يوسف: ١٠٠] كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله تعالى ؟

قلنا : لعله كان السجود عندهم تحية وتكرمة كالقيام والمصافحة عندنا .
وقيل : كان انحناء كالركوع ولم يكن بوضع الجبهة على الأرض ، إلا أن قوله تعالى : ﴿ وَخَرُّوا ﴾ [يوسف: ١٠٠] يابى ذلك ، لأن الخرور عبارة عن السقوط ، ولا يرد عليه قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّرَّا كَعَا ﴾ [ص: ٢٤] لأنهم قالوا أراد به ساجداً فعبر عن السجود بالركوع كما عبر عن الصلاة في قوله تعالى : ﴿ وَأَزْكَوْا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣] أى : صلوا مع المصلين ، وقيل له : أى لأجله ، فاللام للسببية لا لتعدية السجود إلى يوسف عليه السلام ، فالمعنى وخرروا لأجل يوسف سجداً لله تعالى شكراً على جمع شملهم به وقيل : الضمير في له يعود إلى الله تعالى ، وهذا الوجه يدفعه قوله تعالى : ﴿ يَتَأَبَّتِ هَذَا تَآوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠] .

٤٩٦ - فإن قيل : كيف ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله تعالى عليه في إخراجه من السجن فقال : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠]

ولم يذكر نعمته عليه في إخراجه من الحب ، وهو أعظم نعمة ، لأن وقوعه في الحب كان أعظم خطراً؟

قلنا : إنها ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة لوجوه :

أحدها : أن محنة السجن ومصيبة كانت أعظم لطول مدتها ، فإنه لبث فيه بضع سنين وما لبث في الحب إلا مدة يسيرة .

الثاني : أنه إنما لم يذكر الحب كيلاً يكون في ذكره توبيخ وتقريع لإخوته عند قوله لهم : ﴿ لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢] .

الثالث : أن خروجه من السجن كان مقدمة للملكه وعزه فلذلك ذكره ، وخروجه من الحب كان مقدمة الذل والرق والأسر فلذلك لم يذكره .

الرابع : أن مصيبة السجن كانت أعظم عنده لمصاحبة الأوباش والأراذل وأعداء الدين ، بخلاف مصيبة الحب فإنه كان مؤنس فيه جبريل وغيره من الملائكة عليهم السلام .

٤٩٧ - فإن قيل : كيف قال يوسف : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ [يوسف: ١٠١] وهو يعلم أن كل نبي لا يموت إلا مسلماً؟

قلنا : يجوز أن يكون دعا بذلك في حالة الخوف عليه غلبة أذهلته عن ذلك العلم في تلك الساعة .

الثاني : أنه دعا بذلك مع علمه إظهاراً للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادته الخاتمة وتعليماً للأمة وطلباً للشواب .

٤٩٨ - فإن قلنا : كيف يجتمع الإيمان والشرك وهما ضدان حتى قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]؟

قلنا : معناه وما يؤمن أكثرهم بأن الله تعالى خالقه ورازقه وخالق السموات

والأرض قولاً إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلاً .

الثانى: أن المراد بها المنافقون يؤمنون بألسنتهم قولاً ويشركون بقلوبهم اعتقاداً .

الثالث : أن المراد بها تلبية العرب ، كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، فكانوا يؤمنون بأول تلييتهم بنفى الشريك ويشركون بآخرها بإثباته .

٤٩٩ - فإن قيل : هذه التلبية توحيد كلها ولا شرك فيها ، لأن معنى قولهم : إلا شريكاً : هو لك ، إلا شريكاً هو مملوك لك موصوفاً بأنك تملكه وتملك ما ملك ، واللام هنا للملك لا لعلاقة الشركة ، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون حقيقياً ويحتمل أن يكون مجازياً ، بيان الأول أنا إن قلنا إن اللام حقيقة المعنى العام في مواردنا وهو الاختصاص يكون قولهم : لا شريك لك ، عاماً في نفى كل شريك يضاف إلى الله تعالى بجهة اختصاص ما ، فيدخل في النفى من جهة لفظ الشريك المضاف بجهة المملوكية ، وهو شريك زيد وعمرو ونحوهم ثم يقع عليه الاستثناء فيكون استثناء حقيقياً ، وإن قلنا : إنها مشتركة بين المعانى الثلاثة الموجودة في موارد استعمالها وهى الملك والاستحقاق ، ويقال : الاختصاص والعلية ، فقولهم : لا شريك لك يكون عاماً أيضاً عند من يجوز حمل المشترك على مفهومه في حالة واحدة فيكون الاستثناء أيضاً حقيقياً كما مر ، وأما على قول من لا يجوز ذلك يكون النفى وارداً على أحد مفهوماته وهو علاقة الشركة ، فيكون الاستثناء بعده مجازياً من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو نوع من أنواع البلاغة المذكور في علم البيان ، وشاهده قول الشاعر :

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب^(١)

معناه : إن كان هذا عيباً ففيهم عيب ، وهذا ليس بعيب فلا يكون فيهم عيب ، فكذا هنا معناه : إن كان الشريك المملوك لك يصلح شريكاً فلك شريك وهو لا يصلح شريكاً لك فلا يكون لك شريك ، لأن كل ما يدعى أنه شريك لك فهو مملوك لك ، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] الآية ؟

قلنا : على الوجه الأول : إنه ليس بصحيح ، لأنه لو جعلنا اللام حقيقة في المعنى العام وهو الاختصاص يلزم منه الكفر حيث وجد نفى الشريك من غير استثناء ، لأنه يلزم منه نفى ملكه تعالى شريك زيد وعمرو ونحوهما وهو الكفر ، واللازم منتف لأنه إيمان محض بلا خلاف .

٥٠٠ - فإن قيل : إنما لم يكن كفراً مع عمومه لأن الحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء نفى كل شريك يضاف إلى الله تعالى بعلاقة الشريك ، لا نفى كل شريك يضاف إليه بجهة ما ، فصارت الحقيقة اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء .

والجواب : عن أصل السؤال أنه سؤال حسن محقق ، وأن هذه التلبية توحيد محض على التقديرين ، فإن صح النقل أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عنها فإنما نهى عنها لأنها توهم إثبات الشريك لمقتضى الاستثناء عند قاصري النظر ، وهم عوام الناس ، فلهذه المفسدة نهى عنها .



سورة الرعد

٥٠١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠] ولم يقل ومن هو سارب بالنهار ، ليتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب ، وإلا فقد تناول واحداً هو مستخف وسارب : أى ظاهر ، وليناسب لفظ الجملة الأولى والثانية ، فإنه قال في الجملة الأولى : ﴿ مَنْ أَسْرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ [الرعد: ١٠] ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿ سَارِبٌ ﴾ معطوف على ﴿ مَنْ ﴾ لا على مستخف ، فيتناول معنى الاستواء اثنين .

الثانى : أنه وإن كان معطوفاً على مستخف إلا أن " من " هنا فى معنى التثنية كقوله :

نكن مثل مَنْ يا ذئبُ يصطحبان (١)

فكأنه قال : سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار .

٥٠٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [الرعد: ١٤] أى : فى ضياع وبطلان ، والكفار يدعون الله تعالى فى وقت الشدائد ، والأهوال ومشارفتهم الغرق فى البحر ، فيستجيب لهم ؟

قلنا : المراد وما عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال ، ويعضده قوله تعالى قبله : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الرعد: ١٤] أى : يعبدون .

٥٠٣ - فإن قيل : كيف طابق قولهم : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الرعد: ٢٧] قوله : ﴿ قُلْ إِنْ أَلَّهِ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧] ؟

(١) البيت للفرزدق .

قلنا : هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم ، لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يؤتها نبي قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فإذا جحدوا آياته ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط كان موضعاً يتعجب منه ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم .

٥٠٤ - فإن قيل : كيف المطابقة بين قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَابِئٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣] وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ [الرعد: ٣٣] ؟

قلنا : فيه محذوف تقديره : أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ما كسبت من خير وشر ، ويعد لكل جزاء كمن ليس كذلك وهو الصنم ، ثم ابتداء فقال : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ [الرعد: ٣٣] أو تقديره : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحده وجعلوا له شركاء ، أو التقدير : أفمن كان بهذه الصفة يغفل عن أهل مكة وأقوالهم وأفعالهم وجعلوا لله شركاء .

٥٠٥ - فإن قيل : كيف اتصل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ [الرعد: ٣٦] بما قبله وهو قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ [الرعد: ٣٦] ؟

قلنا : هو جواب للمنكرين معناه : قل إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله ولا أشرك به ، فإنكارهم لبعضه إنكار لعبادة الله تعالى وتوحيده ، كذا أجاب به الزحخشري ، وفيه نظر .

٥٠٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [الرعد: ٤٢] أثبت لهم منكراً ثم نفاه عنهم بقوله تعالى : ﴿ قَلِيلٌ أَلْمَكُ جَمِيعاً ﴾ [الرعد: ٤٢] ؟

قلنا : معناه أن مكر الماكرين مخلوق له ولا يصير إلا بإرادته ، فهذه الجهة

من غرائب آي التنزيل

١٩١

صحت إضافة مكرهم إليه .

الثاني : أنه جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره ، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون فيعكس مكرهم عليهم ، إثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه عنهم باعتبار الخلق .

سورة إبراهيم عليه السلام

٥٠٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ

لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤] هذا في حق غير النبي عليه الصلاة والسلام من الرسل مناسب ، لأن غيره لم يبعث إلى الناس كافة بل إلى قومه فقط ، فأرسل بلسانهم ليفقهوا عنه الرسالة ولا تبقى لهم حجة بأننا لم نفهم رسالتك ، فأما النبي عليه الصلاة والسلام فإنه بعث إلى الناس كافة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨] : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ:٢٨] فأرساله بلسان قومه إن كان لقطع حجة العرب ، فالحجة باقية لغيرهم من أهل الألسن الباقية ، وإن لم يكن لغير العرب حجة أن لو نزل القرآن بلسان غير العرب يكن للعرب الحجة ؟

قلنا : نزوله على النبي عليه الصلاة والسلام بلسان واحد كاف ، لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغنى عن نزوله لجميع الألسن ، ويكفى مؤونة التطويل كما جرى في القرآن العزيز .

الثاني : أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والخلاف .

الثالث : أنه لو نزل بالسنة كل الناس وكان معجزاً في كل واحد منها ، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها لكان ذلك أمراً قريباً من القسر والإلجاء ، وبعثة الرسل لم تبين على القسر والإلجاء بل على التمكين من الاختيار ، فلما كان نزوله بلسان واحد كافياً كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ، لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه .

من غرائب آي التنزيل ١٩٣

٥٠٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَذَّبْحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩] وفي سورة الأعراف: ﴿يَقْتُلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤١] بغير واو فيهما ، وقال هنا : ﴿يَذَّبْحُونَ﴾ [إبراهيم: ٦] بالواو والقصة واحدة ؟

قلنا : حيث حذف الواو جعل التذبيح والتقتيل تفسيراً للعذاب وبياناً له ، وحيث أثبتتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب ، لأنه أوفى على بقية أنواعه وزاد عليها زيادة ظاهرة ، فعلى هذا يكون إثبات الواو أبلغ .

٥٠٩ - فإن قيل : ما معنى التبعض في قوله تعالى : ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠] ؟

قلنا : ما جاء هذا إلا في خطاب الكافرين ، كقوله تعالى في سورة نوح عليه السلام : ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح] وقوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿يَقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١] وقال تعالى في خطاب المؤمنين في سورة الصف : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ﴾ [الصف: ١٠] إلى قوله : ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] وقال تعالى في آخر سورة الأحزاب : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] وكذا باقى الآيات في خطاب الفريقين إذا تتبعتهما ، وما ذلك إلا للترفة بين الخطابين لثلا يسوى بين الفريقين في الوعد مع اختلاف رتبتهما ، لا لأنه يغفر للكفار مع بقائهم على الكفر بعض ذنوبهم ، والذي يؤيد ما ذكرناه من العلة أنه في سورة نوح عليه السلام وفي سورة الأحقاف وعدهم مغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان مطلقاً ، وقيل معنى التبعض أنه يغفر لهم ما بينهم وبينه لا ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها ، وقيل " من " زائدة .

٥١٠ - فإن قيل : كيف كرر تعالى الأمر بالتوكل وكيف قال أولاً : ﴿وَعَلَىٰ

﴿اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١] وقال ثانيًا : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] ؟

قلنا : الأمر الأول لاستحداث التوكل ، والثاني لتثبيت المتوكلين على ما استحدثوا من توكلهم فلهذا كرهه ، وقال أولاً " المؤمنون " وثانيًا " المتوكلون " .

٥١١ - فإن قيل : كيف قالوا لرسولهم : ﴿أَوَلْتَعُوذُ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] والرسول لم يكونوا على ملة الكفار قط ، والعود هو الرجوع إلى ما كان فيه الإنسان ؟

قلنا : العود في كلام العرب يستعمل كثيرًا بمعنى الصيرورة ، يقولون : عاد فلان يكلمني ، وعاد لفلان مال وأشباه ذلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: ٣٩] .

الثاني : أنهم خاطبوا الرسول بذلك بناء على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسول كانوا أولاً على ملل قومهم ثم انتقلوا عنها .

الثالث : أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد ، ونظير هذا السؤال ما سبق في سورة الأعراف من قوله تعالى : ﴿أَوَلْتَعُوذُ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] وفي سورة يوسف عليه السلام من قوله تعالى : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] الآية .

٥١٢ - فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَقُلْ أَنْتُمْ تُؤْتُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] ؟

قلنا : لما كان قول الضعفاء توبيخًا وتقريعًا وعتابًا للذين استكبروا على استتباعهم إياهم واستغوائهم ، أحالوا الذنب على الله تعالى في ضلالهم

فقوله : ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] نفى اللبس ، وكذا قوله تعالى : ﴿مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥] وقول الحطيئة يوم يلتقى ربه ، وقوله تعالى : ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] لأن قضاء الأمر إنما يكون يوم القيامة .

٥١٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقد رأينا كثيراً من الظالمين هداهم الله بالإسلام وبالتوبة وصاروا من الأتقياء ؟

قلنا : معناه أنه لا يهديهم ماداموا مصرين على الكفر والظلم معرضين عن النظر والاستدلال .

الثاني : أن المراد منه الظالم الذي سبق له القضاء في الأزل أنه يموت على الظلم ، فالله تعالى يثبتته على الضلالة لخذلانه ، كما يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وهو كلمة التوحيد .

الثالث : أن معناه : أن يضل المشركين عن طريق الجنة يوم القيامة .

٥١٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ أُنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] والضللال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد وهي الأصنام ، وإنما عبدوها لتقربهم إلى الله تعالى ، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله : ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ؟

قلنا : قد شرحنا ذلك في سورة يونس عليه السلام إذ قلنا هذه لام العاقبة والصيرورة لا لام الغرض ، والمقصود كما في قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وقول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب (١)

من غرائب آي التنزيل
وقول الآخر :

فللموت تغدو الوالدات سخاها كما للخراب الدهر تبنى المساكن
والمعنى فيه أنهم لما أفضى بهم اتخاذ الأنداد إلى الضلال أو الإضلال صار
كأنهم اتخذوها لذلك ، وكذا الالتقاط والولادة والبناء ، ونظائره كثيرة في القرآن
العزيز وفي كلام العرب .

٥١٧ - فإن قيل : كيف طابق الأمر بإقامة الصلاة وإنفاق المال وصف
اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟

قلنا : معناه : قل لهم : يقدمون من الصلوات والصدقة متجراً يجدون ربحه
يوم لا تنفعهم متاجر الدنيا من المعارضات والصدقات التي يجلبونها بالهدايا
والتحف لتحصيل المنافع الدنيوية ، فجاءت المطابقة .

٥١٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]
أي : لا صداقة ، وفي يوم القيامة خلال لقوله تعالى : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] ولقوله عليه الصلاة والسلام : " المرء مع
من أحب " (١) ؟

قلنا : لا خلال فيه لمن لم يقم الصلاة ولم يؤد الزكاة ، فأما المقيمون الصلاة
والمؤتون الزكاة فهم الأتقياء ، وبينهم الخلال يوم القيامة لما تلونا من الآية .

٥١٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ
لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣] والمسخر للإنسان هو الذى يكون فى طاعته
يصرفه كيف شاء فى أمره ونهيه كالدابة والعبد والفلك كما قال تعالى : ﴿وَتَقُولُوا
سُبْحَنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف: ١٣] وقال تعالى : ﴿لِنَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

سُخْرِيًّا ﴿ [الزخرف: ٣٢] وقال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]
ويقال فلان مسخر لفلان إذا كان مطيعاً له وممثلاً لأوامره ونواهيه ؟

قلنا : لما كان طلوعهما وغروبهما وتعاقب الليل والنهار لمنافعنا متصلاً
مستمراً اتصالاً لا تنقطع علينا فيه المنفعة ولا تنخرم سواء شاءت هذه
المخلوقات أم أبى ، أشبهت المسخر المقهور فى الدنيا كالعبد والفلك ونحوهما .
والثانى : أن معناه أنها مسخرة لله لأجلنا ومنافعنا فإضافة التسخير إلى الله
تعالى : بمعنى أنه فاعل التسخير ، وإضافة التسخير إلينا بمعنى عود نفع
التسخير إلينا ، فصحت الإضافتان .

٥٢٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَتَّكُم مِّن كُلِّ مَآ سَأَلْتُمُوهُ﴾
[إبراهيم: ٣٤] والله تعالى لم يعطنا كل ما سألناه ولا بعضاً من كل فرد مما سألناه ؟
قلنا : معناه وآتاكم بعضاً من جميع ما سألتموه لا من كل فرد فرد .

٥٢١ - فإن قيل : لا يصح هذا المحمل لوجهين ، أحدهما أنه لا يحسن
الامتنان به .

الثانى : أنه لا يناسبه قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾
[إبراهيم: ٣٤] ؟

قلنا : إذا كان البعض الذى أعطانا هو الأكثر من جميع ما سألناه وهو
الأصلح والأنتفع لنا فى معاشنا ومعادنا بالنسبة إلى البعض الذى منعه عنا
لمصلحتنا أيضاً ، لا يحسن الامتنان به ويكون مناسباً لما بعده .

وجواب آخر : عن أصل السؤال أنه يجوز أن يكون قد أعطى جميع
السائلين بعضاً من كل فرد مما سألهم جميعهم ، وبهذا المقدار يصح الإخبار فى
الآية وإن لم يعط كل واحد من السائلين بعضاً من كل فرد مما سألهم ، وإيضاح

من غرائب آي التنزيل ١٩٩

ذاك أن يكون هذا قد أعطى شيئًا مما سأله ذلك ، وأعطى ذاك شيئًا مما سأله هذا ، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة في حقها ، كما أعطى النبي عليه الصلاة والسلام الرؤية ليلة المعراج وهى مسؤول موسى عليه السلام وما أشبه ذلك .

٥٢٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] والإحصاء والعِد بمعنى واحد كذا نقله الجوهري ، فيكون المعنى : وإن تعدوا نعمة الله لا تعدوها ، وهو متناقض كقولك : إن تر زيدًا لا تبصره ، إذ الرؤية والإبصار واحد؟

قلنا : بعض المفسرين فسر الإحصاء بالحصر ، فإن صح ذلك لغة اندفع السؤال ، ويؤيد ذلك قول الزمخشري : لا تحصوها ، أى : لا تحصرها ، ولا تطبقوها وبلغ آخرها ، وعلى القول الأول فيه إضمار تقديره : وإن تريدوا عد نعمة الله لا تعدوها .

٥٢٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وهو يوهم أن نعم الله غير متناهية ، وكل نعمة ممتن بها علينا فهى مخلوقة ، وكل مخلوق متناه ؟

قلنا : لا نسلم أنه يوهم أنه لا تتناهى ، وذلك لأن المفهوم منه منحصر فى أنا لا نطبق عدّها أو حصر عددها ، ويجوز أن يكون الشئ متناهيًا فى نفسه ، والإنسان لا يطبق عدّه كرملة القفار وقطر البحار وورق الأشجار وما أشبه ذلك .

٥٢٤ - فإن قيل : كيف قال إبراهيم عليه السلام : ﴿وَأَجَبْنِي وَيَنْبَأْ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وعبادة الأصنام كفر ، والأنبياء معصومون عن الكفر بإجماع الأمة ، فكيف حسن منه هذا السؤال ؟

قلنا : إنما سأل هذا السؤال فى حالة خوف أذهله عن ذلك العلم ، لأن

الأنبياء عليهم السلام أعلم الناس بالله فيكونون أخوفهم منه فيكون معذورًا بسبب ذلك ، وقيل إن : في حكمة الله تعالى وعلمه ألا يتلى نبيًا من الأنبياء بالكفر ، بشرط أن يكون متضرعًا إلى ربه طالبًا منه ذلك ، فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة .

٥٢٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] جعل الأصنام مضلة ، والمضل ضار ، وقال في موضع آخر : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ [يونس: ١٨] ، ونظائره كثرة فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : إضافة الإضلال إليها مجاز بطريق المشابهة ووجهه أنهم لما ضلوا بسببها فكأنها أضلتهم ، كما يقال فتنتهم الدنيا وغرتهم ، أى : افتتنوا بسببها واغتروا ، ومثله قولهم : دواء مسهل ، وسيق قاطع ، وطعام مشبع ، وماء مرو ، وما أشبه ذلك ، ومعناه : حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء وفاعل الآثار هو الله تعالى .

٥٢٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَفئِدَّةً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ولم يقل : أفئدة الناس ، قوله : قلوب الناس أظهر استعمالاً من قوله قلوباً من الناس ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لو قال إبراهيم عليه السلام في دعائه أفئدة الناس ، لحجت جميع الملل وازدحم عليه الناس حتى لم يبق لمؤمن فيه موضع ، مع أن حجج غير الموحدين لا يفيد ، والأفئدة هنا القلوب في قول الأكثرين ، وقيل : الجماعة من الناس .

٥٢٧ - فإن قيل : إذا كان الله تعالى قد ضمن رزق العباد ، فلم سأل إبراهيم عليه السلام الرزق لذريته فقال : ﴿ وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ؟ قلنا : الله تعالى ضمن الرزق والقوت الذى لا بد للإنسان منه ما دام حيًا ولم

يضمن كونه ثمرًا أو حبًا أو نوعًا معينًا ، فالسؤال كان لطلب الثمر عينا.

٥٢٨ - فإن قيل : قوله : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩] شكرًا على نعمة الولد ، فكيف يناسبه بعده : ﴿ إِنْ رَّبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ؟

قلنا : لما كان قد دعا ربه لطلب الولد بقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠] فاستجاب له ناسب قوله بعد الشكر : ﴿ إِنْ رَّبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أى لمحبيه من قولهم : سمع الملك قول فلان إذ أجابه وقبله ، ومنه قولهم في الصلاة " سمع الله لمن حمده " أى : أجابه وأثابه .

٥٢٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [نوح: ٢٨] استغفر إبراهيم لوالديه وكانا كافرين ، والاستغفار للكافرين لا يجوز ، ولا يقال : إن هذا موضع الاستثناء المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية ، لأن المراد بذلك استغفاره لأبيه خاصة بقوله : ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء: ٦٨٦] والموعدة التي وعدها إياه إنما كانت له خاصة بقوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم: ٤٧] ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرُ لَكَ ﴾ [الممتحنة: ٤] ؟

قلنا : هذا الاستغفار لهما كان مشروطًا بإيمانهم تقديرًا ، كأنه قال ولوالدي إن آمنا :

الثاني : أنه أراد بهما آدم وحواء صلوات الله عليهما ، وقرأ ابن مسعود وأبى النخعي والزهري رضى الله عنهم : " لولدى " يعنى إسماعيل وإسحاق ، ويعضد هذه القراءة سبق ذكرهما ، ولا إشكال على هذه القراءة وقيل : إن هذا الدعاء على القراءة المشهورة كان زلة من إبراهيم صلوات الله عليه ، وإليها أشار بقوله : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢] .

٥٣٠ - فإن قيل : الله تعالى منزّه ومتعال عن الغفلة ، والنبي عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بصفات جلاله وكماله ، فكيف يحسبه النبي عليه الصلاة والسلام غافلاً وهو أعلم الخلق بالله حتى نهاه عن ذلك بقوله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] ؟

قلنا : يجوز أن يكون هذا نهياً لغير النبي عليه الصلاة والسلام ممن يجوز أن يحسبه غافلاً لجهله بصفاته ، وقوله تعالى بعده : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] لا يدل قطعاً على أن الخطاب الأول للنبي عليه الصلاة والسلام ، لجواز أن يكون ذلك النهي لغيره مع أن هذا الأمر له .

الثاني : أنه مجاز معناه : ولا تحسبن الله مهمل الظالمين وتاركهم سدى ، أى : لكون هذا من لوازم الغفلة عنهم .

الثالث : أن النهى وإن كان حقيقة والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام فالمراد به دوامه وثباته على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧] وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣] ونظير هذا النهى من الأمر قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] وقول بعض المفسرين : إن معنى الآية يا أيها الذين آمنوا ، بموسى أو بعيسى آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام لا يخرج الآية عن كونها نظيراً ، لأن الاستبدال بالإيمان باقى ، فتأمل .



سورة الحجر

٥٣١ - فإن قيل : كيف قالوا : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦] اعترفوا بنبوته ، إذ الذكر هو القرآن الذي نزل عليه ثم وصفوه بالجنون ؟

قلنا : إنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية لا تصديقاً واعترافاً ، كما قال فرعون لقومه : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] وكما قال قوم شعيب عليه السلام : ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] ونظائره كثيرة .
الثاني : أن فيه إضماراً تقديره : يا أيها الذي تدعى أنك نزل عليك الذكر .

٥٣٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأِنَّا لَتَنَخُنَّ نُحْيٍ وَنُفِثُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣] والوارث هو الذي يتجدد له الملك بعد فناء المورث ، والله تعالى إذا مات الخلائق لم يتجدد له ملك ، لأنه لم يزل مالكا للعالم بجميع ما فيه ومن فيه ؟

قلنا : الوارث في اللغة عبارة عن الباقي بعد فناء غيره ، سواء تجدد له من بعده ملك أولاً ، وهذا يصح أن يقال لمن أخبر أن زيداً مات وترك ورثة هل ترك لهم مالاً أولاً ، فيكون معنى الآية : ونحن الباقيون بعد فناء الخلائق .

الثاني : أن الخلائق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون يسمون بذلك أيضاً إما مجازاً أو خلافة عن الله تعالى كالعبد المأذون والمكاتب ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:٢٦] فإذا مات الخلائق كلهم سلمت الأملاك كلها لله تعالى عن ذلك القدر من التعلق ، فبهذا الاعتبار كانت الورثة ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] والملك له أولاً

وأبداً .

٥٣٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ [الحجر: ٣٠] دل على الشمول والإحاطة وأفاد التوكيد ، فما فائدة قوله : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠] ؟ قلنا : قال سيبويه والخليل ^(١) ، هو توكيد بعد توكيد ، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقديره في الذهن ، فلا يكون تحصيل الحاصل ، بل تكون نسبة أجمعون كنسبة كلهم إلى أصل الجملة ، وقال المبرد ^(٢) : قوله تعالى : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠] يدل على اجتماعهم في زمان السجود ، وكلهم يدل على وجود السجود من الكل ، فكأنه قال : فسجد الملائكة كلهم معاً في زمان واحد ، واختار ابن الأنباري هذا القول ، واختار الزجاج وأكثر الأئمة قول سيبويه وقالوا : لو كان الأمر كما زعم المبرد لكان أجمعون حالاً لوجود حد الحال فيه ، وليس بحال لأنه مرفوع ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التوكيد .

٥٣٤ - فإن قيل : ما وجه ارتباط قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحجر: ٥١] بما قبله من قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي ﴾ [الحجر: ٤٩] الآيتين ؟

قلنا : لما أنزل الله عز وجل : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي ﴾ [الحجر: ٤٩] الآيتين ولم يعين أهل المغفرة وأهل العذاب غلب الخوف على الصحابة رضى الله عنهم : فأنزل الله تعالى بعد ذلك قصة ضيف إبراهيم عليه السلام ليزول خوف الصحابة وتسكن قلوبهم ، فإن ضيف إبراهيم عليه السلام جاءوا ببشارة للولى وهو إبراهيم ، وعقوبة للعدو وهم قوم لوط عليه السلام وكذلك تنزل الآيتين المتقدمتين على الولى والعدو لا على الولى وحده .

(١) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي إمام في اللغة والأدب وواضع علم العروض ومعجم العين توفي سنة ١٧٠ هـ .

(٢) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي إمام العربية واشتهر بالمبرد لأن إجاباته كانت تبرد قلوب من يسألونه .

من غرائب آي التنزيل = ٢٠٥

الثانى : أن وجه الارتباط أن العبد وإن كان كثير الذنوب والخطايا غير طامع فى المغفرة ، لا يبعد أن يغفر الله تعالى له على يأسه ، كما رزق إبراهيم الولد على يأسه بعدما شاخ ، وبلغ مائة سنة أو قريباً منها .

٥٣٥ - فإن قيل : كيف قالت الملائكة : ﴿ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [الحجر: ٦٠] أى قضيتنا ، والقضاء لله تعالى لا لهم ؟

قلنا : إسناد التقدير للملائكة هو مجاز ، كما يقول خواص الملك ، دبرنا كذا وأمرنا بكذا ونبيننا عن كذا ، ويكون الفاعل لجميع ذلك هو الملك لا هم ، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك .

٥٣٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر: ٨٠] وأصحاب الحجر قوم صالح ، والحجر اسم واديهام أو مدينتهم على اختلاف القولين ، وقوم صالح لم يرسل إليهم غير صالح فكيف يكذبون المرسلين ؟

قلنا : من كذب رسولاً واحداً فكأنها كذب الكل ، لأن كل الرسل متفقون فى دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى .

٥٣٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿ قَوْمَكَ لَأَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وقال فى سورة الرحمن : ﴿ قِيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] ؟

قلنا : الجواب عنه من وجهين أحدهما قد ذكرناه فى مثل هذا السؤال فى سورة هود .

والثانى : أن المراد هنا أنهم يسألون سؤال توبيخ وهو سؤال : لم فعلتم ، والمراد ثم إنهم لا يسألون سؤال استعلام واستخبار وهو سؤال : هل فعلتم ، أو يقال : إن فى يوم القيامة مواقف ، ففى ، بعضها يسألون ، وفى بعضها لا يسألون ، وتقدم نظيره .

سورة النحل

٥٣٨ - فإن قيل : لم قدمت الإراحة وهى مؤخرة فى الواقع على السروح وهو مقدم فى الواقع فى قوله تعالى : ﴿ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٦] ؟
قلنا : لأن الأنعام فى وقت الإراحة وهى ردها عشيًا إلى المراح تكون أجمل وأحسن ، لأنها تقبل ملأى البطون حاملة الضروع متهادية فى مشيها يتبع بعضها بعضًا ، بخلاف وقت السروح ، وهو إخراجها إلى المرعى ، فإن كل هذه الأمور تكون على ضد ذلك .

٥٣٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُونُوا بِبَلْغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ [النحل: ٧] إن أريد به لم تكونوا بالغيه عليها إلا بشق الأنفس فلا امتنان فيه ، وإن أريد به ولم تكونوا بالغيه بدونها إلا بشق الأنفس فهم لا يبلغونه عليها أيضًا إلا بشق الأنفس ، فما فائدة ذلك ؟

قلنا : معناه وتحمل أثقالكم : أى أجسامكم وأمتعكم معكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بدونها بأنفسكم من غير أمتعكم إلا بجهد ومشقة ، فكيف لو حملتم أمتعكم على ظهوركم ، والمراد بالمشقة : المشقة التى تنشأ من المشى ، أو من المشى مع الحمل على الظهر لا مطلق مشقة السفر ، وهذا مخصوص بحال فقد الإبل ، فظهر فائدة ذلك .

٥٤٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل: ٨] يقتضى حرمة أكل الخيل كما اقتضاه فى البغال والحمر من حيث إنه لم ينص على منفعة أخرى فيها غير الركوب والزينة ، ومن حيث أن التعليل بعلة يقتضى الانحصار فيها كقولك : فعلت هذا لكذا ، فإنه يناقضه أن تكون فعلته لغيره أوله مع غيره إلا إذا كان أحدهما جهة فى الآخر ؟

من غرائب آي التنزيل _____ ٢٠٧

قلنا : ينتقض بالحمل عليها والحراثة بها ، فإن ذلك مباح مع أنه لم ينص عليه .

٥٤١ - فإن قيل : إنما ثبت ذلك بالقياس على الأنعام ، فإنه منصوص عليه فيها بقوله تعالى : ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾ [النحل: ٥] والمراد به كل منفعة معهودة منها عرفاً ، لا كل منفعة ، فثبت مثل ذلك في الخيل والبغال والحمير ؟

قلنا : لو كان ثبوته فيها بالقياس على ثبوته في الأنعام لثبت حل الأكل في الخيل بالقياس على ثبوته في الأنعام أيضاً ، ولو ثبت حل الأكل في الخيل بالقياس لثبت في البغال والحمير ، كما ثبت الحمل والحراثة ثبوتاً شاملاً للكل بالقياس على ثبوته في الأنعام ، والجواب عن الجهة الثانية في أصل السؤال أن هذه اللام ليست لام التعليل بل لام التمكين ، كقوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمْ آلِيلًا لِّتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧] ومع هذا يجوز في الليل غير السكون .

٥٤٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى في وصف ماء السماء : ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١] ولم يقل : كل الثمرات ، مع أن كل الثمرات تنبت بماء السماء ؟

قلنا : كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة ، وإنما ينبت في الدنيا بعض منها أنموذجاً وتذكراً ، فالتبويض بهذا الاعتبار ، فيكون المراد بالثمرات ما هو أعم من ثمرات الدنيا ، ومن يجوز زيادة " من " في الإثبات يحتمل أن يجعلها زائدة هنا .

٥٤٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] المراد بمن لا يخلق الأصنام بدليل قوله تعالى بعده : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] فكيف جىء بـ " من " المختصة بأولى

العلم والعقل ؟

قلنا : خاطبهم على معتقدهم ، لأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم ، ونظير هذا قوله تعالى في الأصنام أيضًا : ﴿الْهَمَّ أَزْجُلُ يَسْتَوْنَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] الآية ، فأجرى عليهم ضمير أولى العلم والعقل لما قلناه ، ويرد على هذا الجواب أن يقال : إذا كان معتقدهم خطأ وباطلاً فالحكمة تقتضى أن ينزعوا عنه ويقلعوا ، لا أن يبقوا عليه ويقروا في خطابهم على معتقدهم إيهامًا لهم أن معتقدهم حق وصواب .

وجوابه : أن الغرض من الخطاب الإفهام ، ولو خاطبهم على خلاف معتقدهم ومفهومهم فقال : أفمن يخلق كما لا يخلق ، لاعتقدوا أن المراد من الثانى غير الأصنام من الجهاد .

الثانى : قال ابن الأنبارى : إنما جاز ذلك لأنها ذكرت مع العالم فغلب عليها حكمه في اقتضاء " من " كما غلب على الدواب في قوله تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥] الآية ، وكما في قول العرب : اشتبه على الراكب وجمله ، فما أدرى من ذا ومن ذا .

٥٤٤ - فإن قيل : هذا إلزام للذين عبدوا الأصنام ، وسموها آلهة تشبيهاً بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فظاهر الإلزام يقتضى أن يقال لهم : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟

قلنا : لما سووا بين الأصنام وخالقها سبحانه وتعالى في تسميتها باسمه وعبادتها كعبادته فقد سووا بينها وبين خالقها قطعاً ، فصح الإنكار بتقديم أيها كان ، وإنما قدم في الإنكار عليهم ذكر الخالق ، إما لأنه أشرف ، أو لأنه هو المقصود الأصل من هذا الكلام تنزيهاً له وإجلالاً وتعظيماً .

٥٤٥ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى فى وصف الأصنام : ﴿غَيْرُ

من غرائب آي التنزيل = ٢٠٩

أَحْيَاءُ ﴿[النحل: ٢١]﴾ بعد قوله تعالى : ﴿أَمْوَاتٌ﴾ [النحل: ٢١] ؟

قلنا : فائدته أنها أموات لا يعقب موتها حياة احترازاً عن أموات يعقب موتها حياة ، كالنطف والبيض والأجساد الميتة ، وذلك أبلغ في موتها كأنه قال : أموات في الحال غير أحياء في المآل .

الثاني : أنه ليس وصفاً لها بل لعبادها ، معناه : وعبادها غير أحياء القلوب .

الثالث : أنه إنما قال : غير أحياء ، ليعلم أنه أراد أمواتاً في الحال ، ولأنها استموت كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] .

٥٤٦ - فإن قيل : كيف عاب الأصنام وعبادها بأنهم لا يعلمون وقت البعث فقال تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١] والمؤمنون الموحدون كذلك ؟

قلنا : معناه وما يشعر الأصنام متى يبعث عبادها ، فكيف تكون آلهة مع الجهل ، أو معناه : وما يشعر عبادها وقت بعثهم لا مفصلاً ولا مجملاً لأنهم ينكرون البعث ، بخلاف الموحدين فإنهم يشعرون وقت بعثهم مجملاً أنه يوم القيامة وإن لم يشعروه مفصلاً .

٥٤٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤] كيف يعترفون بأنه من عند الله تعالى بالسؤال المعاد في ضمن الجواب ثم يقولون هو أساطير الأولين ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة الحجر في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] .

٥٤٨ - فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وقال في موضع آخر : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ

وَزَّرَ أُخْرَى ﴿[الأنعام: ١٦٤]؟

قلنا : معناه ومن أوزار إضلال الذين يضلونهم ، فيكون عليهم وزر كفرهم مباشرة ووزر كفر من أضلوهم تسبيهاً ، فقوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ [النحل: ٢٥] يعنى أوزار الذنوب التى باشروها ، وأما قوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] فمعناه : وزر لا مدخل لها فيه ولا تعليق له بها مباشرة ولا تسبيهاً ، ونظير هاتين الآيتان الأخريان فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] إلى قوله تعالى : ﴿وَأَثْقَالَ مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وجوابها مثل جواب هاتين الآيتين.

٥٤٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ [النحل: ٤٠] الآية، يدل على أن المعدوم شىء ، ويدل على أن خطاب المعدوم جائز ، والأول منتف عند أكثر العلماء ، والثانى منتف بالإجماع .

قلنا : أما تسميته شيئاً فمجاز باعتبار ما يؤول إليه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وأما الثانى فإن هذا خطاب تكوين يظهر به أثر القدرة فيمتنع أن يكون المخاطب به موجوداً قبل الخطاب ، لأنه إنما يكون بالخطاب فلا يسبقه ، بخلاف خطاب الأمر والنهى .

٥٥٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩] كيف لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم كما فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥] الآية ، بل أولى لأنه وصف ما لا يعقل بخصوصه بلفظ : ﴿مِنْ﴾ [النحل: ٦] وهو الحية والأنعام ، وهنا لو قال من فى السموات ومن فى الأرض لا يلزم وصف ما لا يعقل بخصوصه

من غرائب آي التنزيل = ٢١١

وتعيينه بلفظه "من" بل المجموع ؟

قلنا : لأنه أراد عموم كل دابة وشمولها ، فجاء بها التى تعم النوعين وتشمّلها ، ولو جاء بمن لخص العقلاء .

٥٥١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآئِيَةٍ﴾ [النحل: ٦١] يقتضى أنه لو أخذ الظالمين بظلمهم لأهلك غير الظالمين من الناس ، ولأهلك جميع الدواب غير الناس ، ومؤاخذه البرىء بسبب ظلم الظالم لا يحسن بالحكيم ؟

قلنا : المراد بالظلم هنا الكفر ، وبالدابة الظالمة وهى الكافر ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، وقيل معناه : لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء .

الثانى : يجوز أن يهلك الجميع بشؤم ظلم الظالمين مبالغة فى إعدام الظلم ونفى وجود أثره ، حتى لا يوجد بعد ذلك من بقية الناس ظلم موجب للإهلاك ، كما وجد من الذين أهلكهم بظلمهم ، ودليل جواز ذلك ما وجد فى زمن نوح عليه السلام ، فإنه أهلك بشؤم ظلم قوم نوح جميع دواب الأرض ، وما نجا إلا من فى السفينة ولم يبق على ظهر الأرض دابة ، ولذا قال تعالى : ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٥] ثم إذا فعل ذلك للحكمة والمصلحة التى اقتضت فعله عوض البرىء فى الآخرة ما هو خير وأبقى .

الثالث : أن كل إنسان مكلف فهو ظالم إما لنفسه أو لغيره ، لأنه لا يخلو عن ذنب صغير أو كبير ، فلو أهلك الناس بذنوبهم لأهلك الدواب أيضا ، لأنه إنما خلق الدواب لمصالح الناس وإذا عدم الناس وقع استغناؤهم عن الدواب كلها .

٥٥٢ - فإن قيل : لا نسلم أن غير الإنسان من الحيوان مخلوق لمصالح

الإنسان، ومستنده أنه كان مخلوقاً قبل خلق الإنسان بالنقل عن الكتب الشرعية وغيرها، وقد جاء مصرحاً به في الحديث في باب الخلق من جامع الأصول سلمنا أنه مخلوق لمصلحة الإنسان، لكن هلاك غير الإنسان معه يخفف عنه ألم المصيبة، لا سيما إذا كان الهالك معه من جنسه، ولهذا قيل: المصيبة إذا عمت طابت، سلمنا أن إهلاك غيره معه مؤلم له، لكن لو كان إهلاكه معه لأنه خلق لمصلحته أفنهلك تبعاً له لاستغنائه عنه أو لزيادة الإيلام فالبار أيضاً خلق لمصلحته على قولكم، فلم كان إهلاك الحيوان عقوبة للإنسان أولى من إهلاك النبات، ولم يقل: ما ترك عليها من دابة ونبات أو من شيء؟

قلنا: الجواب عن الأول قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وخلق قبل الإنسان لا ينفي خلقه لمصلحة الإنسان، كما يعد عظماء الناس الدور والقصور والخدم والحشم والدواب والنبات لأولادهم وأولادهم قبل وجودهم، وعن الثاني: أنا لا ندعى أنه يهلك مع الإنسان بل قبله لتألمه بمشاهدة هلاك محبوبه ومألوفه، وعن الثالث: أن المراد ما ترك عليها من دابة بواسطة منع المطر فيعدم النبات، ثم يعدم بواسطة عدمه غير الإنسان من الحيوان، ثم يعدم الإنسان، كذا جاء في تفسير هذه الآية والآية التي في آخر سورة فاطر، وهذا الترتيب أبلغ في العذاب وأعظم في العقاب من تقديم إهلاك الحيوان على النبات، لأن الإنسان إذا بقى حيوانه بلا علف كان أوجع مما إذا بقى علفه بلا حيوان.

٥٥٣ - فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مِنَ الْجِبَالِ يُّوتَا وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ [النحل: ٦٨] ولم يقل في الجبال وفي الشجر، والاستعمال إنما هو أبقى، يقال اتخذ فلان بيتاً في الجبل أو في الصحراء أو نحو ذلك؟

قلنا: قال الزمخشري رحمه الله، إنما أتى بلفظة "من" لأنه أراد معنى

من غرائب آي التنزيل = ٢١٣

البعضية ، وألا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر ولا في كل مكان من الجبل والشجر ، وأنا أقول : إنها ذكره بلفظة " من " لأنه أراد كون البيت بعض الجبل وبعض الشجر كما نشاهد ونرى من بيوت النحل ، لأنه يتخذ من طين أو عيدان في الجبل والشجر كما تتخذ الطيور ، فلو أتى بلفظة " في " لم تدل على هذا المعنى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [الشعراء: ١٤٩] .

٥٥٤ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النحل: ٧٢] وأزواجنا لسن من أنفسنا ، لأنهن لو كن من أنفسنا لكن حراماً علينا ، فإن المتفرعة من الإنسان لا يحل له نكاحها؟

قلنا : المراد بهذا أنه خلق آدم ثم خلق منه حواء ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النحل: ٦] .

الثاني : أن المراد من خلقكم كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

٥٥٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٧٣] فعبد بالواو والنون وهما من خواص من يعقل ؟

قلنا : كان فيمن يعبدونه من دون الله من يعقل كالعزير وعيسى والملائكة عليهم الصلاة والسلام فغلبهم .

٥٥٦ - فإن قيل : لم أفرد في قوله تعالى : ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ ﴾ [النحل: ٧٣] ثم جمع في قوله : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٧٣] ؟

قلنا : أفرد نظرًا إلى لفظ " ما " ، وجمع نظرًا إلى معناها ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۗ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ

ظُهِرَ ﴿[الزخرف: ١٢، ١٣] أفرد الضمير نظرًا إلى لفظها ، وجمع الظهور نظرًا إلى معناها .

٥٥٧ - فإن قيل : ما فائدة نفى استطاعة الرزق بعد نفى ملكه والمعنى واحد ، لأن نفى ملك الفعل هو نفى استطاعته ، والرزق هنا اسم مصدر بدليل إعماله في " شيئًا " ؟

قلنا : ليس في يستطيعون ضمير مفعول هو الرزق ، بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقًا ؛ معناه لا يمكنون أن يرزقوا ، ولا استطاعة لهم أصلًا في رزق أو غيره لأنهم جماد .

الثاني : أنه لو قدر فيه ضمير مفعول على معنى ولا يستطيعونه كان مفيدًا أيضًا على اعتبار كون الرزق اسمًا للعين ، لأن الإنسان يجوز أن لا يملك الشيء ولكن يستطيع أن يملكه بخلاف هؤلاء فإنهم لا يملكون ولا يستطيعون أن يملكوا .

٥٥٨ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿مَمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥] بعد قوله : ﴿عَبْدًا﴾ [النحل: ٧٥] وما فائدة قوله : ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥] بعد قوله : ﴿مَمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥] ؟

قلنا : لفظ العبد يصلح للحر والمملوك لأن الكل عبيد الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لِإِدْرِيْدَ سُلَيْمٰنَ نَعَمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠] فقال مملوكًا لتمييزه عن الحر ، وقال : ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥] لتمييزه عن المأذون والمكاتب فإنهما يقدران على التصرف والاستقلال .

٥٥٩ - فإن قيل : المضروب به المثل اثنان وهما المملوك والمرزوق رزقًا حسنًا فظاهره أن يقال : هل يستويان ، فكيف قال تعالى : ﴿يَسْتَوُونَ﴾ [النحل: ٧٥] ؟

قلنا : لأنه أراد جنس المالك و جنس المالكين لا مملوكًا معينًا ولا مالكا

معيناً .

الثاني : أنه أجرى الاثنين مجرى الجمع .

الثالث : أن " من " تقع على الجمع ، ولقائل أن يقول على الوجه الثالث يلزم منه أن يصير المعنى ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً وجماعة مالكين ، هل يستوون ، إنه لا يحسن مقابلة الفرد بالجمع في التمثيل .

٥٦٠ - فإن قيل : " أو " في الخبر للشك ، والشك على الله تعالى محال ، فما معنى قوله : ﴿ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧] ؟

قلنا : " أو " هنا بمعنى بل كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصفات: ١٤٧] وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] وقوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم: ٩] ويرد على هذا أن " بل " للإضراب ، والإضراب رجوع عن الإخبار وهو على الله محال ، وقيل : هي بمعنى " الواو " في هذه الآيات ، وقيل أو للشك في الكل لكن بالنسبة إلينا لا إلى الله تعالى ، وكذا في قوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم: ٩] يعني بالنسبة إلى نظر النبي ﷺ .

وقال الزجاج : ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر ، ولكن المراد وصف قدرة الله على سرعة الإتيان بها متى شاء .

٥٦١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ سَرَّابِيلٌ يَغِيكُمُ الْحَرُّ ﴾ [النحل: ٦] ولم يقل والبرد ، مع أن السراويل وهي الثياب تلبس لدفع الحر والبرد وهي مخلوقة لها ؟

قلنا : حذف ذكر أحدهما لدلالة ضده عليه كما في قوله تعالى : ﴿ يَبْدِكَ الْخَيْرُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] ولم يقل والشر ، كما قال الشاعر :

وما أدري إذا يمت أرضاً أريد الخير أيهما يلينى^(١)

أى : أريد الخير لا الشر ، أو أريد الخير وأحذر الشر .

٥٦٢ - فإن قيل : لم كان ذكر الخير والحر أولى من ذكر الشر والبرد ؟

قلنا : لأن الخير مطلوب العباد من ربهم ومرغوبهم إليه ، أو لأنه أكثر وجوداً في العالم من الشر ، وأما الحر فلأن الخطاب في القرآن أول ما وقع من أهل الحجاز ، والوقاية من الحر أهم عنده لأن الحر في بلادهم أشد من البرد .

٥٦٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣] مع أن كلهم كافرون ؟

قلنا : قال الزمخشري : الأحسن أن المراد بالأكثر هنا الجمع ، وفي هذا نظر ، لأن بعض الناس لا يجوز إطلاق اسم البعض على الكل ، لأنه ليس لازماً له بخلاف عكسه .

٥٦٤ - فإن قيل : ما فائدة قول المشركين عند رؤية الأصنام : ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا ندْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ [النحل: ٨٦] والله تعالى عالم بذلك ؟

قلنا : لما أنكروا الشرك بقولهم : ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] عاقبهم الله تعالى بإصمات ألسنتهم وأنطق جوارحهم ، فقالوا عند معاينة آلهتهم : ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا﴾ [النحل: ٨٦] أى : قد أقررنا بعد الإنكار وصدقنا بعد الكذب طلباً للرحمة وفراراً من الغضب ، فكان هذا القول على وجه الاعتراف منهم بالذنب لا على وجه إعلام من لا يعلم .

الثانى : أنهم لما عاينوا عظيم غضب الله تعالى وعقوبته قالوا : ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا﴾ [النحل: ٨٦] رجاء أن يلزم الله الأصنام ذنوبهم لأنهم كانوا يعتقدون

لها العقل والتمييز فيخفف عنهم العذاب .

٥٦٥- فإن قيل : لم قالت الأصنام للمشركين : ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦] وكانوا صادقين فيما قالوا ؟

قلنا : إنما قالت لهم ذلك لتظهر فضيحتهم ، وذلك أن الأصنام كانت جهادًا لا تعرف من يعبدها ، فلم تعلم أنهم عبدوها في الدنيا فظهرت فضيحتهم حيث عبدوا من لا يعلم بعبادتهم ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١] ، [٨٢] .

٥٦٦- فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] فإذا كان القرآن تبيانًا لكل شيء من أمور الدين ، فمن أين وقع بين الأمة في أحكام الشريعة هذا الخلاف الطويل العريض ؟

قلنا : إنما وقع الخلاف بين الأمة لأن كل شيء يحتاج إليه من أمور الدين ليس مبيّنًا في القرآن نصًا بل بعضه مبين وبعضه مستنبط بيانه منه بالنظر والاستدلال ، وطريق النظر والاستدلال مختلفة فلذلك وقع الخلاف .

٥٦٧- فإن قيل : كثير من أحكام الشريعة لم تعلم من القرآن نصًا ولا استنباطًا كعدد ركعات الصلاة ، ومقادير باقى الأعضاء ، ومدة السفر والمسح والحيض ، ومقدار حد الشرب ، ونصاب السرقة وما أشبه ذلك مما يطول ذكره ؟

قلنا : القرآن تبيان لكل شيء من أمور الدين ، لأنه نص على بعضها ، وأحال على السنة في بعضها في قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] وأحال على الإجماع أيضًا بقوله تعالى : ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]

الآية ، وأحال على القياس أيضًا بقوله تعالى : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَنَّا وَلِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] والاعتبار : النظر والاستدلال ، فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها ، وكلها مذكورة في القرآن فصيح كونه تبيانًا لكل شيء .

٥٦٨ - فإن قيل : كيف وحدت القدم ونكرت في قوله تعالى : ﴿فَتَزَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤] ولم يقل القدم أو الأقدام ، وهو أشد مناسبة لجمع الإيوان ؟

قلنا : وحدت ونكرت في قوله تعالى لاستعظام أن تزل قدم واحدة على طريق الجنة فكيف بأقدام كثيرة .

٥٦٩ - فإن قيل : " من " تتناول الذكر والأنثى لغة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ [الأنعام: ١٦٠] الآية ، وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجٌّ أَلْبَيْتٍ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] الآية ، وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] ونظائره كثيرة : فكيف قال تعالى هنا : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُنْثَى﴾ [النحل: ٩٧] ؟

قلنا : إنما صرح بذكر النوعين هنا لسبب اقتضى ذلك ، وهو أن النساء قلن : ذكر الله تعالى الرجال في القرآن بخير ولم يذكر النساء بخير ، فلو كان فينا خير لذكرنا به ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية ، وأنزل : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] فذهب عن النساء وهم تخصيصهن عن العمومات .

٥٧٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَا يُتَسَكَّنُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩] وقد رأينا كثيرًا من الصالحاء والأتقياء قطعوا أعمارهم في المصائب والمحن وأنواع

البلايا باعتبار الأمثل فالأمثل إلى الأنبياء ؟

قلنا : المراد بالحياة الطيبة في القناعة ، وقيل : في الرزق الحلال ، وقيل : في رزق يوم بيوم ، وقيل : التوفيق للطاعات ، وقيل : في حلاوة الطاعات ، وقيل : في الرضا بالقضاء ، وقيل : المراد به الحياة في القبر كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقيل : المراد به ، الحياة في الدار الآخرة ، وهي الحياة الحقيقية لأنها حياة لا موت بعدها دائمة في النعيم المقيم ، والظاهر أن المراد به الحياة في الدنيا لقوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ [النحل: ٩٧] وعدهم الله ثواب الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ فَسَاءَتْ لَهُمْ أَلْفٌ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ [آل عمران: ١٤٨] .

٥٧١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [النحل: ١٠٧] وكثير من الصحابة وغيرهم كانوا كافرين ، فهداهم الله تعالى إلى الإيمان ؟

قلنا : المراد من هذا : الكافرون الذين علم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر ويؤيده ما بعد ذلك من الآيتين .

٥٧٢ - فإن قيل : ما معنى إضافة النفس إلى النفس في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١] والنفس ليس لها نفس أخرى ؟

قلنا : النفس اسم للروح وللجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير ، وقيل هي اسم لجملة الإنسان لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقوله تعالى : ﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥] والنفس أيضًا اسم لعين الشيء ذاته ، كما يقال نفس الذهب والفضة محبوبة: أى عينهما وذاتهما ، فالمراد بالنفس الأولى الإنسان ، وبالثانية ذاته ، فكأنه يوم يأتي كل إنسان يجادل عن نفسه : أى ذاته لا يهيمه شأن غيره ، كل يقول نفسى

نفسى ، فاختلف معنى النفسين .

٥٧٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ [النحل: ١١٢] والإذاقة لا تناسب اللباس وإنما تناسبه الكسوة ؟

قلنا : الإذاقة تناسب المستعار له وهو الجوع من حيث أن الجوع يقتضى الأكل فيقتضى الذوق ، وإن كانت لا تناسب المستعار له وهو اللباس ، والكسوة تناسب المستعار وهو اللباس ولا تناسب المستعار له وهو الجوع ، وكلاهما من دقائق علم البيان ، يسمى الأول تجريد الاستعارة .

والثانى : ترشيح الإستعارة فجاء القرآن العزيز فى هذه الآية بتجريد الاستعارة ، وقد ذكرنا تمام هذا فى كتابنا " روضة الفصاحة " ولباس الجوع والخوف استعارة لما يظهر على أهل القرية من أثر الجوع والخوف من الصفرة والنحول ، فهو كقوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ [الأعراف: ٢٦] استعار اللباس لما يظهر على المتقى من أثر التقوى ، وقيل : إن فيه إضماراً تقديره : فأذاقها الله طعم الجوع وكساها لباس الخوف .

*** ** *

سورة الإسراء

٥٧٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿بَعْدَهُ﴾ [الإسراء: ١] ولم يقل بنبيه أو برسوله أو بحبيبه أو بصفيه ونحو ذلك ، مع أن المقصود من ذلك الإسراء تعظيمه وتبجيله ؟

قلنا : إنما سماه عبداً في أرفع مقاماته وأجله وهو هذا ، وقوله : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] كيلا تغلط فيه أمته وتضل به كما ضلت أمة المسيح به فدعته إلهاً ، وقيل : كيلا يتطرق إليه العجب والكبر .

٥٧٥ - فإن قيل : الإسراء لا يكون إلا بالليل ، فما فائدة ذكر الليل ؟

قلنا : فائدته أنه ذكر منكراً ليدل على قصر الزمان الذي كان فيه الإسراء والرجوع ، مع أنه كان من مكة إلى بيت المقدس مسيرة أربعين ليلة ، وذلك لأن التنكير يدل على البعضية ، ويؤيده قراءة عبد الله وحذيفة من الليل ، أى بعض الليل كقوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] فإنه أمر بالقيام في بعضه .

٥٧٦ - فإن قيل : أى حكمة في نقله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم الخروج به من بيت المقدس إلى السماء ، وهلا عرج به من مكة إلى السماء دفعة واحدة ؟

قلنا : لأن بيت المقدس محشر الخلائق فأراد الله تعالى أن يطأها قدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم عليها ببركة أثر قدمه ﷺ .

الثانى : أن بيت المقدس مجمع أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فأراد الله تعالى أن يشرفهم بزيارته ﷺ .

الثالث : أنه أسرى به إلى البيت المقدس ليُشاهد من أحواله وصفاته ما يجبر به كفار مكة صبيحة تلك الليلة ، فيدلهم إخباره بذلك مطابقاً لما رأوا وشاهدوا على صدقه في حديث الإسراء .

٥٧٧ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] ولم يقل : باركنا عليه أو باركنا فيه ، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد وحوله ، خصوصاً المسجد الأقصى ؟

قلنا : أراد البركة الدنيوية بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة وذلك حوله لا فيه ، وقيل : أراد البركة الدينية فإنه مقر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومتعبدتهم ومهبط الوحي والملائكة ، وإنما قال : ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ٦] ليكون بركته أعم وأشمل ، فإنه أراد بها حوله ما أحاط به من أرض بلاد الشام وما قاربه منها ، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس ، ولأنه إذا كان هو الأصل وقد بارك في لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مباركاً فيه بالطريق الأولى ، بخلاف العكس ، وقيل : المراد البركة الدنيوية والدينية ووجهها ما مر ، وقيل : المراد باركنا حوله من بركة نشأت منه فعمت جميع الأرض ، فإن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت الصخرة التي في بيت المقدس .

٥٧٨ - فإن قيل : ما وجه ارتباط قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] بما قبله ومناسبته له ؟

قلنا : معناه لا تتخذوا من دوني ربياً فتكونوا كافرين ، ونوح كان عبداً شكوراً وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه ، فتأسوا به في الشكر كما تأسى به آبائكم .

٥٧٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ أَسَأَرُ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] ولم يقل : فعلية ، كما قال الله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ

فَعَلَّيْهَا [فصلت: ٤٦] ؟

قلنا : اللام هنا بمعنى " على " كقوله تعالى : ﴿ وَتَلَوُّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات: ١٠٣] وقوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ [الإسراء: ١٠٩] وقيل معناه : فلها رجاء بالرحمة ، أو فلها مخلص بالتوبة والاستغفار ، والصحيح أن اللام هنا على بابها ، لأنها للاختصاص ، وكل عامل مختص بجزء عمله حسنة كانت أو سيئة ، وقد سبق مثل هذا مستوفى في آخر سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

٥٨٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ [الإسراء: ١٢] وقال في قصة مريم وعيسى عليهما السلام : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١] ؟ ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠] مع أن عيسى ﷺ كان وحده آيات شتى حيث كلم الناس في المهد ، وكان يحيى الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويخلق الطير وغير ذلك ، وأمه وحدها كانت آية حيث حملت من غير فحل ؟

قلنا : إنما أراد به الآية التي كانت مشتركة بينهما ولم تتم إلا بهما ، وهى ولادة ولد من غير فحل ، بخلاف الليل والنهار والشمس والقمر .

الثانى : أن فيه آية محذوفة إيجازاً واختصاراً تقديره : وجعلناها آية وابنها آية ، وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية .

٥٨١ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةً النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢] والإبصار من صفات ما له حياة ، والمراد بالآية النهار إما الشمس أو النهار نفسه وكلاهما غير مبصر ؟

قلنا : المبصرة فى اللغة بمعنى المضيئة ، نقله الجوهري ، وقال غيره : معناه بيضاء واضحة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا نُوحَ الْفُلَّ مَبْصُرَةً ﴾ [الإسراء: ٥٩] أى :

آية واضحة مضيئة ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ [النمل: ١٣] .

الثانى : معناه : مبصرًا بها إن كانت الشمس ، أو فيها إن كانت النهار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧] أى : مبصرًا فيه ، ونظيره قولهم : " ليل نائم ونهار صائم " أى ينام فيه ويصام فيه .

الثالث : أنه فعل رباعى منقول بالهمزة عن الثلاثى الذى هو بصر بالشئ : أى علم به ، فهو بصير : أى عالم ، معناه أنه يجعلهم بصرًا ، فيكون أبصره بمعنى بصره ، وعلى هذا حمل الأخفش قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى : تبصرهم فتجعلهم بصرًا .

الرابع : أن بعض الناس زعم أن الشمس حيوان له حياة وبصر وقدرة ، وهو متحرك بإرادته امتثال أمر الله تعالى كما يتحرك الإنسان .

٥٨٢ - فإن قيل : ما الفائدة فى ذكر عدد السنين مع أنه لو اقتصر على قوله لتعلموا الحساب دخل فيه عدد السنين إذ هو من جملة الحساب ؟

قلنا : العدد كله موضوع الحساب كبدن الإنسان فإنه موضوع الطب وأفعال المكلفين موضوع الفقه ، وموضوع كل علم مغاير له وليس جزءًا منه ، كبدن الإنسان ليس جزءًا من الطب ، ولا أفعال المكلفين جزءًا من الفقه ، فكذا العدد ليس جزءًا من الحساب ، وإنما ذكر عدد السنين وقدمه على الحساب ، لأن المقصود الأصلى من محو الليل وجعل آية النهار مبصرة علم عدد الشهور والسنين ، ثم يتفرع من ذلك علم حساب التاريخ وضرب المدد والأجال .

٥٨٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى هنا : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ؟

قلنا : مواقف القيامة مختلفة ، ففى موقف يكل الله حسابهم إلى أنفسهم

وعلمه محيط به ، وفي موقف يحاسبهم هو ، وقيل : هو الذى يحاسبهم لا غيره ، وقوله تعالى : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] أى : يكفيك أنك شاهد على نفسك بذنوبها عالم بذلك ، فهو توبيخ وتقريع ، لا أنه تفويض لحساب العبد نفسه ، وقيل : من يريد مناقشته فى الحساب يحاسبه بنفسه ، ومن يريد مسامحته فيه يكل حسابه إليه .

٥٨٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الإسراء: ١٥] يرد ما جاء فى الأخبار أن فى يوم القيامة يؤخذ من حسنات المغتتاب والمدين ويزاد فى حسنات رب الدين والشخص الذى اغتیب ، فإن لم تكن لهما حسنات يوضع عليهما من سيئات خصميتهما ، وكذلك جاء هذا فى سائر المظالم ؟

قلنا : المراد من الآية أنها لا تحمله اختياراً ردّاً على الكافرين حيث قالوا للذين آمنوا : ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ ﴾ [العنكبوت: ١٢] الآيتين ، والمراد من الخبر أنها تحمله كرهاً فلا تنافى ، وقد سبق هذا مرة فى آخر سورة الأنعام .

٥٨٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦] وقال فى آية أخرى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨] ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، وقال الزجاج : ومثله قولهم أمرته فعصانى ، وأمرته فخالفتنى ، لا يفهم الأمر بالمعصية ولا الأمر بالمخالفة .

الثانى : أن معناه كثرنا مترفياً ، يقال أمرته وأمرته بالمد والقصر يعنى كثرته ، وقد قرئ بهما ، ومنه الحديث : " خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة " (١) أى : كثيرة التاج والنسل .

الثالث : أن معناه أمرنا مترفياً بالتشديد ، يقال : أمرت فلاناً بمعنى أمرته ،

أى : جعلته أميراً ، فمعنى الآية سلطانهم بالإمارة ، ويعضد هذا الوجه قراءة من قرأ : ﴿أَمَرْنَا﴾ بالتشديد .

وقال الزمخشري رحمه الله : لا يجوز أن يكون معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، لأن حذف ما لا دليل عليه في اللفظ غير جائز فكيف يقدر حذف ما قام الدليل في اللفظ على نقيضه ، وذلك لأن قوله : ﴿فَفَسَقُوا﴾ [الإسراء: ١٦] يدل على أن المأمور به المحذوف هو الفسق وهو كلام مستفيض ، يقال : أمرته فقام وأمرته فقعد وأمرته فقرأ ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به القيام والقعود والقراءة ، بخلاف قولهم : أمرته فعصاني ، وأمرته فخالفتني ، حيث لا يكون المأمور به المحذوف المعصية والمخالفة ، لأن ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر وما ينافيه مأمور به ، فيكون المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوئى ، والمتكلم بمثل هذا لا ينوى لأمره مأموراً به ، بل كأنه قال : كان منى أمر فلم منه طاعة ، أو كانت منه مخالفة ، كما تقول : مر زيداً يطعك ، وكما تقول : فلان يأمر وينهى ، ويعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ، ويضر وينفع ، فإنك لا تنوى مفعولاً .

٥٨٦ - فإن قيل : على هذا حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا ، وهذا لا يكون من الله ، فلا يقال يقدر الفسق محذوفاً ولا مأموراً به ؟

قلنا : الفسق المحذوف المقدر مجاز على إترافهم وصّب النعيم عليهم صّباً أفضى بهم إلى جعلها ذريعة إلى المعاصى ووسيلة إلى اتباع الشهوات ، فكأنهم أمروا بذلك لما كان السبب في وجوده الإتراف وفتح باب النعم .

٥٨٧ - فإن قيل : لم لا يكون ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالطاعة والعدل والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟

قلنا : لو جاز مثل هذا الإضمار والتقدير لكان المتكلم مريداً من مخاطبه

علم الغيب ، لأنه أضمر ما لا دلالة عليه في اللفظ ، بل أبلغ ، لأنه أضمر في اللفظ ما يناقضه وينافيه وهو قوله : ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ [الإسراء: ١٦] فكأنه أظهر شيئاً وادعى إضمار نقيضه ، فكان صرف الأمر إلى ما ذكرنا من المجاز هو الوجه ، هذا كله كلام الزمخشري ، ولا أعلم أحداً من أئمة التفسير صار إليه غيره ، ثم إنه أيد فقال : ونظيره أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده تقول : لو شاء فلان لأحسن إليك ، ولو شاء لأساء إليك ، تريد لو شاء الإحسان لأحسن ، ولو شاء الإساءة إليك لأساء ، فلو ذهبت تضمير خلاف ما أظهرت ، وتعنى ولو شاء الإساءة لأحسن إليك ، ولو شاء الإحسان لأساء إليك ، وتقول : قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان دائماً ومن أهل الإساءة دائماً ، فيترك الظاهر المنطوق به ويضمّر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم تكن على سداد .

٥٨٨ - فإن قيل : على الوجه الأول لو كان المضمّر المحذوف الأمر بالطاعة لما كان مخصوصاً بالمترفين ، لأن أمر الله تعالى بالطاعة عام للمترفين وغيرهم ؟

قلنا : أمر الله بالطاعة وإن كان عاماً ، ولكن لما كان صلاح الأمراء والرؤساء وفسادهم مستلزماً لصلاح الرعية وفسادهم غالباً خصهم بالذكر ، ويؤيد هذا ما جاء في الخبر " صلاح الوالى صلاح الرعية وفساد الوالى فساد الرعية " (١) .

٥٨٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ [الإسراء: ١٨] الآية ، يدل على أن من لم يزهّد في الدنيا ولم يتركها كان من أهل النار ، والأمر بخلافه ؟ قلنا : المراد من كان يريد بإسلامه وطاعته وعبادته الدنيا لا غير ، ومثل هذا

لا يكون إلا كافرًا أو منافقًا ، ولهذا قال ابن جرير : هذه الآية لمن لا يؤمن بالمعاد ، وأما من أراد من الدنيا قدر ما يتزود به إلى الآخرة فكيف يكون مذمومًا ، مع أن الاستغناء عن الدنيا بالكلية وعن جميع ما فيها لا يتصور في حق البشر ولو كانوا أنبياء ، فعلم أن المراد ما قلنا .

٥٩٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠] أى : ممنوعًا ، ونحن نرى ونشاهد في الواقع أن واحدًا أعطاه قناطير مقنطرة وآخر منعه العطاء حتى الدائق والحبة؟

قلنا : المراد بالعطاء هنا الرزق ، والله تعالى سوى في ضمان الرزق وإيصاله بين البر والفاجر ، والمطيع والعاصي ، ولم يمنع الرزق عن العاصي بسبب عصيانه ، فلا تفاوت بين العباد في أصل الرزق ، وإنما التفاوت بينهم في مقادير الإملاك .

٥٩١ - فإن قيل : كيف منع الله تعالى الكفار والتوفيق والهداية ولم يمنعهم الرزق؟

قلنا : لأنه لو منعهم الرزق لهلكوا وصار ذلك حجة لهم يوم القيامة ، بأن يقولوا : لو أمهلتنا ورزقتنا لبقينا أحياء فأما .

الثاني : أنه لو أهلكهم بمنع الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة ، فيتعطل معنى الحلیم عن معناه ، لأن الحلیم هو الذى لا يعجل بالعقوبة على من عصاه .

الثالث : أن منع الطعام والشراب من صفات البخلاء الأخساء ، والله تعالى منزّه عن ذلك .

وقيل : إعطاء الرزق لجميع العبيد عدل ، وعدل الله عام ، وهبته التوفيق ، والهداية فضل ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

من غرائب آي التنزيل ٢٢٩

٥٩٢ - فإن قيل : ما فائدة قوله : "عندك" في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ
عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] ؟

قلنا : فائدته أنها يكبران في بيته وكنفه ويكونان كلاً عليه لا كافل لهما غيره ،
وربما تولى منهما من المشاق ما كانا يتوليان منه في حال الطفولية .

٥٩٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢] ولم
يقُل : ولا تزنوا ؟

قلنا : لو قال : ولا تزنوا كان نهياً عن الزنى لا عن مقدماته كاللمس
والمعانقة والقبلة ونحو ذلك ، ولما قال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ [الإسراء: ٣٢] كان نهياً عنه
وعن مقدماته ، لأن فعل المقدمات قربان للزنى .

٥٩٤ - فإن قيل : الإشارة بقوله تعالى : ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾
[الإسراء: ٣٨] على ماذا تعود ؟

قلنا : الإشارة إلى كل ما هو منهي عنه من جميع ما ذكر من قوله تعالى :
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى هذه الآية لا إلى جميع ما ذكر
فإن فيه حسناً وسيئاً ، وقال أبو علي : هو إشارة إلى قوله : ﴿وَلَا تَقْفُ﴾
[الإسراء: ٣٦] وما بعده لأنه لا حسن فيه .

٥٩٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ الْأَسْفَلُ وَالْأَرْضُ
وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] فقوله : ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يتناول أهل الأرضين كلهم ،
والمراد به العموم كما هو مقتضى الصيغة بدليل تأكيده بقوله تعالى بعده : ﴿وَإِن
مِّن شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] والتسبيح هو التنزيه عن كل ما لا يليق
بصفات جلاله وكماله ، والكفار يضيفون إليه الزوج والولد والشريك وغير
ذلك ، فأين تسبيحهم ؟

قلنا : الضمير في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] راجع إلى السموات فقط .

الثاني : أنه راجع إلى السموات والأرض ، والمراد بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] يعنى من المؤمنين ، فيكون عاماً أريد به الخاص ، وعلى هذا يكون المراد بالتسبيح المسند إلى " من فيهن " التسبيح بلسان المقال .

الثالث : أن المراد به التسبيح بلسان الحال حيث تدل على وجود الصانع وعظيم قدرته ونهاية حكمته ، فكأنها تنطق بذلك وتنزهه عما لا يجوز عليه ومالا يليق به من سوء ، ويؤيده قوله تعالى بعده : ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] والتسبيح العام لجميع الموجودات إنما هو التسبيح بلسان الحال .

٥٩٦ - فإن قيل : لو كان المراد هو التسبيح بلسان الحال لما قال : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] لأن التسبيح بلسان الحال مفقوه لنا ، أى مفهوم ومعلوم ؟

قلنا : الخطاب بقوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] للكفار ، وهم مع تسبيحهم بلسان الحال لا يفقهون تسبيح الموجودات على ما ذكرنا من التفسير ، لأنهم لما جعلوا " شركاء وزوجاً وولداً دل ذلك على عدم فهمهم التسبيح للموجودات وتنزيهاها وعدم إيضاح دلائل الوجدانية لهم ، لأن الله تعالى طبع على قلوبهم .

٥٩٧ - فإن قيل : ﴿مَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهم الملائكة والشفان يسبحون حقيقة والسموات والأرض والجمادات تسبح مجازاً ، فكيف جمع بين إرادة الحقيقة والمجاز من لفظ واحد وهو قوله : ﴿تُسَبِّحُ﴾ ؟

قلنا : التسبيح المجازى بلسان الحال حاصل من الجميع ، فيحمل عليه دفعا لما ذكرتم من المجاز .

٥٩٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢] والمستعمل الشائع دعاه فاستجاب لأمره أو بأمره ، أى : أجاب ؟ قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما ، المراد بقوله تعالى : ﴿بِحَمْدِهِ﴾ بأمره ، وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه ، إذا دعا الله الخلائق للبعث يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، وقال غيره وهم يقولون : الحمد لله الذى صدقنا وعده ، فعلى هذا تكون الباء بمعنى " مع " كما فى قوله تعالى : ﴿تَلَبَّثُ بِالْأَذْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقوله تعالى : ﴿وَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ٣٠] .

٥٩٩ - فإن قيل : كيف أجل ذكر الأنبياء كلهم بقوله : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] ثم خص داود بالذكر فقال : ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] ؟

قلنا : لأنه اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الأنبياء ، وهو الرسالة والكتابة والخطابة والخلافة والملك والقضاء فى زمن واحد ، قال الله تعالى : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكُهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ﴾ [ص: ٢٠] وقال : ﴿يَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] .

الثانى : أن قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] إشارة إلى تفضيل محمد ﷺ ، وقوله : ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم ، لأن ذلك مكتوب فى زبور داود عليه الصلاة والسلام ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يعنى محمدا ﷺ وأمته .

٦٠٠ - فإن قيل : لم نكر الزبور هنا وعرفه فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ؟

قلنا : يجوز أن يكون الزبور من الأعلام التي تستعمل بالألف واللام ويغيرهما كالعباس والفضل والحسن والحسين ونحوهما .

الثاني : أنه منكره هنا لأنه أراد : وآتينا داود بعض الزبور وهي الكتب .

الثالث : أنه نكره لأنه أراد به ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور ، فسمى ذلك زبوراً لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآناً فقال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ ﴾ [الإسراء: ١٠٦] الآية ، وقال : ﴿ بِمَاءٍ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف: ٣] وأراد به سورة يوسف عليه السلام ، وقال : ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي : القرآن المتلو في صلاة الفجر .

٦٠١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَلِكُونُ كَشَفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٦] مغن عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٦] لأنهم إذا لم يستطيعوا كشف الضر لا يستطيعون تحويله ، لأن تحويل الضر ، نقله من محل وإثباته في محل آخر ، ومنه تحويل الفراش والمتاع وغيرهما ، وكشف الضر مجرد إزالة ، ومن لا يقدر على الإزالة وحدها فكيف يقدر على الإزالة مع الإثبات ، والمراد بالآية كشف الضر والمرض والقحط ونحوها ؟

قلنا : التحويل له معنيان : أحدهما ما ذكرتم .

والثاني : التبديل ، ومنه قولهم : حولت القميص قباء ، والفضة خاتماً ، وأريد بالتبديل هنا الكشف لأن في الكشف المنفى في الآية تبديلاً ، فإن المرض متى كشف يبدل بالصحة ، والفقر متى كشف يبدل بالغنى ، والقحط متى يبدل بالخصب وكذا جميع الأضداد ، فأطلق التبديل وأراد به الكشف ، إلا أنه لم يرد به كشف الضر لئلا يلزم التكرار ، بل أراد به مطلق الكشف الذي هو الإزالة ، يعني فلا يستطيعون كشف الضر عنكم ولا كشفاً ما ، ولهذا لم يقل ولا تحويله وهذا الجواب مما فتح الله عليّ به من خزائن جوده ، ونظيره ما ذكرناه في

من غرائب آي التنزيل = ٢٣٣

سورة النحل في قوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣] .

٦٠٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] الآية فيها أسئلة :

أولها : أن الله تعالى لا يمنعه عما يريد من مانع ، فإن أراد إرسال الآيات ، فكيف يمنعه تكذيب الأمم الماضية ، وإن لم يرد إرسالها كان جود تكذيبهم وعدمه سواء وكان عدم الإرسال لعدم الإرادة .

الثاني : أن الإرسال يتعدى بنفسه ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١] فأى حاجة إلى الباء .

الثالث : أن المراد بالآيات هنا ، ما اقترحه أهل مكة على رسول الله ﷺ من جعل الصفا ذهباً ، وإزالة جبال مكة ليتمكنوا من الزراعة ، وإنزال مكتوب من السماء ، ونحو ذلك ، وهذه الآيات ما أرسلت إلى الأولين ولا شاهدها فكيف كذبوا بها .

الرابع : أن تكذيب الأولين لا يمنع إرسالها إلى الآخرين لجواز أن لا يكذب الآخرون .

الخامس : أى مناسبة وارتباط بين صدر الآية وقوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ الْغَاثَ مُبْصِرَةً﴾ .

السادس : ما معنى وصف الناقة بالإبصار .

السابع : أن الظلم يتعدى بنفسه قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ١١٠] فأى حاجة إلى الياء ، وهلا قال فظلموها يعنى العقر والقتل .

الثامن : أن قوله تعالى : ﴿وَمَا نُزِّلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] يدل على الإرسال بها ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُزِّلَ بِالْآيَاتِ﴾ [الإسراء: ٥٩] يدل على عدم الإرسال بها ؟

قلنا : الجواب عن الأول أن المنع مجاز عبر به عن ترك الإرسال بالآيات ، كأنه تعالى قال : وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وعن الثانى : أن الباء لتعدية الإرسال إلى المرسل به لا إلى المرسل ، لأن المرسل محذوف وهو الرسول ، تقديره : وما منعنا أن نرسل الرسل بالآيات ، والإرسال يتعدى إلى المرسل بنفسه ، وإلى المرسل به بالباء ، وإلى المرسل إليه بـإلى ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [هود: ٩٦، ٩٧] .

وعن الثالث : أن الضمير في قوله تعالى : ﴿بِهَا﴾ عائد إلى جنس الآيات المقترحة لا إلى هذه الآيات المقترحة ، كأنه تعالى قال : وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة إلا تكذيب من قبلهم بالآيات المقترحة ، يريد المائدة والناقاة ونحوهما مما اقترحه الأولون على أنبيائهم .

وعن الرابع : أن سنة الله تعالى في عباده أن من اقترح على الأنبياء آية أتوه بها فلم يؤمن عجل الله هلاكه ، والله تعالى لم يرد هلاك مشركى مكة ، لأنه تعالى علم أنه يولد منهم من يؤمن ، أو لأنه قضى وقدر في سابق علمه بقاء من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة ، فلو أرسل بالآيات التى اقترحوها فلم يؤمنوا لأهلكهم ، وحكمته اقتضت عدم إهلاكهم ، فلذلك لم يرسلها ، فيصير معنى الآية ، وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك إلا أن كذب بالآيات المقترحة الأولون فأهلكوا ، فربما كذب بها قومك فأهلكوا .

وعن الخامس : أنه تعالى لما أخبر أن الأولين كذبوا بالآيات المقترحة عين

من غرائب آي التنزيل = ٢٣٥

منها واحدة وهى ناقة صالح عليه السلام لأن آثار ديارهم المهلكة فى بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم.

وعن السادس : أن معنى مبصرة دالة ، كما يقال الدليل مرشد وهادٍ وقيل : مبصرًا بها كما يقال : ليل نائم ونهار صائم : أي ينام فيه ويصام فيه . وقيل : مبصرة ، يعنى أنها تبصر الناس صحة نبوة صالح عليه السلام ، ويعضد هذا قراءة : "مَبْصَرَةٌ" بفتح الميم والصاد : أى : تبصرة ، وقيل : مبصرة صفة لآية مخدوفة ، تقديره : آية مبصرة ، أى : مضيئة بينة .

وعن السابع : أن الباء ليست لتعدية الظلم إلى الناقة بل معناه : فظلموا أنفسهم بقتلها أو بسببها ، وقيل : الظلم هنا الكفر ، فمعناه : فكفروا بها ، فلما ضمن الظلم معنى الكفر عداه تعديته .

وعن الثامن : أن المراد بالآيات ثانيًا العبر والدلالات لا الآيات التى اقترحها أهل مكة .

٦٠٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وليس فى القرآن لعن شجرة ما ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : والشجرة الملعونة المذكورة فى القرآن .

الثانى : أن معناه : الملعون أكلوها وهم الكفرة .

الثالث : أن الملعونة يعنى المذمومة كذا قال ابن عباس رضى الله عنهما ، وهى مذمومة فى القرآن بقوله تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ، ٤٤] وبقوله تعالى : ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهٗ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]

الرابع : أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار : ملعون ، وفى القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها .

الخامس : أن اللعن في اللغة الطرد والإبعاد ، والملعون هو المطرود عن رحمة الله تعالى المبعد ، وهذه الشجرة مطرودة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى ، وهو الجنة لأنها في قعر جهنم ، وهذا الإبعاد والطرد مذكور في القرآن بقوله تعالى : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤] وقال ابن الأنباري : سميت ملعونة لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل .

٦٠٤ - فإن قيل : كيف خص أصحاب اليمين بقراءة كتبهم بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ وَيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ [الإسراء: ٧١] ولم يخص بنفى الظلم عنهم بقوله تعالى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١] مع أن أصحاب الشمال يقرءون كتبهم ولا يظلمون أيضًا ؟

قلنا : إنما خص أصحاب اليمين بذكر القراءة لأن أصحاب الشمال إذا رأوا ما في كتبهم من الفضائح والقبائح أخذهم من الحياء والخجل والخوف ما يوجب حبسة اللسان وتنتعج الكلام والعجز عن إقامة الحروف ، فتكون قراءتهم كلا قراءة ، فأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك ، لا جرم أنهم يقرءون كتبهم أحسن قراءة وأبينها ، ولا يقتنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول للقارئ لأهل المحشر : ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُ وَأَكْتَبُ﴾ [الحاقة: ١٩] وأما قوله تعالى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾ فهو عائد إلى كل الناس لا إلى أصحاب اليمين .

الثاني : أنه عائد إلى أصحاب اليمين خاصة ، وإنما خصصهم بذلك لأنهم يعلمون أنهم لا يظلمون ، ويعتقدون ذلك بخلاف أصحاب الشمال فإنهم يعتقدون أو يظنون أنهم يظلمون ، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] .

٦٠٥ - فإن قيل : كيف قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] يعنى الآيات : ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

بَصَائِرُ [الإسراء: ١٠٢] يعنى بينات وحججًا واضحات ، وفرعون لم يعلم ذلك ، لأنه لو علم ذلك لم يقل لموسى عليه السلام : ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أى مخدوعًا أو قد سحرت أو ساحرًا مفعول بمعنى فاعل على اختلاف الأقوال ، بل كان يؤمن به ، وكيف يعلم ذلك وقد طبع الله على قلبه وأضله وحال بينه وبين الهدى والرشاد ، ولهذا قرأ على كرم الله وجهه : لقد علمت بضم التاء وقال : والله ما علم عدو الله ولكن موسى عليه السلام هو الذى علم ، واختار الكسائى وثعلب قراءة على رضى الله عنه ونصراها بأنه لما نسبته إلى أنه مسحور أعلمه بصحة عقله بقوله : ﴿لَقَدْ عَلِمْتُ﴾ ؟

قلنا : معناه لقد علمت لو نظرت نظرًا صحيحًا إلى الحجة والبرهان ، ولكنك معاند مكابر تحشى فوات دعوى الإلهية لو صدقتنى ، فكان فرعون ممن أضله الله على علم ، ولهذا بلغ ابن عباس قراءة على رضى الله عنهم ويمينه فاحتج بقوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] .

٦٠٦ - فإن قيل : كيف قال موسى عليه السلام : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُورَعُونَ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] وموسى عليه السلام كان عالمًا بذلك لاشك عنده فيه ؟ قلنا : قال أكثر المفسرين ، الظن هنا بمعنى العلم كما فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] وإنما أتى بلفظ الظن ليعارض ظن فرعون بظنه ، كأنه قال : إن ظننتنى مسحورًا فأنا أظنك مثبورًا ، والمثبور الهالك والمصروف عن الخيرات أو الملعون والخاسر .

٦٠٧ - فإن قيل : كيف كرر تعالى الإخبار بالخرور ؟

قلنا : كرهه ليدل على تكرار الفعل منهم .

الثانى : أنه كرهه لاختلاف الحالين وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين وفى حال كونهم باكين .

الثالث: أنه أراد بالخرور الأول الخرور في حالة سماع القرآن وقراءته ، وبالخرور الثاني في سائر الحالات وباقيها .

٦٠٨ - فإن قيل : الحمد إنما يكون على نعمة أنعم الله تعالى بها على العبد ، كما في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ١] لأن فيها من المنافع لنا ما لا يعد ولا يحصى ، فأى نعمة حصلت لنا من كون الله تعالى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولا ناصر حتى قال : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء: ١١١] الآية ؟

قلنا : النعمة في ذلك أن الملك إذا كان له ولد وزوج فإنما ينعم على عبيده بها يفضل عن ولده وزوجه ، وإذا لم يكن له ولد وزوج كان جميع إنعامه وإحسانه مصروفًا إلى عبيده ، فكان نفى اتخاذ الولد مقتضيًا مزيد الإنعام عليهم ، وأما نفى الشريك فلأنه يكون أقدر على الإنعام على عبيده لعدم المزاحم ، وأما نفى النصير فلأنه يدل على القوة والاستغناء ، وكلاهما يقتضى القدرة على زيادة الإنعام ، والله أعلم وأحكم .



سورة الكهف

٦٠٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ قِيمًا ﴾ يعني مستقيماً ، وقوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُرِجَاجًا ﴾ [الكهف: ١] مغن عن قوله : ﴿ قِيمًا ﴾ لأنه متى انتفى العوج ثبتت الاستقامة ، لأن العوج في المعانى كالعوج في الأعيان ، والمراد به هنا نفى الاختلاف والتناقض في معانيه ، وأنه لا يخرج منه شىء عن الصواب والحكمة ، وقيل : في الآية تقديم وتأخير تقديره ، الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً ؟

قلنا : قال الفراء : معنى قوله : ﴿ قِيمًا ﴾ [الكهف: ٦] قائماً على الكتب السماوية كلها مصداقاً لها شاهداً بصحتها ناسخاً لبعض شرائعها ، فعلى هذا لا تكرار فيه ، وعلى القول المشهور يكون الجميع بينهما للتأكيد ، سواء قدر قيماً مقدماً أو أقر في مرتبة ، والنصب بفعل مضمر تقديره : ولكن جعله قيماً ، ولا بد من هذا الإضمار أو من التقديم والتأخير ، وإلا يصير المعنى : ولم يجعل له عوجاً مستقيماً والعوج لا يكون مستقيماً .

٦١٠ - فإن قيل : اتخذ الله تعالى ولداً محال ، فكيف قال : ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الكهف: ٥] وإنما يستقيم أن يقال : فلان ما له علم بكذا إذا كان ذلك الشىء مما يعلمه غيره أو مما يصح أن يعلم ، كقولنا : زيد ما له علم بالعربية أو بالحساب أو بالشعر ونحو ذلك ؟

قلنا : معناه ما لهم به من علم ، لأنه ليس مما يعلم لاستحالته ، وهذا لأن انتفاء العلم بالشىء تارة يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وتارة يكون لاستحالة العلم به لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به ، وما نحن فيه من هذا القبيل .

٦١١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَهُمْ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا

لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] وهو عالم بذلك في الأزل ؟

قلنا : معناه لنعلم ذلك علم مشاهدة كما علمناه علم غيب .

٦١٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمُ﴾ [الكهف: ١٩] ولم يقل

واحدكم ؟

قلنا : لأنه أراد فردًا منهم أيهم كان ، ولو قال واحدكم لدل على بعث رئيسهم ومقدمهم ، فالعرب تقول : رأيت أحد القوم : أى فردًا منهم ولا تقول رأيت واحد القوم ، إلا إذا أردت المقم المعظم .

٦١٣ - فإن قيل : كيف جاء تعالى بسين الاستقبال في الفعل الأول دون

الآخرين في قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً﴾ [الكهف: ٢٢] الآية ؟

قلنا : أراد دخول الفعلين الآخرين في حكم الأول بمقتضى العطف ، فاقصر على ذكر السين في الأول إيجازًا واقتصارًا كما تقول : زيد قد يخرج ويركب ، تريد وقد يركب .

٦١٤ - فإن قيل : كيف دخلت الواو في الجملة الثالثة دون الأولين وهى

قوله : ﴿وَتَأْمِنُهُمُ كَلِمُهُ﴾ [الكهف: ٢٢] ؟

قلنا : قال بعض المفسرين هى واو الثانية ، وقد ذكرنا مثلها في آخر سورة التوبة ، وقال الزجاج : دخول هذه الواو وخروجها سواء في صفة النكرة ، وجاء القرآن بها ، وقال غيره : الواو مرادة في الجملتين الأوليين وإنما حذفت فيهما تخفيفًا ، وأتى بها في الجملة الثالثة دلالة على إرادتها فيهما ويرد على هذا القول ، أنه لو كان كذلك لكانت مذكورة في الجملة الأولى محذوفة في الجملة الثانية والثالثة ، ليدل ذكرها أولاً على حذفها بعد ذلك كما سبق في سين الاستقبال ،

وقال الزمخشري وغيره : هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الصفة الواقعة حالاً من المعرفة ، تقول : جاءني رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفي يده سيف ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ [الحجر: ٤] وفائدتها تأكيد اتصال الصفة بالموصوف ، والدالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو هي التي أذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجعوا بالظن كما رجم غيرهم ، والدليل عليه أن الله تعالى أتبع القولين الأولين ، قوله : ﴿ رَجِمَا بِالْقَيْبِ ﴾ [الكهف: ٢٢] وأتبع القول الثالث قوله : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف: ٢٢] وقال ابن عباس : وقعت الواو لقطع العدد: أي لم يبق بعدها عدد عاد يلتفت إليه ، ويثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبات .

وقال الثعلبي : هذه واو الحكم والتحقيق ، كأن الله تعالى حكى اختلافهم فتم الكلام عند قوله سبعة ، ثم حكى بأن ثامنهم كلبهم باستنفاه الكلام ، فحقق ثبوت العدد الأخير لأن الثامن لا يكون إلا بعد السبعة ، فعلى هذا يكون قوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كُلبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢] من كلام الله تعالى حقيقة أو تقديرًا ، ويرد على هذا أن قوله تعالى بعد هذه الواو : ﴿ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ [الكهف: ٢٢] وقوله تعالى : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف: ٢٢] يدل على بقاء الإيهام وعدم زوال اللبس بهذه الواو .

٦١٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الكهف: ٢٧] وقال في موضع آخر : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ [النحل: ١٠١] ويلزم من تبديل الآية بالآية تبديل الكلمات فكيف الجمع بينهما؟

قلنا : معنى الأول لا مغير للقرآن من البشر ، وهو جواب لقولهم للنبي ﷺ : اثبت بقرآن غير هذا أو بدله .

الثانى : أن معناه لا خلف لمواعيده ولا مغير لحكمه ، ومعنى الثانى النسخ والتبديل من الله تعالى ، فلا تناقض بينهما .

٦١٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] إباحة وإطلاق للكفر ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه : فمن شاء ربكم فليؤمن ومن شاء ربكم فليكفر ، يعنى لا إيمان ولا كفر إلا بمشيئته .
الثانى : أنه تهديد ووعيد .

الثالث : أن معناه لا تنفعون الله بإيمانكم ولا تضرونه بكفركم ، فهو إظهار للغنى ، لا إطلاق للكفر .

٦١٧ - فإن قيل : لبس الأساور فى الدنيا عيب للرجال ، ولهذا لا يلبسها من يلبس الذهب والحرير من الرجال ، فكيف وعدّها الله تعالى المؤمنين فى الجنة فى قوله تعالى : ﴿ يُخَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ [الكهف: ٣١] ؟

قلنا : كانت عادة ملوك الفرس والروم لبس الأساور والتيجان مخصوصين بها دون من عداهم ، فلذلك وعدّها الله تعالى المؤمنين ، لأنهم ملوك الآخرة .

٦١٨ - فإن قيل : كيف أفرد الله تعالى الجنة بعد التثنية فقال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتُهُ ﴾ [الكهف: ٣٥] ؟

قلنا : أفردها ليدل على الحصر ، معناه : ودخل ما هو جنته لا جنة له غيرها ولا نصيب له فى الجنة التى وعد المتقون ، بل ما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد جنة معينة منهما ، بل جنس ما كان له .

٦١٩ - فإن قيل : كيف قال الأخ المؤمن لأخيه : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٨] وهذا تعريض بأن أخاه مشرك ، وليس فى كلام

من غرائب آي التنزيل = ٢٤٣

أخيه ما يقتضى الشرك بل الكفر ، وهو قوله : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] ؟

قلنا : إشراك أخيه الذى عرض له به هو اعتقاده أن زكاة جنته ونهاها بحوله وقوته ، ولهذا قال له : ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] ولهذا قال هو أيضًا لما أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها : ﴿يَلَيْتَنِى لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّىَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] فاعترف بالشرك .

٦٢٠ - فإن قيل : ما فائدة "أنا" فى قوله : ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ﴾ [الكهف: ٣٩] ؟

قلنا : أنا فى مثل هذا الموضع تفيد حصر الخبر فى المخبر عنه ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنِّى أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] وقوله : ﴿إِنِّى أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] ونظائره كثيرة .

٦٢١ - فإن قيل : ما معنى قوله : ﴿وَلَمْ تَكُنْ لِرُفْقَةٍ يَنْصُرُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الكهف: ٤٣] وكذلك كل ما أشبهه مما جاء فى القرآن العزيز : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الشورى: ٦] ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧] وكيف تحقيق معناه ؟

قلنا : دون يستعمل فى كلام العرب بمعنى "غير" كقولهم لفلان : مال دون هذا ، ومن دون هذا : أى غير هذا ، ونظيره فى قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] أى : من غيره ، ويستعمل أيضًا بمعنى "قبل" كقولهم : المدينة دون مكة : أى قبلها ، ومن دونه خطر القتاد ، ولا أقوم من مجلسى دون أن تجىء ، ولا أفارقك دون أن تعطينى حقى ، وما أعلم أنها جاءت فى القرآن العزيز بمعنى "قبل" بل بمعنى "غير" فقط .

٦٢٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿هَٰذَا لَكِ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾ [الكهف: ٤٤] ،
يعنى فى يوم الآخرة أو فى يوم القيامة ، والولاية بكسر الواو ، السلطان والملك ،
وبفتح الواو التولى والنصرة ، وكل ذلك لله تعالى فى الدنيا والآخرة يعز من يشاء
ويذل من يشاء ، وينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، ويتولى من يشاء بحراسته
وحفظه ، فما فائدة تخصيص يوم القيامة ؟

قلنا : فائدته أن الدعاوى المجازية كثيرة فى الدنيا ويوم القيامة تنقطع كلها ،
ويسلم الملك لله تعالى عن كل منازع ، وقد سبق نظير هذا السؤال فى سورة
الأنعام فى قوله تعالى : ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣] .

٦٢٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿هُوَ خَيْرُ ثَوَابًا وَخَيْرُ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] ؟
أى : عاقبة ، وغير الله تعالى لا يثيب ليكون الله خيراً منه ثواباً ؟

قلنا : هذا على الفرض والتقدير معناه : لو كان غيره يثيب لكان ثوابه
أفضل ، ولكانت طاعته أحمد عاقبة وخيراً من طاعة غيره .

٦٢٤ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧] بلفظ
الماضى وما قبله مضارعان وهو قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نُسِزُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ
بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] أى : لا شىء عليها يسترها كما كان فى الدنيا ؟

قلنا : للدلالة على أن حشرهم كان قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك
الأهوال والعظائم ، كأنه قال : وحشرناهم قبل ذلك .

٦٢٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] مع أنه أخبر أن الصغائر تكفر باجتناب
الكبائر بقوله تعالى : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

من غرائب آي التنزيل ٢٤٥

قلنا : الآية الأولى في حق الكافرين بدليل قوله تعالى : ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ [الكهف: ٤٩] والمراد بهم هنا الكافرون ، كذا قال مجاهد ، وقال غيره : كل مجرم في القرآن فالمراد به الكافر ، والآية الثانية المراد بها المؤمنون لأن اجتناب الكبائر لا يكون متحققاً مع وجود الكفر .

الثاني : لو ثبت أن المراد بالمجرم مطلق المذنب لم يلزم التناقض ، لجواز أن تكتب الصغائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه فيعلم قدر نعمة العفو فإن أكثر ذنوب العبد ينساها خصوصاً الصغائر .

٦٢٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] يدل على أنه من الجن وقوله تعالى في موضع آخر : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الكهف: ٥٠] يدل على أنه من الملائكة ، فكيف الجمع بينهما؟

قلنا : فيه قولان : أحدهما أنه من الجن حقيقة عملاً بظاهر هذه الآية ولأن له ذرية قال تعالى : ﴿أَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] والملائكة لا ذرية لهم ، ولأنه أكفر الكفرة وأفسق الفسقة ، والملائكة معصومون عن الكبائر لأنهم رسل الله ، وعن المعاصي مطلقاً لأنهم عقول مجردة بغير شهوة ولا معصية إلا عن شهوة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقال تعالى : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ [الأنبياء: ١٩] يعنى الملائكة : ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠ ، ١٩] فكيف يكون إبليس منهم ويؤمر بالسجود فيمتنع ، فعلى هذا يكون استثناءه من الملائكة استثناء من غير جنس ، أو يكون استثناء من جنس المأمورين بالسجود لا من جنس الملائكة ، ويكون التقدير : وإذ قلنا للملائكة وإبليس اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كما تقول : أمرت إخوتي

وعبدى بكذا فأطاعونى إلا عبدى ، والعبد ليس من الإخوة ولا داخلًا فيهم إلا من حيث شمله الأمر بالفعل معهم ، فهذا كذلك .

القول الثانى : أنه كان من الملائكة قبل أن يعصى الله تعالى ، فلما عصاه مسخه شيطانًا ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فيكون معنى قوله تعالى : ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] لمخالفته ، فتكون كان بمعنى صار ، وقيل معناه : أنه كان من الجن فى سابق علم الله تعالى ، وهذان القولان يدلان على أنه كان من الملائكة قبل المعصية ، وروى عنه أيضًا أنه كان من خزان الجنة ، وهم جماعة من الملائكة يسمون الجن ، فعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] أى من الملائكة الذين هم خزان الجنة : ﴿فَسَقَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] بمخالفته فيكون استثناء من الجنس ، وقال الزمخشري فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الكهف: ٥٠] هو استثناء متصل ، لأنه كان جنبًا واحدًا بين أظهر الألف من الملائكة مغمورًا بهم ، فغلبوا عليه فى قوله : ﴿فَسَجِدُوا﴾ قلت : وفى هذا التعليل نظر ، ثم قال بعده : ويجوز أن يجعل منقطعًا .

٦٢٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠] والأولياء : الأصدقاء والأحباب وهم ضد الأعداء ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿وَهُمُ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠] وليس من الناس أحد يحب إبليس وذريته ويصادقهم ؟

قلنا : المراد بالموالاة هنا إجابة الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصى ويوسوسون فى صدورهم وطاعتهم إياهم ، فالموالاة مجاز عن هذا لأنه من لوازمها .

٦٢٨ - فإن قيل : قال تعالى هنا : ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴿[الكهف: ٥٢]﴾ أى فلم يجب الأصنام المشركين ، فنفى عن الأصنام النطق ، وقال تعالى فى سورة النحل : ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦] يعنى فكذبتهم الأصنام فيما قالوا : فأثبت لهم النطق فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : المراد بقوله هنا : ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف: ٥٢] أى : نادوهم للشفاعة لكم أو لدفع العذاب عنكم ، فدعوهم فلم يجوبهم لذلك ، فنفى عنهم النطق بالإجابة إلى الشفاعة ودفع العذاب عنهم ، وفى سورة النحل أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين فى دعوى عبادتهم ، فلا تناقض بين المنفى والمثبت .

٦٢٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿شُرَكَائِيَ﴾ [الكهف: ٥٢] وقال فى سورة النحل : ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ [النحل: ٨٦] ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿شُرَكَائِيَ﴾ [الكهف: ٥٢] معناه فى زعمكم واعتقادكم ، ولهذا قال : ﴿شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف: ٥٢] وأخرجه مخرج التهكم بهم ، كما قال المشركون للنبي ﷺ وقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ آلَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٩] وقوله تعالى : ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ [النحل: ٨٦] يعنى آلهتهم التى جعلوها شركاء ، فإضافتها إلى الله تعالى لجعلهم إياها شركاء ، والإضافة تصح بأدنى ملابسة لفظية أو معنوية ، فصحت الإضافة .

٦٣٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] والناسى إنما كان يوشع وحده بدليل قوله لموسى عليه الصلاة والسلام معتذرا : ﴿قَاتِلْنِي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣] أى : قصة الحوت وخبره : ﴿وَمَا أَسْلَمْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] ؟

قلنا : أضيف النسيان إليهما مجازًا ، والمراد أحدهما ، قال الفراء : نظيره قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من الملح لا من العذب .

وقيل : نسى موسى عليه السلام تفقد الحوت ونسى يوشع أن يخبره خبره ، وذلك أنه كان حوتًا مملوحًا في مكمل قد تزوداه : فلما أصابه من ماء عين الحياة رشاش حيى وانسل ، وكان قد ذهب لقضاء حاجة فعزم يوشع أن يخبره بما رأى من أمر الحوت ، فلما جاء موسى نسى أن يخبره ، ونسى موسى تفقد الحوت والسؤال عنه .

٦٣١ - فإن قيل : هذا التفسير يدل على أن النسيان من يوشع أو منهما كان بعد حياة الحوت وذهابه في البحر ، وظاهر الآية يدل على أن النسيان كان سابقًا على ذهابه في البحر متصلًا ببلوغ مجمع البحرين لقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١] ؟

قلنا : في الآية تقديم وتأخير تقديره : فلما بلغا مجمع بينهما اتخذ الحوت سبيله في البحر سربا فنسيا حوتهما .

٦٣٢ - فإن قيل : كيف نسى يوشع مثل هذه الأعجوبة العظيمة في مدة يسيرة بل في لحظة ، واستمر به النسيان يومه ذلك وليلته إلى وقت الغداء من اليوم الثاني ، ومثل ذلك لا ينسى مع تطاول الزمان كيف وقد كان الله تعالى جعل فقدان الحوت علامة لهم على وجدان الخضر عليه السلام ، على ما نقل أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى علامة على موضع وجدانه ، فأوحى إليه أن خذ معك حوتًا في مكمل فحيثما فقد الحوت فهو ثم ؟

قلنا : سبب نسيانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المعجزات من موسى عليه السلام واستأنس بها فكان إلفه لمثلها من خوارق العادات سببًا لقله اهتمامه

من غرائب آي التنزيل = ٢٤٩

بتلك الأعجوبة وعدم اكترائه بها .

٦٣٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾

[الكهف: ٧١] بغير فاء و : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ [الكهف: ٧٤] بالفاء ؟

قلنا : جعل خرقها جزاء للشرط فلم يحتج إلى الفاء كقولك : إذا ركب زيد الفرس عقره ، وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء والجزاء قال أقتلت : كقولك : إذا ركب زيد الفرس فعقره ، قال له صاحبه : أعقرته .

٦٣٤ - فإن قيل : كيف خولف بين القصتين ؟

قلنا : لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب ، وقتل الغلام تعقب لقاءه .

٦٣٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى في قصة الغلام : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا

نُكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤] وفي قصة السفينة : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾

[الكهف: ٧١] ؟

قلنا : قيل : إمرًا معناه نكرًا ، فعلى هذا لا فرق في المعنى ، لأن الإمر والنكر بمعنى واحد ، وقيل : الإمر العجب أو الداهية وخرق السفينة كان أعظم من قتل نفس واحدة لأن في الأول هلاك كثيرين . وقيل : النكر أعظم من الإمر فمعناه : جئت شيئًا أنكر من الأول ، لأن ذلك كان يمكن تداركه بالسد ، وهذا لا يمكن تداركه .

٦٣٦ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى في قصة السفينة : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ

[الكهف: ٧٢] وفي قصة الغلام : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ ﴾ [الكهف: ٧٥] ؟

قلنا : لقصد زيادة المواجهة بالعتاب على رفض الوصية مرة ثانية والتنبيه

على تكرار ترك الصبر والثبات .

٦٣٧ - فإن قيل : ما فائدة إعادة ذكر الأهل في قوله : ﴿ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا ﴾

[الكهف: ٧٧] وهلا قد استطعناهم ، لأنه قد سبق ذكر الأهل مرة ؟

قلنا : فائدة إعادته التأكيد لا غير .

٦٣٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَتَقَضَّ ﴾ [الكهف: ٧٧] نسب الإرادة إلى الجهاد وهى من صفات من يعقل ؟

قلنا : هذا مجاز بطريق المشابهة لأن الجدار بعد مشارفته ومداناته للانقضاض وللسقوط شابه من يعقل ، ويريد فى تهيئته للسقوط فظهر منه هيئة السقوط كما تظهر ممن يعقل ، ويريد ، فنسبت إليه الإرادة مجازاً بطريق المشابهة فى الصورة ، وقد أضافت العرب أفعال العقلاء إلى ما لا يعقل مجازاً قال الشاعر:

يريد الرمح صدر أبى براء ويعدل عن دماء بنى عقيل
وقال حسان :

إن دهرًا يلف شملى بحمل لزمان يهم بالإحسان
ومن أمثاله "تمرد مارد وعز الأبلق" ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقوله : ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١] وقوله : ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ونظائره كثيرة .

٦٣٩ - فإن قيل : لآى سبب لم يفارقه الخضر عليه السلام عند الاعتراض الأول والثانى ، وفارقه عند الثالث .

قلنا : لوجهين : أحدهما أن موسى عليه السلام شرط على الخضر ترك مصاحبة على تقدير وجود الاعتراض الثالث وقد وجد ، فكان راضياً به .

الثانى : أن اعتراض موسى عليه السلام فى المرة الأولى والثانية كان تورعاً وصلابه فى الدين ، واعتراضه فى المرة الثالثة لهوى نفسه وشهوة بطنه فأعقبه

من غرائب آي التنزيل
هواه هوانًا .

٦٤٠ - فإن قيل : قوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩] علته خوف الغضب ، فكان حقه أن يتأخر عن علته ، فلم قدم عليها ؟

قلنا : هو متأخر عنه لأن علة تعييبها أو علة إرادته تعييبها خوف الغضب وخوف الغضب سابق ، لأنه الحامل للخضر عليه السلام على ما فعله ، وفي قراءة أبي وعبد الله رضى الله عنهما " كل سفينة صالحة " ولا بد من إضمار هذه الزيادة على قراءة الجمهور ، وإلا لم يفد الخرق .

٦٤١ - فإن قيل : الشمس في السماء الرابعة وهي بقدر كرة الأرض مائة وستين مرة ، وقيل : مائة وخمسين ، وقيل : مائة وعشرين ، فكيف تسعها عين في الأرض ، حتى أخبر الله تعالى عن ذى القرنين أنه وجدها تغرب في عين حمئة أو حائمة على اختلاف القراءتين ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى (وجدها) : أى في زعمه وظنه ، كما يرى راكب البحر إذا لَجَّ فيه وغابت عنه الأطراف والسواحل أن الشمس تطلع من البحر وتغرب فيه ، فذو القرنين انتهى إلى آخر البنيان في جهة المغرب فوجد عينًا حمئة واسعة عظيمة فظن أن الشمس تغرب فيها .

٦٤٢ - فإن قيل : ذو القرنين كان نبيًا أو تقيًا حكيمًا على اختلاف القولين فكيف خفى عليه هذا حتى وقع في الظن المستحيل الذي لا يقبله العقل ؟

قلنا : الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا معصومين عن ظن الغلط الخطأ ، وإن كانوا معصومين عن الكبائر ، ألا ترى إلى ظن موسى عليه السلام فيما أنكر على الخضر عليه السلام في القضايا الثلاث ، وظنه أنه يرى الله تعالى في الدنيا وهو من كبار الأنبياء ، وكذلك يونس عليه السلام على ما أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وكان

الواقع بخلاف ظنه .

الثانى : أن الله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين الحمئة وكرة الأرض بحيث تسع عين الماء عين الشمس ، فلم لا يجوز أن يكون قد وقع ذلك ولم نعلم به لقصور علمنا عن الإحاطة بذلك !!

٦٤٣ - فإن قيل قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَذَّاقُوا الْعَذَابَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تُجَاهِلُونَ ﴾ [الكهف: ٨٦] يدل على أنه كان نبياً لأن الله تعالى خاطبه ؟
ففيهم حسناً

قلنا : من قال إنه ليس نبياً يقول هذا الخطاب له كان بواسطة النبى الموجود فى زمانه كما فى قوله : ﴿ يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [البقرة: ٤٠] وما أشبهه .

٦٤٤ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى هنا فى حق الكفار : ﴿ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥] أى فلا ننصب لهم ميزاناً ، لأن الميزان إنما ينصب لتوزن به الحسنات بمقابلة السيئات ، والكافر لا حسنة له ولا طاعة لقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءً مُنْثَوًّا ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ [القارعة: ٨، ٩] أى فمسكنه النار فأثبت له ميزاناً ؟

قلنا : معنى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥] أى : لا يكون لهم عندنا قدر ولا خطر لخستهم وحقارتهم ، ولو كان معناه ما ذكرتم يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ [القارعة: ٨، ٩] من غلبت سيئاته على حسناته من المؤمنين فإنه يستكين فى النار ، ولكن لا يخلد فيها ، بل بقدر ما يمحص عنه ذنوبه ، فلا تنافى بينهما .



سور مريم عليها السلام

٦٤٥ - فإن قيل : النداء الصوت والصياح ، يقال ناداه نداء : أى صاح به ، فكيف وصفه تعالى بكونه ﴿ خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣] ؟

قلنا : النداء هنا عبارة عن الدعاء ، وإنما أخفاه ليكون أقرب إلى الإخلاص ، أو لئلا يلام على طلبه الولد بعد الشيخوخة ، أو لئلا يعاديه بنو عمه ويقولوا : كره أن تقوم مقامه بعده ، فسأل ربه الولد لذلك .

٦٤٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٦] والنبى لا يورث لقوله ﷺ : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة " (١) ؟

(١) هناك مناظرة قيمة لشيخ الإسلام ابن تيمية مع أحد الشيعة " ابن مطهر " تبرد القلوب حول هذا الحديث :

ابن مطهر : منع أبو بكر فاطمة إرثها ، والتجأ إلى رواية انفرد بها ، وكان هو الغريم لها ، لأن الصدقة تحمل له ، لأن النبي ﷺ قال : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة " على ما رواه عنه ، والقرآن يخالف ذلك لأنه تعالى قال : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] وقال : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥ ، ٦] .

ابن تيمية : قولك : " رواية انفرد بها " كذب ، بل رواه عن النبي ﷺ أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، طلحة ، الزبير ، عبد الرحمن بن عوف ، العباس ، أزواج النبي ﷺ وأبو هريرة رضي الله عنهم .

وقولك : " كان الغريم لها " كذب ، فإن أبا بكر رضي الله عنه لم يدع التركة لنفسه ، وإنما هي صدقة لمستحقها ، وأيضا فتيقن الصحابة وأولهم علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ لا يورث ، ولهذا لما ولي علي رضي الله عنه الخلافة لم يقسم تركة النبي ﷺ ولا غيرها من مصرفها .

= ثم قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] لا يدل إذ "الإرث" اسم جنس تحته أنواع والبدال على ما به الاشتراك لا يدل على ما به الامتياز، ولفظ "الإرث" يستعمل في لفظ إرث العلماء والمملك وغير ذلك. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا آلَكَ إِنَّا نَحْنُ الْغَنِيُّ﴾ [فاطر: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ الْبَنَاتُ الْوَلَدَ الَّذِي أَوْرَثْنَاهَا﴾ [الزخرف: ٧٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وأخرج أبو داود أن النبي ﷺ قال: "إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم" ثم يقال: بل المراد إرث العلم والنبوة لا المال. وإذ معلوم أنه كان لداود عليه السلام أولاد كثيرة غير سليمان عليه السلام فلا يختص سليمان عليه السلام بهاله، وليس في كونه إرث ماله صفة مدح لها، فإن البر والفاجر يرث أباه، والآية سبقت في مدح سليمان عليه السلام وما خص به، وارث المال من الأمور العادية المشتركة بين الناس، ومثل ذلك لا يقص علينا لعدم فائدته. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَرِثْنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِي يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] لأنه لا يرث من آل يعقوب أموالهم، إنما يرثهم أولادهم وذريتهم. ثم زكريا عليه السلام لم يكن ذا مال إنما كان نجارًا، ويحيى عليه السلام كان من أزهدهم الناس.

ابن مطهر: ولما ذكرت أن أباهما وهبها فذك، وقال: هاتي شاهدا. فجاءت بأم أيمن فقال: امرأة لا يقبل قولها، فجاءت بعلي فشهد لها، فقال: هذا بعلك يحجره إلى نفسه. ابن تيمية: ما هذا بأول افتراء للرافضة ولا بهتهم، ثم أن فاطمة إن كانت طلبت فذك بالإرث بطلت الهبة، وإن كانت هبة بطل الإرث. ثم إذا كانت هذه هبة في مرض الموت فرسول الله ﷺ منزه - إن كان يورث كما يورث غيره - أن يوصي لوارث أو يخصه في مرض موته بأكثر من حقه وإن كان في صحته فلا بد أن تكون هذه هبة مقبوضة، وإلا فإذا وهب الواهب بكلام، ولم يقبض الموهوب إليه شيئا حتى مات، كان ذلك باطلا عند جماهير العلماء فكيف يهب النبي ﷺ فذك لفاطمة ولا يكون ذلك أمرا مشهورا عند أهل بيته والمسلمين حتى تختص بمعرفته أم أيمن أو علي رضي الله عنهما، بل ذلك كذب على فاطمة في ادعائها ذلك. وإن كان النبي ﷺ يورث فالخصم أزواجه وعمه رضي الله عنهم ولا تقبل عليهم شهادة امرأة واحدة ولا =

من غرائب آي التنزيل ٢٥٥

قلنا : المراد بقوله تعالى : يرثني : أى : يرثنى العلم والنبوة ، ويرث من آل يعقوب الملك ، وقيل : الأخلاق ، فأجابه الله تعالى إلى ورائته العلم والنبوة والأخلاق دون الملك ، والمراد بقوله ﷺ : " لا نورث " المال ويؤيده قوله : " ما تركناه صدقة " ويعقوب هنا أبو يوسف عليهما السلام ، وقيل : لا بل هو أخو زكريا ، وقيل : لا بل هو أخو عمران الذى هو أبو مريم .

٦٤٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] فعدى الفعل فى الأول بنفسه ؛ والثانى بحرف الجر وهو واحد ؟

قلنا : يقال ورثه وورث منه ، فجمع بين اللغتين ، وقيل " من " هنا للتبعيض لا للتعدية ، لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء .

٦٤٨ - فإن قيل : كيف طلب الولد بقوله : ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] أى : ولدا صالحا ، فلما بشره الله تعالى بقوله : ﴿يَزَكِّيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧] الآية استبعد ذلك وتعجب منه وأنكره بقوله : ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] الآية ؟

قلنا : لم يقل ذلك على طريق الإنكار والاستبعاد ، بل ليجاب بما أجيب به

= رجل واحد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ واتفاق المسلمين . وإن كان لا يورث فالخصم فى ذلك المسلمون ، فذلك لا تقبل عليهم شهادة امرأة واحدة ولا رجل واحد باتفاق المسلمين ولا رجل وامرأة . نعم يحكم فى مثل ذلك بشهادة ويمين الطالب عند فقهاء الحجاز وفقهاء أهل الحديث . وشهادة الزوج لزوجته فيها قولان مشهوران للعلماء هما روايتان عن أحمد رضى الله عنه أحدهما لا تقبل وهي مذهب أبى حنيفة ومالك والليث بن سعد والأوزاعي وإسحاق وغيرهم رضى الله عنهم . والثانية تقبل وهي مذهب الشافعي وأبي ثور وابن المنذر .

فعلى هذا لو قدر صحة القضية لما جاز للإمام أن يحكم بشهادة رجل واحد وامرأة بالاتفاق ، لا سيما وأكثرهم لا يميزون شهادة الزوج .

عن طلبه الولد وهو قوله تعالى : ﴿يَذْكُرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧] فيزداد الموقنون إيقاناً ويرتدع المبطلون ، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وآخرًا كان على منهاج واحد ، في أن الله تعالى غنى عن الأسباب .

الثاني : أنه قال ذلك تعجب فرح وسرور ، لا تعجب إنكار واستبعاد .

الثالث : قيل : إنه قال ذلك استفهامًا عن الحالة التي يهبه الله تعالى فيها الولد، هل يهبه في حال الشيخوخة أم يرده إلى حالة الشباب ، ثم يهبه ، ولكن هذا الجواب لا يناسبه ما أجيب به زكريا عليه السلام بعد استفهامه .

٦٤٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [مريم: ١٠] والآية العلامة ، فطلب العلامة على وجود الولد بعد ما بشره الله تعالى به ، أكان عنده شك بعد بشارة الله تعالى في وجوده حتى ظل العلامة ؟

قلنا : إنما طلب العلامة على وجود الحمل ليبادر إلى الشكر ويتعجل السرور ، فإن الحمل لا يظهر في أول العلوق بل بعد مدة ، فأراد معرفته أول ما يوجد ، فجعل الله آية وجود الحمل عجزه عن الكلام وهو سوى الجوارح : ما به خرس ولا بكم .

٦٥٠ - فإن قيل : كيف قالت مريم : ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] وإنما يتعوذ من الفاسق لا من التقى ؟

قلنا : معناه إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه فانت عني بتعوذى به منك ، فمعنى أعوذ أحصل على ثمرة التعوذ ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان في زمانها رجل اسمه تقى ، ولم يكن تقياً بل كان فاجراً ، فظنته إياه فتعوذت منه ، والقول الأول هو الذى عليه المحققون ، وقيل : هو المبالغة معناه : إني أعوذ منك إن كنت تقياً فكيف يكون حالى في القرب منك إلى الله تعالى إذا لم تكن تقياً ، قالوا : ونظير هذا ما جاء في الخبر " نعم العبد صهيب ، لو لم يخف

الله لم يعصه" (١) معناه : أنه إذا كان بحال لو لم يخف الله تعالى لا يوجد منه عصيان ، فكيف يكون حاله إذا خاف الله تعالى ، وفي قراءة أبي رجاء وابن مسعود : "إلا أن تكون تقياً" .

٦٥١ - فإن قيل : اتفق العلماء على أن الوحي لم ينزل على امرأة ولم يرسل جبريل عليه السلام برسالة إلى امرأة قط ، ولهذا قالوا في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] أنه كان وحى إلهام ، وقيل : وحى منام فكيف قال تعالى هنا : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] وقال ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] ؟

قلنا : لا نسلم أن الوحي لم ينزل على امرأة قط ، فإن مقاتلاً قال في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] أنه كان وحياً بواسطة جبريل عليه السلام ، وإنما المتفق عليه بين العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بوحي الرسالة على امرأة لا بمطلق الوحي ، وهنا لم ينزل على مريم بوحي الرسالة بل بالبشارة بالولد ، ولهذا جاء على صورة البشر : ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] .

٦٥٢ - فإن قيل : ما وجه القراءة الجمهور : ﴿لَأَهْبَ لَكَ﴾ [مريم: ١٩] والواهب للولد هو الله تعالى لا جبريل عليه السلام ؟

قلنا : قال ابن الأنباري ، معناه إنما أنا رسول ربك بقوله لك : أرسلت رسولاً إليك لأهب لك ، فيكون حكاية عن الله تعالى لا عن قول جبريل عليه السلام ، فيكون فعل الهبة مسنداً إلى الله تعالى لا إليه .

الثاني : أن معناه لأكون سبباً في هبة الولد بواسطة النفخ في الدرع ،

(١) هو من كلام سيدنا عمر بن الخطاب ، المقاصد الحسنة للسخاوي (١٢٥٩) ، وكشف الخفا (٢٨٣١) ، وكنز العمال (٣٧٤٧) .

فالإضافة إليه بواسطة السببية .

٦٥٣ - فإن قيل : كيف قالت : ﴿وَلَمْ أَكُ يَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] ولم تقل بغية مع أنه وصف مؤنث ؟

قلنا : قال ابن الأنباري : لما كان هذا الوصف غالباً على النساء ، وقلما تقول العرب رجل بغى ، لم يلحقوا به علامة التأنيث إجراء له مجرى حائض وعافر ، وقال الأزهرى : لا يقال رجل بغى ، بل هو مختص بالمؤنث ، ولام الكلمة ياء يقال : بغت تبغى ، وهى فعول عند المبرد أصلها بغوى قلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت الغين إتباعاً ، فهو كصبور وشكور فى عدم دخول التاء ، وقال ابن جنى فى التمام : هى فعيل ، ولو كان فعولاً لقليل بغو ، كما قيل : هو نهو عن المنكر ، ثم قيل : هى فعيل بمعنى فاعل ، فهى كقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَحِمْتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقال الأخفش : هى مثل ملحفة جسيد فجعلها بمعنى مفعول . وقيل إنما لم يقل بغية مراعاة لبقية رؤوس الآيات .

٦٥٤ - فإن قيل : ما كان حزن مريم وقولها : ﴿يَلَيَّتْنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] ألفتد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب ، أم كان خوف أن يتهمها قومها بفعل الفاحشة ؟

قلنا : كان حزنها لمجموع الأمرين ، وهو ما ذكرتم ، وجذب مكانها الذى ولدت فيه ، فإنه لم يكن فيه طعام ولا شراب ولا ماء تتطهر به ، وكان إجراء النهر فى المكان اليابس الذى لم يعهد فيه ماء ، وإخراج الرطب من الشجرة اليابسة دافع لجهتى الحزن ، أما دفع الجذب فظاهر ، وأما دفع حزن التهمة فمن حيث أنها معجزتان تدلان قومها على عصمتها وبراءتها من السوء وأن الله تعالى قد خصها بأمور إلهية خارجة عن العادة خارقة لها ، فتبين لهم أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها ولا بعيد فى قدرة الله تعالى ، المخرج

من غرائب آي التنزيل ٢٥٩

في لحظة واحدة الرطب الجنى من النخلة اليابسة ، والمجرى للماء بغتة في مكان لم يعهده فيه .

٦٥٥ - فإن قيل : كيف أمرها جبريل عليه السلام إذا رأت إنساناً أن تكلمه بعد النذر بالسكوت بقوله : ﴿ فَأَمَّا تَرِينُ مِنَ النَّاسِ أَهَذَا ﴾ [مريم: ٢٦] الآية ، وذلك خلف في النذر؟

قلنا : إنما أمرها بذلك لأنه إتمام نذرها ، فإنها لم تكن مأمورة بنذر مطلق السكوت حتى يندرج فيه الكف عن الذكر والتسبيح والدعاء ونحوها ، بل ينذر السكوت عن تكليم الإنس ، وإذا كان تمام نذرها بقولها : ﴿ فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦] لا تكون مكلمة لإنسى بعد تمام النذر .

٦٥٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ٢٩] وكل أحد كان في المهد صبياً ؟

قلنا : كان هنا زائدة ، وصبياً منصوب على الحال لا على أنه خبر " كان " تقديره ، كيف نكلم من في المهد في حال صباه ، وقيل : كان بمعنى وقع ووجد ، وصبياً منصوب على الوجه الذي مر .

٦٥٧ - فإن قيل : خطاب التكليف في جميع الشرائع إنما يكون بعد البلوغ أو بعد التمييز والقدرة على فعل المأمور به ، وعيسى عليه السلام كان رضيعاً في المهد فكيف خوطب بالصلاة والزكاة حتى قال : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١] ؟

قلنا : تأخير الخطاب إلى غاية البلوغ وغيرها إنما كان ليحصل العقل والتمييز ، وعيسى عليه السلام كان واجد العقل والتمييز التام في تلك الحالة فتوجه نحوه الخطاب أن يفعلها إذا قدر على ذلك ، ولهذا قيل : إنه أعطى النبوة في صباه أيضاً .

٦٥٨ - فإن قيل : الزكاة إنما تجب على الأغنياء ، وعيسى عليه السلام لم يزل فقيرًا لابس كساء مدة مقامه في الأرض ، وعلم الله تعالى ذلك من حاله ، فيكف أوصاه بالزكاة ؟

قلنا : المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصي ، لا زكاة المال .

٦٥٩ - فإن قيل : كيف جاء السلام في قصة يحيى عليه السلام منكرًا ، وفي قصة عيسى عليه السلام معرّفًا ؟

قلنا : قد قيل : إن النكرة والمعرفة في مثل هذا سواء لا فرق بينهما في المعنى .
الثاني : أنه سبق ذكره في قصة يحيى عليه السلام مرة ، فلما أعيد ذكره أعيد معرّفًا كقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦] كأنه قال ذلك السلام الموجه إلى يحيى عليه السلام في المواطن الثلاثة موجه إلى .

٦٦٠ - فإن قيل : كيف تكون الألف واللام في السلام للعهد ، والأول سلام من الله تعالى على يحيى عليه السلام ، والثاني سلام من عيسى على نفسه ؟

قلنا : التعريف راجع إلى ماهية السلام ومواطنه ، لا إلى كونه رادًا من عند الله تعالى .

٦٦١ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [مريم: ٤١] وما شبهه ، ومثل هذا إنما يستعمل إذا كان المأمور مختارًا في الذكر وعدمه ، كما تقول لصاحبك وهو يكتب كتابا : اذكرني في الكتاب ، أو اذكر فلانًا في الكتاب ، والنبى عليه السلام ما كان على سبيل من الزيادة والنقصان في الكتابة ليوصى بمثل ذلك ؟

من غرائب آي التنزيل = ٢٦١

قلنا : هذا على طريق التأكيد في الأمر بالإبلاغ ، كتأكيد الملك على رسوله بإعادة بعض فصول الرسالة وتخصيصها بالأمر بالإبلاغ .

٦٦٢ - فإن قيل : الاستغفار للكافر لا يجوز ، فكيف وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له بقوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي ﴾ [مريم: ٤٧] مع أنه كافر ؟

قلنا : معناه سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها مغفرته ، يعنى الإسلام والاستغفار للكافر بهذا الطريق جائز ، وهو أن يقال : اللهم وفقه للإسلام أو اللهم تب عليه واهده وأرشده وما أشبه ذلك .

الثاني : أنه وعده ذلك بناء على أن يسلم فيستغفر له بعد الإسلام .

الثالث : أنه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر ، فإن تحريم ذلك قضية شرعية إنما تعرف بالسمع لا عقلية ، فإن العقل لا يمنع ذلك .

٦٦٣ - فإن قيل : الطور وهو الجبل ليس له يمين ولا شمال ، فكيف قال تعالى : ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ [مريم: ٥٢] ؟

قلنا : خاطب الله تعالى العرب بما هو معروف في استعمالهم ، فإنهم يقولون عن يمين القبلة وشمالها ، يعنون ما يلي يمين المستقبل لها وشماله ، لأن القبلة لا بد لها لتكون لها يمين وشمال ، وهذا اتساع منهم في الكلام لعدم اللبس ، فالمراد بالأيمن هنا ما عن يمين موسى عليه السلام من الطور ، لأن النداء جاءه من قبل يمينه ، هذا إن كان الأيمن ضد الأيسر من اليمين ، وإن كان من اليمين وهو البركة من قولهم : يمين فلان قومه فهو يامن ، أى : كان مباركا عليهم ، فلا إشكال ، لأنه بصير معناه : من جانب الطور المبارك .

٦٦٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ

نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] وهارون كان أكبر من موسى عليهما السلام ، فما معنى هبته له ؟

قلنا : معناه أن الله تعالى أنعم على موسى عليه الصلاة والسلام بإجابة دعوته فيه حيث قال : ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩، ٣٠] الآية فقال : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] فالمراد بالهبة أنه جعله عضداً له وناصرًا ومعينًا ، كذا فسرہ ابن عباس رضی اللہ عنہما .

٦٦٥ - فإن قيل : كيف وصف الله تعالى النبيين المذكورين في قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ [مريم: ٥٨] الآية بقوله تعالى : ﴿إِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ أَتَيْنَا الرَّحْمَنَ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ [مريم: ٥٨] والمراد بآيات الرحمن القرآن ، والقرآن لم يتل على أحد من الأنبياء المذكورين ؟

قلنا : آيات الرحمن غير مخصوصة بالقرآن ، بل كل كتاب أنزله الله تعالى ففيه آياته ، ولو سلمنا أن المراد بها القرآن فنقول ، إن المراد بقوله : ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨] محمد ﷺ وأمه .

٦٦٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [إلا من تاب وآمن] [مريم: ٥٩، ٦٠] يدل على أن ترك الصلاة وإضاعتها كفر ، لأنه شرط في توبة مضيعها الإيذان ؟

قلنا : قال ابن عباس رضی اللہ عنہما : المراد بهؤلاء الخلف هنا اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب .

٦٦٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١] ولم يقل آتيا كما قال تعالى : ﴿إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ﴾ [الأنعام: ١٣٤] ؟

قلنا : المراد بوعده هنا مواعده وهو الجنة ، وهي مأتية يأتيها أولياؤه .

الثاني : أن مفعولاً هنا بمعنى فاعل ، كما في قوله تعالى : ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] أى ساتراً .

من غرائب آي التنزيل ————— ٢٦٣

٦٦٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣] وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] يدل من حيث المفهوم أن غير المتقين لا يدخلون الجنة ؟

قلنا : المراد بالتقوى هنا التقوى من الشرك ، وكل المؤمنين سواء في ذلك .

٦٦٩ - فإن قيل : ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال من دعوتهم الولد لله تعالى ، ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجهادات ؟

قلنا : معناه أن الله تعالى يقول : كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً على قائلها ، لولا حلمي وإمهالي ، وأن لا أعجل العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسَيِّدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ يَزُولَا ﴾ [فاطر: ٤١] يعني أن تخر على المشركين وتنشق الأرض بهم ، ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١] .

الثاني : أن يكون استعظاماً لقبح هذه الكلمة وتصويراً لأثرها في الدين وهدماً لأركانها وقواعده وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجسام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر .

٦٧٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا في صفة الشرك : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْقَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠] وهذا يدل على قوة كلمة الشرك وشدتها ، وقال تعالى في سورة إبراهيم صلوات الله عليه في صفة كلمة الشرك : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خبيثة كَشَجَرَةٍ خبيثة أُجْتُتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦] والمراد بالكلمة الخبيثة كلمة الشرك ، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وبالشجرة الخبيثة شجرة الحنظل ، كذا قاله رسول الله ﷺ ، وهذا يدل على ضعف كلمة الشرك وتلاشيها واضمحلالها ، فكيف التوفيق

بينهما ؟

قلنا : وصفت كلمة الشرك في سورة إبراهيم عليه السلام بالضعف وهنا بالقبح ، فهي في غاية الضعف وفي غاية القبح والفظاعة فلا تنافى بينهما .

٦٧١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَخْصَلَهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤] والإحصاء العد على ما نقله الجوهري ، أو الحصر على ما نقله بعض أئمة التفسير ، كما سبق ذكره في سورة إبراهيم صلوات الله عليه في قوله تعالى : ﴿وإن تعدوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فإن كان الإحصاء العد فهو تكرار، وإن كان الحصر فذكره مغن عن ذكر العد ، لأن الحصر لا يكون إلا بعد معرفة العدد ؟

قلنا : الإحصاء قد جاء بمعنى العلم أيضًا ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَخْصَى كُلُّ شَيْءٍ عَدًّا﴾ [الجن: ٢٨] أى علم عدد كل شيء ، قال الشاعر :

وكن للذي لم تحصه متعلمًا وأما الذي أحصيت منه فعلم

وهو المراد هنا : فيصير المعنى لقد علمهم : أى علم أفعالهم وأقوالهم وكل ما يتعلق بذواتهم وصفاتهم وعددهم ، فلا تكرار ولا استغناء عن ذكر العد .

*** ** *

سورة طه عليه السلام

٦٧٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَىٰ نَارًا﴾ [طه: ٩، ١٠] الآية ، كيف حكى الله تعالى قول موسى عليه السلام لأهله عند رؤية النار في هذه السورة وفي سورة النمل وفي سورة القصص بعبارات مختلفة ، وهذه القضية لم تقع إلا مرة واحدة ، فكيف اختلفت عبارة موسى عليه السلام فيها ؟

قلنا : قد سبق في سورة الأعراف في قصة موسى عليه السلام مثل هذا السؤال والجواب المذكور ثم هو الجواب هنا .

٦٧٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ [طه: ١٦] ظاهر اللفظ نهى من لا يؤمن بالساعة عن صد موسى عن الإيمان بها ، والمقصود هو نهى موسى عن التكذيب بها ، فكيف تنزيله ؟

قلنا : معناه كن شديد الشكيمة في الدين صليب المعجم ، لئلا يطمع في صدك عن الإيمان بها من لا يؤمن بها ، وهذا كقولهم : لا أرينك هاهنا ، معناه : لا تدن منى ولا تقرب من حضرتى لئلا أراك ، ففي الصورتين النهى متوجه إلى المسبب ، والمراد به النهى عن السبب ، وهو القرب منه والجلوس بحضرته ، فإنه سبب رؤيته ، وكذلك لين موسى عليه السلام في الدين وسلامة قيادة سبب لصددهم إياه .

٦٧٤ - فإن قيل : ما فائدة السؤال في قوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٦] وهو أعلم بما في يده جملة وتفصيلاً ؟

قلنا : فائدته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة

الإجلال وقت المتكلم معه ، كما يرى أحدنا طفلاً قد داخلته هيبة وإجلال وخوف وفي يده فاكهة أو غيرها فيلاطفه ويؤانس به قوله ما هذا الذى فى يدك، مع أنه عالم به .

الثانى : أنه أراد بذلك أن يقر موسى عليه السلام ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بكونها عصا رسوخاً فى قلبه فلا يحوم حوله شك إذا قلبها ثعباناً أنها كانت عصا ، ثم انقلبت ثعباناً بقدرة الله تعالى، وأن يقرر فى نفسه المباشرة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه فينتبه على القدرة الباهرة ، ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك ما هذه ؟

فتقول زبرة من حديد ، ثم يريك بعد أيام درعاً سابغة مسرودة ويقول : هذه تلك الزبرة ، صيرتها إلى ما تراه من عجيب الصنعة وأنيق السرد .

٦٧٥ - فإن قيل : كيف زاد موسى على حرف الجواب وليس ذلك من شيمة البلغاء خصوصاً فى مخاطبة الملك الأعلى ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه لما قال عصاى سئل سؤالاً ثانياً، فقيل : ما تصنع بها ، فأجاب بيباقى الآية .

الثانى : أنه إنما عدّد فوائدها وبين حاجته إليها خوفاً من أن يؤمر بإلقائها كما أمر بإلقاء النعلين .

الثالث : أنه ذكر ذلك لئلا ينسب إلى العبث فى حملها .

٦٧٦ - فإن قيل : قد نقل أنها كانت تضىء له بالليل وتدفع عنه الهوام ، وتثمر له إذا انتهى الثمار ، فيغرسها فى الأرض فتثمر من ساعتها ، ويركزها فينبع الماء من مركزها ، فإذا رفعها نضب ، وكان يستقى بها فتطول بطول البئر وتقتصر بقصرها ، فهلا عدد هذه المنافع ؟

من غرائب آي التنزيل ٢٦٧

قلنا : كره أن يشتغل عن سماع كلام الله تعالى بتفصيل منافعها ، ففصل البعض وأجمل الباقي بقوله : ﴿وَلِي فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨] والله أعلم بما أجمله .

الثاني : أنه ذكر المنافع التي هي ألزم له وحاجته إليها أمس ، وإن كانت المنافع التي أجملها أعجب وأغرب .

٦٧٧ - فإن قيل : قد ذكر الله تعالى عصا موسى عليه السلام بلفظ الحية والشعبان والجنان ، وبين الشعبان والجنان تنافٍ ، لأن الجان الحية الصغيرة كذا قاله ابن عرفة ، والشعبان الحية العظيمة ، كذا نقله الأزهرى عن الزجاج وقطرب ؟ قلنا : أراد أنها فى صورة الشعبان العظيم وخفة الحية الصغيرة وحركتها ويؤيده قوله : ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ﴾ [النمل: ١٠] .

الثاني : أنها كانت فى أول انقلابها تنقلب حية صغيرة صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصبح ثعباناً ، فأريد بالجان أول حالها ، وبالشعبان مآلها .

٦٧٨ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَى أَمَلِكَ مَا يَوْحَى﴾ [طه: ٣٨] وهذا لا بيان فيه ، لأنه مجمل ، فما فائدته ؟

قلنا : فائدته الإشارة إلى أنه ليس كل الأمور مما يوحى إلى النساء كالنبوة ونحوها ، بل بعضها .

الثاني : أنه للتأكيد كقوله تعالى : ﴿فَقَسَّئْنَا مَا عَشَى﴾ [النجم: ٥٤] كأنه قال إذا أوحينا إلى أمك إيجاء .

الثالث : أنه أبهمة أولاً للتفخيم والتعظيم ، ثم بينه وأوضحه بقوله تعالى : ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ﴾ [طه: ٣٩] الآية .

٦٧٩ - فإن قيل : كيف قدم هارون على موسى عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿فَأَتَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالَ أَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠] وهارون كان وزيراً لموسى عليه السلام وتبعاً له ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥] ؟

قلنا : إنما قدمه ليقع موسى مؤخرًا في اللفظ ، فيناسب الفواصل : أعنى رؤوس الآيات .

٦٨٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤] والموت والحياة صفتان من صفات الإنسان وهما نقيضان ، فكيف يرتفعان ؟

قلنا : المراد لا يموت فيها موتًا يستريح به ، ولا يحيا حياة تنفعه ويستلذ بها .
الثاني : أن المراد لا يموت فيها موتًا متصلًا ولا يحيا حياة متصلة ، بل كلما مات من شدة العذاب أعيد حيًا ليدوق العذاب هكذا سبعين مرة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا .

٦٨١ - فإن قيل : الخوف والخشية واحد في اللغة ، فكيف قال تعالى : ﴿لَا تَخْشَفْ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧] ؟

قلنا : معناه لا تخاف دركًا ، أى لحاقًا من فرعون ولا تخشى غرقًا في البحر كما تقول : لا تخاف زيدًا ولا تخشى عمرًا ، ولو قلت ولا عمرًا صح وكان أوجز ، ولكن إذا أعدت الفعل كان أكد ، وأما في الآية فلما لم يكن مفعول الخشية مذكورًا ذكر الفعل ثانيًا ليكون دليلًا عليه ، وخولف بين اللفظين رعاية للبلاغة ، وقيل معناه ، لا تخاف دركًا على نفسك ، ولا تخشى دركًا على قومك ، والأول عندى أرجح .

٦٨٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ [طه: ٧٩] يعنى في

من غرائب آي التنزيل ٢٦٩

قوله تعالى : ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩] ومفيد فوق فائدته فكيف ذكر معه ؟

قلنا : معناه ، وما هداهم بعد ما أضلهم ، فإن المضل قد يهدى بعد إضلاله .

الثاني : أن معناه : وأضل قومه وما هدى نفسه .

الثالث : أن معناه : وأضل فرعون قومه عن الدين وما هداهم طريقاً في البحر .

الرابع : أن قوله : ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩] تهكم به في قوله لقومه : ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] .

٦٨٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿يَلْبِسْ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه:٨٠] أضاف المواعدة إليهم ، والمواعدة إنما كانت لموسى عليه السلام واعده الله تعالى جانب الطور الأيمن لإتيانه التوراة؟

قلنا : المواعدة وإن كانت لموسى عليه السلام ، ولكنها لما كانت لإنزال كتاب بسبب بنى إسرائيل وفيه بيان شريعتهم وأحكامهم وصلاح معاشهم ومعادهم أضيفت إليهم المواعدة بهذه الملابس والاتصال .

٦٨٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ [طه:٨٣] سؤال عن سبب العجلة ، فإن موسى عليه السلام لما واعده الله تعالى بإنزال التوراة عليه بجانب الطور الأيمن وأراد الخروج إلى ميعاد ربه اختار من قومه سبعين رجلاً يصحبونه إلى ذلك المكان، ثم سبقهم شوقاً إلى ربه وأمرهم بلحاقه، فعوتب على ذلك وكان الجواب المطابق أن يقول : طلبت زيادة رضاك أو الشوق إلى لقاءك ، وتنجز وعدك ، فيكف قدم ما لا يطابق السؤال وهو

قوله : ﴿هُرْ أَوْلَاءَ عَلَيَّ أَثَرِي﴾ [طه: ٨٤]؟

قلنا : ما واجهه ربه به تضمن شيئين : إنكار العجلة في نفسها والسؤال عن سببها ، فبدأ موسى عليه السلام بالاعتذار عما أنكره تعالى عليه بأنه لم يوجد منه إلا تقدم يسير لا يعتد به في العادة كما يتقدم المقدم جماعته وأتباعه ثم عقب العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

٦٨٥ - فإن قيل : أليس أن أئمة اللغة قالوا : العوج بالكسر في المعانى ، وبالفتح في الأعيان ، ولهذا قال ثعلب : وتقول في الأمر والدين عوج وفي العصا ونحوها عوج ، كالجبال والأرض ، فكيف صح فيها المكسور في قوله تعالى : ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]؟

قلنا : قال ابن السكيت ، كل ما كان مما ينتصب كالحائط والعود قيل فيه عوج بالفتح ، والعوج بالكسر ما كان في أرض أو دين أو معاش ، فعلى هذا لا إشكال .

الثاني : أنه أراد به نفى الاعوجاج الذي يدرك بالقياس الهندسي ولا يدرك بحاسة البصر وذلك الاعوجاج لاحق بالمعانى ، فلذلك قال فيه عوج بالكسر ، ومما يوضح هذا أنك لو سويت قطعة أرض غاية التسوية بمقتضى نظر العين بموافقة جماعة من البصراء ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها عوج قط ، ثم أمرت المهندس أن يعتبرها بالمقاييس الهندسية وجد فيها عوجاً في غير موضع ، ولكنه عوج لا يدرك بحاسة البصر فنفى الله تعالى ذلك العوج لما لطف ودق عن الإدراك ، فكان لدقته وخفائه ملحقاً بالمعانى .

٦٨٦ - فإن قيل : إن الله تعالى أخبر أن آدم عليه السلام نسى عهد الله ووصيته وأكل من الشجرة بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ

من غرائب آي التنزيل = ٢٧١

قَسِيَّ ﴿طه: ١١٥﴾ وإذا كان فعل ذلك ناسيًا فكيف وصفه بالعصيان والغواية بقوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ٦] فعاقبه عليه بأعظم أنواع العقوبة ، وهو الإخراج من الجنة ؟

قلنا : النسيان هنا بمعنى الترك كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤] أى: تاركناكم في العذاب ، وقوله تعالى : ﴿تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهُمُ﴾ [التوبة: ٦٧] فمعناه أنه ترك عهد الله ووصيته فكيف يكون من النسيان الذى هو ضد الذكر ، وقد جرى بينه وبين إبليس من المجادلة والمناظرة فى أكل الشجرة فصول كثيرة ، منها قوله : ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠] الآية ، فكيف يبقى مع هذا نسيان .

٦٨٧ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] ولم يقل فتشقى ، والخطاب لآدم وحواء عليهما السلام ؟

قلنا : لوجوه ، أحدها : أن الرجل قيم أهله وأميرهم ، فشقاؤه يتضمن شقاءهم كما أن معاداته تتضمن معاداتهم ، فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما كان متضمناً له .

الثانى : أنه إنما أسنده إليها دونها للمحافظة على الفاصلة .

الثالث : أنه أراد بالشقاء ، الشقاء فى طلب القوت وإصلاح المعاش ، وذلك وظيفة الرجل دون المرأة ، قال سعيد بن جبیر : أهبط إلى آدم عليه السلام ثور أحمر فكان يحرق عليه ويمسح العرق عن جبينه ، فذلك شقاؤه .

٦٨٨ - فإن قيل : هل يجوز أن يقال : كان آدم عاصيًا غاويًا أخذًا من قوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] ؟

قلنا : يجوز أن يقال : عصى آدم كما قال تعالى ، ولا يجوز أن يقال : كان آدم عاصيًا ، لأنه لا يلزم من جواز إطلاق الفعل جواز إطلاق اسم الفاعل ، ألا

ترى أنه يجوز أن يقال : تبارك الله ، ولا يجوز أن يقال : الله تبارك ويجوز أن يقال : تاب الله على آدم ، ولا يجوز أن يقال : الله تائب ، ونظائره كثيرة .

٦٨٩ - فإن قيل : أساء الله تعالى وصفاته توقيفية لا مدخل للقياس فيها ، ولهذا يقال : الله عالم ، ولا يقال علامة ، وإن كان هذا اللفظ أبلغ في الدلالة على معنى العلم ، فأما أسماء البشر وصفاتهم فقياسية ، فلم لا يجرى فيها على القياس المطرد ؟

قلنا : هذا القياس ليس بمطرد في صفات البشر أيضًا ، ألا ترى أنهم قالوا ذره ودعه بمعنى اتركه ، وفلان يذر ويدع ، ولم يقولوا منها وذر ولا واذر ، ولا ودع ولا وادع ، فاستعملوا منها الأمر والمضارع فقط .

ولفائل أن يقول : هذا شاذ في كلام العرب ونادر ، فلا يترك لأجله القياس المطرد ، بل يجرى على مقتضى القياس .

٦٩٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ [طه: ١٢٤] أى : عن موعظتى أو عن القرآن ، فلم يؤمن به ولم يتبعه : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤] أى : حياة في ضيق وشدة ، ونحن نرى المعرضين عن الإيمان والقرآن في أخصب معيشة وأرغدها ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : المراد بالمعيشة الضنك : الحياة في المعصية وإن كان في رخاء ونعمة ، وروى عن النبى ﷺ أنها عذاب القبر .

الثانى : أن المراد بها عيشته في جهنم في الآخرة .

الثالث : أن المراد بها عيشه مع الحرص الشديد على الدنيا وأسبابها ، وهذه الآية في مقابلة قوله في سورة النحل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] فكل ما ذكرناه في تفسير الحياة الطيبة

من غرائب آي التنزيل
فضده وارد فى المعيشة الضنك .

٦٩١ - فإن قيل : أى الكلمات التى سبقت من الله فكانت مانعة من تعذيب هذه الأمة فى الدنيا عذاب الاستئصال حتى قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ [طه:١٢٩] ؟

قلنا : قيل هى قوله تعالى : "سبقت رحمتى غضبى" ويرد عليه أنه لا اختصاص لهذه الأمة بهذه الكلمة ، وقيل هى قوله تعالى للنبي ﷺ : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] وقيل فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يعنى لعالمى أمته بتأخير العذاب عنهم ، وقيل فى الآية تقديم وتأخير وتقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى، وهو الأجل الذى قدر الله تعالى بقاء العالم وأهله إلى انقضائه لكان العذاب لازماً ، أى : لازماً لهم كما لزم الأمم التى قبلهم .

٦٩٢ - فإن قيل : أصحاب الصراط السوى والمهتدون واحد ، فما فائدة التكرار فى قوله تعالى : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه:١٣٥] ؟

قلنا : المراد بأصحاب الصراط السوى السالكون الصراط المستقيم السائرون عليه ، والمراد بالمهتدين الواصلون إلى المنزل .

وقيل : أصحاب الصراط السوى هم الذين ما زالوا على الصراط المستقيم ، والمهتدون هم الذين لم يكونوا على الطريق المستقيم ثم صاروا عليه .

وقيل: المراد بأصحاب الصراط السوى: أهل دين الحق فى الدنيا ، والمراد بمن اهتدى المهتدون إلى طريق الجنة فى العقبى، فكأنه قال : فستعلمون من الحق فى الدنيا والفائز فى الآخرة .

سورة الأنبياء

٦٩٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١] وصفه بالقرب وقد مضى من وقت هذا الإخبار أكثر من ستمائة عام ، ولم يوجد يوم الحساب بعد ؟

قلنا : معناه أنه قريب عند الله تعالى وإن كان بعيداً عند الناس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ [المعارج: ٦، ٧] وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧] .

الثاني : أن معناه أنه قريب بالنسبة إلى ما مضى من الزمان ، كما قال : ﷺ " إن مثل ما بقى من الدنيا في جنب ما مضى كمثل خيط في ثوب " (١) .

الثالث : أن المراد به قرب حساب كل واحد في قبره إذا مات ، ويؤيده قوله ﷺ : " من مات فقد قامت قيامته " (٢) .

الرابع : أن كل آت قريب وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، وإنما البعيد الذى وجد وانقرض ، ولهذا يقول الناس إذا سافروا من بلد إلى بلد بعد ما ولوا ظهورهم البلد الأول ، البلد الثانى : أقرب وإن كان أبعد مسافة .

٦٩٤ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ ﴾ [الأنبياء: ٢] والذكر الآتى من الله تعالى هو القرآن وهو قديم لا محدث ؟ قلنا : المراد محدث إنزاله .

(١) مسند أحمد (١١٥٨٨) ط الرسالة .

(٢) ضعيف : الضعيفة (٣/ ٣٠٩) .

من غرائب آي التنزيل

الثاني : أن المراد به ذكر يكون غير القرآن من مواعظ الرسول ﷺ وغيره ، ونسب إلى الله تعالى لأن موعظة كل واعظ بإلهامه وهدايته .

الثالث : أن المراد بالذكر والذاكر وهو الرسول ﷺ ، ويؤيده قوله تعالى في سياق الآية : ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٣] وعلى هذا يكون معنى قوله : ﴿ إِلَّا أَسْمَعُ ﴾ [الأنبياء: ٢] أى : إلا استمعوا ذكره وموعظته .

٦٩٥ - فإن قيل : النجوى المسارة ، فما معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴾ [طه: ٦٢] ؟

قلنا : معناه بالغوا في إخفاء المسارة بحيث لم يفطن أحد لتناجيهم ومسارتهم تفصيلاً ولا إجمالاً ، فإن الإنسان قد يرى اثنين يتساران فيعلم من حيث الإجمال أنها يتساران ، وإن لم يعلم تفصيل ما يتساران به ، وقد يتساران في مكان لا يراها أحد .

٦٩٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى لمشركي مكة : ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ [الأنبياء: ٧] يعنى فاسألوا أهل الكتاب عمن مضى من الرسل ، هل كانوا بشرًا أم ملائكة ، مع أن المشركين قالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [سبا: ٣١] ؟

قلنا : هم وإن لم يؤمنوا بكتاب أهل الكتاب ، ولكن النقل المتواتر من أهل الكتاب في القضية العقلية يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم ولمن لا يؤمن به .

٦٩٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَخِيرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩] والاستحسار مبالغة في الحسور وهو الإعياء ، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفى عنهم أدنى الحسور أو مطلقه لا أقصاه ؟

قلنا : إنها ذكر الاستحسار إشارة إلى أن ما هم فيه من التسبيح الدائم

والعبادة المتصلة يوجب غاية الحسور وأقصاه .

٦٩٨ - فإن قيل : قوله تعالى في وصف الملائكة : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] إلى قوله تعالى : ﴿مُشْفِقُونَ﴾ يدل على أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، فإذا كانوا لا يعصون الله تعالى فلم يخافون حتى قال تعالى : ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ؟

قلنا : لما رأوا ما جرى على إبليس وعلى هاروت وماروت من القضاء والقدر خافوا من مثل ذلك .

الثاني : أن زيادة معرفتهم بالله وقربهم في محل كرامته يوجب مزيداً من خوفهم ، ولهذا قال أهل التحقيق ، من كان بالله أعرف كان من الله أخوف ، ومن كان إلى الله أقرب كان من الله أروع ، وقال بعضهم : يا عجباً من مطيع آمن ومن عاص خائف .

٦٩٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهم لم يروا ذلك ؟

قلنا : معناه أو لم يعلموا ذلك بأخبار من قبلهم أو بوروده في القرآن الذي هو معجزة في نفسه ، ونظيره قوله تعالى للنبي ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١] وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] الآية ، ونظائره كثيرة .

٧٠٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] مع أن الملائكة أحياء والجن أحياء ، وليسوا مخلوقين من الماء بل من النور والنار كما قال تعالى : ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] وكذا آدم مخلوق من التراب وناقة صالح مخلوقة من الحجر ؟

من غرائب آي التنزيل ٢٧٧

قلنا : المراد به البعض وهو الحيوان كما في قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٢٣] وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [يونس: ٢٢] ونظائره كثيرة .

الثاني : أن الكل مخلوقون من الماء ولكن البعض بواسطة والبعض بغير واسطة ، ولهذا قيل : إنه تعالى خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء ، وخلق الجن من نار خلقها من الماء ، وخلق آدم من تراب خلقه من الماء .

٧٠١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] بعد قوله : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وكأنه تكليف بما لا يطاق ؟ قلنا : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها ، لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة .

٧٠٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْمَعْ الصَّمُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥] مع أن الصم لا يسمعون الدعاء إذا ما يبشرون أيضًا ؟ قلنا : اللام في الصم إشارة للمنذرين السابق ذكرهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء: ٤٥] فهي لام العهد لا لام الجنس .

٧٠٣ - فإن قيل : كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] أحال كسر الأصنام على الصنم الكبير ، وكان إبراهيم هو الكاسر لها ؟

قلنا : قاله على طريق الاستهزاء والتهكم بهم ، لا على طريق الجدل .

الثاني : أنه لما كان الحامل له على كسرها اغتياظه من رؤيتها مصفوفة مرتبة للعبادة مبجلة معظمة ، وكان اغتياظه من كبيرها أعظم لمزيد تعظيمهم له أسند الفعل إليه كما أسند إلى سببه ، وإلى الحامل عليه .

الثالث : أنه أسنده إليه معلقاً بشرط منتفٍ لا مطلقاً تقديره : فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم .

٧٠٤ - فإن قيل : كيف صح مخاطبة النار بقوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] والخطاب إنما يكون مع من يعقل ؟

قلنا : الخطاب التحويل والتكوين لا يختص بمن يعقل ، قال الله تعالى : ﴿ يَدْعِبُ جِبَالٌ أَوْيَ مَعَهُ ﴾ [سبأ: ١٠] وقال تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [فصلت: ١١] وقال تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَتَارُضُ آبُلَي مَاءٍ كِ وَيَسْمَاءُ أَقْلَي وَغِيضُ الْمَاءِ ﴾ [هود: ٤٤] .

٧٠٥ - فإن قيل : كيف وصف الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بكونهم من الصالحين بقوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ [الأنبياء: ٨٥] الآية ، مع أن أكثر المؤمنين صالحون خصوصاً في الزمن الأول ؟

قلنا : معناه أنهم من الصالحين للإدخال في الرحمة التي أريد بها النبوة على ما فسرهم مقاتل ، أو الجنة على ما فسرهم ابن عباس رضى الله عنهما ، ويؤيد ذلك قول سليمان صلوات الله عليه : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩] أى : الصالحين للعمل المرضي الذي سبق سؤاله .

٧٠٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال في سورة التحريم : ﴿ وَمَرْيَمَ أَبْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢] ؟

قلنا : حيث أنث أراد النفخ في ذاتها ، وإن كان مبدأ النفخ من الفرج الذي هو مخرج الولد أو جيب درعها على اختلاف القولين ، لأنه فرجة ، وكل فرجة بين شيئين تسمى فرجاً في اللغة ، وهذا أبلغ في الثناء عليها لأنها إذا منعت

جيب درعها مما لا يحل كانت لنفسها أمنع ، وحيث ذكر فظاها .

٧٠٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥] يدل على أنه يجب أن يرجعوا ، لأن كل ما حرم أن لا يوجد وجب أن يوجد فكيف معنى الآية ؟

قلنا : معناه وواجب على أهل قرية عزمنا على إهلاكهم أو قدرنا إهلاكهم أنهم لا يرجعون عن الكفر إلى الإيمان ، أو أنهم لا يرجعون بعد إهلاكهم إلى الدنيا ، فالحرام هنا بمعنى الواجب ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، ويؤيده قول الشاعر :

فإن حرامًا لا أرى الدهر باكبًا على شجوة إلا بكيت على عمرو

وقيل : لفظ الحرام على ظاهره ، ولا زائدة ، والمعنى ما سبق ذكره ، الحرمة هنا بمعنى المنع كما في قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص: ١٢] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠] .

٧٠٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وقال في موضع آخر : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ آلَاءٌ وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] وواردها يكون قريبًا منها لا بعيدًا ؟

قلنا : معناه مبعدون عن ألمها وعذابها مع كونهم وارديها ، أو معناه مبعدون عنها بعد ورودها بالإنجاء المذكور بعد الورد ، فلا تنافي بينهما .

٧٠٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] مع أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين الذين ماتوا على كفرهم بل نعمة لأنه لولا إرساله إليهم لما عذبوا بكفرهم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] ؟

قلنا : بل كان رحمة للكافرين أيضًا من حيث أن عذاب الاستئصال آخر عنهم بسببه .

الثانى : أنه كان رحمة عامة من حيث إنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه ، ومن لم يتبعه فهو الذى قصر فى حق نفسه وضيع نصيبه من الرحمة ، ومثله ﷺ كمثل عين ماء عذبة فجرها الله تعالى ، فسقى ناس زروعهم ومواشيهم منها فأفلحوا ، وفرط ناس فى السقى منها فضيعوا ، فالعين فى نفسها نعمة من الله تعالى للفريقين ورحمة ، وإن قصر البعض فرطوا ، الثالث : أن المراد بالرحمة الرحيم ، وهو ﷺ كان رحيماً للفريقين ، ألا ترى أنهم لما شجوه يوم أحد وكسروا ربايته حتى خر مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : " اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون " (١) .

٧١٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَدْرِىْ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] مع إخباره تعالى إياهم بقرب الساعة بقوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل: ١] وقوله تعالى : ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ ﴾ [القمر: ١] ونحوهما ؟

قلنا : معناه ما أدرى أن العذاب الذى توعدهونه وتهدون به ينزل بكم عاجلاً أو آجلاً ، وليس المراد به قيام الساعة ، ويرد على هذا الجواب أنه قريب على كل تقدير ، لأنه إذا كان قبل قيام الساعة فظاهر ، وإن كان بعد قيام الساعة فهو كالمتمصل بها لسرعة زمن الحساب ، فيكون قريباً أيضاً .

٧١١ - فإن قيل : إذا كان المؤمنون يعتقدون أن الله تعالى لا يحكم إلا بالحق ، فما فائدة الأمر والإخبار المتعلق بها بقوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الأنبياء: ١١٢] ؟

قلنا : ليس المراد بالحق هنا ما هو نقيض الباطل ، بل المراد به ما وعده الله

من غرائب آي التنزيل ٢٨١

تعالى إياه من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، ووعدده لا يكون إلا حقاً فكأنه قال : عجل لنا وعدك وأنجزه ، ونظيره في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ يَتَنَّا وَبَنَّا قَوْمَنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩] .

الثاني : أنه بالتأكيد لما في التصريح بالصفة من المبالغة وإن كانت لازمة للفعل ، ونظيره في عكسه من صفة الذم قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران: ١١٢] .

سورة الحج

٧١٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] يدل على أن المعدوم شيء ؟

قلنا : لا نسلم ، ومستنده أن المراد أنها إذا وجدت كانت شيئاً لا أنها شيء الآن ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿عَظِيمٌ﴾ مع أن المعدوم لا يوصف بالعظم .

٧١٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى أولاً : ﴿يَوْمَ تَرَوْنها﴾ [الحج: ٢] بلفظ الجمع ، ثم أفرد فقال : ﴿وَرَى النَّاسَ﴾ [الحج: ٢] ؟

قلنا : لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة ، فجعل الناس كلهم رائيين لها وعلقت آخرًا بكون الناس على هيئة السكارى ، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم .

٧١٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى في حق النضر بن الحارث : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ [الحج: ٣] إلى أن قال : ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] وهو ما كان غرضه في جداله الضلال عن سبيل الله ، فكيف علل جداله به وما كان أيضًا مهتديًا حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال ؟

قلنا : هذه لام العاقبة والصيرورة ، وقد سبق ذكرها غير مرة ، ولما كان الهدى معرضًا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالحارج من الهدى إلى الضلال .

٧١٥ - فإن قيل : النفع والضرر منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين ، فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : معناه يعبد من دون الله ما لا يضره بنفسه إن لم يعبد ولا ينفعه بنفسه

من غرائب آي التنزيل = ٢٨٣

إن عبده ثم قال : يعبد من يضره الله بسبب عبادته ، وإنما أضاف الضرر إليه لحصوله بسببه .

٧١٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ [الحج: ١٣] يدل على أن في عبادة الصنم نفعاً وإن كان فيها ضرر ؟

قلنا : معناه أقرب من النفع المنسوب إليه في زعمهم ، وهو اعتقادهم أنه يشفع لهم .

٧١٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ [الحج: ٣٩] أى بسبب كونهم مظلومين ، ولم يبين ما الشيء الذى أذن لهم فيه ؟

قلنا : تقديره : أذن للذين يقاتلون في القتال ، وإنما حذف لدلالة يقاتلون عليه ولدلالة الحال أيضاً ، فإن كفار مكة كانوا يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى وهم يستأذنون النبي ﷺ في قتالهم ، فيقول : لم يؤذن لى في ذلك ، حتى هاجر إلى المدينة فنزلت هذه الآية ، وهي أول آية نزلت في الإذن في القتال ، فنسخت سبعين آية ناهية عن القتال ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، فكان المأذون فيه ظاهراً لكونه مترقباً منتظراً .

٧١٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ ﴾ [الحج: ٣٩] مع أنهم ما كانوا يقاتلون قبل نزول هذه الآية ؟

قلنا : معناه أذن للذين يريدون أن يقاتلوا ، ساءهم مقاتلين مجازاً باعتبار ما يثولون إليه كما في النظائر ، وقرئ : " لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ " بفتح التاء ، ولا إشكال على تلك القراءة .

٧١٩ - فإن قيل : كيف صح الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠] ؟

قلنا : هو استثناء منقطع تقديره : لكن أخرجوا بقولهم : ربنا الله .

الثاني : أنه بمنزلة قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب (١)

تقديره : إن كان فيهم عيب فهو هذا : وليس بعيب فلا يكون هذا فيهم عيباً .

٧٢٠ - فإن قيل : أي منة على المؤمنين في حفظ الصوامع والبيع والصلوات ، أي الكنائس عن الهدم حتى امتن عليهم بذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤] الآية ؟

قلنا : المنّة في ذلك أن الصوامع والبيع والكنائس في حرم المسلمين وحراستهم وحفظهم ، لأن أهلها ذمة المسلمين .

الثاني : أن المراد به هدمت صوامع وبيع في زمن عيسى عليه السلام ، وصلوات أي : كنائس في موسى عليه السلام ، ومساجد في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فالامتنان على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة .

٧٢١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾ [الحج: ٤٤] ولم يقل وقوم موسى ، كما قال الله تعالى فيما قبله ؟

قلنا : لأن موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط .

الثاني : أن يكون التنكير والإبهام للتفخيم والتعظيم كأنه قال تعالى بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم ، وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره .

أحد من كونه نبياً ، والجواب عن الآية على هذا القول أن فيه إضمار تقديره ، وما أرسلنا من رسول ولا نبأنا من نبى ، أو ولا كان من نبى ، ونظيره قول الشاعر :

ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً^(١)

أى : ومتعلقاً رمحاً أو حاملاً رمحاً .

٧٢٥ - فإن قيل : أين المثل المضروب في قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] والمذكور بعده وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٧٣] إلى آخره ليس بمثل ، بل هو كلام مبتدأ مستقل بنفسه ؟

قلنا : الصفة والقصة الغريبة أو المستحسنة تسمى مثلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] فالمعنى يثبت بصفة ، وهى عجز الصنم عن خلق الذباب واستنقاذ ما يسلبه ، وقيل هو إشارة إلى قوله تعالى : ﴿مَثَلِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] وإنما أبهمه هنا لأنهم كانوا لا يصغون إلى سماع القرآن ، ولهذا قالوا : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَّافِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وكانوا يحبون الأمثال ، فذكر لفظ المثل استدراجاً لهم إلى سماع القرآن والإصغاء إليه .

٧٢٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] مع أن قطع اليد التى تساوى خمسة آلاف درهم بسبب سرقة عشرة دراهم حرج فى الدين ، وكذا رجم المحصن بسبب الوطء مرة واحدة ، ووجوب صوم شهرين متتابعين بسبب إفطار يوم واحد من رمضان بوطء ، والمخاطرة بالنفس والمال فى الحج والعمرة وكل ذلك حرج يئ ؟

(١) البيت لعبد الله بن الزبعرى .

قلنا : المراد بالدين كلمة التوحيد ، فإنها تكفر شرك سبعين سنة ، ولا يتوقف تأثيرها على الإيثار والإخلاص سبعين سنة ، ولا على أن يكون الإتيان بها في بيت الله تعالى أو في زمان أو مكان معين ، وقيل : المراد به أن كل ما يقع فيه الإنسان من الذنوب والمعاصي يجد له مخرجاً في الشرع بتوبة أو كفارة أو رخصة ، وقيل : المراد به فتح باب التوبة للمذنبين ، وفتح أبواب الرخص للمعذورين ؛ وشروع الكفارات والأروش والديات ، وقيل : المراد به نفى الحرج الذي كان على بنى إسرائيل من الإصر والتشديد .

٧٢٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وإبراهيم صلوات الله عليه لم يكن أباً للأمة كلها ؟

قلنا : هو أبو رسول الله ﷺ ، فكان أباً لأمته ، لأن أمة الرسول بمنزلة أولاده من جهة العطف والشفقة ، هذا إن كان الخطاب لعامة المسلمين ، وإن كان للعرب خاصة فإبراهيم أبو العرب قاطبة .

٧٢٨ - فإن قيل : متى سمانا إبراهيم صلوات الله عليه المسلمين من قبل حتى قال الله تعالى : ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] ؟

قلنا : وقت دعائه عند بناء الكعبة حيث قال : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فكل من أسلم من هذه الأمة فهو ببركة دعوة إبراهيم عليه السلام ، وهذا السؤال سبّلت عنه في المنام وأجبت بهذا الجواب في المنام إلهاماً من الله سبحانه وتعالى .



سورة المؤمنون

٧٢٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلا على أزواجهم ؟ [المؤمنون: ٥، ٦] وحفظ الفرج إنما يعدى بعن لا بعلى ، يقال : فلان يحفظ فرجه عن الحرام ، ولا يقال : على الحرام ؟ قلنا : " على " هنا بمعنى عن ، كما فى قول الشاعر :

إذا رضيت على بنو قشبر لعمر الله أعجبني رضاها (١)

الثانى : أنه متعلق بمحذوف تقديره : فلا يرسلونها إلا على أزواجهم .

٧٣٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] ولم يقل : أو من ملكت أيمانهم ، مع أن المراد من يعقل ؟ قلنا : لأنه أراد من جنس العقلاء ما يجرى مجرى غير العقلاء ، وهم الإناث .

٧٣١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ؟ [المؤمنون: ١٥ ، ١٦] كيف خص الإخبار عن الموت الذى لم ينكره الكفار بلام التأكيد دون الإخبار عن البعث الذى أنكروه ، والظاهر يقتضى عكس ذلك ؟

قلنا : لما كان العطف يقتضى الاشتراك فى الحكم استغنى به عن إعادة لفظ اللام الموجبة لزيادة التأكيد ، فإنها ثابتة معنى بقضية العطف ، ولا يلزم على هذا عدم إعادة أن لأنها الأصل فى التأكيد ، ولأنها أقوى والحاجة إليها أمس .

(١) البيت للقحيف العقيلي .

من غرائب آي التنزيل ٢٨٩

٧٣٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] والمراد بها شجرة الزيتون ، وهى تخرج من الجبل الذى يسمى طور سيناء ومن غيره ؟

قلنا : قيل : إن أصل شجرة الزيتون من طور سيناء ، ثم نقلت إلى سائر المواضع ، وقيل : إنما أضيفت ذلك إلى الجبل لأن خروجها فى غيره من المواضع .

٧٣٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٧٠] خبر عن كفار مكة ، فكيف قال تعالى : ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ أى : بالتوحيد أو بالقرآن : ﴿وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَذْرُؤُنَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] ولم يقل وكلهم ، مع أن كلهم كانوا للتوحيد كارهين بدليل قولهم : ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٧٠] ؟

قلنا : كان فيهم من ترك الإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه لئلا يقولوا : ترك دين آبائهم لا كراهة للحق ، كما يحكى عن أبى طالب وغيره .

٧٣٤ - فإن قيل : كيف جمع : ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] ولم يقل : ارجعنى ، والمخاطب واحد وهو الله تعالى ؟

قلنا : هو جمع للتفخيم والتعظيم كقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [يس: ١٢] وأشباهه .

٧٣٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال فى موضع آخر : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفات: ٢٧] ؟

قلنا : يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة ، ففيه أحوال مختلفة ، ففى بعضها يتساءلون ، وفى بعضها : لا ينطقون لشدة الهول والفرع .

سورة النور

٧٣٦ - فإن قيل: كيف قدمت المرأة في آية حد الزنى ، وقدم الرجال في حد السرقة؟

قلنا : لأن الزنى إنما يتولد من شهوة الوقاع ، وشهوة المرأة أقوى وأكثر ، والسرقة إنما تتولد من الجسارة والجرأة والقوة ، وذلك في الرجل أكثر وأقوى .

٧٣٧ - فإن قيل : كيف قدم الرجل في قوله تعالى : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣] ؟

قلنا : لأن الآية الأولى سبقت لعقوبتهما على ما جنيا ، والمرأة هي الأصل في تلك الجناية لما ذكرنا ، والآية الثانية سبقت لذكر النكاح ، والرجل هو الأصل فيه عرفاً ، لأنه هو الراغب والمخاطب والبادئ بالطلب ، بخلاف الزنى فإن الأمر فيه بالعكس غالباً .

٧٣٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور:٣] أى : لا يتزوج : ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣] ونحن نرى الزانى ينكح العفيفة والمسلمة ، والزانية ينكحها العفيف والمسلم ؟

قلنا : قال عكرمة : نزلت هذه الآية في بغايا موسرات كنَّ بمكة ، وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية المرضية ، وكان لا يدخل عليهن إلا زان من أهل القبلة ، أو مشرك من أهل الأوثان ، فأراد جماعة من فقراء المهاجرين أن ينكحوهن فنزلت هذه الآية رجزاً لهم عن ذلك .

٧٣٩ - فإن قيل : ما فائدة دخول ﴿مِنْ﴾ في غض البصر دون حفظ الفرج في قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٢٠] ؟

قلنا : فائدة الدلالة على أن أمر النظر أوسع من أمر الفرج ، ولهذا يحل النظر في ذوات المحارم ، والإماء المستعرضات إلى عدة من أعضائهن ، ولا يحل شئ من فروجهن .

٧٤٠ - فإن قيل : ما حكمة ترك الله ذكر الأعمام والأخوال في قوله تعالى : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعنى الزينة الخفية : ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] الآية ، وهم من المحارم وحكمهم حكم من استثنى في الآية ؟

قلنا : سئل الشعبي عن ذلك فقال : لثلا يصفها العم عند ابنه وهو ليس بمحرم لها ، وكذا الحال فيفضى إلى الفتنة ، والمعنى فيه أن كل من استثنى يشترك هو وابنه في المحرمية ، إلا العم والخال ، وهذا من الدلالة البليغة على وجوب الاحتياط في سترهن ، ولقائل أن يقول : هذه المفسدة محتملة في آباء بعولتهن ، لاحتمال أن يذكرها أبو البعل عند ابنه الآخر ، وهو ليس بمحرم لها ، وأبو البعل أيضًا نقض على قولهم إن كل من استثنى يشترك هو وابنه في المحرمية .

٧٤١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] مع أن إكراههن على الزنى حرام في كل حال ؟

قلنا : لأن سبب نزول الآية أن الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنى مع إرادتهن التحصن ، فورد النهى على السبب وإن لم يكن شرطاً فيه .

الثانى : أنه تعالى إنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن ، لأن الأمة إذا لم ترد التحصن فإنها تزنى بالطبع ، لأن إرادتها الجماع مستمرة في جميع الأحوال طبعاً ، ولا بد له من أحد الطريقين .

الثالث : أن ﴿إِنْ﴾ بمعنى إذا كما في قوله تعالى : ﴿وَدَّرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] وقوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ أَلَعَلَّوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

الرابع: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا وتقديره: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] إن أردن تحصنًا ويبقى قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا أَفْعَالَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ﴾ [النور: ٣٣] مطلقًا غير معلق.

٧٤٢ - فإن قيل: كيف مثل الله تعالى نوره: أى معرفته وهدهاء فى قلب المؤمن بنور المصباح فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] ولم يمثله بنور الشمس، مع أن نورها أتم وأكمل؟

قلنا: المراد تمثيل النور فى القلب، والقلب فى الصدر، والصدر فى البدن بالمصباح، وهو الضوء أو الفتيلة فى الزجاج، والزجاجة فى الكوة التى لا منفذ لها، وهذا التمثيل لا يستقيم إلا فيما ذكر.

الثانى: أن نور المعرفة له، آلات يتوقف على اجتماعها كالذهن والفهم والعقل واليقظة وإنشراح القلب وغير ذلك من الخصال الحميدة، كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل والزيت والفتيلة، وغير ذلك.

الثالث: أن نور الشمس يشرق متوجهًا إلى العالم السفلى لا إلى العالم العلوى، ونور المعرفة يشرق متوجهًا إلى العالم العلوى كنور المصباح.

الرابع: أن نور الشمس لا يشرق إلا بالنهار ونور المعرفة يشرق بالليل والنهار كنور المصباح.

الخامس: أن نور الشمس يعم جميع الخلائق، ونور المعرفة لا يصل إليه إلا بعضهم كنور المصباح الموصوف.

٧٤٣ - فإن قيل: إنه تعالى لم يمثله بنور الشمس لما ذكرتم فكيف لم يمثله بنور الشمع مع أنه أتم وأكمل وأشرق من نور المصباح؟

قلنا: إنها لم يمثله بنور الشمع لأن فى الشمع غشا لا محالة بخلاف الزيت

الموصوف ، ولو مثله تعالى بنور الشمع لتطاول المناق المغمشوش إلى استحقاق نصيب في المعرفة .

الثانى : أنه تعالى إنما لم يمثله بنور الشمع لأنه مخصوص بالأغنياء ، بخلاف نور المعرفة فإنه في الفقراء أغلب .

٧٤٤ - فإن قيل : التجارة تشمل الشراء والبيع ، فما فائدة عطف البيع عليها في قوله تعالى : ﴿ لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧] ؟

قلنا : التجارة هى الشراء والبيع الذى يكون صناعة للإنسان مقصودًا به الربح ، وهو حرفة الشخص الذى يسمى تاجرًا ، والبيع أعم من ذلك وقيل المراد بالتجارة هنا مبادلة الآخرة بالدنيا كما في قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَتَأْرَبِحُوا تِجَارَتُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٦] والمراد بالبيع مبادلة الدين بالدنيا كما في قوله تعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩] وقيل : إنما عطف البيع على التجارة لأنه أراد بالتجارة الشراء إطلاقًا لاسم الجنس على النوع .

وقيل : إنما عطف عليها للتخصيص والتمييز من حيث أنه أبلغ في الإلهاء ، لأن البيع الرابع يعقبه حصول الربح ، بخلاف الشراء الرابع فإن الربح فيه مظنون مع كونه مترقيًا منتظرًا ، وقيل : التجارة مخصوصة بأهل الجلب بخلاف البيع .

٧٤٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ﴾ [النور: ٤٥] وبعض الدواب ليس مخلوقًا من الماء كآدم عليه السلام وناقة صالح وغيرهما ؟

قلنا : المراد بهذا الماء ، الماء الذى هو أصل جميع المخلوقات ، وذلك أن الله تعالى خلق قبل خلق الإنسان جوهرة ونظر إليها نظر هيبة فاستحالت ماء ،

٢٩٤ ===== مسائل الرازي وأجوبتها

فخلق من ذلك الماء جميع الموجودات ، وقد سبق مثل هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] .

٧٤٦ - فإن قيل : إذا كان الجواب هذا فما فائدة تخصيص الدابة بالذكر أو تخصيص الشيء الحي ؟

قلنا : إنما خص الدابة بالذكر لأن القدرة فيه أظهر وأعجب منها في الجهاد وغيره .

٧٤٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَنْشَى عَلَى بَطْنِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْشَى عَلَى آَرَبِهِ﴾ [النور: ٤٥] وهي مما لا يعقل ؟

قلنا : لما كان اسم الدابة يتناول المميز وغيره غلب المميز على غيره فأجرى عليه لفظه .

٧٤٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَنْ يَنْشَى عَلَى بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥] وذلك إنما يسمى زحفاً مشياً ، ولا يسمى مشياً إلا ما كان بالقوائم ؟

قلنا : هو مجاز بطريق المشابهة ، كما يقال : مشى هذا الأمر ، وفلان لا يتمشى له أمر ، وفلان ماشى الحال .

٧٤٩ - فإن قيل : كيف أمر الله تعالى بالاستئذان للأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَرْبِلُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٥٨] أى من الأحرار ؟
قلنا : هو فى المعنى أمر للأباء والأمهات بتأديب الأطفال وتهذيبهم لا للأطفال .

٧٥٠ - فإن قيل : كيف أباح تعالى للقواعد من النساء وهن العجائز التجرد من الثياب بحضرة الرجال بقوله تعالى : ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٦٠] الآية ؟

قلنا : المراد بالثياب هنا الجلباب والرداء والقناع الذى فوق الخمار لا جميع الثياب ، وقوله تعالى : ﴿غَيْرِ مُتَّبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠] أى غير قاصدات بوضع الثياب الظاهرة لإظهار زينتهن ومحاسنهن ، بل التخفيف ، ثم أعقبه بأن التعفف بترك الوضع خير لهن .

٧٥١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] مع أن انتفاء الحرج عن أكل الإنسان من بيته معلوم لا شك فيه ولا شبهة ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أى : من بيوت أولادكم ، لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ، فلهذا عبر عنه به ، وفى الحديث : "إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه" (١) ويؤيد ذلك أنه ذكر بيوت جميع الأقارب ولم يذكر بيوت الأولاد ، وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أى من مال أولادكم وأزواجكم الذين هم فى بيوتكم ومن جملة عيالكم ، وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] البيوت التى يسكنونها وهم فيها عيال لغيرهم ، كبيت ولد الرجل وزوجته وخادمه ونحو ذلك .

٧٥٢ - فإن قيل : معنى السلام هو السلامة والأمن ، فإذا قال الرجل لغيره : السلام عليك ، كان معناه سلمت منى وأمنت ، فما معنى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] ؟

قلنا : المراد به فإذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلكم وعيالكم ، وقيل : معناه إذا دخلتم المساجد أو بيوتاً ليس فيها أحد فقولوا : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، يعنى من ربنا .

(١) أبو داود (٣٥٥٠) ، والترمذى (١٣٨٥) ، وصححه الألبانى .

٧٥٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾
[النور: ٦٣] وإنما يقال خالف أمره ؟

قلنا : " عن " زائدة ، كذا قاله الأخفش .

الثانى : أن فيه إضماراً تقديره ، فليحذر الذين يخالفون الله تعالى ويعرضون
عن أمره ، أو ضمن المخالفة معنى الإعراض فعدى تعديته .

*** **

سورة الفرقان

٧٥٤ - فَإِنْ قِيلَ : الخلق هو التقدير ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الْطِينِ﴾ [المائدة: ١١٠] أى : تقدر ، فما معنى قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] فكأنه تعالى قال : وقدر كل شيء فقدره تقديرا ؟

قلنا : الخلق من الله تعالى بمعنى الإيجاد والإحداث ، فمعناه : وأوجد كل شيء مقدرًا مسوى مهياً لما يصلح له ، لا زائداً على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ؛ ولا ناقصاً عن ذلك .

الثانى : أن معناه : وقدر له ما يقيمه ويصلحه ، أو قدر له رزقاً وأجلاً وأحوالاً تجري عليه .

٧٥٥ - فَإِنْ قِيلَ : كيف قال تعالى فى وصف الجنة : ﴿الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَاصِرًا﴾ [الفرقان: ١٥] وهى ما كانت بعد وإنما تكون كذلك بعد الحشر والنشر ؟

قلنا : إنما قال كذلك ؛ لأن ما وعده الله تعالى فهو فى تحققه كأنه قد كان أو معناه كانت فى علم الله مكتوبة فى اللوح المحفوظ أنها جزاؤهم ومصيرهم .

٧٥٦ - فَإِنْ قِيلَ : ما فائدة تأخير الهوى فى قوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] والأصل اتخذ الهوى إلهاً كما تقول : اتخذ الصنم معبوداً ؟

قلنا : هو من باب تقديم المفعول الثانى على الأول للعناية به ، كما تقول علمت منطلقاً زيداً لفضل عنايتك بانطلاقه .

٧٥٧ - فَإِنْ قِيلَ : كيف قال تعالى : ﴿أَمَرَ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ

يَقُولُونَ ﴿[الفرقان: ٤٤]؟

قلنا : قد مر مثل هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى : ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] .

٧٥٨ - فإن قيل : كيف شبههم سبحانه وتعالى بالأنعام في الضلال بقوله تعالى : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ﴾ [الفرقان: ٤٤] مع أن الأنعام تعرف الله سبحانه وتعالى وتسبحه بدليل قوله تعالى : ﴿وَلِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١]؟

قلنا : المراد تشبيههم بالأنعام في الضلال عن فهم الحق ومعرفة الله تعالى بواسطة دعوة الرسول ﷺ .

الثاني : أن المراد تشبيههم في الضلال والعمى عن أمر الدين بالأنعام في ضلالها وعمها عن أمر الدين .

٧٥٩ - فإن قيل : إن كانوا كالأنعام في الضلال ، فكيف قال تعالى : ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] وإن كانوا أضل من الأنعام فكيف قال تعالى : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ﴾ [الفرقان: ٤٤] وإن كانوا كالأنعام في الضلال وأضل منها أيضًا فكيف يجتمع الوصفان ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ﴾ [الفرقان: ٤٤] التشبيه في أصل الضلال لا مقداره .

والثاني : بيان لمقداره ، وقيل : المراد بالأول التشبيه في المقدار أيضًا ، ولكن المراد بالأول طائفة وبالثاني طائفة أخرى ، ووجه كونهم أضل من الأنعام أن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلقها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء

من غرائب آي التنزيل = ٢٩٩

إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها ، وهؤلاء لا يتقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العذاب الذي هو أشد المضار والمهلك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروى^(١).

٧٦٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۖ لِنُخْطِيَ بِهِ بَلَدَةً مَّيْمًا ﴾ [الفرقان: ٤٨ ، ٤٩] كيف ذكر الصفة والموصوف مؤنث ولم يؤنثها كما أنثها في قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ ﴾ [يس: ٣٣] ؟

قلنا : إنها ذكرها نظرًا إلى معنى البلدة وهو البلد والمكان لا إلى لفظها .

٧٦١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۖ لِنُخْطِيَ بِهِ بَلَدَةً مَّيْمًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسِيًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٨ ، ٤٩] فإنزاله موصوفًا بالطهورية ، وتعليل ذلك بالإحياء والسقي يشعر بأن الطهورية شرط في حصول تلك المصلحة ، كما تقول : حملني الأمير على فرس سابق لأصيد عليه الوحش وليس كذلك ؟

قلنا : وصف الطهورية ذكر إكرامًا للأناسي الذين شربهم من جملة المصالح التي أنزل لها الماء ، وإتمامًا للنعمة والنعمة عليهم ، لا لكونه شرطًا في تحقق تلك المصالح والمنافع ، بخلاف النظر فإنه قصد بكونه سابقًا الشرطية لأن صيد الوحش على الفرس لا يتم إلا بها .

٧٦٢ - فإن قيل : كيف خص تعالى الأنعام بذكر السقي دون غيرها من الحيوان الصامت ؟

قلنا : لأن الوحش والطير تبعد في طلب الماء ولا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام .

(١) انظر الكشف ج ٢ ص ٤١٠ .

٣٠٠ _____ مسائل الرازي وأجوبتها

الثانى : أن الأنعام قنية الأناسى وعامة منافعهم متعلقة بها ، فكأن الأنعام يسقى الأنعام ، كالأنعام يسقى الأناسى ، فلذلك خصها بالذكر .

٧٦٣ - فإن قيل : كيف قدم تعالى إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناسى ؟

قلنا : لأن حياة الأناسى بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم .

الثانى : أن سقى الأرض بهاء المطر سابق فى الوجود على سقى الأناسى به .

٧٦٤ - فإن قيل : ما وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥٧] ؟

قلنا : هو استثناء منقطع تقديره : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فأنا أدله على ذلك وأهديه إليه ، وقيل تقديره : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بإتفاق ماله فى مرضاته فليفعل ذلك .

٧٦٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان: ٥٧] أى أجرا ، لأن " من " لتأكيد النفى وعمومه ، وقال فى آية أخرى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣] فأثبت سؤال الأجر عليه ؟

قلنا : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ [سبا: ٤٧] رواه مقاتل والضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما والصحيح الذى عليه المحققون أنها غير منسوخة ، بل هو استثناء من غير الجنس تقديره : لكن أذكركم المودة فى القربى .

٧٦٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]

من غرائب آي التنزيل
ولم يقل أئمة ؟

قلنا : مراعاة لفواصل الآيات ، وقيل تقديره : واجعل كل واحد منا إمامًا .

٧٦٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥] وهما بمعنى واحد ويؤيده قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَّمَ ﴾ [الفرقان: ٦] وقوله ﷺ : " تحية أهل الجنة في الجنة سلام " (١) ؟

قلنا : قال مقاتل المراد بالتحية سلام بعضهم على بعض أو سلام الملائكة عليهم ، والمراد بالسلام أن الله تعالى سلمهم مما يخافون وسلم إليهم أمرهم .

وقيل : التحية من الملائكة أو من أهل الجنة ، والسلام من الله تعالى عليهم لقوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] ، وقيل : التحية من الله تعالى لهم بالهدايا والتحف والسلام بالقول : وقيل : التحية الدعاء بالتعمير ، والسلام الدعاء بالسلامة فمعناه أنهم يلقون ذلك من الملائكة أو بعضهم من بعض ، أو يلقون ذلك من الله تعالى ، فيعطون البقاء والخلود مع السلامة من كل آفة .

*** **

سورة الشعراء

٧٦٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤] والأعناق لا تخضع ؟

قلنا : قيل أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين فافتحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله ، كقولهم ذهب أهل اليمامة ، كان الأهل غير المذكور ، ومثله قول الشاعر :

رأت مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال (١)

أو لما وصفت الأعناق بالخضوع الذي هو من صفات العقلاء جمعت جمع العقلاء كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايَتْهُمَا لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] ، وقيل : الأعناق رؤساء الناس ومقدموهم شبهوا بالأعناق ، كما قيل لهم : الرؤوس والنواصي والوجوه وقيل : الأعناق الجماعات ، يقال : جاءني عنق من الناس أى : جماعة وقيل إن ذلك لمراعاة الفواصل .

٧٦٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦] فأفرده ، وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧] فثنى ؟

قلنا : الرسول يكون بمعنى المرسل فيلزم تثنيته ، ويكون بمعنى الرسالة التى هى المصدر فيوصف به الواحد والاثنان والجماعة كما يوصف بسائر المصادر ، والدليل على أنه يكون بمعنى الرسالة قول الشاعر :

لقد كذب الواثون ما بحث عندهم بسر ولا أرسلتهم برسولي (٢)

(١) البيت الجريز .

(٢) البيت لكثير غيره .

من غرائب آي التنزيل
أى برسالة .

الثانى : أنها لاتفاقهما فى الأخوة والشرعة والرسالة كنفس واحدة .

الثالث : أن تقديره ، إن كل واحد منا رسول رب العالمين .

الرابع : أن موسى عليه السلام كان الأصل ، وهارون عليه السلام كان تبعاً له ، فأفرد إشارة إلى ذلك .

٧٧٠ - فإن قيل : كيف قال موسى عليه السلام معذراً عن قتل القبطى : ﴿ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠] والنبي لا يكون ضالاً ؟

قلنا : أراد به وأنا من الجاهلين ، وكذا قراءة ابن مسعود رضى الله عنه .

وقيل أراد من المخطئين ، لأنه ما تعمد قتله كما يقال : ضل عن الطريق إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ ، وقيل من الناسين كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

٧٧١ - فإن قيل : كيف قال فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] ولم يقل : ومن رب العالمين ؟

قلنا : هو كان أعمى القلب عن معرفة الله سبحانه وتعالى منكراً لوجوده فكيف ينكر عليه العدول عن " من " إلى " ما " .

الثانى : أن " ما " لا تختص بغير المميز بل تطلق عليهما ، قال الله تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَسِيدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون: ٣] .

٧٧٢ - فإن قيل : كيف قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَهُ مَوْقِنَ ﴾ [الشعراء: ٢٤] علق كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما بشرط كون فرعون وقومه موقنين ، وهذا الشرط منتف

والربوبية ثابتة فكيف صح التعليق ؟

قلنا : معناه إن كنتم موقنين أن السموات والأرض وما بينهما موجودات وهذا الشرط موجود .

الثاني : أن " إن " نافية لا شرطية .

٧٧٣ - فإن قيل : كيف ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب ذكر المخلوقات كلها ، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦] ، وقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [الشعراء: ٢٨] ؟

قلنا : أعاد ذكرها تخصيصاً لها وتمييزاً ، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد وعاین من الدلائل على الصانع والنقل من هيئة وحال إلى حال من وقت ولادته إلى وقت وفاته ، ثم خص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحدهما وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما يستدل به على وجود الصانع ، ولظهوره انتقل خليل الله صلوات الله عليه وسلامه إلى الاحتجاج به عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة : ﴿ فَبَهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

٧٧٤ - فإن قيل : كيف قال أولاً : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٤] وقال آخرًا : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨] ؟

قلنا : لاينهم ولاطفهم أولاً ، فلما رأى عنادهم وإصرارهم خاشنهم وعرض قوله : ﴿ إِنْ رَّسُولُكُمْ أَلَدَىٰ أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧] بقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨] .

٧٧٥ - فإن قيل : قوله : " لأسجنك " أخصر من قوله : ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩] فكيف عدل عنه ؟

من غرائب آي التنزيل ٣٠٥

قلنا : كان مراده تعريف العهد ، فكأنه قال : لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجنى ، وكان إذا سجن إنساناً طرحه في هوة عميقة جداً مظلمة وحده لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أوجع من القتل وأشد نكايه .

٧٧٦ - فإن قيل : قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة ذكرت في سورة الأعراف ثم سورة طه ثم في هذه السورة ، فما فائدة تكرارها وتكرار غيرها من القصص ؟

قلنا : فائدته تأكيد التحدى وإظهار الإعجاز ، كما أن المبارز إذا خرج من الصف قال : " نزل نزال ، هل من مبارز هل من مبارز ؟ " مكرراً ذلك ، يقال : ولهذا سمى الله تعالى القرآن مثنائى لأنه ثبت فيه الأخبار والقصص .

الثانى: أن أصحاب النبى ﷺ كان بعضهم حاضرين وبعضهم غائبين في الغزوات ، وكانوا يحبون حضور مهبط الوحي ، وكانوا إذا رجعوا من غزوهم أكرمهم الله تعالى في بعض الأوقات بإعادة الوحي تشریفاً لهم وتفضيلاً .

٧٧٧ - فإن قيل : كيف كرر الله تعالى ذكر قصة موسى عليه السلام أكثر من قصص غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟

قلنا : لأن أحواله كانت أشبه بأحوال النبى ﷺ من أحوال غيره منهم في إقامته الحجج وإظهاره المعجزات لأهل مصر وإصرارهم على تكذيبه والجفاء عليه كما كان حال النبى ﷺ مع أهل مكة .

٧٧٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْأَجْمَعَانِ ﴾ [الشعراء: ٦١] والترائى تفاعل من الرؤية، فيقتضى وجود رؤية كل جمع الجمع الآخر ، والمنقول أنهم لم ير بعضهم بعضاً ، فإن الله تعالى أرسل غيماً أبيض فحال بين العسكريين حتى منع رؤية بعضهم بعضاً ؟

قلنا: الترائى يستعمل بمعنى التدانى والتقابل أيضاً ، كما قال ﷺ : " المؤمن

والكافر لا يترأى " أى لا يتدانيان ، ويقال : دورنا تترأى : أى تتقارب وتتقابل .

٧٧٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ﴾ [الشعراء: ٨٠] ولم يقل : وإذا أمرضنى ، كما قال قبله : ﴿خَلَقَنِي فَهْوَ يَهْدِينِ﴾ ؟

قلنا : لأنه كان في معرض الشاء على الله تعالى وتعدد نعمه ، فأضاف إليه الخير المحض حفظاً للأدب ، وإن كان الكل مضافاً إليه ، ونظيره قول الخضر عليه السلام : ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقوله : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] .

٧٨٠ - فإن قيل : هذا الجواب يبطل قوله : ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي﴾ [الشعراء: ٦] وبقول الخضر : ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾ [الكهف: ٨١] ؟

قلنا : إنما أضاف الموت إلى الله تعالى لأنه سبب لقائه إياه وانتقاله إلى دار كرامته ، فكان نعمة من هذا الوجه ، وقيل : إنما أضاف المرض إلى نفسه ، لأن أكثر الأمراض تحدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه .

٧٨١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨] والمال الذى أنفق في طاعة الله تعالى وسبيله ينفع ، والولد الصالح ينفع ، والولد الذى مات صغيراً يشفع ، وشواهد ذلك كثيرة من الكتاب والسنة خصوصاً قوله : ﷺ " إذا مات ابن آدم ينقطع عمله إلا من ثلاث " الحديث (١) ؟

قلنا : المراد بالآية أنها لا ينفعان غير المؤمن ، فإنه هو الذى يأتى بقلب سليم من الكفر ، أو المراد بهما مال لم ينفق في طاعة الله تعالى وولد بالغ غير صالح .

من غرائب آي التنزيل = ٣٠٧

٧٨٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] أى قربت ، والجنة لا تنقل من مكانها ولا تحول ؟

قلنا : فيه قلب معناه : وأزلت المتقون إلى الجنة ، كما يقول الحجاج إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا ، وقيل معناه : أنها كانت محجوبة عنهم ، فلما رفعت الحجب بينهم وبينها كان ذلك تقريباً لها .

٧٨٣ - فإن قيل : كيف جمع الشافع ووحيد الصديق في قوله : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ولا صديق حمير [الشعراء: ١٠٠، ١٠١] ؟

قلنا : لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، ولهذا روى أن بعض الحكماء سئل عن الصديق ، فقال : هو اسم لا معنى له ، أراد بذلك عزة وجوده ، ويجوز أن يراد بالصديق الجمع كالعدو .

٧٨٤ - فإن قيل : كيف قرن بين الأنعام والبنين في قوله : ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٣] ؟

قلنا : لأن الأنعام كانت من أعز أموالهم عندهم ، وكان بنوهم هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها ، فلهذا قرن بينهما .

٧٨٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أخصر في قوله : ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] فكيف عدل عنه ؟

قلنا : مرادهم سواء علينا أفعلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلاً ، وهذا أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولهم أو لم تعظ .

٧٨٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَقَرَّوْهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨] كيف أخذهم العذاب بعد ما ندموا على جنائيتهم ، وقد قال ﷺ : " الندم توبة " (١) ؟

(١) أحمد (٣٣٨٧) ، وابن ماجه (٤٢٤٢) بإسناد صحيح ، وصححه الألباني .

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : ندموا حين رأوا العذاب ، وذلك ليس وقت التوبة كما قال الله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ أَسَاسَاتٍ﴾ [النساء: ١٨] الآية، وقيل : كان ندمهم ندم خوف من العذاب العاجل لا ندم توبة فلذلك لم ينفعهم .

٧٨٧ - فإن قيل : كيف طلب لوط عليه السلام تنجيته من اللواط بقوله : ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩] واللواط كبيرة ، والأنبياء معصومون من الكبائر ؟

قلنا : مراده رب نجنى وأهلى من عقوبة عملهم أو من شؤمه ، والدليل على ذلك ضمه أهله إليه في الدعاء ، واستثناء الله تعالى امرأته من قبول الدعوة .

٧٨٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى في قصة شعيب عليه السلام : ﴿إِذْ قَالَ لَهُرُّ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٧] ولم يقل : أخوهم ، كما قال تعالى في حق غيره هنا ، وكما قال في حقه في موضع آخر ؟

قلنا : لأنه هنا ذكر مع أصحاب الأيكة وهو لم يكن منهم ، وإنما كان من نسل مدين ، كذا قال مقاتل ، وفي الحديث أن شعيباً عليه السلام أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة ، وقال ابن جرير الطبرى : أهل مدين هم أصحاب الأيكة ، فعلى هذا يكون حذف الأخ تخفيفاً .

٧٨٩ - فإن قيل : ما الفرق بين حذف الواو في قصة صالح عليه السلام وإثباتها في قصة شعيب في قولهم : ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ٥٤] ، ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٦] ؟

قلنا : الفرق بينهما أنه عند إثبات الواو المقصود معنيان كلاهما منافٍ للرسالة عندهم التسخير والبشرية ، وعند حذف الواو المقصود معنى واحد منافٍ لها وهو كونه مسخر ثم قرروا التسخير بالبشرية ، كذا أجاب الزمخشري

من غرائب آي التنزيل
رحمه الله .

٧٩٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى في وصف الكهنة والمنتبهة كشقّ وسطيح
ومسيلمة : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٣] بعد ما قضى عليهم أن
كل واحد منهم أفاك أثيم ، والأفاك الكذاب ، والأثيم الفاجر ، ويلزم من هذا
أن يكون كلهم كذابين ؟
قلنا : الضمير في قوله : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ [الشعراء: ٢٢٣] عائد إلى الشياطين
لا إلى كل أفاك .

سورة النمل

٧٩١ - فإن قيل : ما فائدة تنكير الكتاب في قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل: ١] ؟

قلنا : فائدته التفخيم والتعظيم كقوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥] .

٧٩٢ - فإن قيل : العطف يقتضى المغايرة ، فكيف عطف الكتاب المبين على القرآن والمراد به القرآن ؟

قلنا قيل : بل إن المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ ، فعلى هذا لا إشكال وعلى القول الآخر فنقول العطف يقتضى المغايرة مطلقاً إما لفظاً وإما معنى بدليل قول الشاعر :

فألغى قولها كذباً ومينا

وقولهم : جاءنى الفقيه والظريف ، والمغايرة لفظاً ثابتة .

٧٩٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [النمل: ٤] وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [النمل: ٢٤] ؟

قلنا : تزين الله تعالى لهم الأعمال بخلق الشهوة والهوى وتركيبها فيهم ، وتزين الشيطان بالوسوسة والإغواء والغرور والتمنية ، فصحت الإضافتان .

٧٩٤ - فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿ سَاءَ مَا يَكْمُرُ ﴾ [النمل: ٧] وقال في سورة طه : ﴿ لَعَلَّآ آتِيكُمْ ﴾ [طه: ١٠] وأحدهما قطع والآخر ترج والقصة واحدة ؟

من غرائب آي التنزيل = ٣١١

قلنا : قد يقول الراجى إذا قوى رجاءه سأفعل كذا ، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة .

٧٩٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ [النمل: ٨] مع أنه لم يكن في النار أحد ، بل لم يكن المرئى نارًا ، وإنما كان نورًا في قول الجمهور ، وقيل كان نارًا ثم انقلب نورًا ؟

قلنا : قال ابن عباس والحسن رضى الله عنهما : معناه قدس من ناداه من النار وهو الله عز وجل ، لا على معنى أن الله تعالى يحل في شيء ، بل على معنى أنه أسمع النداء من النار في زعمه .

الثانى : أن من زائدة ، والتقدير : بورك في النار وفيمن حولها ، وهو موسى عليه السلام والملائكة .

الثالث : أن معناه بورك من في طلب النار ، وهو موسى عليه السلام .

٧٩٦ - فإن قيل : إنما يقال بارك الله على كذا ، ولا يقال بارك الله كذا ؟

قلنا : قال الفراء ، العرب تقول : باركه الله وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ [الصافات: ١١٣] ولفظ التحيات ، وبارك على محمد وعلى آل محمد .

٧٩٧ - فإن قيل : ما وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الْأَرْسَلُونَ ۖ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ [النمل: ١٠، ١١] الآية ؟

قلنا : فيه وجوه ، أحدها : أنه استثناء منقطع بمعنى لكن .

الثانى : أنه استثناء متصل ، كذا قاله الحسن وقتادة ومقاتل رحمهم الله ومعناه : إلا من ظلم منهم بارتكاب الصغيرة كآدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف وموسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم ، فإنه يخاف مما

فعل مع علمه أنى غفور رحيم ، فيكون تقدير الكلام ، إلا من ظلم منهم فإنه يخاف فمن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإنى غفور رحيم ، ولهذا قال بعضهم : إن هنا وفقاً على قوله : ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وابتداء الكلام الثانى محذوف كما قدرنا .

الثالث : أن "إلا" بمعنى ولا كما فى قوله تعالى : ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] أى ولا الذين ظلموا منهم .

الرابع : أن تقديره : أنى لا يخاف لدى المرسلون ولا غير المرسلين : ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ الآية .

٧٩٨ - فإن قيل : كيف قال سليمان عليه السلام : ﴿عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا﴾ [النمل: ١٦] بنون العظمة وهو من كلام المتكبرين ؟

قلنا : لم يرد به نون العظمة ، وإنما أراد به نون الجمع وعنى نفسه وأباه .

الثانى : أنه كان ملكاً مع كونه نبياً فراعى سياسة الملك وتكلم بكلام الملوك .

٧٩٩ - فإن قيل : كيف حل له تعذيب الهدهد حتى قال : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١] ؟

قلنا : لعل ذلك أبيض له خاصة كما خص بفهم منطق الطير وتسخير له وغير ذلك .

٨٠٠ - فإن قيل : كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان عليه السلام حتى قال : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] ؟

قلنا : يجوز أنه استصغر حالها بالنسبة إلى حال سليمان ، فاستعظم لها ذلك العرش .

من غرائب آی التنزیل

الثانى : أنه يجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته فى كل شىء كما يكون لبعض الأمراء شىء لا يكون للملك مثله .

۸۰۱ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ الْهَدَّهِدُ : ﴿ وَأَوْثَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ۲۳]
مع قول سليمان صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَأَوْثَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ۱۶]
فكأنه سوى بينهما ؟

قلنا : بينهما فرق ، وهو أن الهدهد أراد به ، وأتيت من كل شيء أسباب الدنيا ، لأنه عطف على الملك ، وسليمان أراد به وأوتينا من كل شيء من أسباب الدين والدنيا ويؤيد ذلك عطفه على المعجزة وهي منطق الطير .

۸۰۲ - فإِنْ قِيلَ : كَيْفَ سَوَّى الْهُدُودَ بَيْنَ عَرْشِهَا وَعَرْشِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْوَصْفِ بِالْعَظَمِ حَتَّى قَالَ : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ۲۳] وَقَالَ : ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ۲۶] ؟

قلنا : بين الوصفين بون عظيم لأنه وصف عرشها بالعظم بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ، ووصف عرش الله تعالى بالعظم بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض وما بينهما .

۸۰۳ - فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَالْقَلِيلَ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل: ۲۸] إِذَا تَوَلَّى عَنْهُمْ ، فَكَيْفَ يَعْلَمُ جَوَابَهُمْ ؟

قلنا : معناه ثم تول عنهم مستتراً من حيث لا يرونك فانظر ماذا يرجعون .
 الثانى : أن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره : فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم .

۸۰۴ - فَاِنْ قِيلَ : كَيْفَ اسْتَجَارَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَقْدِيْمَ اسْمِهِ فِي الْكِتَابِ عَلٰی اسْمِ اللّٰهِ تَعَالٰی حَتّٰی كُتِبَ فِيْهِ : ﴿ اِنَّهٗ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَاِنَّهٗ بِرِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ﴾ [النمل: ۳۰]؟

قلنا : لأنه عرف أنها لا تعرف الله تعالى وتعرف سليمان فخاف أن تستخف باسم الله تعالى إذا كان أول ما يقع نظرها عليه ، فجعل اسمه وقاية لاسم الله تعالى .

وقيل : إن اسم سليمان كان على عنوانه ، واسم الله تعالى كان في أول طيه .

٨٠٥ - فإن قيل : كيف يجوز أن يكون آصف وهو كاتب سليمان عليه السلام ووزيره وليس بنبي يقدر على ما لا يقدر عليه النبي ، وهو إحضار عرش بلقيس في طرفة عين ؟

قلنا : يجوز أن يخص غير الرسول بكرامة لا يشاركه فيها الرسول ، كما خصت مريم بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة وزكريا لم يرزق منها ، وكما أن سليمان صلوات الله عليه خرج مع قومه يستسقون فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تستسقى ، فقال لقومه : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم ، ولم يلزم من ذلك فضلها على سليمان ، وقد نقل أن النبي ﷺ كان إذا أراد الخروج إلى الغزوات قال لفقراء المهاجرين والأنصار ، " ادعوا لنا بالنصرة ، فإن الله تعالى ينصرنا بدعائكم " ، ولم يكونوا أفضل منه ﷺ مع أن كرامة التابع من جملة كرامات المتبوع ، قالوا : والعلم الذي كان عنده هو اسم الله الأعظم ، فدعا به فأجيب في الحال ، وهو عند أكثر العلماء كما قال البندنجي اسم الله ثم ، قيل : هو يا حي يا قيوم ، وقيل : يا ذا الجلال والإكرام ، وقيل : يا الله يا رحمن ، وقيل : يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت ، فمن أخلص النية ودعا بهذه الكلمات مع استجماع شرائط الدعاء المعروفة فإنه يجاب لا محالة .

٨٠٦ - فإن قيل : كيف قالت : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[النمل: ٤٤] وهي إنما أسلمت بعده على يده لا معه ، لأنه كان مسلمًا قبلها ؟

من غرائب آي التنزيل = ٣١٥

قلنا : إنها عدلت عن تلك العبارة إلى هذه لأنها كانت ملكة ، فلم تر أن تذكر عبارة تدل على أنها صارت مولاة له بإسلامها على يده وإن كان الواقع كذلك .

٨٠٧ - فإن قيل : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟

قلنا : كأنهم اعتقدوا أنهم إذا أجمعوا بين البيانين ثم قالوا : ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ [النمل: ٤٩] يعنون ما شهدناه وحده كانوا صادقين ، لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله .

٨٠٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥] ونحن نعلم الجنة والنار وأحوال القيامة وكلها غيب ؟

قلنا : معناه لا يعلم الغيب بلا دليل إلا الله أو بلا معلم إلا الله ، أو جميع الغيب إلا الله ، وقيل معناه : لا يعلم ضمائر السموات والأرض إلا الله .

٨٠٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَدْرَكَ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ [النمل: ٦٦] أو أدرك على اختلاف القراءتين ، هل مرجع الضمير فيه وفيما قبله واحد أم لا ، وكيف مطابقة الإضراب لما قبله ، ومطابقته لما بعده من الإضرابين ، وكيف وصفهم بنفى الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى ؟

قلنا : مرجع الضمير في قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَدْرَكَ عَلْمُهُمْ ﴾ هو الكفار فقط ، وفيما قبله جميع من في السموات والأرض ، كقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَدْرَكَ ﴾ معناه بل تتابع وتلاحق واجتمع كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ٣٨] وأصله تدارك ، فأدغم التاء في الدال ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَدْرَكَ ﴾ معناه بل كمل وانتهى ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد ما جهلوه في

الدنيا علموه في الآخرة ، وقال السدى : يريد اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا ، وقال مقاتل : يريد علموا في الآخرة ما شكوا فيه وعموا عنه في الدنيا ، وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ [النمل: ٦٦] معناه بل هم اليوم في شك من الساعة : ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] جمع عم وهو أعمى القلب ، ومطابقة الإضراب الأول لما قبله أن الذين لا يشعرون وقت البعث لما كانوا فريقين ، فريق منهم لا يعلمون وقت البعث مع علمهم أنه يوجد لا محالة وهم المؤمنون ، وفريق منهم لا يعلمون وقته لإنكارهم أصل وجوده أفرد الفريق الثاني بالذكر بقوله تعالى : ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ تأكيداً للنفي علمهم في الدنيا ، كأنه تعالى قال : بل فريق منهم لا يعلمون شيئاً من أمر البعث في الدنيا أصلاً ، ثم أضرب عن الإخبار بتتابع علمهم وتلاحقه بحقيقة البعث في الآخرة إلى الإخبار عن شكهم في الدنيا في أمر البعث والساعة مع قيام الأدلة الشرعية على وجودها لا محالة ، وأما وصفهم بنفى الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى فلا تناقض فيه ، لاختلاف الأزمنة ، أو لاختلاف متعلقات تلك الأمور الأربعة ، وهى الشعور والعلم والشك والعمى .

٨١٠ - فإن قيل : قضاء الله تعالى وحكمه واحد فما معنى قوله : ﴿إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ [النمل: ٧٨] وهو بمنزلة قوله تعالى : ﴿إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بقضائه أو يحكم بينهم بحكمه ؟

قلنا : معناه بما يحكم به وهو عدله المعروف المألوف ، لأنه لا يقضى إلا بالحق وبالعدل ، فسمى المحكوم به حكماً ، وقيل معناه : بحكمته ، ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة .

٨١١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُونُ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦] ولم يراع المقابلة بقوله تعالى : ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فيه ؟

من غرائب آي التنزيل = ٣١٧

قلنا : راعى المقابلة المعنوية دون اللفظية ، لأن معنى مبصرًا ليصروا فيه ، وقد سبق ما يشبه هذا في قوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] .

٨١٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦] مع أن في ذلك علامات على وحدانية الله تعالى لجميع العقلاء ؟

قلنا : إنما خصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم .

٨١٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل: ٨٧] ولم يقل : فيفزع وهو أظهر مناسبة ؟

قلنا : أراد بذلك الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، لأن الفعل الماضي يدل على الثبوت والتحقيق قطعاً .

٨١٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] أى : صاغرين أذلاء بعد البعث ، مع أن النبيين والصديقين والشهداء يأتونه عزيزين مكرمين ؟

قلنا : المراد به صغار العبودية والرق وذلهما لا ذل الذنوب والمعاصي ، وذلك يعم الخلق كلهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] .

سورة القصص

٨١٥ - فإن قيل : ما فائدة وحى الله تعالى إلى أم موسى عليه السلام بإرضاعه وهى ترضعه طبعاً سواء أمرت بذلك أم لا ؟

قلنا : أمرها بإرضاعه ليألف لبنها فلا يقبل ثدى غيرها بعد وقوعه فى يد فرعون ، فإن لم يأمرها بإرضاعه ربما كانت تسترضع له مرضعة فيفوت ذلك المقصود .

٨١٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ ﴾ [القصص:٧] والشرط الواحد إذا تعلق به جزاء ان صدق مع كل واحد منهما وحده ، فيقول هذا إلى صدق قوله : فإذا خفت عليه فلا تخافى ، وأنه يشبه التناقض ؟

قلنا : معناه فإذا خفت عليه من القتل فألقيه فى اليم ، ولا تخافى عليه من الغرق ، ولا تناقض بينهما .

٨١٧ - فإن قيل : ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ ﴾ [القصص:٧] ؟

قلنا : الخوف غم يصيب الإنسان لأمر يتوقعه فى المستقبل ، والحزن غم يصيبه لأمر قد وقع ومضى .

٨١٨ - فإن قيل : كيف جعل موسى عليه السلام قتله القبطى الكافر من عمل الشيطان ، وسمى نفسه ظالماً واستغفر منه ؟

قلنا : إنما جعله من عمل الشيطان لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى قتله ، فكان ذلك ذنباً يستغفر منه مثله ، قال ابن جريج : ليس لنبى أن يقتل ما لم يؤمر .

من غرائب آي التنزيل = ٣١٩

٨١٩ - فإن قيل : إن موسى عليه السلام ما سقى لابتى شعيب عليه السلام طلبًا للأجر ، فكيف أجاب دعوتها لما قالت : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٢٥] ؟

قلنا : يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله تعالى على سبيل البر والمعروف ابتداء لا على سبيل الإجزاء وإن سمته هي أجزاء ، ويؤيد هذا ما روى أنه لما قدم إليه الطعام امتنع وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبًا ، ولا نأخذ على المعروف أجرًا حتى قال له شعيب عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا .

٨٢٠ - فإن قيل : كيف قال له شعيب عليه السلام : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَنَعْبُدَكَ إِذْ أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّكَ وَنَقُولَ لِلَّذِينَ أَقْرَبُوا مِنْكُمْ ذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [القصص: ٢٧] ومثل هذا النكاح لا يصح لجهالة المنكوح ، والنبي عليه السلام لا ينكح نكاحًا فاسدًا ولا يُعتد به ؟

قلنا : إنما كان ذلك وعدًا بنكاح معينة عند الواعد وإن كانت مجهولة عند الموعود ومثله جائز ، ويكون التعيين عند إنجاز الوعد كما وقع منه .

٨٢١ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿ وَأَضْمَرْنَا إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ [القصص: ٣٢] فجعل الجناح هنا مضمومًا وقال في سورة طه : ﴿ وَأَضْمَرْنَا يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ [طه: ٢٢] فجعل الجناح هناك مضمومًا إليه والقصة واحدة ؟

قلنا : المراد بالجناح المضموم هنا هو اليد اليمنى ، والمراد بالجناح المضموم إليه في سورة طه ما بين العضد إلى الإبط من اليد اليسرى فلا تناقض بينهما .

٨٢٢ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَضْمَرْنَا إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ [القصص: ٣٢] ؟

قلنا : لما رهب من الحية أمره الله تعالى أن يضم إليه جناحه ليذهب عنه الفرع ، وإنما قال تعالى : ﴿ مِنْ الرِّهْبِ ﴾ [القصص: ٣٢] لأنه جعل الرهب الذي أصابه علة وسبباً لما أمر به من ضم الجناح ، قال مجاهد : كل من فرع من شيء فضم جناحه إليه ذهب عنه الفرع ، وقيل : حقيقة ضم الجناح غير مرادة ، بل هو مجاز عن تسكين الروح وتثبيت الجأش ، قال أبو علي : لم يرد به الضم بين شيئين ، وإنما أمر بالعزم والجد في الإتيان بما طلب منه " ومثله قولهم :

اشدد حيازيمك للموت

فليس فيه شد حقيقة .

وقيل : في الآية تقديم وتأخير تقديره ، ولّى مدبراً من الرهب .

٨٢٣ - فإن قيل : أى فائدة في تصديق هارون لموسى عليهما السلام حتى قال : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ [القصص: ٣٤] ؟

قلنا : ليس مراده بقوله ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ أن يقول له : صدقت في دعوى الرسالة فإن ذلك لا يفيد عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدقونه مع وجود تلك الآية الباهرة والمعجزات الظاهرة ، بل مراده أن يلخص حججه بلسانه ، ويبسط القول فيها ببيانه ، ويجادل عنه بالحق ، فيكون ذلك سبباً لتصديقه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ [القصص: ٣٤] وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لما قلنا لا لقوله : صدقت ، فإن سبحانه وائل وبقلا في ذلك سوء .

٨٢٤ - فإن قيل : وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ [القصص: ٤٤] أى أحكمتنا إليه الوحي مغن عن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤] أى من الحاضرين عند ذلك ؟

قلنا : معناه وما كنت من الشاهدين قصته مع شعيب عليه السلام

فاختلفت القضيتان .

٨٢٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وكم رأينا من الظالمين بالكفر والكبائر من قد هداه الله للإسلام والتوبة ؟
قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة المائدة .

٨٢٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٤] وإنما يرى العذاب من كان ضالاً لا مهتدياً ؟
قلنا : جواب لو محذوف تقديره ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون لما اتبعوهم أو لما رأوا العذاب .

٨٢٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى في آخر آية الليل : ﴿ بِضْيَاءِ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص: ٧١] وقال في آخر آية النهار : ﴿ بَلِيلٍ تَسْكُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٢] ؟

قلنا : السماع والأبصار المذكوران لا تعلق لهما بظلمة الليل ولا بضياء النهار، فلذلك لم يقرن الإبصار بالضياء ، وبيانه أن معنى الآيتين أفلا يسمعون القرآن سماع تأمل وتدبر فيستدلوا بها فيه من الحجج على توحيد الله تعالى ، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة .

٨٢٨ - فإن قيل : كيف وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦] ؟

قلنا : قال الفراء ، هو استثناء منقطع تقديره رحمة من ربك ، أى : للرحمة .



سورة العنكبوت

٨٢٩ - فإن قيل : قال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت: ١٢] ثم قال : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣] ؟ قلنا : معناه وما الكافرون بحاملين شيئاً من خطايا المؤمنين التي ضمنوا حملها ، وليحملن الكافرون أثقال أنفسهم وهي ذنوب ضلالتهم ، وأثقالاً مع أثقالهم وهي ذنوب إضلالهم غيرهم من الكفار ، لا خطايا المؤمنين التي نفى عنهم حملها ، وقد سبق نظير هذا في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام: ١٦٤] في سورة الأنعام وفي سورة بنى إسرائيل .

٨٣٠ - فإن قيل : ما فائدة العدول في قوله : " تسعمائة وخمسين عاماً " إلى قوله : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] مع أن عادة أهل الحساب هو اللفظ الأول ؟

قلنا : لما كانت القصة مسوقة لتسلية النبي ﷺ بذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته وكابده من طول مصابرتهم ، كان ذكر أقصى العدد الذي لا عقد أكثر منه في مراتب العدد أفخم وأعظم إلى الغرض المقصود ، وهو استطالة السامع مدة صبره ، وفيه فائدة أخرى وهي نفى وهم إرادة المجاز بإطلاق لفظ التسعمائة والخمسين على أكثرها ، فإن هذا الوهم مع ذكر الألف والاستثناء منتف أو هو أبعد .

٨٣١ - فإن قيل : كيف جاء المميز أولاً بلفظ السنة والثاني بلفظ العام ؟

قلنا : لأن تكرار اللفظ الواحد مجتنب في مذهب الفصحاء والبلغاء إلا أن يكون لغرض تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك .

من غرائب آي التنزيل ٣٢٣

٨٣٢ - فإن قيل : كيف نكر الرزق ثم عرفه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت: ١٧] ؟
قلنا : لأنه أراد أنهم لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق فابتغوا عند الله الرزق كله ، فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره .

٨٣٣ - فإن قيل : كيف أضمر اسمه تعالى في قوله عز وجل : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] ثم أظهره في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يَنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وكان القياس كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة ؟

قلنا : إنما عدل إلى ما ذكر لتأكيد الإخبار عن الإعادة التي كانت هي المنكرة عندهم بالإفصاح باسمه تعالى في ذكرها وجعله مبتدأ لزيادة الاهتمام بشأنها .

٨٣٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ [العنكبوت: ٢٧] في معرض المدح أو في معرض الامتنان عليه ، وأجر الدنيا فإن منقطع ، بخلاف أجر الآخرة فإنه النعيم المقيم الباقي ، فكان الأولى بالذكر ؟

قلنا : المراد به ، وآتيناه أجره في الدنيا مضموناً إلى أجره في الآخرة من غير أن ينقص من أجر الآخرة شيئاً ، قال ابن جرير : وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَّ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧] يعني له في الآخرة جزاء الصالحين ، وافيئاً كاملاً ، وأجره في الدنيا ، قيل : هو الثناء الحسن من الناس والمحبة من أهل الأديان ، وقيل : هي البركة التي بارك الله فيها ذريته .

٨٣٥ - فإن قيل : كيف قالوا : ﴿ إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت: ٣١] يعنون مدينة قوم لوط عليه السلام ، ولم يقولوا تلك القرية ، مع

أن مدينة قوم لوط كانت بعيدة عن موضع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه غائبة عند وقت هذا الخطاب ؟

قلنا : إنما قالوا هذه القرية لأنها كانت قريبة حاضرة بالنسبة إليهم وإن كانت بعيدة بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام .

٨٣٦ - فإن قيل : كيف قالوا : ﴿ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت: ٣١] ولم يقولوا : أهل هذه القرى ، مع أن مدائن قوم لوط كانت خمساً فأهلكوا منها أربعاً ؟

قلنا : إنما اقتصروا في الذكر على قرية واحدة لأنها كانت أكبر وأقرب وهي سدوم مدينة لوط عليه السلام ، فجعلوا ما وراءها تبعاً لها في الذكر .

٨٣٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨] أى ذوى بصائر ، يقال : فلان مستبصر ، إذا كان عاقلاً ليبيّناً صحيح النظر ، ولو كانوا كذلك لما عدلوا عن طريق الهدى إلى طريق الضلال ؟

قلنا : معناه وكانوا مستبصرين في أمور الدنيا ، وقيل : معناه وكانوا عارفين الحق بوضوح الحجج والدلائل ولكنهم كانوا ينكرونه متابعة للهوى لقوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًا ﴾ [النمل: ١٤] وقيل : معناه وكانوا مستبصرين لو نظروا نظر تدبر وتفكر .

٨٣٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١] وكل أحد يعلم أن أضعف بيوت يتخذها الهوام بيت العنكبوت ؟

قلنا : معناه لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام أولياء من دون الله مثل اتخاذ العنكبوت بيتاً لما اتخذوها .

من غرائب آي التنزيل ٣٢٥

٨٣٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وكل أهل الكتاب ظالمون لأنهم كافرون ، ولا ظلم أشد من الكفر ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ؟

قلنا : المراد بالظلم هنا الامتناع عن قبول عقد الذمة وأداء الجزية أو نقض العهد بعد قبوله .

الثاني : أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: ٢٩] الآية .

٨٤٠ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخْطُرُ بِمِصْرِكَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ؟

قلنا : فائدته تأكيد النفي ، كما يقال في الإثبات للتأكيد ، هذا الكتاب مما كتبه فلان بيده وبيمينه ، ورأيت فلانًا بعيني ، وسمعت هذا الحديث بأذني ونحو ذلك .

٨٤١ - فإن قيل : كيف لم يؤكد سبحانه وتعالى في التلاوة ولم يقل : وما كنت تتلو من قبله من كتاب بلسانك ؟

قلنا : الأصل في الكلام عدم الزيادة ، وكل ما جاء على الأصل لا يحتاج إلى العلة إنما يحتاج إلى العلة ما جاء على خلاف الأصل .

٨٤٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ومعلوم أن المجاهدة في دين الله تعالى أو في حق الله تعالى مع النفس الأمارة بالسوء أو مع الشيطان أو مع أعداء الدين ، كل ذلك إنما يكون بعد تقدم الهداية من الله تعالى ، فكيف جعل الهداية من ثمرات المجاهدة ؟

قلنا : معناه والذين جاهدوا في طلب التعلم لنهدينهم سبلنا بمعرفة الأحكام وحقائقها ، وقيل : معناه لنهدينهم طريق الجنة ، وقيل : معناه والذين جاهدوا لتحصيل درجة لنهدينهم إلى درجة أخرى أعلى منها ، وحاصله لتزديدهم هداية وتوفيقاً للخيرات كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادْهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وقوله تعالى : ﴿وَزَيْدُ اللَّهِ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله عليه : معناه والذين جاهدوا فيما عملوا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا ، وعن بعض الحكماء : من عمل بما علم وفق لما لا يعلم ، وقيل : إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم هو من تقصيرنا فيما نعلم .

سورة الروم

٨٤٣ - فإن قيل : كيف ذكر الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] والمراد به الإعادة لسبق قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [الروم: ٢٧] ؟

قلنا : معناه : ورجعه أو رده أهون عليه ، فأعاد الضمير على المعنى لا على اللفظ كما في قوله تعالى : ﴿ لِنُخْطِ بِهٖ بَلَدَةً مَّيْمَنًا ﴾ [الفرقان: ٤٩] أى : بلدًا أو مكانًا .
٨٤٤ - فإن قيل : كيف أخرت الصلة في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] وقدمت في قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [مريم: ٢١] ؟

قلنا : لأن هناك قصد الاختصاص وهو يحسن الكلام ، فقليل : هو على هين وإن كان مستصعبًا عندكم أو يولد بين هم وعافر ، وأما هنا فلا معنى للاختصاص فجرى على أصله ، والأمر مبني على ما يعقل الناس من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى .

٨٤٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] والأفعال كلها بالنسبة إلى قدرة الله تعالى في السهولة سواء ، وإنما تتفاوت في السهولة والصعوبة بالنسبة إلى قدرتنا ؟

قلنا : معناه وهو هين عليه ، وقد جاء في كلام العرب أفعل بمعنى اسم الفاعل من غير تفضيل ، ومنه قولهم في الأذان : الله أكبر ، أى الله كبير في قول بعضهم ، وقال الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعز وأطول

أى عزيزة طويلة ، وقال معن بن أوس المزني :

لعمرك ما أدري وإنى لأوجل على أينما تعدو المنية أول

أى : وإنى لوجل ، وقال آخر :

أصبحت أمنحك الصدود وإننى قسماً إليك مع الصدود لأميل

أى : للمائل ، وقال آخر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى : بواحد .

الثانى : أن معناه ، وهو أهون عليه فى تقديركم وحكمكم ، لأنكم تزعمون وتعتقدون فيما بينكم أن الإعادة أهون من الابتداء ، كيف وأن الابتداء من ماء والإعادة من تراب ، وتركيب الصورة من التراب أهون عندكم .

الثالث : أن الضمير فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] راجع إلى المخلوق لا إلى الله تعالى ، معناه : أنه لا صعوبة على المخلوق فيه ولا إبطاء ، لأنه يعاد دفعة واحدة بقوله تعالى : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] وفى الابتداء خلق نطفة ثم نقل إلى مضغة ثم إلى عظام ثم إلى الكسوة اللحم .

الرابع : أن الابتداء من قبيل التفضل الذى لا مقتضى لوجوبه ، والإعادة من قبيل الواجب لأنها لا بد منها لجزاء الأعمال ، وجزاؤها واجب بحكم وعده سبحانه وتعالى .

٨٤٦ - فإن قيل : ما معنى قوله : ﴿ وَمَاءً آتَيْنَاهُ مِنْ رَبِّا ﴾ [الروم: ٣٩] الآية على اختلاف القراءتين بالمد والقصر ؟

قلنا : قال الحسن رحمه الله : المراد به الربا المحرم والخطاب لدافعى الربا لا لأخذه ، معناه : وما أعطيتكم أكلة الربا من زيادة لتربو وتزكو فى أموالهم فلا تزكو عند الله ولا يبارك فيها ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَتَخَقَّ اللَّهُ أَلْزَبُوا وَيَرْبَى ﴾

الْصَّدَقَاتِ ﴿البقرة: ٢٧٦﴾ لا فرق بينهما ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما والجمهور : المراد به أن يهب الرجل غيره هبة أو يهدى إليه هدية على قصد أن يعوضه أكثر منها .

وقالوا : وليس فى ذلك أجر ولا وزر ، وإنما سماه ربا لأنه مدفوع لاجتلاب الربا وهو الزيادة فكان سبباً لها فسمى باسمها ، ومعنى قراءة المد ظاهر ، وأما قراءة القصر فمعناها : وما جئتم : أى وما فعلتم من إعطاء ربا كما تقول : أتيت خطأ وأتيت صواباً ، أى فعلت ، وقوله تعالى : ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] أى : ذوو الأضعاف من الحسنات ، وهو التفات عن الخطاب إلى الغيبة .

٨٤٧ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ [الروم: ٤٩] بعد قوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ [الروم: ٤٩] ؟

قلنا : فائدته التأكيد كما فى قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠] وقيل : الضمير لإرسال الرياح أو السحاب فلا تكرار .

٨٤٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٦] والضعف صفة الشئ الضعيف ، فكيف يخلق الإنسان من تلك الصفة مع علمنا أنه خلق من عين وهو الماء أو التراب لا من صفة ؟

قلنا : أطلق المصدر هو الضعف ، وأراد به اسم الفاعل وهو الضعيف كقولهم رجل عدل ، أى : عادل ونحوه ، فمعناه من ضعيف وهو النطفة ، وقيل : معناه على ضعف ، فمن بمعنى على كما فى قوله تعالى : ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٧] والمراد به ضعف جثة الطفل حال طفوليته .

٨٤٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ

الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] وهم إنما لبثوا في الأرض في قبورهم ؟

قلنا : معناه لقد لبثتم في قبوركم على ما في علم كتاب الله أو في خبر كتاب الله ، وقيل : معناه في قضاء الله ، وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره : وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله الذين علموه وفهموه ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ زُرَّاهُمْ بَرَزَخُ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] .

٨٥٠ - فإن قيل : وقال في موضع آخر : ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]

وقال في موضع آخر : ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤] فجعلهم مرة طالبين الإعتاب ومرة مطلوباً منهم الإعتاب ؟

قلنا : معنى قوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧] أى : ولا هم يقالون عثرتهم بالرد إلى الدنيا ، ومعنى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤] أى وإن يستقبلوا فما هم من المقالين ، هذا ملخص اجواب وحاصله ، وقد أوضحنا معناه في شرح غريب القرآن .



سورة لقمان

٨٥١ - فإن قيل : كيف يحلُّ الغناء بعد قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] الآية ، وقد قال الواحدى فى تفسير وسيطه : أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء ، وروى هو أيضًا عن النبى ﷺ أنه قال : "والذى نفسى بيده ما رفع رجل قط عقيرته يتغنى إلا ارتد فيه شيطانان يضربان بأرجلهما على ظهره وصدره حتى يسكت" (١) ، وقال سعيد بن جبير ومجاهد وابن مسعود رضى الله عنهم : لهو الحديث هو والله الغناء واشترء المغنى والمغنية بالمال ، وروى أيضًا حديثًا آخر عن النبى ﷺ مسندًا " أنه قال فى هذه الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] اللعب والباطل كثير النفقة سمح فيه ، لا تطيب نفسه بدرهم يتصدق به " وروى أيضًا حديثًا آخر مسندًا عن النبى ﷺ أنه قال : " من ملأ سمعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة " وقيل : وما الروحانيون ؟ قراء أهل الجنة " ، قال أهل المعانى : ويدخل فى هذا كل من اختار اللهو واللعب والمزامير والمعازف على القرآن وإن كان اللفظ رد بالاشتراء ، لأن هذا اللفظ يذكر فى الاستبدال والاختيار كثيرًا ، وقال قتادة رحمه الله : حسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق هذا كله نقله الواحدى رحمه الله ، وكان من كبار السلف فى العلم والعمل .

وقال غيره : قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقاتدة ، المراد بلهو الحديث الغناء ، وعن الحسن رحمه الله تعالى أنه كل ما ألهى عن الله تعالى ، وفى معنى يشتري قولان ، أحدهما أنه الشراء بالمال .

(١) الهيثمى فى مسنده (الزوائد) (٢/٨٤٣)، (٨٩) .

والثاني : أنه الاختيار كما مر ، وقيل : الغناء منفدة للمال ، مفسدة للقلب ، مسخطة للرب .

قلنا : جوابه أنهم يؤولون هذه الآية ونظائرها وهذه الأحاديث ونظائرها فيصرفونها عن ظاهرها متابعة للهوى وميلاً إلى الشهوات ، ولو نظروا بعقولهم فيما ينشأ عن جماعات السماع في زماننا هذا من المفسد لعلموا حرمة بلا خلاف بين المسلمين ، فإن شروط إباحة السماع عند من أباحه لا تجتمع في زماننا هذا . على ما هو مسطور في كتب المشايخ وأرباب الطريق ، ولو اشتغلنا بتفصيل مفسده وعدد شروطه عند من أباحه لخرجنا عن مقصود كتابنا هذا .

٨٥٢ - فإن قيل : كيف وقع قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤] الأيتان في أثناء وصية لقمان لابنه ، وما الجامع بينهما ؟

قلنا : هي جملة وقعت معترضة على سبيل الاستطراد تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك .

٨٥٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَتَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] كيف اعترض بين الوصية ومفعولها ؟

قلنا : لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم خاصة وتعانيه من المشاق والمتاعب تخصيصاً لها بتأكيد الوصية وتذكير تعظيم حقها بإفرادها بالذكر ، ومن هنا قال رسول الله ﷺ لمن قال له : من أبر ، قال : " أمك ثم أمك ثم أمك " ، ثم قال بعد ذلك " ثم أباك " (١) .

٨٥٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصوات وأفرد صوت الحمير ؟

(١) البخاري (٥٥١٤) ، ومسلم (٤٦٢٢) .

من غرائب آي التنزيل ٣٣٣

قلنا : ليس المراد ذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع ، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق وغيره له صوت ، وأنكر الأصوات من هذه الأجناس صوت هذا الجنس ، فوجب إفراده لئلا يظن أن الاجتماع شرط في ذلك .

٨٥٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧] يطابقه وما في الأبحر من ماء مداد فكيف عدل عنه إلى قوله : ﴿ وَالْبَحْرِ يَنْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ [لقمان: ٢٧] ؟

قلنا : استغنى عن ذكر المداد بقوله يمدده ، لأنه من قولك : مد الدواء وأمدها ، أى : زادها مدادًا ، فجعل البحر المحيط بمنزلة الدواء ، والأبحر السبعة مملوءة مدادًا تصب فيه أبدًا صبا لا ينقطع ، فصار نظير ما ذكرتم ونظيره قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِي رَبِّي ﴾ [الكهف: ١٠٩] الآية .

٨٥٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٧] ولم يقل من شجر؟ قلنا : لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيصها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد برت أقلامًا .

٨٥٧ - فإن قيل : الكلمات جمع قلة والمقصود التفخيم والتعظيم ، فكان جمع الكثرة وهو الكلم أشد مناسبة ؟

قلنا : جمع القلة هنا أبلغ فيما ذكرتم من المقصود ، لأن جمع القلة إذا لم يفن بتلك الأقلام وذلك المداد ، فكيف يفنى جمع الكثرة .

٨٥٨ - فإن قيل : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية كيف أضاف فيها العلم إلى نفسه في الأمور الثلاثة من الخمسة المغيبات ، ونفى العلم عن العباد في الأمرين الآخرين ، مع أن الأمور الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاءه على العباد بها ؟

قلنا : إنما خص الأمور الثلاثة الأول بالإضافة إليه تعظيماً لها وتفخيماً ؛ لأنها أجل وأعظم ، وإنما خص الأمرين الآخرين بنفى علميهما عن العباد ، لأنهما من صفاتهم وأحوالهم ، فإذا انتفى عنهم علمهما كان انتفاء علم ما عداهما من الأمور الخمسة أولى .

٨٥٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤] ولم يقل بأى وقت تموت وكلاهما غير معلوم ، بل نفى العلم بالزمان أولى ، لأن من الناس من يدعى علمه وهم المنجمون ، بخلاف المكان فإن أحداً لا يدعى علمه ؟

قلنا : إنما خص المكان بنفى علمهن لوجهين : أحدهما أن الكون في مكان دون مكان في وسع الإنسان واختياره ، فيكون اعتقاده علم مكان الموت بخلاف الزمان .

الثاني : أن للمكان تأثيراً في جلب الصحة والسقم بخلاف الزمان ، أو تأثير المكان في ذلك أكثر .



سورة السجدة

٨٦٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجُئُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] وقال تعالى في سورة المعارج : ﴿تَرْجُئُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ؟

قلنا : المراد بالأول مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى السطح الأعلى من سماء الدنيا وذلك ألف سنة ، خمسمائة سنة مسافة ما بين السماء والأرض وخمسمائة سنة مسافة سمك سماء الدنيا ، والمراد بالثاني مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى العرش .

الثاني : أن المراد به في الآيتين يوم القيامة ، ومقداره ألف سنة من حساب أهل الدنيا لقوله تعالى : ﴿وَلَنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] ومعنى قوله تعالى : ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أى : لو تولى فيه حساب الخلق غير الله تعالى .

الثالث : أنه كألف سنة في حق عوام المؤمنين ، والخمسين ألف سنة في حق الكافرين لشدة ما يكابدون فيه من الأهوال والمحن ، وكساعة من أيام الدنيا في حق خواص المؤمنين ، ويؤيده ما روى أنه قيل : "يا رسول الله يوم مقداره خمسون ألف سنة ما أطوله" .

فقال : "والذى نفسى بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا لله" ^(١) ، وروى أن ابن عباس رضى الله عنهما

(١) مسند أحمد (ط الرسالة) (٢٤٦/١٨) (١١٧١٧) وحكم عليه الأرئوط : حسن .

سئل عن هاتين الآيتين ، فقال : يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه ، وإنى أكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم .

٨٦١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧] أو : "كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ" على اختلاف القراءتين ، ومقتضى القراءتين أن لا يكون في مخلوقات الله تعالى شيء قبيح والواقع خلافه ، ولو لم يكن إلا الشرور والمعاصي فإنها مخلوقة لله تعالى عند أهل السنة والجماعة مع أنها قبيحة ؟ قلنا : أحسن بمعنى أحكم وأتقن ، وهذا الجواب يعم القراءتين .

الثاني : أن فيه إضماراً تقديره ، أحسن إلى كل شيء خلقه .

الثالث : أن أحسن بمعنى علم كما يقال : فلان لا يحسن شيئاً ، أى لا يعلم شيئاً ، وقال على كرم الله وجهه : قيمه كل امرئ ما يحسنه ، أى ما يعلمه ، فمعناه أنه علم خلق كل شيء ، أو علم كل شيء خلقه ولم يتعلمه من أحد ، وهذان الجوابان يخصان بقراءة فتح اللام .

٨٦٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨] وقال في موضع آخر : ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢] ؟

قلنا : المذكور هنا صفة ذرية آدم ، والمذكور هناك صفة آدم عليه السلام يعلم ذلك من أول الآيتين فلا تنافي .

٨٦٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة:٩] والله تعالى منزّه عن الروح ؟

قلنا : معناه نفخ فيه من روح مضافة إلى الله بالخلق والإيجاد لا بوجه آخر .

٨٦٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١] وقال تعالى في موضع آخر : ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١] وقال

تعالى في موضع آخر : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ؟

قلنا : الله تعالى هو المتوفى بخلق الموت وأمر الوسائط بنزع الروح ، والملائكة المتوفون أعوان ملك الموت ، وهم يجذبون الروح من الأظافر إلى الحلقوم ، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم ، فصحت الإضافات كلها .

٨٦٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [السجدة: ١٥] الآية ، وليس المؤمنون منحصرين فيمن هو موصوف بهذه الصفة ولا هذه الصفة شرط في تحقق الإيمان ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿ذُكِّرُوا بِهَا﴾ [السجدة: ١٥] أى وعظوا ، والمراد بالسجود الخشوع والخضوع والتواضع في قبول الموعدة بآيات الله تعالى ، وهذه الصفة شرط في تحقق الإيمان ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] الآية .

الثانى : أن معناه إنما يؤمن بآياتنا إيماناً كاملاً من اتصف بهذه الصفة ، وقيل المراد بالآيات فرائض الصلوات الخمس ، والمراد التذكير بها بالأذان والإقامة .

٨٦٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨] يدل على أن الفاسق لا يكون مؤمناً ؟

قلنا : الفاسق هنا بمعنى الكافر بدليل قوله تعالى بعده : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] والتقسيم يقتضى كون الفاسق المذكور هنا كافراً ؛ لا كون كل فاسق كافراً ونظيره قوله تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] وقوله تعالى : ﴿أَمَرَ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا أَلْسِنَاتٍ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجن: ٢١] ولم يلزم من ذلك أن كل مجرم كافر ، ولا أن كل مسيء كافر .

٨٦٧ - فإن قيل : ما فائدة العدول عن قوله تعالى : ﴿فَأَنَّا مِنْهُمْ مُتَقَبِّلُونَ﴾ [الزخرف:٤١] في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [السجدة:٢٢] الآية؟

قلنا : لما جعله أظلم الظلمة ثم توعد كل المجرمين بالانتقام منه دل على أن الأظلم يصيبه النصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة .

٨٦٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ [السجدة:٢٨] سؤال عن وقت الفتح ، وهو يوم القضاء بين المؤمنين والكافرين ، يعنى يوم القيامة ، فكيف طابقه ما بعده جواباً ؟

قلنا : لما كان سؤالهم سؤال تكذيب واستهزاء بيوم القيامة لا سؤال استفهام أجيبوا بالتهديد المطابق للتكذيب والاستهزاء لا بيان حقيقة الوقت .

٨٦٩ - فإن قيل : على قول من فسر الفتح بفتح مكة أو بفتح يوم بدر ، كيف وجه الجواب عن قوله : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [السجدة:٢٩] الآية ، وقد نفع بعض الكفار إيمانهم في ذينك اليومين وهم الطلقاء الذين آمنوا؟
قلنا : المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل ، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق .



سورة الأحزاب

٨٧٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٢٨] ولم يقل : يا محمد كما قال تعالى : يا موسى ، يا عيسى ، يا داود ونحوه ؟
قلنا : إنما عدل عن نداءه باسمه إلى نداءه بالنبي والرسول إجلالاً له وتعظيماً
كما قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ لِرَّحْمَةٍ﴾ [التحریم: ١] ، ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلَغًا﴾
[المائدة: ٦٧] .

٨٧١ - فإن قيل : لو كان ذلك كما ذكرتم لعدل عن اسمه إلى نعته في الإخبار عنه كما عدل في النداء في قوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ؟
قلنا : إنما عدل عن نعته في هذين الموضعين لتعليم الناس أنه رسول الله وتلقينهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، ولذلك ذكره بنعته لا باسمه في غير هذين الموضعين من مواضع الإخبار ، كما ذكره في النداء : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠] ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ [المائدة: ٨١] ونظائره كثيرة .

٨٧٢ - فإن قيل : ما فائدة ذكر الجوف في قوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤] ؟
قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة الحج في قوله تعالى :

﴿وَلَكِنَّ تَعْنَى الْقُلُوبِ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

٨٧٣ - فإن قيل : ما معنى قولهم : أنت على كظهر أمي ؟

قلنا : أرادوا أن يقولوا : أنت على حرام كبطن أمي ، فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطن الذي يقارب ذكره ذكر الفرج ، وإنما كنوا عن البطن بالظهر لوجهين : أحدهما : أنه عمود البطن ، ويؤيده قول عمر رضي الله تعالى عنه : " يجيء به أحدهم على عمود بطنه " ، أي : على ظهره .

الثاني : أن إتيان المرأة من قبل ظهرها كان محرماً عندهم ، وكانوا يعتقدون أنها إن أتيت من قبل ظهرها كان محرماً عندهم وكانوا يعتقدون أنها إذا أتيت من قبل ظهرها جاء الولد أحوال ، فكان المطلق في الجاهلية إذا قصد تغليظ الطلاق قال : أنت على كظهر أمي .

٨٧٤ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] جعل أزواج النبي ﷺ بمنزلة أمهات المؤمنين حكماً ، أي في الحرمة والاحترام وما جعل النبي ﷺ بمنزلة أبيهم حتى قال تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ؟

قلنا : أراد الله بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] أن أمته يدعون أزواجه بأشرف الأسماء ، وأشرف أسماء النساء الأم ، وأشرف أسماء النبي ﷺ رسول الله لا الأب .

الثاني : أنه تعالى جعلهن أمهات المؤمنين تحريماً لهن إجلالاً وتعظيماً له ﷺ كي لا يطمع أحد في نكاحهن بعده ، فلو جعل النبي ﷺ أبا المؤمنين لكان أباً للمؤمنات أيضاً ، فلم يجعل له نكاح امرأة من المؤمنات بل يحرم عليه ، وذلك ينافي إجلاله وتعظيمه ، وقد جعله أعظم من الأب في القرب والحرمة بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِن نَّفْسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فجعل ﷺ أقرب إليهم

من غرائب آي التنزيل = ٣٤١

من أنفسهم ، وكثير من الآباء يتبرأ من ابنه ويتبرأ منه ابنه أيضًا ، وليس أحد يتبرأ من نفسه .

٨٧٥ - فإن قيل : كيف قدم النبي ﷺ على نوح ومن بعده في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧]؟

قلنا ! لأن هذا العطف من باب عطف الخاص على العام الذي هو جزء منه لبيان التفضيل والتخصيص بذكر مشاهير الأنبياء وذرائعهم ، فلما كان النبي ﷺ أفضل لهؤلاء المفضلين قدم عليهم ، وفي الميثاق المأخوذ منه قولان : أحدهما : أنه تعالى أخذ منهم الميثاق يوم أخذ الميثاق بأن يصدق بعضهم بعضًا . والثاني : أخذ منهم الميثاق أن يوحدوا الله تعالى ويدعوا إلى توحيدهِ ويصدق بعضهم بعضًا .

٨٧٦ - فإن قيل : فكيف قدم نوحًا عليه السلام في نظير هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى:١٣]؟

قلنا : لأن تلك الآية سقت لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة ، كأنه قال : شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح عليه السلام في العهد القديم ، وبعث عليه محمد ﷺ في العهد الحديث ، وبعث عليه من توسطهما من الأنبياء المشاهير ، فكان تقديم نوح عليه السلام أشد مناسبة بالمقصود من سوق الآية .

٨٧٧ - فإن قيل : ما فائدة إعادة أخذ الميثاق في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧]؟

قلنا : فائدته التأكيد ووصف الميثاق المذكور أولاً بالجلالة والعظم استعادة من وصف الأجرام به ، وقيل : إن المراد بالميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بها حملوا ، فلا إعادة لاختلاف الميثاقين .

٨٧٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى في وصف حال المؤمنين التي امتن عليهم فيها : ﴿وَلَقَدْ لَقِيَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] ولو بلغت القلوب الحناجر لماتوا ولم يبق للامتنان وجه ؟

قلنا : قال ابن قتيبة : معناه كادت القلوب تبلغ الحناجر من الخوف ، فهو مثل في اضطراب القلوب ووحيتها ، ورده ابن الأنباري فقال : العرب لا تضمن كاد ولا تعرف معناه ما لم تنطق به ، وقال الفراء : معناه أنهم جبنوا وجزعوا ، والجبان إذا اشتد خوفه انتفخت رثته فرفعت قلبه إلى حنجرتة ، وهي جوف الحلقوم وأقصاه ، وكذلك إذا اشتد الغضب أو الغم ، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ومن هنا قيل للجبان : انتفخ منخره .

٨٧٩ - فإن قيل : كيف علق الله تعالى عذاب المنافقين بمشيئته بقوله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ﴾ [الأحزاب: ٢٤] وعذابهم متيقن مقطوع به لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤] ؟

قلنا : إن شاء تعذيبهم بإماتتهم على النفاق ، وقيل معناه : إن شاء ذلك وقد شاءه .

٨٨٠ - فإن قيل : ما حقيقة قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ؟

قلنا : فيه وجهان : أحدهما : أنه نفسه أسوة حسنة ، أى : قدوة والأسوة اسم للمتأسى به ، أى المقتدى به ، كما تقول في البيضة عشرون مثلاً حديدًا أى هي في نفسها هذا المقدار .

من غرائب آي التنزيل _____ ٣٤٣

الثانى : أن فيه خصلة من حقها أن يُتأسى بها وتتبع ، وهى مواساته بنفسه أصحابه وصبره على الجهاد وثباته يوم أحد حين كسرت رباعيته وشج وجهه .

٨٨١ - فإن قيل : كيف أظهر تعالى الاسمين مع تقدم ذكرهما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [الأحزاب: ٢٢] ؟

قلنا : لثلا يكون الضمير الواحد عائداً على الله تعالى وغيره .

٨٨٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف بنى قريظة : ﴿ وَأُورِثُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها ﴾ [الأحزاب: ٢٧] والله تعالى إنما ملكهم أرضهم بعد ما وطئوها وظهروا عليها ؟

قلنا : معناه ويورثكم بطريق وضع الماضى موضع المستقبل مبالغة فى تحقيق الموعد وتأكيده .

الثانى : أن فيه إضماراً تقديره : وأرضاً لم تطؤوها سيورثكم إياها ، يعنى أرض مكة ، وقيل : أرض فارس والروم ، وقيل : أرض خيبر ، وقيل : كل أرض ظهر عليها المسلمون بعد ذلك إلى يوم القيامة .

الثالث : أن معناه وأورثكم ذلك كله فى الأزل بكتابته لكم فى اللوح المحفوظ .

٨٨٣ - فإن قيل : كيف خص الله تعالى نساء النبى ﷺ بتضعيف العقوبة على الذنب والثوبة على الطاعة فى قوله تعالى : ﴿ يَنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾ [الأحزاب: ٣٠] الآيتان ؟

قلنا : أما تضعيف العقوبة فلأنهن يشاهدن من الزواجر الرادعة عن الذنوب ما لا يشاهد غيرهن .

الثاني : أن في معصيتهن أذى لرسول الله ﷺ وذنوب من آذى رسول الله ﷺ أعظم من ذنب غيره ، والمراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، وأما تضعيف المثوبة فلائهن أشرف من سائر النساء بقربهن من رسول الله ﷺ ، فكانت الطاعة منهن أشرف كما كانت المعصية منهن أقبح ، ونظير ذلك الوزير والنواب في طاعتها للملك ومعصيتها .

٨٨٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ولم يقل كواحدة من النساء ؟ .

قلنا : قد سبق نظير هذا مرة في آخر سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿لَا تَقْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

٨٨٥ - فإن قيل : كيف أمر الله تعالى نساء النبي بالزكاة في قوله تعالى : ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ولم يملكن نصاباً حولاً كاملاً؟
قلنا : المراد بالزكاة هنا الصدقة النافلة ، والأمر أمر ندب .

٨٨٦ - فإن قيل : ما الفرق بين المسلم والمؤمن حتى عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] مع أنها متحدان شرعاً ؟

قلنا : المراد بالمسلم الواحد بلسانه ، وبالمؤمن من المصدق بقلبه .

٨٨٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] مع أنه كان أباً للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم عليهم السلام؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] يخرجهم من حكم النفي من وجهين ، أحدهما : أنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال بل ماتوا صبياناً .

من غرائب آي التنزيل = ٣٤٥

والثانى : أنه أضاف الرجال إليهم ، وهم كانوا رجاله لا رجالهم .

٨٨٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَخَازَ الْتَبِيعِينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

وعيسى عليه السلام ، ينزل بعده وهو نبي ؟

قلنا : معنى كونه خاتم النبيين أنه لا يتنبأ أحد بعده ، وعيسى ممن نبى قبله
وحين ينزل عاملاً بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته كأنه بعض أمته .

٨٨٩ - فإن قيل : قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكَ ﴾ [الأحزاب: ٤٣] معناه

يرحمكم ويغفر لكم فما معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ [الأحزاب: ٤٣] والرحمة
والمغفرة منهم محال ؟

قلنا : جعلوا لكونهم مستجابى الدعوة بالرحمة والمغفرة كأنهم فاعلو الرحمة
والمغفرة ، ونظيره قولهم : حياك الله ، أى أحياك وأبقاك ، وحيا زيد عمراً : أى
دعا له بأن يحياه الله اتكلاً منه على إجابة دعوته ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

٨٩٠ - فإن قيل : قد فهم من قولهم تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا

وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] أنه مأذون له فى الدعاء إلى الله
تعالى ، فما فائدة قوله سبحانه : ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٦] ؟

قلنا : معناه بتسهيله وتيسيره ، وقيل : معناه بأمره لا أنك تدعوهم من تلقاء
نفسك .

٨٩١ - فإن قيل : كيف شبه الله تعالى النبى ﷺ بالسراج دون الشمس ،

والشمس أتم وأكمل فى قوله تعالى : ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٦] ؟

قلنا : قيل : إن المراد بالسراج هنا الشمس كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ

الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٦] وقيل : إنما شبه بالسراج ؛ لأن السراج يتفرع ويتولد

منه سرج لا تعد ولا تحصى بخلاف الشمس ، والنبى ﷺ تفرغ منه بواسطة إرشاده وهدايته جميع العلماء من عصره إلى يومنا هذا ، وهلم جراً إلى يوم القيامة، وقيل : إنما شبهه بالسراج ، لأنه بعثه فى زمان يشبه الليل بظلمات الكفر والجهل والضلال .

٨٩٢ - فإن قيل : كيف شبهه بالسراج دون الشمع ، والشمع أشرف ونوره أتم وأكمل ؟

قلنا : قد سبق الجواب على مثل هذا فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥] .

٨٩٣ - فإن قيل : كيف خص تعالى المؤمنات بعدم وجوب العدة فى الطلاق قبل المسيس فى قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٤٩] الآية ، مع أن حكم الكتابية كذلك أيضاً ؟

قلنا : هذا خرج مخرج الأغلب والأكثر لا تخصيص .

٨٩٤ - فإن قيل : كيف أفرد سبحانه العم وجمع العمات ، وأفرد الخال وجمع الخالات فى قوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتٍ عَمِكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَتِكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] والمعهود فى كلام العرب مقابلة الجمع بالجمع ؟

قلنا : لأن العم اسم على وزن المصدر الذى هو الضم ونحوه ، وكذا الخال على وزن القال ونحوه ، فيستوى فيه المفرد والتثنية والجمع ، بخلاف العمة والخالة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧] .

٨٩٥ - فإن قيل : هذا الجواب منقوض بقوله تعالى فى سورة النور : ﴿ أَوْ

يُؤْتِ أَعْمَلِكُمْ أَوْ يُوْتِ عَمَلِكُمْ - أَوْ يُؤْتِ أَخْوَالَكُمْ؟ [النور: ٦١]

قلنا : العم والخال ليسا مصدرين حقيقة بل على وزن المصدر ، فاعتبر هنا شبههما بالمصدر ، وهناك حقيقتهما عملاً بالجهتين ، بخلاف السمع فإنه لما كان مصدرًا حقيقة ما جاء قط في الكتاب العزيز إلا مفردًا .

٨٩٦ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ ذَكَرَ الْأَقْرَابَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي أَبَائِهِمْ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٥٥] الْآيَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْعَمَّ وَالْخَالَ وَحُكْمَهُمَا حُكْمَ مَنْ ذَكَرَ فِي رَفْعِ الْجُنَاحِ ؟

قلنا : سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة النور في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] فالأولى أن تستتر المرأة عن عمها وخالتها ، لئلا يصف محاسنها عند ابنه فيفضح ، إلى الفتنة .

٨٩٧ - فإن قيل : السادة والكبراء بمعنى واحد ، فكيف عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧] ؟

قلنا : هو من باب عطف اللفظ على اللفظ المغاير له مع اتحاد معناهما كقولهم : فلان عاقل لبيب ، وهذا حسن جميل ، وقول الشاعر :

معاذ الله من كذب ومين (١)

٨٩٨ - فإن قيل : المراد بالإنسان آدم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] فكيف قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وفعل من أوزان المبالغة فيقتضى تكرار الظلم والجهل منه وأنه منتف ؟

قلنا : لما كان عظيم القدر رفيع المحل كان ظلمه وجهله لنفسه أقبح

(١) للشاعر ابن بسام البغدادي ويقال له : البسامي .

وأفحش ، فقام عظيم الوصف مقام الكثرة ، وقد سبق نظيره هذا في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢] .

وقيل : إنما سمى ظلوماً جهولاً لتعدى ضرر ظلمه وجهله إلى جميع الناس ، فإنهم أخرجوا من الجنة بواسطته وتسلط عليهم إبليس وجنوده .



سورة سبأ

٨٩٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٩] ولم يقل : إلى ما فوقهم وما تحتهم من السماء والأرض ؟ قلنا : ما بين يدي الإنسان هو كل شيء يقع نظره عليه من غير أن يحول وجهه إليه ، وما خلفه هو كل شيء لا يقع نظره عليه حتى يحول وجهه إليه ، فكان اللفظ المذكور أتم مما ذكر .

٩٠٠ - فإن قيل : هلا ذكر سبحانه الإيوان والشياطين هنا كما ذكرها في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَينَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٧] ؟

قلنا : لأنه وجد هنا ما يعنى عن ذكرها ، وهو لفظ العموم وذكر السماء والأرض ولا كذلك ثمة .

٩٠١ - فإن قيل : كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التماثيل وهى التصاوير ؟

قلنا : قيل : إن عمل الصور لم يكن محرماً فى شريعته ، ويجوز أن يكون صور غير الحيوان كالأشجار ونحوها ، وذلك غير محرم فى شريعتنا أيضاً .

٩٠٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ ﴾ [سبأ: ١٥] ولم يقال : آيتان جنتان ، كل جنة كانت آية ، أى : علامة على توحيد الله تعالى ؟

قلنا : لما تماثلنا فى الدلالة واتحدت جهتهما فيها جعلهما آية واحدة ، ونظيره

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] .

٩٠٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سبأ: ٢٢] أى : الذين زعتم آلهة من دون الله إلهًا من دون الله مع أن المشركين ما زعموا غير الله إلهًا دون الله ، بل مع الله على وجه الشركة ؟

قلنا : النص لا يدل على زعمهم حصر الآلهة في غير الله نصاً بل يوهم ذلك ، ولو دل فتقول : فيه تقديم وتأخير تقديره ، ادعوا الذين من دون الله زعتم أنهم شركاء الله .

٩٠٤ - فإن قيل : ما معنى التشكيك في قوله تعالى : ﴿وَأَنَا أَوْيَاكُرْ لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] ؟

قلنا : قيل : إن "أو" هنا بمعنى الواو في الموضعين ، فيصير المعنى : نحن على الهدى ، وأنتم في الضلال ، وقيل : معناه : وإنا لضالون أو مهتدون وإنكم كذلك ، وهو من التعريض بضلالهم كما يقول الرجل لصاحبه إذا أراد تكذيبه : والله إن أحدنا لكاذب ، ويعنى به صاحبه .

٩٠٥ - فإن قيل : كيف قالت الملائكة عليهم السلام في حق المشركين : ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْآحِينَ﴾ [سبأ: ٤١] ولم ينقل عن من المشركين أنه عبد الجن ؟

قلنا : معناه كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادتنا أكثرهم بهم مؤمنون : أى أكثر المشركين مصدقون بالشياطين فيما يخبرونهم به من الكذب أن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، فالمراد بالجن الشياطين .

سورة فاطر

٩٠٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩] كيف جاء فثير مضارعاً دون ما قبله وما بعده؟

قلنا : هو مضارع وضع موضع الماضي كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] .

٩٠٧ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ [فاطر: ١١] ؟
قلنا : معناه وما يعمر من أحد ، وإنما سموه معمرًا بما هو سائر إليه .

٩٠٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وكم من أمة كانت في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ ولم يخل فيها نذير؟

قلنا : إذا كان آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث محمد عليها الصلاة والسلام .

٩٠٩ - فإن قيل : كيف اكتفى سبحانه وتعالى بالذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد سبق ذكرهما في أولها ؟

قلنا : لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة استغنى بذكر أحدهما عن الآخر بعد سبق ذكرهما .

٩١٠ - فإن قيل : ما الفرق بين النصب واللغوب حتى عطف أحدهما على الآخر؟

قلنا : النصب المشقة والكلفة ، واللغوب الفتور الحاصل بسبب النصب ، فهو نتيجة النصب ، كذا فرق بينهما الزمخشري رحمه الله ، ويرد على هذا أن يكون انتفاء الثاني معلوماً من انتفاء الأول .

٩١١ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧] مع أنه يوهم أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح الذي عملوه ، وهم ما عملوا صالحاً قط بل سيئاً ؟

قلنا : هم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَخْتَسِبُونَ أَنَّهُمْ بِحَسَنَاتِهِمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الكهف: ١٠٤] فمعناه غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله .



سورة يس

٩١٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّا إِلَيَّكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٤] وقال سبحانه ثانيًا : ﴿ إِنَّا إِلَيَّكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٦] ؟

قلنا : لأن الأول ابتداء إخبار فلم يحتاج إلى التأكيد باللام ، بخلاف الثاني فإنه جواب بعد الإنكار والتكذيب فاحتاج إلى التأكيد .

٩١٣ - فإن قيل : كيف أضاف الفطر إلى نفسه بقوله : ﴿ فَطَرَنِي ﴾ [يس: ٢٢] وأضاف البعث إليهم بقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٣] مع علمه أن الله تعالى فطره وفطرهم وسوف يبعثه ويبعثهم فهلا قال : فطرنا وإليه نرجع أو فطركم وإليه ترجعون ؟

قلنا : لأن الخلق والإيجاد نعمة من الله تعالى توجب الشكر والبعث بعد الموت وعيد وتهديد يوجب الزجر ، فكان إضافته النعمة إلى نفسه أظهر في الشكر ، وإضافته البعث إليهم أبلغ في الزجر .

٩١٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ يَذْخَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ [يس: ٣٠] والتحسر على الله تعالى محال ؟

قلنا : هو تحسير للخلق ، معناه قولوا : يا حسرتنا على أنفسنا لا تحسد من الله تعالى .

٩١٥ - فإن قيل : كيف نفى الله سبحانه وتعالى الإدراك عن الشمس للقمر دون عكسه وهو : ولا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس ؟

قلنا : لأن سير القمر أسرع ، فإنه يقطع فلكه في شهر والشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة ، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بنفى الإدراك لبطء

سيرها ، والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره ، هذا سؤال للزخشي رحمه الله وجوابه ، ويرد عليه أن سرعة سير القمر يناسب أن ينفى الإدراك عنه ، لأنه إذا قيل : لا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس مع سرعة سيره علم بالطريق الأولى أن الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر مع بطء سيرها ، فأما إذا قيل : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر أمكن أن يقال إنها لم تدركه لبطء سيرها ، فأما القمر فيجوز أن يدركها لسرعة سيره .

٩١٦ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَأَيُّ لَهْفٍ﴾ [يس:٤١] أى لأهل مكة : ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ﴾ [يس:٤١] أى ذرية أهل مكة أو ذرية قوم نوح عليهما السلام : ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] والذرية اسم للأولاد والمحمول في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام آباء أهل مكة لا أولادهم ؟

قلنا : الذرية من أسماء الأضداد تطلق على الآباء والأولاد بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴿آل عمران:٣٣، ٣٤﴾ وصف جميع المذكورين بكونهم ذرية وبعضهم آباء وبعضهم أبناء، فمعناه حملنا آباء أهل مكة أو حملنا أبناءهم ، لأنهم كانوا في ظهور آبائهم المحمولين .

٩١٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس:٤٨] يعنون الوعد بالبعث والجزاء والوعد كان واقعاً لا منتظراً ؟

قلنا : معناه : متى إنجاز هذا الوعد وصدقه ، بحذف المضاف أو بإطلاق اسم الوعد على الموعد كضرب الأمير ونسج اليمين .

٩١٨ - فإن قيل : قولهم : ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢] سؤال عن الباعث فكيف طابقه ما بعده جواباً ؟

من غرائب آي التنزيل ٣٥٥

قلنا : معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل إلا أنه جيء به على هذه الطريقة تبكيًا لهم وتوبيخًا .

٩١٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى في صفة أهل الجنة : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ النَّارِ ﴾ [يس: ٥٦] والظل إنما يكون حيث تكون الشمس ، ولهذا لا يقال : لما في الليل ظل والجنة لا يكون فيها شمس لقوله تعالى : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٣] ؟

قلنا : ظل أشجار الجنة من نور العرش لثلا تبهر أبصار أهل الجنة فإنه أعظم من نور الشمس ، وقيل : من نور قناديل العرش .

٩٢٠ - فإن قيل : كيف سمى سبحانه وتعالى نطق اليد كلامًا ونطق الرجل شهادة في قوله : ﴿ وَتَكَلَّمْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ [يس: ٦٥] ؟

قلنا : لأن اليد كانت مباشرة والرجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادة ، وقول الفاعل على نفسه ليس بشهادة بل إقرار بما فعل ، قلت : وفي الجواب نظر .

٩٢١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ [يس: ٦٩] مع أنه ﷺ قد روى عنه ما هو شعر ، وهو قوله ﷺ .

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقوله ﷺ : " هل أنت إلا أصبع دमित وفي سبيل الله ما لقيت " (١) .

قلنا : هذا ليس بشعر ، لأن الخليل لم يعد مشطور الرجز شعرًا ، وقوله : " هل أنت إلا أصبع دमित " (٢) من مشطور بحر الرجز كيف وقد روى أنه ﷺ قال : " دमित ولقيت " بفتح الياء وسكون التاء وعلى هذا لا يكون شعرًا : وإنما

(١) البخاري (٢٨٦٤) ، ومسلم (١٧٧٦) .

(٢) البخاري (٢٨٠٢) ، ومسلم (٤٧٥٥) .

الراوي حرفه فصار شعراً .

الثاني : أن حد الشعر قول موزون مقفى مقصود به الشعر ، والقصد منتف
فيما روى عنه عليه السلام ، فكان كما يتفق وجوده في كل كلام منشور من الخطب
والرسائل ومحاورات الناس ، ولا يعده أحد شعراً .

٩٢٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ مِمَّا عَمِلْتُمْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا ﴾ [يس: ٧١]
والله تعالى منزّه عن الجارحة ؟

قلنا : هو كناية عن الانفراد بخلق الأنعام والاستبداد به بغير شريك ، كما
يقال في الحب وغيره من أعمال القلب : هذا مما عملته يداك ، ويقال لمن لا يد
له : يداك أو يديك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] .

٩٢٣ - فإن قيل : كيف سمى قوله : ﴿ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾
[يس: ٧٨] مثلاً ليس بمثل ، وإنما هو استفهام إنكار ؟

قلنا : سمّاه مثلاً لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهو إنكار
الإنسان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، مع أن العقل والنقل كلاهما يشهد
بقدره الله على ذلك .



سورة الصافات

٩٢٤ - فإن قيل : كيف جمع تعالى المشارق هنا وثناها في سورة الرحمن ، وكيف اقتصر هنا على ذكر المشارق وذكر ثمة المغربين أيضًا وذكر المغارب مع المشارق ، مجموعين في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠] وذكرهما مفردين في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتَهُ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨] ؟

قلنا : لأن القرآن نزل بلغة العرب على المعهود من أساليب كلامهم وفنونه ومن أساليب كلامهم وفنونه الإجمال والتفصيل والبسط والإيجاز ، فأجل تارة بقوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن: ١٧] أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما على الإجمال وفصل تارة بقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠] أراد جمع مشارق الستة ومغاربها وهي تزيد على سبعائة ، وبسط مرة بقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠] وأوجز واختصر مرة بقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ [الصافات: ٥] لدلالة المذكور وهي المشارق على المحذوف وهو المغارب ، وكانت المشارق أولى بالذكر لأنها أشرف إما لكون الشروق سابقًا في الوجود على الغروب ، أو لأن المشارق منبع الأنوار والأضواء .

٩٢٥ - فإن قيل : كيف خص سبحانه وتعالى أسماء الدنيا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦] مع أن غير سماء الدنيا مزينة بالكواكب أيضًا ؟

قلنا : إنها خصها بالذكر لأننا نحن نرى سماء الدنيا لا غير .

٩٢٦ - فإن قيل : كيف وجه قراءة الضم في قوله تعالى : ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ [الصفات: ١٢] وهى قراءة على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم واختيار القراء ، والتعجب روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشيء ، والله تعالى لا تجوز عليه الروعة ؟

قلنا : أراد بالتعجب الاستعظام وهو جائز من الله تعالى كما استعظم كيد النساء ، وإنكار الكفار معجزات الأنبياء عليهم السلام .

الثانى : أن معناه قل يا محمد : بى عجب ، وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول : إن الله تعالى لا يعجب من شىء وإنما يعجب من لا يعلم ، فقال إبراهيم النخعي : إن شريحا كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم منه ، وكان يقرأ بالضم يريد عبد الله بن مسعود ، قال الزجاج : وإنكار هذه القراءة غلط ، لأن العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقوله : ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] وما أشبهه ، وفى الذى وقع منه العجب قولان : أحدهما كفرهم بالقرآن . والثانى : إنكارهم البعث .

٩٢٧ - فإن قيل : كيف مدح سبحانه نوحا عليه السلام بقوله : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصفات: ٨١] مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين ؟

قلنا : إنما مدحه بذلك تنبيها لنا على جلالة محل الإيمان وشرفه ، وترغيبا فى تحصيله والثبات عليه والازدياد منه كما قال تعالى فى مدح إبراهيم عليه السلام : ﴿وَأَنَّهُ رَفِىَ الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] .

٩٢٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَنَظَرْنَا نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ [الصفات: ٨٨] والنظر إنما يعدى بلى ، قال الله تعالى : ﴿وَلَكِنْ أَنظَرْنَا إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال : ﴿فَأَنظَرْنَا إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠] ؟

من غرائب آي التنزيل = ٣٥٩

قلنا : " في " هنا بمعنى إلى كما في قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا آيَاتِهِمْ فِي آفْوَاهِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٩] .

الثاني : أن المراد به نظر الفكر لا نظر العين ، ونظر الفكر إنما يعدى بقى قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] فصار المعنى ففكر في علم النجوم أو في حال النجوم .

٩٢٩ - فإن قيل : كيف استجاز إبراهيم عليه السلام أن يقول : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٩] ولم يكن سقيماً ؟

قلنا : معناه سأسقم كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [الزمر: ٣٠] فهو من معارضض الكلام قاله ليتخلف عنهم إذا خرجوا إلى عيدهم فيكيد أصنامهم ، وقال ابن الأنباري : أعلمه الله تعالى أنه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجم كذا ، فلما رآه علم أنه سيسقم ، وقيل معناه : إني سقيم القلب عليكم إذا عبدتم الأصنام وتكهنتم بنجوم لا تضر ولا تنفع ، وقيل : إنه عرض له مرض وكان سقيماً حقيقة ، وقال الزمخشري : قد جوز بعض الناس الكذب في المكيدة في الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين ، قال : والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرض وروى إبراهيم صلوات الله عليه عرض بقوله وروى : فإنه أراد أن في عنقه الموت سقيم ، كما قيل في المثل : " كفى بالسلامة داء " وقال لييد :

ودعوت ربي بالسلامة جاهداً ليُصحني فإذا السلامة داء (١)

وروى أن رجلاً مات فجأة فاجتمع عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح فقال أعرابي : أصحيح مَنْ الموت في عنقه ؟

٩٣٠ - فإن قيل : لم لا يجوز النظر في علم النجوم مع أن إبراهيم عليه

الصلاة والسلام قد نظر فيه وحكم منه ؟

قلنا : إذا كان المنجم كإبراهيم في أن الله تعالى أراه ملكوت السموات والأرض أبيح له النظر في علم النجوم والحكم منه .

٩٣١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۖ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ [الصافات: ٩٣، ٩٤] أى : يسرعون ، يدل على أنهم عرفوا أنه هو الكاسر لها ، وقوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿قَالُوا مَنْ قَعَلْ هَذَا بَآلِهَتَنَا﴾ [الأنبياء: ٥٩] وما بعده يدل على أنهم ما عرفوا أنه الكاسر لها ، فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : يجوز أن يكون الذى عرفه وزف إليه بعضهم ، والذى جهله وسأل عنه بعض آخر ، ويجوز أن الكل جهلوه وسألوا عنه ، فلما عرفوا أنه الكاسر لها زفوا إليه كلهم .

٩٣٢ - فإن قيل : ما معنى قوله صلوات الله عليه : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] ؟

قلنا : معناه : إلى حيث أمرنى ربى بالمهاجرة وهو الشام ، وقيل : إلى طاعة ربى ورضاه ، وقيل : إلى أرض ربى ، وإنما خصها بالإضافة إلى الله تعالى تشريفاً لها وتفضيلاً لأنها أرض مقدسة مبارك فيها للعالمين ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] وقوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] .

٩٣٣ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] وهو كان مهتدياً ؟

قلنا : معناه سيثبتنى على ما أنا عليه من الهدى ويزيدنى هدى ، وقيل : معناه : سيهدين إلى الجنة ، وقيل إلى الصواب في جميع أحوالى ، ونظيره قول

موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] .

٩٣٤ - فإن قيل : كيف شاور إبراهيم ولده عليهما السلام في ذبحه بقوله : ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢] مع أنه كان حتماً على إبراهيم لأنه أمر به ، لأن معنى قوله : ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] أنه أمر بذبحه في المنام ، ورؤيا الأنبياء حق فإذا رأوا شيئاً في المنام فعلوه في اليقظة كذا قاله قتادة ، والدليل على أن منامه كان وحياً بالأمر بالذبح قوله : ﴿يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢] ؟

قلنا : لم يشاوره ليرجع إلى رأيه في ذلك ، ولكن ليعلم ما عنده من الصبر فيما نزل به من بلاء الله تعالى ، فيثبت قدمه إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلم القصة فيوطن نفسه على الذبح ، ويهونه عليها فيلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب الثواب بالانقياد والصبر لأمر الله تعالى قبل نزوله ، وليكون سنة في المشاورة ، فقد قيل : لو شاور آدم الملائكة في أكل الشجرة لما فرط منه ذلك .

٩٣٥ - فإن قيل : كيف قيل له : ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ [الصافات: ١٠٥] وإنها يكون مصداقاً لها لو وجد منه الذبح ولم يوجد ؟

قلنا : معناه : قد فعلت غاية ما في وسعك مما يفعله الذابح من إلقاء ولدك وإمرار الشفرة على حلقه ، ولكن الله تعالى منع الشفرة أن تقطع ، وقيل : إن الذي رآه في المنام معالجة الذبح فقط لا إراقة الدم ، وقد فعل ذلك في اليقظة فكان مصداقاً للرؤيا .

٩٣٦ - فإن قيل : أين جواب "لما" في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا﴾ [الصافات: ١٠٣] ؟

قلنا : قيل هو محذوف تقديره : استبشرا واغتبطا وشكراً لله تعالى على ما .

٣٦٢ ===== مسائل الرازي وأجوبتها

أنعم به عليهما من الفداء ، سعدا ، أو أجزل ثوابهما ، وقيل : الجواب هو قوله تعالى : ﴿وَنَدَيْتَهُ﴾ [الصفات:٦] والواو زائدة كما في قول امرئ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى خفاف عقتل

أى : فلما أجزنا ساحة الحى انتحى ، كذا نقله ابن الأنبارى فى شرحه :

٩٣٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿كَذَلِكَ

نَجَّيْنَا الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصفات:١١٠] وفى غيرها من القصص قبلها وبعدها : ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصفات:٨٠] ؟

قلنا : لما سبق فى قصة إبراهيم عليه السلام مرة : ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصفات:٨٠] طرحه فى الثانى تخفيفا واختصارا واكتفاء بذكره مرة بخلاف سائر القصص .

٩٣٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَإِنْ لَوْطَا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ نَجَّيْتَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الصفات:١٣٣، ١٣٤] وهو كان من المرسلين قبل زمان التنجية؟

قلنا : قوله : ﴿إِذْ نَجَّيْتَهُ﴾ [الصفات:١٣٤] لا يتعلق بما قبله بل يتعلق بمحذوف تقديره : واذكر لهم يا محمد إذ نجيناه أو أنعمنا عليه إذ نجيناه ، وكذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصفات:١٣٩، ١٤٠].

٩٣٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفات:١٤٧] و "أو" كلمة شك والشك على الله محال ؟

قلنا : قيل أو هنا بمعنى بل فلا شك ، وقيل بمعنى الواو كما فى قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ تَسْتَمِعُوا لِلنَّسَاءِ﴾ [النساء:٤٣] وقوله تعالى : ﴿عَذْرًا أَوْ تَذْرًا﴾ [المرسلات:٦]

من غرائب آي التنزيل ٣٦٣

وقيل : معناه أو يزيدون في تقديركم ، فلو رأيهم أحد منكم لقال هم مائة ألف أو يزيدون ، فالشك إنما دخل في حكاية قول المخلوقين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:٩].

٩٤٠ - فإن قيل : ما فائدة تكرار الأمر بالتولية والإبصار في قوله تعالى : ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [الصافات:١٧٤، ١٧٥] الآيات ؟ قلنا : فائدته تأكيد التهديد والوعيد .

٩٤١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [الصافات:١٧٥] ثم قال ثانيًا : ﴿وَأَبْصِرْ﴾ [الصافات:١٧٩] ؟

قلنا : طرح ضمير المفعول تخفيفًا واختصارًا واكتفاء بسبق ذكره مرة ، وقيل : معنى الأول : وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب . ومعنى الثاني : وأبصر العذاب إذا نزل بهم ، فلا فرق بينهما في المعنى .

سورة ص

٩٤٢ - فإن قيل : أين جواب القسم في قوله تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص:١] ؟

قلنا : فيه وجوه ، أحدها : أنه لما ذكر حرفاً من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبية على الإعجاز كما قيل في كل سورة مفتتحة بحرف أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه ، كأنه قال : والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز ، وكذلك إذا كان الحرف مقسماً به كأنه قال : أقسمت بص والقرآن ذي الذكر إن هذا الكلام معجز .

الثاني : أن ص خبر مبتدأ محذوف على أنه اسم السورة ، كأنه قال هذه ص: يعنى هذه السورة التى أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر كما تقول : هذا حاتم والله ، تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله .

الثالث : أن جواب القسم (كم أهلكنا) ، وأصله لكم أهلكنا ، فلما طال الكلام حذفت اللام تخفيفاً كما في قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ [الشمس:١] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس:٩] .

الرابع : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص:٦٤] وهو قول الكسائي ، وقال الفراء : وهذا لا يستقيم في العربية لتأخره جداً عن القسم .

٩٤٣ - فإن قيل : ما وجه المناسبة والارتباط بين قوله تعالى : ﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ص:١٧] وبين قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ [ص:١٧] ؟

قلنا : وجه المناسبة بينهما أنه أمر أن يتقوى على الصبر بذكر قوة داود عليه

من غرائب آي التنزيل
السلام على العبادة والطاعة .

الثانى : أن المعنى عرفهم أن داود عليه السلام مع كرامته وشهره طاعته وعبادته التى منها صوم يوم دون يوم وقيام نصف الليل كان شديد الخوف من عذابي لا يزال باكيًا مستغفرًا ، فكيف حال هؤلاء مع أفعالهم .

٩٤٤ - فإن قيل : كيف قال الملك لما دخلا على داود عليه السلام : ﴿ خَصَمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ [ص: ٢٢] والملائكة لا يوجد منهم البغي والظلم ، وكيف قال : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَفْسَةً ﴾ [ص: ٢٣] إلى آخره ، ولم يكن كما قال ؟

قلنا : إنما قال ذلك على سبيل الفرض والتصوير للمسألة ، ومثل ذلك لا يعد كذبًا كما تقول فى تصوير المسائل ، زيد له أربعون شاة وعمره له أربعون وأنت تشير إليهما ، فخلطاهما وحال عليهما الحال ، كم يجب فيها وليس لهما شيء ، وتقول لى : أربعون شاة ولك أربعون فخلطناهما وما لكم شيء .

٩٤٥ - فإن قيل : كيف حكم داود عليه السلام على المدعى عليه بكونه ظالمًا قبل أن يسمع كلامه ؟

قلنا : لم يحكم عليه إلا بعد اعترافه كذا نقله السدى ، إلا أنه حذف ذكر الاعتراف فى القصة اختصارًا لدلالة الحلال عليه ، كما تقول العرب : أمرته بالتجارة فكسب الأموال ، أى فاتجر فكسب الأموال .

٩٤٦ - فإن قيل : ما معنى تكرار الحب فى قوله عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾ [ص: ٣٢] وما معنى تعديته بعن وظاهره أحببت حبًا مثل حب الخير ، كما تقول أحببت حب زيد : أى أحببت حبًا مثل حب زيد ؟

قلنا : أحببت فى الآية بمعنى آثرت ، كما يقول المخير بين شيئين ، أحببت

هذا ، أى أثره ، وقد جاء استحب بمعنى أثر ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَوْدُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا آلَ هُودٍ ﴾ أى آثروه : لأن من الحب شيئاً فقد أثره على غيره ، وعن بمعنى على كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْلُ فَإِنَّا يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [محمد: ٣٨] فيصير المعنى : أى أثرت حب الخير على ذكر ربي .

الثانى : وهو اختيار الجرجاني صاحب معانى القرآن أن أحببت بمعنى قعدت وتأخرت مأخوذ من أحب الجمل إذ برك ، ومنه قول الشاعر :

دعتك إليها مقلتها وجيدها فملت كما مال المحب على عمد (١)

فالمحب هنا الجمل ، والعمد علة تكون فى سنام الجمل ، وكل من ترك شيئاً وتجنب أن يفعله فقد قعد عنه ، فتأويل الآية : إني قعدت عن ربي لحب الخير ، فيكون انتصاب حب على أنه مفعول له .

٩٤٧ - فإن قيل : كيف قال سليمان عليه السلام : ﴿ وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَلْبِغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ [ص: ٣٥] وهذا أشبه بالحسد والبخل بنعم الله تعالى على عبيده بما لا يضر سليمان عليه السلام ؟ .

قلنا : قال الحسن وقتادة رحمهما الله ، المراد به لا ينبغي لأحد أن يسلبه منى فى حياتى كما فعله الشيطان الذى لبس خاتمه وجلس على كرسيه .

الثانى : أن الله تعالى علم أنه لا يقوم غيره من عباده بمصالح ذلك الملك ، فاقتضت حكمته تخصيصه به فألهمه أن يسأله تخصيصه به .

الثالث : أنه أراد بذلك ملكاً عظيماً فعبر عنه بتلك العبارة ، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول لفلان : ما ليس لأحد مثله من الفضل أو من المال ، وتريد بذلك عظم فضله أو ماله ، وإن كان فى الناس أمثاله .

من غرائب آي التنزيل ٣٦٧

٩٤٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى في وصف أيوب عليه السلام : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص:٤٤] مع أن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى على ما قيل وهو قد شكّا؟

قلنا : الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ولا تسمى جزعًا لما فيها من إظهار الخضوع والعبودية لله تعالى والافتقار إليه ، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام : ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦] مع قوله : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨] وقولهم : الصبر ترك الشكوى ، يعني إلى العباد .

الثاني : أنه ﷺ إنما طلب الشفاء من الله تعالى بعد ما لم يبق منه إلا قلبه ولسانه خيفة على قومه أن يفتنهم الشيطان بما كان يوسوس إليهم به ويقول : إنه لو كان أيوب نبيا لما ابتلى بها هو فيه ولدعا الله تعالى بكشف ضره ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال في مناجاته : " إلهي قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ما ملكت يمينى ، ولم أكل إلى ومعى يتيم ، ولم أبت شعبان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان ، فكشف الله تعالى ضره " .

٩٤٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص:٧٨] يدل على أن غاية لعنة الله لإبليس يوم القيامة ثم تنقطع ؟

قلنا : كيف تنقطع وقد قال تعالى : ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يوم القيامة : ﴿أَنْ لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤] وإبليس أظلم الظلمة ، ولكن مراده في الآية أن عليه اللعنة في طول مدة الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة اقترن له باللعنة من أنواع العذاب ما تنسى عنده اللعنة وكأنها انقطعت .



سورة الزمر

٩٥٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] وكم من كاذب كفار قد هداه الله تعالى فأسلم وصدق ؟ قلنا : معناه لا يهديه إلى الإيمان ما دام على كفره وكذبه ، وقيل معناه : لا يهديه إلى حجة يلزم بها المؤمنين .

٩٥١ - فإن قيل : كيف يصلح قوله تعالى : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤] ردًا لقول من ادعى أن ولدًا وإبطالًا لذلك ، مع أنه كل من نسب إليه ولدًا قال : إنه اصطفاه من خلقه بجعله ولدًا ، فاليهود يدعون أنه عزيز ، والنصارى يدعون أنه المسيح عليهما السلام ، وطائفة من مشركى العرب يدعون أن الملائكة بنات الله تعالى ؟

قلنا : هذا إن جعل ردًا على اليهود والنصارى كان معناه لا صطفى الولد من الملائكة لا من البشر ، لأن الملائكة أشرف من البشر بلا خلاف بين اليهود ولا بين النصارى ، وإن كان ردًا على مشركى العرب كان معناه لا صطفى له ولدًا من جنس يخلق كل شيء يريد له ليكون ولدًا موصوفًا لصفته ، ولم يصطف من الملائكة الذين لا يقدر على إيجاد جناح بعوضة ولا يرد على هذا خلق عيسى عليه السلام الطير لأنه ليس بعام ، أو لأن معنى خلقه التقدير من الطين ، ثم الله تعالى يخلق حيوانًا بنفخ عيسى عليه السلام وإظهارًا لمعجزته .

٩٥٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] وخلق حواء من آدم عليه السلام سابق على خلقنا منه ، فكيف عطفه عليه بكلمة (ثم) ؟

قلنا : ثم هنا للترتيب في الإخبار لا في الإيجاد ، كما تقول لصاحبك : أعطيتك اليوم كذا ثم أعطيتك أمس أكثر منه ، أي : ثم أخبرك بكذا ، ومنه قول الشاعر :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده (١)

الثاني : أن ثم متعلقة بمعنى واحدة وعاطفة عليه لا على خلقكم ، فمعناه : خلقكم من نفس واحدة ، وأفردت بالإيجاد ثم شفعت بزواج .
الثالث : أن ثم على ظاهرها ، لأن الله تعالى خلق آدم ثم أخرج أولاده من ظهره كالذر ، وأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم إلى ظهره ثم خلق منه حواء ، فالمراد بقوله تعالى : خلقكم خلقاً يوم أخذ الميثاق دفعة واحدة لأن هذا الخلق الذي نحن فيه بالتوالد والتناسل .

٩٥٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجَ ﴾ [الزمر: ٦] مع أن الأنعام مخلوقة في الأرض لا منزلة من السماء ؟
قلنا : قيل : إن الله تعالى خلق الأزواج الثمانية في الجنة ثم أنزلها على آدم عليه السلام بعد إنزاله .

الثاني : أن الله تعالى أنزل الماء من السماء ، والأنعام لا توجد إلا بوجود النبات ، والنبات ، لا يوجد إلا بوجود الماء ، فكان الأنعام منزلة من السماء ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَلْبِسْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَ بَشَرِكَ ﴾ [الأعراف: ٢٦] وإنما أنزل الماء الذي لا يوجد القطن والكتان والصوف إلا به .

٩٥٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى في وصف الذي جاء بالصدق وصدق به : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿[الزمر: ٣٥] مع أنه سبحانه وتعالى يكفر عنهم سيئ أعمالهم ويجزيهم بحسنها أيضًا ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة التوبة .

٩٥٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] مع أنه جاء في الإخبار أن للأنبياء والعلماء والشهداء والأطفال شفاعة يوم القيامة ؟
قلنا : معناه : أن أحدًا لا يملكها إلا بتمليكه ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] .

٩٥٦ - فإن قيل : كيف ذكر الضمير في أوثيته وهو للنعمة في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا حُولُنَا نِعْمَةً مِنَّا﴾ قال : ﴿إِنَّمَا أَوْتَيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] ؟

قلنا : إنما ذكره نظرًا إلى المعنى ، لأن معنى نعمة شيئًا من النعمة وقسمًا منها ، أو لأن النعمة والإنعام بمعنى واحد .

٩٥٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] والقرآن كله حسن ؟

قلنا : معناه اتبعوا أحسن وحى أو كتاب أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن كله ، وقيل : أحسن القرآن الآيات المحكمات ، وقيل : أحسنه كل آية تضمنت أمرًا بطاعة أو إحسان وقد سبق نظير هذه الآية في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا أُخْدُودُ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] والأجوبة المذكورة ثم تصلح هنا ، وكذا الأجوبة المذكورة هنا تصلح ثمة إلا الجواب الأول .

٩٥٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ﴾ [الزمر: ٦٥] مع أن الموحى إليهم جماعة ، ولما أوحى إلى من قبله لم

يكن في الوحي إليهم خطابه ؟

قلنا : معناه ولقد أوحى إلى كل واحد منك ومنهم لئن أشركت .

الثانى : أن فيه إضمار تقديره : ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك التوحيد ، ثم ابتداء فقال : لئن أشركت .

الثالث : أنه فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره : ولقد أوحى إليك لئن أشركت ، وكذلك أوحى إلى الذين من قبلك .

٩٥٩ - فإن قيل : كيف عبر سبحانه عن الذهاب بأهل الجنة النار بلفظ السوق في قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الزمر: ٧١] الآيتان وفيه نوع إهانة ؟ قلنا : المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم حثًا وإسراعًا بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على السلطان ، فستان ما بين السوقيين .

٩٦٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى في وصف النار : ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر: ٧١] بغير واو وقال في وصف الجنة : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣] بالواو ؟

قلنا : فيه وجوه ، أحدها : أنها زائدة قاله الفراء وغيره .

الثانى : أنها واو الثمانية وأبواب الجنة ثمانية .

الثالث : أنها واو الحال معناه : جاؤوها وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم ، بخلاف أبواب النار فإنها إنما تفتح عند مجيئهم والحكمة في ذلك من وجوه ، أحدها : أن يستعجل أهل الجنة الفرح والسرور إذا رأوا الأبواب مفتحة ، وأهل النار يأتون النار وأبوابها مغلقة ليكون أشد حرها .

٣٧٢ ===== مسائل الرازي وأجوبتها

الثاني أن الوقوف على الباب المغلق نوع ذل وهوان ، فصين عنه أهل الجنة لا أهل النار .

الثالث : أن الكريم يعجل المثوبة ويؤخر العقوبة ، فلو وجد أهل الجنة بابها مغلقاً لأثر انتظار فتحه في كمال الكريم بخلاف أهل النار .

*** ** *

سورة المؤمن " غافر "

٩٦١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [غافر: ٤] مع أن الذين آمنوا يجادلون أيضًا فيها ، هل هي منسوخة أم محكمة ، وهل فيها مجاز أم كلها حقيقة ، وهل هي مخلوقة أم قديمة وغير ذلك ؟ قلنا : المراد الجدال فيها بالتكذيب ودفعها بالباطل والطعن بقصد إدحاض الحق وإطفاء نور الله تعالى ، ويدل عليه قوله تعالى عقيبہ : ﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥] .

٩٦٢ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى في وصف حملة العرش : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [غافر: ٧] ولا يخفى على أحد أن حملة العرش يؤمنون بالله تعالى ؟

قلنا : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالصلاح والإيمان في غير موضع من كتابه لذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البلد: ١٧] .

٩٦٣ - فإن قيل : في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتُنَنِّينَ وَأَحْيَيْتَنَا أَتُنَنِّينَ ﴾ [غافر: ١١] كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتًا إماتة؟

قلنا : هذا كما تقول سبحانه من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ، وكما تقول للحفار : ضيق فم الركبة ووسع أسفلها ، وليس فيهما نقل من كبر إلى صغر ومن صغر إلى كبر ، ولا من سعة إلى ضيق ولا من ضيق إلى سعة ، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات ، والسبب في صحة أن الصغر والكبر جائزان معًا على ذات المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما ، وكذلك الضيق والسعة ، وإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد

صرف المصنوع عن الجائز الآخر ، فجعل صرفه عنه كنقله منه .

٩٦٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ [غافر: ١٦] بيان وتقرير لبروزهم في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ ﴾ [غافر: ١٦] والله تعالى لا يخفى عليه شيء برزوا أو لم يبرزوا ؟

قلنا : معناه : لا يخفى على الله منهم شيء في اعتقادهم أيضًا ، فإنهم كانوا في الدنيا يتوهمون إذا تستروا بالحيطان والحجب لا يراهم الله ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٢] .

٩٦٥ - فإن قيل : كيف قال المؤمن في حق موسى عليه السلام : ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] مع أن صادق في زعم القائل لهذا القول وفي نفس الأمر أيضًا ، ويلزم من ذلك أن يصيبهم جميع ما وعدهم لا بعضه فقط ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدهما : أن لفظه بعض صلة .

الثاني : أنها بمعنى " كل " كما في قول الشاعر :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها دون الشيوخ ترى في بعضها خلا^(١)
ومنه قول لبيد :

أو لم تكن تدري نوار بأننى وصال عقد حبال جذامها

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

قلنا : ولقائل أن يقول : إن لفظة بعض في البيتين على حقيقتها ، وكنى لبيد بعض النفوس عن نفسه كأنه قال : أتركها إلى أن أموت ، وكذا فسر ابن

(١) البيت للخريمي ، وهو إسحاق بن حسان ، خراساني الأصل .

من غرائب آي التنزيل ٣٧٥

الأنبارى على أن أبا عبيدة قال : إن ﴿بَعْضُ﴾ في الآية بمعنى كل ، واستدل بيت لبيد ، وأنكر الزمخشري على أبي عبيدة هذا التفسير على أن غير أبي عبيدة قال في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام لأُمته : ﴿وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] أن بعضًا فيه بمعنى كل .

الثالث : أنها على أصلها ، ثم في ذلك وجهان : أحدهما أنه وعدهم النجاة إن آمنوا والهلاك إن كفروا ، فذكر لفظة بعض لأنهم على إحدى الحالتين لا محالة .

الثاني : أنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، وكان هلاكهم في الدنيا بعضًا ، فمراده يصيبكم في الدنيا بعض الذي يعدكم .

الرابع : أنه ذكر البعض بطريق التنزل والتلطف وإمحاض النصيحة من غير مبالغة ولا تأكيد ليسمعوا منه ولا يتهموا ، فيردوا عليه وينسبوه إلى ميل ومحابة بموسى عليه السلام ، كأنه قال : أقل ما يصيبكم البعض وفيه كفاية ، ونظيره قول الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل^(١)

كأنه يقول : أقل ما يكون في التأني إدراك بعض المطلوب ، وأقل ما يكون في الاستعجال الزلل ، فقد بان فضل التأني على العجلة بما لا يقدر الخصم على دفعه ورده ، والوجه الرابع هو اختيار الزمخشري رحمة الله عليه .

٩٦٦ - فإن قيل : التولى والإدبار واحد فما فائدة قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣] ؟

قلنا : هو تأكيد كقوله تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]

ونظائره كثيرة .

الثانى : أنه استثارة لحميتهم واستجلاب لأنفتهم لما فى لفظ (مدبرين) من التعريض بذكر الدبر ، فيصير نظير قوله تعالى : ﴿ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] .

٩٦٧ - فإن قيل : ما فائدة التكرار فى قوله تعالى : ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابِ ﴾
 أَسْبَابِ السَّمَوَاتِ ﴿ [غافر: ٣٦، ٣٧] وهلا قال : أبلغ أسباب السموات ، أى :
 أبوابها وطرقها ؟

قلنا : إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه وتعظيماً لمكانه ، فلما أراد
 تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها .

٩٦٨ - فإن قيل : مثل السيئة سيئة فما معنى قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا
 يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [غافر: ٤٠] ؟

قلنا : معناه أن جزاء السيئة له حساب وتقدير لا يزيد على المقدار
 المستحق ، فأما جزاء العمل الصالح فغير تقدير حساب كما قال تعالى فى آخر
 الآية .

٩٦٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلًا ﴾
 [الأنعام: ١٦] ينافى ذلك ؟

قلنا : ذلك لمنع النقصان لا لمنع الزيادة كما قال الله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
 الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] .

٩٧٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾
 [غافر: ٤٩] ولم يقل : وقال الذين فى النار لخزنتها مع أنه أخصر ؟

قلنا : لأن فى ذكر جهنم تهويلاً وتفضيلاً ، وقيل : إن جهنم هى أبعد النار
 قعرًا ، وخزنتها أعلى الملائكة الموكلين بالنار مرتبة ، فإنما قصدهم أهل النار

من غرائب آي التنزيل
بطلب الدعاء منهم لذلك . ٣٧٧

٩٧١ - فإن قيل : كيف قال المشركون : ﴿بَلْ لَرَتَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾
[غافر: ٧٤] مع قولهم : ﴿هَتُوْا لَآئِ شُرَكَآؤُنَا الَّذِيْنَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾
[النحل: ٨٦]؟

قلنا : معناه : أن الأصنام التي كنا نعبدوها لم تكن شيئًا لأنها لا تنفع ولا
تضر .

الثاني : أنهم قالوا كذبًا وجحدوا كقولهم : ﴿وَاللّٰهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِيْنَ﴾
[الأنعام: ٢٣] .

٩٧٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَعَلَى الْفَلَكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٨٠] ولم
يقُل : وفي الفلك تحملون ، كما قال تعالى : ﴿قُلْنَا اَحْمِلْ فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اِثْنَيْنِ﴾
[هود: ٤٠]؟

قلنا : معنى الوعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما صحيح في الفلك ، لأنه وعاء
لمن يكون فيه وحمولة لمن يستعليه ، فما صح المعنيان استقامت العبارتان معًا .



سورة فصلت

٩٧٣ - فإن قيل : ما فائدة زيادة " من " في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥] مع أن المعنى حاصل بقوله تعالى : ﴿وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥] ؟

قلنا : لو قيل : كذلك لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين ، وأما زيادة (من) فمعناه : أن الحجاب ابتداءً منا ومنك ، فالمسافة المتوسطة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها .

٩٧٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَنبِئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:٩] إلى قوله تعالى : ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١٢] يدل على أن السموات والأرض وما بينهما خلقت في ثمانية أيام وقال تعالى في سورة الفرقان : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان:٥٩] فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : معنى قوله تعالى : ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت:١٠] في تنمة أربعة أيام ، لأن اليومين اللذين خلق فيهما الأرض من جملة الأربعة ، أو معناه : كل ذلك في أربعة أيام يعني خلق الأرض وما ذكر بعدها فصار المجموع ستة ، وهذا لا اختلاف فيه بين المفسرين .

٩٧٥ - فإن قيل : السموات وما فيها أعظم من الأرض وما فيها بأضعاف مضاعفة فما الحكمة في أن الله خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام ، والسموات وما فيها في يومين ؟

قلنا : لأن السموات وما فيها من عالم الغيب ومن عالم الملكوت ومن عالم

الأمر والأرض وما فيها من عالم الشهادة والملك ، وخلق الأول أسرع من الثانى ، ووجه آخر وهو أنه فعل ذلك ليعلم أن الخلق على سبيل التدرج والتمهيل فى الأرض وما فيها لم يكن للعجز عن خلقها دفعة واحدة بل كان لمصالح لا تحصل إلا بذلك ، وهذه الحكمة خلق العالم الأكبر فى ستة أيام ، والعالم الأصغر وهو الإنسان فى ستة أشهر .

٩٧٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف أهل النار : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَلَنَارٍ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [فصلت: ٢٤] مع أنهم إن لم يصبروا على عذاب النار وجزعوا فالنار مَثْوًى لهم أيضًا ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، فإن يصبروا أولا يصبروا فالنار مَثْوًى لهم على كل حال ، ولا ينفعهم الصبر فى الآخرة كما ينفع الصبر فى الدنيا ، ولهذا قيل : الصبر مفتاح الفرج ، وقيل : من صبر ظفر .

الثانى : أن هذا جواب لقول المشركين فى حث بعضهم لبعض على إدامة عبادة الأصنام : ﴿ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾ [ص: ٦] فقال الله تعالى فإن يصبروا على عبادة الأصنام فى الدنيا فالنار مَثْوًى لهم فى العقبى .

٩٧٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف الكفار : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَءَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٧] أى : بأشوأ أعمالهم ، مع أنهم يجزون بسئ أعمالهم أيضًا ؟

قلنا : قد سبق نظير هذا السؤال فى آخر سورة التوبة ، والجواب الأول هناك يصلح جوابا هنا .

٩٧٨ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ [فصلت: ٣٧] بعد قوله تعالى : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ ﴾ [فصلت: ٣٧] وهو مستفاد من الأول بالطريق الأولى ؟

قلنا : فائدته ثبوت الحكم بأقوى الدليلين وهو النص ، والله أعلم .

سورة الشورى

٩٧٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكَ ﴾ [الشورى: ٣] بلفظ المضارع ، والوحي إلى من قبل النبي ﷺ ماضٍ ؟
قلنا : قال الزمخشري : قصد بلفظ المضارع كون ذلك عادة وسنة لله تعالى ، وهذا لا يوجد في لفظ الماضي ، قلت : ويحتمل أن يكون باعتبار وضع المضارع موضع الماضي كما في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم ﴾ [الجاثية: ٢٦] أو بإظهار وأوحى إلى الذين من قبلك .

٩٨٠ - فإن قيل : إلى ماذا يرجع الضمير في قوله تعالى : ﴿ يَذَرُوكُفْرَهُ ﴾

[الشورى: ١١] أى : يكثرهم ، وقيل : يخلقكم ، وقيل : يعيشكم فيه ؟

قلنا : معناه في هذا التدبير أو في الجعل المذكور ، وقيل : في الرحم الذى دل عليه ذكر الأزواج .

٩٨١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]

وظاهره يقتضى إثبات المثل ونفى مثل المثل ، كما يقال : ليس كدار زيد دار ، فإنه يقتضى وجود الدار لزيد ؟

قلنا : فيه وجوه ، أحدها أن المثل في لغة العرب كناية عن الذات ، ومنه قولهم : مثلى لا يقال له كذا ، ومثلك لا يليق به كذا ، فمعناه ليس كهو شىء .

الثانى : أن الكاف زائدة للتأكيد ، والمعنى ليس كمثله شىء .

الثالث : أن مثل زائدة ، فيصير المعنى ليس كهو شىء كما مر في الوجه الأول ، والفرق بين الوجهين أن المثل في الوجه الأول كناية عن الذات ، وفي الوجه الثالث زائد مطروح كأنه لم يذكر .

من غرائب آي التنزيل = ٣٨١

٩٨٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] ولم يقل : إلا مودة القربى ، أى القرابة ، وإلا المودة للقربى ؟

قلنا : جعلوا محلاً للمودة ومقرراً لها للمبالغة ، كأنه قال : إلا المودة الثابتة المستقرة فى القربى ، كما يقال : فى آل فلان مودة ، ولى فيهم هوى وحب شديد .

٩٨٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَآئِبَةٍ﴾ [الشورى: ٢٩] والدواب إنما هى فى الأرض فقط ؟

قلنا : فيها بمعنى فيها ، باعتبار إطلاق لفظ التثنية على المفرد كما فى قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح ، وقيل : إن الملائكة لهم ديب مع طيرانهم أيضاً وهو مبثوثون فى السماء ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَآئِبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٨] فتقييده بالأرض يدل على جود الدابة فى غير الأرض من حيث المفهوم .

٩٨٤ - فإن قيل : كيف قدم سبحانه وتعالى الإناث على الذكور فى قوله تعالى : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوْنَ﴾ [الشورى: ٤٩] مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم عليهن ، ولم نكر الإناث وعرف الذكور ؟

قلنا : إنما قدم الإناث لأن الآية إنما سقت لبيان عظمة ملكه ونفاذ مشيئته ، وأنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء عبده ، فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة ما لا يشاؤه عبده أهم ، والأهم واجب التقديم ، فلما قدمهن وأخر الذكور لذلك المعنى تدارك تأخيرهم ، وهم أحقأ بالتقديم بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المشهورين الذين لا يخفون على أحد ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، فعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتضى آخر فقال تعالى : ﴿ذُكِّرْنَا وَلِئَنَّا﴾ [الشورى: ٥٠] كما قال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِنْ ذَكَرُوا ثُنَى ﴿ [الحجرات: ١٣] وقال : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [القيامة: ٣٩] .

٩٨٥ - فإن قيل : قوله : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] الآية ، كيف يقال : إن الله تعالى كلم محمدًا ﷺ ليلة المعراج ، مواجهة بغير حجاب ولا واسطة ، وقد خص الله تعالى تكليمه للبشر في طريق الوحي وهو الإلهام ، كما كلم أم موسى ، والإسماع من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ، وإرسال الرسول كما كلم الأنبياء بواسطة جبريل عليه السلام ، وكما كلم الأمم بواسطة الرسل ؟

قلنا : قيل المراد بالوحي الأول هنا الإشارة ، ومنه قولهم : وحي العين ووحي الحاجب : أى إشارتهما ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا﴾ [مريم: ١١] فتكليمه لمحمد ﷺ ليلة المعراج كان مواجهة بالإشارة .

٩٨٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتَ وَلَا أَلَيْمَتْ﴾ [الشورى: ٥٢] كيف كان لا يعلم الإيمان قبل أن يوحى إليه ، والإيمان هو التصديق بوجود الصانع وتوحيده ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم كانوا مؤمنين بالله قبل أن يوحى إليهم بأدلة عقولهم ؟

قلنا : المراد بالإيمان هنا شرائع الإيمان وأحكامه ، كالصلاة والصوم ونحوها ، وقيل : المراد به الكلمة إلى بها دعوة الإيمان والتوحيد وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي كما علم الكتاب وهو القرآن لا بالعقل .

سورة الزخرف

٩٨٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]

ولم يقل : قلناه أو أنزلناه ، والقرآن ليس بمجعول لأن الجعل هو الخلق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ [القيامة: ٣٩] ؟

قلنا : الجعل أيضًا يأتي بمعنى القول ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ [النحل: ٥٧] وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [إبراهيم: ٧١] أى : قالوا ووصفوا لا أنهم خلقوا كذلك هنا .

٩٨٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ [الزخرف: ٤٥] والنبي ﷺ ما لقيهم حتى يسألهم ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : واسأل أتباع من أو أمة من أرسلنا من قبلك .

الثانى : أنه مجاز عن النظر فى أديانهم والبحث عن مللهم هل فيها ذلك .

الثالث : أن النبى ﷺ حشر له الأنبياء عليهم السلام ليلة المعراج ، فلقىهم وأمّمهم فى مسجد بين المقدس ، فلما فرغ من الصلاة نزلت عليه هذه الآية والأنبياء حاضرون ، فقال : لا أسأل قد كفيت ، وقيل : إنه خطاب له والمراد به أمته .

٩٨٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف: ٤٨] يعنى الآيات التسع التى جاء بها موسى ﷺ ، فإن

كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر مما سواها لزم أن يكون كل واحدة فاضلة ومفضولة ، وإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر من أخت معينة لها فأتيتها

هى الكبرى وأتيتها هى الصغرى ؟

قلنا : المراد بذلك أنهم موصوفات بالكبرى لا يكدن يتفاوتن فيه ، ونظيره بيت الحماسة :

من تلق منهم تقل لا قيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السارى
٩٩٠ - فإن قيل : كيف قال عيسى عليه السلام لأمته : ﴿وَلَا يُتَنِّ لَكُمْ
بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] ؟

قلنا : كانوا يختلفون فيما يعينهم من أمر الديانات وفيما لا يعينهم من أمور
أخرى ، فكان يبين لهم الشرائع والأحكام خاصة ، وقيل : إن البعض هنا
بمعنى الكل كما سبق فى سورة المؤمن فى قوله تعالى : ﴿وَأَن يَكُ صَادِقًا يُصِبَّكُمْ
بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] .

٩٩١ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦] بعد
قوله : ﴿بَغْتَةً﴾ [الزخرف: ٦٦] أى فجأة ؟

قلنا : فائدته أنها تأتيهم وهم غافلون مشغولون بأمور دنياهم ، كما قال
تعالى : ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] فلو لا
قوله : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جاز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون حذرون مستعدون
لها .

٩٩٢ - فإن قيل : كيف وصف أهل النار فيها بكونهم مبلسين ، والمبلس
هو الأيس من الرحمة والفرج ، ثم قال تعالى : ﴿وَنَادَوْا يَسْمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا
رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فطلبوا الفرج بالموت ؟

قلنا : تلك أزمئة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف فيها أحوالهم ، فيغلب
عليهم اليأس تارة فيسكنون ، ويشتد ما بهم من ألم العذاب تارة فيستغيثون .

٩٩٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ
إِلَهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤] ظاهره يقتضى تعدد الآلهة لأن النكرة إذا أعيدت تعددت
كقوله: له على درهم ودرهم، وأنت طالق وطالق ، ولهذا قال ابن عباس رضى
الله عنهما : لن يغلب عسر يسرين .

قلنا : الإله هنا بمعنى المعبود بالنقل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي
السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣] فصار المعنى : وهو الذى فى السماء ومعبود
وفى الأرض معبود ، والمغاير ثابتة بين معبوديته فى السماء ومعبوديته فى الأرض
لأن العبودية من الأمور الإضافية فيكفى فى تغايرهما التغاير من أحد الطرفين
فإذا كان العابد فى السماء غير العابد فى الأرض صدق أن معبوديته فى السماء
غير معبوديته فى الأرض مع أن المعهود واحد .

*** **

سورة الدخان

٩٩٤ - فإن قيل : الخلاف بين النبي ﷺ ومنكرى البعث إنما كان في الحياة بعد الموت لا في الموت ، فكيف قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥] ولم يقل : إلا حياتنا ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ [الأنعام: ٢٩] وما معنى وصف الموتة بالأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الموتة الأولى ؟

قلنا : لما وعدوا موتة تكون بعدها حياة نفوا ذلك ، كأنهم قالوا : لا تنفع في الوجود موتة تكون بعدها حياة إلا ما كنا فيه من موتة العدم وبعثنا منه إلى حياة الوجود ، وقيل : إنهم نفوا بذلك الموتة الثانية في القبر بعد إحيائهم لسؤال منكر ونكير .

٩٩٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٨] والعذاب لا يصب ، وإنما يصب الحميم كما قال في موضع آخر : ﴿ يُصَّبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ [الحج: ١٩] ؟

قلنا : هو استعارة ليكون الوعد أهول وأهيب ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر: ١٣] وقوله تعالى : ﴿ أَفَرِحَ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [البقرة: ٢٥٠] وقول الشاعر :

صبت عليهم صروف الدهر من صبيب

٩٩٦ - فإن قيل : كيف وعد الله أهل الجنة بلبس الإستبرق وهو غليظ الديباج في قوله تعالى : ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الدخان: ٥٣] مع أن لبس الغليظ من الديباج عند السعداء من أهل الدنيا عيب ونقص ؟

من غرائب آي التنزيل ٣٨٧

قلنا : كما أن رفيق ديباج الجنة وهو السندس لا يماثل رفيق ديباج الدنيا إلا في الاسم فقط ، فكذلك غليظ ديباج الجنة ، وقيل : السندس لباس السادة من أهل الجنة ، والإستبرق لباس العبيد والخدم إظهاراً لتفاوت المراتب .

٩٩٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى في وصف أهل الجنة : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦] مع أن الموتة الأولى لم يذوقوها في الجنة؟ قلنا : قال الزجاج والفراء: إلا هنا بمعنى سوى كما في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] .

الثاني : أن إلا بمعنى بعد كما قال بعضهم في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] .

الثالث : أن السعداء إذا حضرتهم الوفاة كشف لهم الغطاء وعرضت عليهم منازلهم ومقاماتهم في الجنة ، وتلذذوا في حال النزع بروحها وريحانها ، فكأنهم ماتوا في الجنة وهذا قول ابن قتيبة رحمه الله .

*** ** *

سورة الجاثية

٩٩٨ - فإن قيل : كيف يطابق الجواب السؤال في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْدُبُوا مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٦﴾ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٢٥﴾ [الجاثية: ٢٥، ٢٦] ؟

قلنا : وجه المطابقة أنهم ألزموا بما هم مقرون به من أن الله تعالى هو الذى أحياهم أولاً ثم يميتهم ، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على جمعهم يوم القيامة ، فيكون قادراً على إحياء آبائهم .

٩٩٩ - فإن قيل : كيف أضاف الكتاب إلى الأمة ، وإليه في قوله تعالى : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٩] ثم قال : ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ [الجاثية: ٢٩] ؟
قلنا : الإضافة تصح بأدنى ملابسة ، وقد لابسهم الكتاب بكون أعمالهم مشبهة فيه ، ولابسه بكونه مالكة وكونه أمراً للملائكته أن يكتبوا فيه أعمالهم .



سورة الأحقاف

١٠٠٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٦] مع أن حسن ما عملوا يتقبل عنهم أيضًا ؟

قلنا : أحسن بمعنى حسن ، وقد سبق نظيره في سورة الروم .

١٠٠١ - فإن قيل : كيف قال تعالى في وصف الفريقين : ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] مع أن أهل النار لهم درجات لا درجات ؟

قلنا : الدرجات الطبقات من المراتب مطلقًا من غير اختصاص .

الثاني : أنه فيه إضمارًا تقديره : ولكل فريق درجات أو درجات مما عملوا ، إلا أنه حذفه اختصارًا لدلالة المذكور عليه .

١٠٠٢ - فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى : ﴿فَأَتَيْنَا تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلَمْتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿ [الأحقاف: ٢٢، ٢٣] ؟

قلنا : طابقه من حيث إن قولهم : ذلك استعجال للعذاب الذي توعدهم به بدليل قوله تعالى بعده : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤] فقال لهم لا علم لي بوقت تعذيبكم ، بل الله تعالى هو العالم به وحده .

١٠٠٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى في وصف الريح : ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] وكم من شيء لم تدمره ؟

قلنا : معناه : تدمر كل شيء مرت به من أموال قوم عاد وأملاكهم .

١٠٠٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١] ولم يقل : يغفر لكم ذنوبكم ؟

قلنا : لأن الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كمظالم العباد نحوها .

سورة محمد

١٠٠٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ كَذَّالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٣] ولم يسبق ضرب مثل ؟

قلنا : معناه : كذلك يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين ، وقيل : أراد به أنه جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ، أو أنه جعل الإضلال مثلاً لخبيّة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين .

١٠٠٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى في حق الشهداء بعد ما قتلوا في سبيل الله ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ [محمد: ٥] والهداية إنما تكون قبل الموت لا بعد ؟

قلنا : معناه : سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير ، وقيل : سيهديهم يوم القيامة إلى طريق الجنة .

١٠٠٧ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٥] إلى قوله تعالى : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ ﴾ [محمد: ١٥] ؟

قلنا : قال الفراء : معناه أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار . وقال غيره : تقديره : مثل الجنة الموصوفة كمثل جزاء من هو خالد في النار فحذف منه ذلك إيجازاً واختصاراً .

١٠٠٨ - فإن قيل : كيف قال تبارك وتعالى للنبي ﷺ : ﴿ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] وهو عالم بذلك قبل أن يوحى إليه وبعده ؟

قلنا : معناه : اثبت على ذلك العزم ، وقال الزجاج : الخطاب أنه ﷺ ، والمراد أمته كما ذكرنا في أول سورة الأحزاب .

سورة الفتح

١٠٠٩ - فإن قيل : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة فقال تعالى : ﴿ إِنَّا

فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَفْغَرَّ لَكَ اللَّهُ ۝ ﴾ [الفتح: ١، ٢] الآية ؟

قلنا : لم يجعله علة للمغفرة بل لاجتماع ما وعده من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، وقيل : الفتح لم يكن إتمام النعمة والنصر العزيز حاصلاً وإن كان الباقي حاصلاً ، ويجوز أن يكون فتح مكة سبباً للمغفرة من حيث أنه جهاد للعدو .

١٠١٠ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۝ ﴾ [الفتح: ٢]

إن كان المراد بما تأخر ذنباً يتأخر وجوده عن الخطاب بهذه الآية فهو معدوم عند نزولها ، فكيف يغفر الذنب المعدوم ، وإن كان المراد به ذنباً وجد قبل نزولها فهو متقدم فكيف سماه متأخراً ؟

قلنا : المراد بما تقدم قصة مارية ، وبما تأخر قضية امرأة زيد ، وقيل : المراد بما تقدم ما وجد منه ، وبما تأخر ما لم يوجد منه على معنى أنه موعود بمغفرته على تقدير وجوده ، أو على طريق المبالغة كقولهم : فلان يضرب من يلقاه ومن لا يلقاه ، بمعنى يضرب كل أحد ، فكذا هنا معناه ليغفر لك الله كل ذنب ، فالحاصل أن الذنب المتأخر متقدم على نزول الآية ، وإن كان متأخراً بالنسبة إلى شيء آخر قبله أو متأخراً عن نزولها وهو موعود بمغفرته ، أو على طريق المبالغة كما بينا .

١٠١١ - فإن قيل : ما معنى قوله : ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ ﴾ [الفتح: ٢]

وهو مهدي إلى الصراط المستقيم ، ومهدي به أمته أيضاً ؟

قلنا : معناه ويزيدك هدى ، وقيل : ويثبتك على الهدى ، وقيل : معناه : ويهديك صراطاً مستقيماً في كل أمر تحاوله .

١٠١٢ - فإن قيل : كيف يقال : إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وقد قال الله تعالى : ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] ؟

قلنا : الإيمان الذى يقال إنه لا يقبل الزيادة والنقصان هو الإقرار بوجود الله تعالى ، كما أن إلهيته لا تقبل الزيادة والنقصان ، فأما الإيمان بمعنى الأمن أو اليقين أو التصديق فإنه يقبلهما ، وهو فى الآية بمعنى التصديق لأنهم بسبب السكينة التى هى الطمأنينة وبرد اليقين كلما نزلت فريضة وشريعة صدقوا بها فازدادوا تصديقاً مع تصديقهم .

١٠١٣ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَأَهْلَئِهَا﴾ [الفتح: ٢٦] بعد قوله : ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ [الفتح: ٢٦] ؟

قلنا : الضمير فى بها لكلمة التوحيد ، وفى أهلها للتقوى فلا تكرار .
١٠١٤ - فإن قيل : ما وجه تعليق الدخول بمشيئة الله تعالى فى أخباره سبحانه وتعالى حتى قال : ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] ؟
قلنا : فيه وجوه : أحدها : أن "إن" بمعنى إذا كما فى قوله تعالى : ﴿وَذُرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] .

الثانى : أنه استثناء من الله تعالى فيما يعلم تعليماً لعباده أن يستثنوا فيما لا يعلمون .

الثالث : أنه على سبيل الحكاية لرؤيا النبى ﷺ ، فإنه رأى أن قائلاً يقول له : ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] .

الرابع : أن الاستثناء متعلق بقوله تعالى : ﴿ءَامِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فأما

من غرائب آي التنزيل
الدخول فليس فيه تعليق .

١٠١٥ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح: ٢٧] بعد قوله : ﴿ آمَنِينَ ﴾ ؟

قلنا : معناه : آمَنِينَ في حال الدخول لا تخافون عدوكم أن يخرجكم منه في المستقبل .

١٠١٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّانَ ﴾ [الفتح: ٢٩] تعليل لماذا ؟

قلنا : لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نوائهم وقوتهم كأنه قال : إنما كثرتهم وقواهم ليغيبهم الكفار .

١٠١٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩] وكل أصحاب النبي ﷺ موصوفون بالإيمان والعمل الصالح وبغيرهما من الصفات الحميدة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية فما معنى التبعض هنا ؟

قلنا : من هنا لبيان الجنس لا للتبعض كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَجْتَنَّبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ [الحج: ٣٠] .



سورة الحجرات

١٠١٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] والمراد به نهيهم أن يتقدموا على رسول الله ﷺ بقول أو فعل ، لا أن يقدموا غيرهم ؟

قلنا : قدم هنا لازم بمعنى تقدم كما في قولهم بين وتبين ، وفكر وتفكر ، ووقف وتوقف ، ومنه قول الشاعر :

إذا نحن سرنا صارت الناس خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

أى : توقفوا ، وقيل : معناه : لا تقدموا فعلاً قبل أمر رسول الله ﷺ .

١٠١٩ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢] بعد قوله : ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] ؟

قلنا : فائدته تحريم الجهر في مخاطبته ﷺ باسمه نحو قولهم : يا محمد ويا أحمد ، فهو أمر لهم بتوقيره وتعظيمه ﷺ في المخاطبة ، وأن يقولوا يا رسول الله ويا نبي الله ونحو ذلك ، ونظيره قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] .

١٠٢٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿أَنْ تَخْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢] .
أى : مخافة أن تحبط أعمالكم مع أن الأعمال إنما تحبط بالكفر لا بغيره من المعاصي ، ورفع الصوت في مجلس النبي ﷺ ليس بكفر ، كيف وقد روى أن الآية نزلت في أبي بكر وعمر رضى الله عنهما لما رفعوا أصواتهما بين يدي رسول الله ﷺ وأنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان جهورى الصوت ، فربما تأذى رسول الله ﷺ بصوته ؟

من غرائب آي التنزيل ٣٩٥

قلنا : معناه لا تستخفوا به ، فإن الاستخفاف به ربما أدى خطؤه إلى عمده ، وعمده كفر يحبط العمل ، وقيل : حبوط العمل مجاز عن نقصان المنزلة وانحطاط المرتبة .

١٠٢١ - فإن قيل : ما وجه الارتباط والتعلق بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنَ ﴾ [الحجرات:٧] وبين ما قبله ؟

قلنا : معناه : فاتركوا عبادة الجاهلية فإن الله تعالى لم يترككم عليها ، ولكن الله حبيب إليكم الإيمان ، وقيل : معناه : فتثبتوا في الأمور كما يليق بالإيمان ، فإن الله حبيب إليكم الإيمان .

١٠٢٢ - فإن قيل : إن كان الفسوق والعصيان بمعنى واحد ، فما فائدة الجمع بينهما ، وإن كان العصيان أعم من الفسوق فذكره مغني عن ذكر الفسوق لدخوله فيه فما فائدة الجمع بينهما ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالفسوق هنا الكذب ، وبالعصيان بقية المعاصي ، وإنما أفرد الكذب بالذكر لأنه سبب نزول الآية .

١٠٢٣ - فإن قيل : كيف يقال : إن الإيمان والإسلام بمعنى واحد ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قُلْ لَمْ تَزُمُونَا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤] ؟

قلنا : المنفى هنا الإيمان بالقلب بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:١٤] يعنى لم تصدقوا بقلوبكم : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤] أي استسلمنا وانقدنا خوف السيف ، ولا شك في الفرق بين الإيمان والإسلام بهذا التفسير ، والذي يدعى اتحادهما لا يريد به ، أنها حيث استعملا كانا بمعنى واحد ، بل يريد به أن أحد معاني الإيمان هو الإسلام .

١٠٢٤ - فإن قيل : كيف يقال : إن العمل ليس من الإيمان ، والله تعالى

يقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الحجرات: ١٥] الآية ؟

قلنا : معناه إنها المؤمنون إيماناً كاملاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله ﷺ : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " وقولهم : الرجل من يصبر على الشدائد، ويرد على هذا الجواب أن المنفي في أول الآية عن الإعراب نفس الإيمان الكامل ، فلا يناسب أن يكون المثبت بعد ذلك الإيمان الكامل بل نفس الإيمان .

*** ** *

سورة ق

١٠٢٥ - فإن قيل : أين جواب القسم في قوله تعالى : ﴿ قَ وَالْقُرْءَانِ
الْمَجِيدِ ﴾ [ق:١] ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أنه ضمير تقديره ، إنهم مبعوثون بعد الموت .
الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [ق:٤] واللام
محذوفة لطول الكلام تقديره ، لقد علمنا كما في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾
[الشمس:٩] .

الثالث : أنه قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ [ق:١٨] .

١٠٢٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ق:٩] وأراد به
الحب الحصيد فأضاف الشيء إلى نفسه والإضافة تقتضي المغايرة بين المضاف
والمضاف إليه ؟

قلنا : معناه وحب الزرع الحصيد أو النبات الحصيد .

الثاني : أن إضافة الشيء إلى نفسه جائزة عند اختلاف اللفظين كما في قوله
تعالى : ﴿ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [الواقعة:٩٥] ﴿ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] ودار الآخرة
﴿ وَعَدَ الصِّدْقِ ﴾ [الأحقاف:١٦] .

١٠٢٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾
[ق:١٧] ولم يقل : قعيدان ، وهو وصف الملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى :
﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ [ق:١٧] ؟

قلنا : معناه : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، إلا أنه حذف أحدهما
لدلالة المذكور عليه كما قال الشاعر :

نحن بها عند وأنت بما عندك راض والرأى مختلف
وقال آخر :

رمانى بأمر كنت ووالدى بريتاً ومن أجل الطوى رمانى

الثانى : أن فعلاً يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، قال الله تعالى :
﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤] وقيل : إنها لم يقل : قعيدان رعاية
لفواصل السورة .

١٠٢٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَلْقِيَا﴾ [ق: ٢٤] والخطاب لواحد
وهو مالك خازن النار؟

قلنا : فيه وجوه : أحدهما : ما قاله المبرد أن تثنية الفاعل أقيمت مقام تثنية
الفعل للتأكيد باتحادهم حكماً كأنه قال : ألقى ألقى ، ونظيره قول امرئ القيس :
قفانك : أى : وقف وقف .

الثانى : أن العرب كثيراً ما يرافق الرجل منهم اثنين فكثر على ألسنتهم
خطاب الاثنين فقالوا : خليلي وصاحبى وقفاً واسمدا وعوجاً ونحو ذلك قال
الفراء : سمعت ذلك من العرب كثيراً قال : وأنشدنى بعضهم :

فقلت لصاحبى لا تحبسانا بنزع أصوله واجتز شيعنا

فقال : لا تحبسانا والخطاب لواحد ، بدليل قوله : لصاحبى قال : وأنشدنى
أبو ثور :

فإن تزجرانى يابن عفان أنزجر وإن تدعانى أحمر عرضاً ممنعاً
وقال امرؤ القيس :

خليلى مَرَّ أبى على أم جندب نقضى لبانات الفؤاد المعذب

ثم قال :

ألم تر أنى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

سورة الذاريات

١٠٣٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّا تَوَعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ [الذاريات: ٥] والصادق وصف القائل لا وصف الوعد؟

قلنا : قيل صادق بمعنى مصدوق كـ ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٢١] ﴿ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٦] وقيل : معناه : لصدق ، فإن المصدر قد جاء على وزن اسم الفاعل كقولهم : قمت قائماً وقولهم : لحقت بهم اللائمة : أى : اللوم .

١٠٣٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات: ١٥] والمتقون لا يكونون في الجنة في العيون؟

قلنا : معناه أنهم في الجنات والعيون الكثيرة محدقة بهم من كل ناحية وهم في مجموعها لا في كل عين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر: ٥٤] لأنه بمعنى أنهار ، إلا أنه عدل عنها رعاية للفواصل .

١٠٣٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣٧] أى : في قرى قوم لوط ، وقرى قوم لوط ليست موجودة ، فكيف توجد فيها العلامة؟

قلنا : الضمير في قوله فيها عائد إلى تلك الناحية والبقعة لا إلى مدائن قوم لوط .

الثاني : أنه عائد إليها ، ولكن " في " بمعنى من كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ [النحل: ٨٩] وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٥] ويؤيد هذا الوجه مجيئه مصرحاً به في سورة العنكبوت بلفظ من في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥] ثم قيل الآية آثار منازلهم

من غرائب آي التنزيل = ٤٠١

الخربة ، وقيل : هى الحجارة التى أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الأمة ،
وقيل : هى الماء الأسود الذى يخرج من الأرض .

١٠٣٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾
[الذاريات: ٤٩] أى : صنفين ، مع أن العرش والكرسى والقلم واللوح لم يخلق
منهما إلا واحد ؟

قلنا : قيل : معناه : ومن كل حيوان خلقنا ذكراً أو أنثى ، وقيل : معناه :
ومن كل شىء تشاهدونه خلقنا صنفين كالليل والنهار ، والصيف والشتاء ،
والنور والظلمة ، والخير والشر ، والحياة والموت ، والبحر والبر والسماء
والأرض ، والشمس والقمر ، نحو ذلك .

١٠٣٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠]
وقال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ؟

قلنا : معنى قوله : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠] أى : الجؤوا إليه بالتوبة ،
وقيل : معناه : ففروا من عقوبته إلى رحمته ، ومعنى قوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾
أى : يخوفكم عذاب نفسه أو عقاب نفسه وقال الزجاج : معنى نفسه إياه كأنه
قال : ويحذركم الله إياه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾
[الكهف: ٢٨] أى : إياه ، فظهر أنه لا تناقض بين الآيتين .

١٠٣٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وإذا قلنا ، خلقهم للعبادة كان مريداً لها منهم فكيف
أرادها منهم ولم توجد منهم ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أنه عام أريد به الخاص وهم المؤمنون ، بدليل
خروج البعض منه بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾
[الأعراف: ١٧٩] ومن خلق جهنم لا يكون مخلوقاً للعبادة .

الثاني : أنه على عمومه ، والمراد بالعبادة التوحيد ، وقد وحده الكل يوم أخذ الميثاق ، وهذا الجواب يختص بالإنس ، لأن أخذ الميثاق مخصوص بهم بالآية ، وقيل : معناه : إلا ليكونوا عبيداً لي ، وقيل : معناه : إلا ليدلوا ويخضعوا وينقادوا لما قضيته وقدرته عليهم فلا يخرج عنه أحد منهم ، وقيل : معناه : إلا ليعبدون إن اختاروا العبادة لا قسراً وإلجاء ، وقيل : إلا ليعبدون العبادة المرادة في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] والعموم ثابت في الوجوه الخمسة .

١٠٣٨ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونَ﴾ [الذاريات: ٥٧] بعد قوله : ﴿وَمَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٧] ؟

قلنا : معناه ما أريد منهم من رزق لأنفسهم ، وما أريد أن يطعمون ، أي أن يطعموا عبيدي ، وإنما أضاف الإطعام إلى ذاته المقدسة لأن الخلق عياله وعبيده ، ومن أطعم عيال غيره فكأنه أطعمه ، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح : " إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني " (١) أي استطعمتك عبيدي فلم تطعمه .



سورة الطور

١٠٣٩ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠] مع أن الحور العين في الجنة مملوكات ملك يمين لا ملك نكاح ؟

قلنا : معناه قرناهم بهن من قولهم : زوجت إبلى ، أى : قرنت بعضها إلى بعض ، وليس من التزويج الذى هو عقد النكاح ، ويؤيده أن ذلك لا يعدى بالباء بل بنفسه كما قال تعالى : ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ويقال : زوجه امرأة ولا يقال بامرأة.

١٠٤٠ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ : ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ [الطور: ٢١] أى : مرهون في النار بعمله ؟

قلنا : قال الزمخشري : كأن نفس كل عبد ترهن عند الله تعالى بالعمل الصالح الذى هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن عمل صالحاً فكها وخلصها وإلا أبقها ، وقال غيره : هذه جملة من صفات أهل النار وقعت معترضة في صفات أهل الجنة ، ويؤيده ما روى عن مقاتل أنه قال : معناه : كل امرئ كافر بما عمل من الكفر مرتين في النار ، والمؤمن لا يكون مرتين لقوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المدر: ٣٨-٤٠] .

١٠٤١ - فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩] وكل واحد غيره كذلك لا يكون كاهناً ولا مجنوناً بنعمة الله تعالى ؟

قلنا : معناه : فما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بالصدق والنبوة بكاهن ولا

مجنون كما يقول الكفار ، وقيل : الباء هنا بمعنى مع كما في قوله تعالى : ﴿ تَلْبِثُ
بِالدُّهْنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿ قَسَسَاجِبُيُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٥٢]
ويقال : أكلت الخبز بالتمر ، أى : معه .

١٠٤٢ - فإن قيل : ما معنى الجمع في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾
[الطور: ٤٨] .

قلنا : معناه التفخيم ، والتعظيم ، والمراد بحيث نراك ونحفظك ، ونظيره في
معنى العين قوله تعالى : ﴿ وَلَتُضْمَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩] ونظيره في الجمع
للتفخيم والتعظيم قوله تعالى : ﴿ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ [يس: ٧١] .



سورة النجم

١٠٤٣ - فإن قيل : الضلال والغواية واحدة ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم: ٢] ؟

قلنا : قيل : إن بينهما فرقاً لأن الضلال ضد الهوى والغى ضد الرشدهما مختلفتان مع تقاربهما ، وقيل معناه : ما ضل في قوله ولا غوى في فعله ، ولو ثبت اتحاد معناهما يكون من باب التأكيد باللفظ المخالف مع اتحاد المعنى .

١٠٤٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم: ٩] أدخل كلمة الشك والشك محال على الله تعالى ؟

قلنا : أو هنا للتخيير لا للشك ، كأنه قال سبحانه وتعالى : إن شئتم قدروا ذلك القرب بقاب قوسين ، وإن شئتم قدروه بأدنى منهما ، وقيل معناه : بل أدنى ، وقيل : هو خطاب لهم بما هو معهود بينهم ، وقيل هو تشكيك لهم لئلا يعلموا قدر ذلك القرب ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ٤٧] والكلام فيهما واحد .

١٠٤٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴾ [النجم: ١٩ ، ٢٠] من رؤية القلب لا من رؤية البصر ، فأين مفعولها الثاني ؟

قلنا : هو محذوف تقديره ، أفرأيتموها بنات الله وأنداده ، فإنهم كانوا يزعمون أن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله عز وجل .

١٠٤٦ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ الثَّالِثَةُ الْآخِرَىٰ ﴾ [النجم: ٢٠] فوصف الثالثة الأخرى والعرب إنما تصف بالأخرى الثانية لا الثالثة ، فظاهر

اللفظ يقتضى أن يكون قد سبق ثالثة أولى ، ثم لحقتها الثالثة الأخرى فتكون
ثالثان ؟

قلنا : الأخرى نعت للعزى تقديره ، أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة
الثالثة لأنها ثالثة الصنمين فى الذكر ، وإنما أخر الأخرى رعاية الفواصل كما
قال : ﴿ وَلِي فِيهَا مَثَارٌ أُخْرَى ﴾ ولم يقل : أخر رعاية للفواصل .

١٠٤٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾
[النجم: ٢٨] أى : لا يقوم مقام العلم ، مع أنه يقوم مقام العلم فى صورة القياس ؟
قلنا : المراد به هنا الظن الحاصل من اتباع الهوى دون الظن الحاصل من
النظر والاستدلال ، ويؤيده قوله تعالى قبل هذا : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا
تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ [النجم: ٢٣] .

١٠٤٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾
[النجم: ٣٩] وقد صح فى الأخبار وصول ثواب الصدقة والقراءة والحج وغيرها
إلى الميت ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما أنها منسوخة
بقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّبَعْتَهُمْ دُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور: ٢١] معناه أنه
أدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء ، قالوا وهذا لا يصح لأن الآيتين خبر ولا نسخ
فى الخبر .

الثانى : أن ذلك مخصوص بقوم إبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام ،
وهو حكاية ما فى صحفهم ، فأما هذه الأمة فلها ما سعت وما سعى لها .

الثالث : أنه على ظاهره ، ولكن دعاء ولده وصديقه وقراءتها وصدقتهما عنه
من سعيه أيضًا بواسطة اكتسابه للقرابة أو الصداقة أو المحبة من الناس بسبب
التقوى والعمل الصالح .

من غرائب آي التنزيل _____ ٤٠٧

١٠٤٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى بعد تعديد النعم : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ

تَتَمَارَى ﴾ [النجم: ٥٥] والآلاء النعم ؟

قلنا : إنما قال سبحانه بعد تعديد النعم والنعم نعم لما فيها من الزواجر
والمواعظ فمعناه : فبأي نعم ربك الدالة على وحدانيته تشك يا وليد بن المغيرة.

*** ** *

سورة القمر

١٠٥٠ - فإن قيل : ما فائدة إعادة التكرير في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ [القمر: ٩] وهلا قال تعالى كذبت قبلهم قوم نوح عبدنا ؟ قلنا : معناه : كذبوا تكذيباً بعد تكذيب ، وقيل : إن التكرير الأول منهم بالتوحيد ، والثاني بالرسالة ، وقيل : التكرير الأول منهم لله تعالى ، والثاني لرسوله ﷺ .

١٠٥١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : في وصف ماء الأرض والسماء : ﴿ قَالَتْنِي الْمَاءُ ﴾ [القمر: ١٢] ولم يقل : فالتقى الماءان ؟ قلنا : أراد به جنس المياه .

١٠٥٢ - فإن قيل : الجزاء إنما يكون للكافر لا للمكفور ، فكيف قال تعالى : ﴿ جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ﴾ [القمر: ١٤] ؟

قلنا : جزاء مفعول له فمعناه ، ففتحنا أبواب السماء وما بعده مما كان يسبب إغراقهم جزاء لله تعالى لأنه مكفور به ، فحذف الجار ، وأوصل الفعل بنفسه كقوله تعالى : ﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] والجزاء يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر .

الثاني : أنه نوح عليه السلام إما لأنه مكفور به بحذف الجار كما مر من الكفر الذي هو ضد الإيمان ، أو لأن كل نبي نعمة من الله على قومه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال رجل للرشد : الحمد لله عليك ، فقال : ما معنى هذا ، فقال : أنت نعمة حمدت الله عليها ، فكأنه قال : جزاء لهذه النعمة المكفورة ، وكفران النعمة يتعدى بنفسه قال الله

من غرائب آي التنزيل
تعالى : ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢] .

الثالث : أن " من " بمعنى ما فعلناه : جزاء لما كان كفر من نعم الله تعالى على العموم ، وقرأ قتادة : كفر بالفتح أى : جزاء للكافرين .

١٠٥٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿أَعْبَارُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] أى : منقلع ، ولم يقل : منقعه ؟

قلنا : إنها ذكر الصفة لأن الموصوف وهو النخل مذكر اللفظ ليس فيه علامة تأنيث ، فاعتبر اللفظ وفي موضع آخر اعتبر المعنى وهو كونه جمعاً فقال : ﴿أَعْبَارُ نَخْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ونظيرهما قوله تعالى : ﴿لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ﴾ [فَالثَّوْنُ مِنْهَا الْبُطُونُ] فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ [الواقعة: ٥٢ - ٥٤] وقال أبو عبيدة : النخل يذكر ويؤنث ، فجمع القرآن اللغتين ، وقيل : إنها ذكر رعاية للفواصل .



سورة الرحمن عز وجل

١٠٥٤ - فإن قيل : أى مناسبة بين رفع السماء ووضع الميزان حتى قرن بينهما ؟

قلنا : لما صدر هذه السورة بتعديد نعمه سبحانه على عبده ، ذكر من حملتها وضع الميزان الذى به نظام العالم وقوامه ، لا سيما أن المراد بالميزان العدل فى قول الأكثرين ، والقرآن فى قول ، وكل ما تعرف به المقادير فى قول كالمكيال والميزان والذراع المعروف ونحوها .

١٠٥٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] أى : لا تجاوزوا فيه معدل مغن عما بعده من الجملتين فما فائدتهما ؟

قلنا : المراد بالطغيان فيه أخذ الزائد ، وبالإخسار فيه إعطاء الناقص وأمر بالتوسط الذى هو إقامة الوزن بالقسط ، ونهى عن الطرفين المذمومين .

١٠٥٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] وهو الطين اليابس الذى لم يطبخ لكن له صلصلة ، أى : صوت إذا نقر ، وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِّمَّ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وقال تعالى : ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفات: ١١] وقال تعالى : ﴿مِنْ تَرَابٍ﴾ [الروم] ؟

قلنا : الآيات كلها متفقة فى المعنى ، لأنه تعالى خلقه من تراب ثم جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً .

١٠٥٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] فكرر ذكر الرب ولم يكرره فى سورة المعارج بل أفرد فقال تعالى :

من غرائب آي التنزيل ٤١١

﴿فَلَا أَمْسِرُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] وكذا في سورة المزمل :
﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾
[المزمل: ٩] ؟

قلنا : إنما ذكر الرب تأكيداً ، فكان التأكيد بهذا الموضع أليق منه بدينك
الموضعين ، لأنه موضع الامتنان وتعدد النعم ، ولأن الخطاب فيه مع جنسين
وهما الإنس والجن .

١٠٥٨ - فإن قيل : بعض الجمل المذكورة في هذه السورة ليست من النعم
كقوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وقوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شَوَاطِئٌ مِنْ نَارٍ وَخُحَّاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] فكيف حسن الامتنان بعدها
بقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] ؟

قلنا : من جملة الآلاء دفع البلاء وتأخير العقاب ، فإبقاء من هو مخلوق
للفناء نعمة ، وتأخير العقاب عن العصاة أيضاً نعمة فلهذا امتن علينا بذلك .

١٠٥٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾
[الرحمن: ٣١] والله تعالى لا يشغله شيء ؟

قلنا : قال الزجاج : الفراغ في اللغة على ضربين ، أحدهما : الفراغ من
شغل .

والآخر : القصد للشيء والإقبال عليه ، وهو تهديد ووعيد ، ومنه قولهم :
سأفترغ لفلان ، أى : سأجعله قصدي ، فمعنى الآية سنقصد لعقابكم
وعذابكم وحسابكم .

١٠٦٠ - فإن قيل : كيف وعد سبحانه الخائف جنتين فقط ؟

قلنا : لأن الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل : لكل خائفين من الثقلين جنتان ،

جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى ، وقيل : المراد به أن لكل خائف جنتين ، جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصى ، وقيل : جنة يثاب بها ، وجنة يتفضل بها عليه زيادة لقرله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أى الجنة وزيادة .

١٠٦١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فِيهِنَّ قَصِرَاتُ الْطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦] ولم يقل سبحانه : فيهما ، والضمير للجنتين ؟

قلنا : الضمير لمجموع الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة وغيرهما مما سبق ذكره ، وقيل : هو للجنتين : وإنما جمعه لاشتغال الجنتين على قصور ومنازل ، وقيل : الضمير للمنازل والقصور التى دل عليها ذكر الجنتين ، وقيل : الضمير لمجموع الجنان التى دل عليها ذكر الجنتين ، وقيل : الضمير عائد إلى الفرش لأنها أقرب ، وعلى هذا القول " فى " بمعنى على ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُرٌ يَّسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨] .

١٠٦٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿لَّا يَطْمِئِنُّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦] أى : لم يفتضهن ، ونساء الدنيا لا يفتضهن الجان ، فما فائدة تخصيص الحور بذلك ؟

قلنا : معناه أن تلك القاصرات الطرف إنسيات للإنس وجنيات للجن ، فلم يطمث الإنسيات إنسى ، ولا اجنيات جنى ، وهذه الآية دليل على أن الجن يواقعون كما يواقع الإنس ، وقيل : فيها دليل على أن الجنى يغشى الإنسية فى الدنيا .



سورة الواقعة

١٠٦٣ - فإن قيل : ما فائدة التكرار في قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ

السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠] ؟

قلنا : فيه وجهان : أحدهما أنه تأكيد مقابل لما سبقه من التأكيد في :

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ

الْمَشْأَمَةِ ﴾ [الواقعة: ٨، ٩] كأنه قال تعالى : والسابقون هم المعروف حالهم المشهور وصفهم ، ونظيره قول أبى النجم :

أنا أبو النجم وشعرى شعرى

الثاني : أن معناه : والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى جنته وكرامته ،

ثم قيل : المراد بهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة ، وقيل : الذين صلوا إلى

القبليتين ، وقيل : أهل القرآن ، وقيل : السابقون إلى المساجد إلى الخروج في

سبيل الله ، وقيل : هم الأنبياء صلوات الله عليهم ، فهذه خمسة أقوال .

١٠٦٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾

[الواقعة: ١٧] مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان في الجنة ، بل كل

أهل الجنة مخلدون فيها لا يشييون ولا يهرمون ، بل يبقى كل واحد أبداً على

صفته التي دخل الجنة عليها؟

قلنا : معناه : أنهم لا يتحولون عن شكل الولدان وهى الوصافة ، وقيل :

مقرطون ، وقيل : مسورون ، ولا إشكال على هذين القولين .

١٠٦٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَا يَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ۖ

فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۖ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٢ - ٥٤] أنث ضمير

الشجر ثم ذكره ؟

قلنا : قد سبق جوابه في سورة القمر .

١٠٦٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُ فَلَوْلَا تُصَبِّحُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧] أى فهلا تصدقون ، مع أنهم مصدقون أنه خلقهم بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] ؟

قلنا : هم وإن كانوا مصدقين بألستهم إلا أنهم لما كان مذهبهم على خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به .

الثاني : أنه تخصيص على التصديق بالبعث بعد الموت بالاستدلال بالخلق الأول ، فكأنه قال تعالى : هو الذى خلقكم أولاً باعترافكم ، فلا يمتنع عليه أن يعيدكم ثانياً فهلا تصدقون بذلك .

١٠٦٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى في الزرع : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ [الواقعة: ٦٥] باللام وقال تعالى في الماء : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا ﴾ [الواقعة: ٧٠] ؟

قلنا : الأصل أن تغير اللام في الموضعين ، إذ لابد منها في جواب " لو " إلا أنها حذفت في الثاني اختصاراً ، وهى مؤدية لدلالة الأولى عليها .

الثاني : أن أصل هذه اللام للتأكيد ، فذكرت مع المطعوم دون المشروب ، لأن المطعوم مقدم وجوداً ورتبة ، لأنه إنما يحتاج إلى الماء تبعاً له ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب ، فلما كان الوعيد بفقد المطعوم أشد وأصعب أكد تلك الجملة مبالغة ، في التهديد .

١٠٦٨ - فإن قيل : التسبيح التنزيه عن السوء ، فما معنى باسم في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧٤] وهلا قال تعالى : فسبح ربك العظيم ؟

من غرائب آي التنزيل = ٤١٥

قلنا : فيه وجوه ، أحدها أن الباء زائدة والاسم بمعنى الذات فصار المعنى :
ما قلتم .

الثاني : أن الاسم بمعنى الذكر ، فمعناه : فسبح بذكر ربك .

الثالث : أن الذكر فيه مضمّر ، فمعناه : فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك .

الرابع : قال الضحاك : معناه : فصل باسم ربك ، أي : افتتح الصلاة
بالتكبير .

١٠٦٩ - فإن قيل : إذا كان القرآن صفة من صفات الله تعالى قديمة قائمة
بذاته المقدسة ، فكيف قال تعالى : ﴿إِنَّهُ وَلَقَدْ آتَىٰ كَرِيمًا ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾
[الواقعة: ٧٧، ٧٨] أي اللوح المحفوظ أو المصحف على اختلاف القولين ؟

قلنا : معناه : مكتوب في كتاب مكنون ، ولا يلزم من كتابة القرآن في
الكتاب أن يكون القرآن حالاً في الكتاب كما لو كتب إنساناً على كفه ألف دينار
لا يلزم منه وجود ألف دينار في كفه ، وكذا لو كتب في كفه العرش أو الكرسي ،
وكذا كذا ، قال تعالى في صفة النبي ﷺ : ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

الثاني : أن القرآن لو كان حالاً في المصحف فإما أن يكون جميعه حالاً في
مصحف واحد ، أو في كل مصحف ، أو في بعضه ، ولا سبيل إلى الأول لأن
المصاحف كلها سواء في الحكم في كتابته فيها ، ولأن البعض ليس أولى بذلك
من البعض ، ولا سبيل إلى الثاني وإلا يلزم تعدد القرآن وأنه متحد ، ولا سبيل
إلى الثالث لأنه كله مكتوب في كل مصحف ، ولأن هذا المصحف ليس أولى
بهذا البعض من ذلك المصحف ، وكذا الباقي ، فثبت أنه ليس حالاً في شيء
منها ، بل هو كلام الله تعالى وكلامه صفة قديمة قائمة به لا تفارقه !!

١٠٧٠ - فإن قيل : فإذا لم تفارقه فكيف سماه تعالى منزلاً وتنزيلًا ، وقال سبحانه : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ٩٣] ونظائره كثيرة ، وإذا فارقه وبينه يكون مخلوقًا ، لأن كل مباين له فهو غيره ، وكل ما هو غيره فهو مخلوق ؟
قلنا : معنى إنزاله أنه سبحانه وتعالى علمه لجبريل فحفظه ، وأمره أن يعلمه للنبي ﷺ ويأمره أن يعلمه لأمته ، مع أنه لم يزل ولا يزال صفة الله تعالى قائمة به لا تفارقه .

*** ** *

سورة الحديد

١٠٧١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

[الحديد:٨] ثم قال سبحانه : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨] ؟

قلنا : معناه إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فإن شريعتهما تقتضى الإيـمان بمحمد ﷺ .

الثانى : إن كنتم مؤمنين بالميثاق الذى أخذه عليكم يوم أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام .

الثالث : أن معناه : أى عذر لكن فى ترك الإيـمان والرسول يدعوكم إليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج ، وقد ركب الله تعالى فيكم العقول ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر وأزاح علكم ، فما لكم لا تؤمنون إن كنتم مؤمنين بموجب ما ، فإن هذا الموجب لا مزيد عليه .

١٠٧٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ

وَقَاتَلَ﴾ [الحديد:١٠] ولم يذكر مع من لا يستوى ، والاستواء لا يتم إلا بذكر

اثنين كقوله تعالى : ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة:١٠٠] ﴿لَا يَسْتَوِي

أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر:٢٠] ؟

قلنا : هو محذوف تقديره ، ومن أنفق وقاتل من بعد الفتح ، وإنما حذف للدلالة ما بعده عليه .

١٠٧٣ - فإن قيل : كيف يقال : إن أعلى الدرجات بعد درجة

الأنبياء درجة الصديقين ، والله تعالى قد حكم لكل مؤمن بكونه صديقاً

بقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ

رَبِّهِمْ ﴿[الحديد: ١٩]؟

قلنا : قال ابن مسعود ومجاهد : كل مؤمن صديق .

الثانى : أن الصديق هو كثير الصدق ، وهو الذى كل أقواله وأفعاله وأحواله صدق ، فعلى هذا يكون المراد به بعض المؤمنين لا كلهم ، وقد روى عن الضحاك أنها نزلت فى ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض فى زمانهم إلى الإسلام ، وهم أبو بكر وعثمان وعلى وحمزة بن عبد المطلب وطلحة والزبير وسعد وزيد ، وألحق بهم عمر رضى الله عنهم فصاروا تسعة .

١٠٧٤ - فإن قيل : كيف ذكر سبحانه هؤلاء المذكورين بكونهم شهداء ومنهم من لم يقل ؟

قلنا : معناه أن لهم أجر الشهداء .

الثانى : أنه جمع شهيد بمعنى شاهد ، فمعناه أنهم شاهدوه عند ربهم على أنفسهم بالإيمان .

الثالث : أنه مبتدأ منقطع عما قبله لا معطوف عليه ، معناه : والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم .

١٠٧٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] والمسابقة من المفاعلة التى لا تكون إلا بين اثنين كقولك ، سابق زيد عمراً ؟

قلنا : قيل : معناه سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم فى الميدان ، ويؤيد هذا القول مجيئه بلفظ المسارعة فى سورة آل عمران ، وقيل سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال التى توصلكم إلى الجنة . وقيل : سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك .

من غرائب آي التنزيل ————— ٤١٩

١٠٧٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ٣٣] فكيف يكون عرضها كعرض السماء الواحدة وكعرض السموات السبع ؟

قلنا : المراد بالسماء جنس السموات لا سماء واحدة ، كما أن المراد بالأرض في الآيتين جنس الأرضين ، فصار التشبيه في الآيتين بعرض السموات السبع والأرضين السبع .

١٠٧٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣] ولا أحد يملك نفسه عند مضرة تناله أن لا يحزن ، ولا عند منفعة تناله أن لا يفرح ، وليرجع كل واحد منا في ذلك إلى نفسه ؟

قلنا : ليس المراد بذلك الحزن والفرح الذي لا يتفك عنه الإنسان بطبعه قسراً وقهراً ، بل المراد به الحزن المخرج لصاحبه إلى الدهول عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر ، نعوذ بالله منهما .

١٠٧٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُ الْمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥] والميزان لم ينزل من السماء ؟

قلنا : قيل المراد بالميزان هنا العدل ، وقيل : العقل ، وقيل : السلسلة التي أنزلها الله تعالى على داود عليه السلام ، وقيل : هو الميزان المعروف أنزله جبريل فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال له : مر قومك يزنوا به .

١٠٧٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا

برَسُولِهِ ﷺ [الحديد: ٢٨] مع أن المؤمنين مؤمنون برسوله ﷺ ؟

قلنا : معناه : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا
بمحمد ﷺ ، فيكون خطاباً لليهود والنصارى خاصة ، وعليه الأكثرون ،
وقيل : معناه : يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق اتقوا الله وآمنوا برسوله اليوم ، وقيل :
معناه : يا أيها الذين آمنوا بالله في العلانية باللسان اتقوا الله وآمنوا برسوله في
السر بتصديق القلب .

*** **

سورة المجادلة

١٠٨٠ - فإن قيل : لأى معنى خص الله تعالى الثلاثة والخمسة بالذكر فى النجوى دون غيرهما من الأعداد فى قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ ﴾ [المجادلة:٧] الآية ؟

قلنا : لأن قوماً من المنافقين تخلفوا للتناجى على هذين العددين مغايظة للمؤمنين ، فنزلت الآية على صفة حالهم تعريضاً بهم وتسميعةً لهم وزيد فيها ما يتناول كل متناجين غير تلك الطائفتين ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ [المجادلة:٧] .

١٠٨١ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يُعَلِّمُونَ ﴾ [المجادلة:١٤] ؟

قلنا : فائدته الإخبار عن المنافقين أنهم يخلفون على أنهم ما سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه مع اليهود كاذبين متعمدين الكذب فهى اليمين الغموس ، فكان ذلك نهاية فى بيان ذمهم .



سورة الحشر

١٠٨٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] والإيمان ليس مكاناً يتبوء لأن معنى التبوء اتخاذ المكان منزلاً ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : وأخلصوا الإيمان كقول الشاعر :

وعلفتها تبنًا وماءً باردًا

أى : وسقيتها ماء باردًا .

الثانى : أنه على ظاهره بغير إضمار ولكنه مجاز ، فمعناه أنهم جعلوا الإيمان مستقرًا وموطنًا لتمكنهم منه واستقامتهم عليه ، كما جعلوا دار الهجرة كذلك وهى المدينة .

١٠٨٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَيْنَ نَصْرُوهُمْ﴾ [الحشر: ١٢] بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم وحرف الشرط إنما يدخل على ما يحتمل وجوده وعدمه ؟

قلنا : معناه ولئن نصرؤهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى للنبي ﷺ : ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] والله تعالى كما يعلم ما يكون قبل كونه ، فهو يعلم ما لا يكون أن لو كان كيف يكون .

١٠٨٤ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى للمؤمنين : ﴿لَا تَتَزَكَّرُوا فِي الدَّارِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ١٣] أى : فى صدور المنافقين أو اليهود على اختلاف القولين ، وظاهره لأنتم أشد خوفًا من الله ، فإن كان " من " متعلقًا بأشد لزوم ثبوت الخوف لله تعالى كما تقول : زيد أشد خوفًا فى الدار من عمرو ، وذلك

من غرائب آي التنزيل = ٤٢٣

محال ، وإن كان من الله متعلقًا بالخوف فأين الذى فضل عليه المخاطبون ،
وأيضًا فإن الآية تقتضى إثبات زيادة الخوف للمؤمنين ، وليس المراد ذلك باتفاق
المفسرين ؟

قلنا : رهبة مصدر رهب مبيّنًا لما لم يسم فاعله ، فكأنه قيل : أشد رهوبية ،
يعنى : أنكم فى صدورهم أهيب من الله فيها ، كذا فسر ابن عباس رضى الله
عنهما ، ونظيره قولك : زيد أشد ضربًا فى الدار من عمرو ، يعنى مضروبية .

١٠٨٥ - فإن قيل : كيف يستقيم التفضيل بأشدية رهبة مع أنهم كانوا لا
يرهبون الله ، لأنهم لو رهبوه لتركوا النفاق والكفر ؟

قلنا : معناه أن رهبتهم فى السر منكم أشد من رهبتهم من الله التى
يظهرونها لكم ، وكانوا يظهرون للمؤمنين رهبة شديدة من الله تعالى .

١٠٨٦ - فإن قيل : كيف قال إبليس : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ [الحشر: ١٦] وهو
لا يخاف الله تعالى لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده ؟
قلنا : قد سبق هذا السؤال جوابه فى سورة الأنفال .

١٠٨٧ - فإن قيل : ما فائدة تنكير النفس والغد فى قوله تعالى : ﴿ وَلْتَنْظُرْ
نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨] ؟

قلنا : أما تنكير النفس فلا استقلال الأنفس النواظر فيما قدمت الآخرة
كأنه قال : ولتنظر نفس واحدة فى ذلك ، وأين تلك النفس ، وأما تنكير الغد
فلعظمته وإبهام أمره كأنه قال لغد لا يعرف كهنه لعظمه .

١٠٨٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ لِّغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨] وأراد به يوم
القيامة ، والغد عبارة عن يوم وليلة بينه وبيننا ليلة واحدة ؟

قلنا : الغد له مفهومان : أحدهما : ما ذكرتم ، والثانى : مطلق الزمان

المستقبل، ومنه قول الشاعر :

واعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي

وأراد به مطلق الزمان المستقبل كما أراد بالأمس مطلق الزمان الماضي ،
فصار لكل واحد منهما مفهومان ، ويؤيده أيضًا قوله تعالى : ﴿كَأَن لَّمْ تَعْنِ
بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] ، وقيل : إنما أطلق على يوم القيامة ، اسم العد تقريبًا له ،
كقوله تعالى : ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا
كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وكأنه تعالى قال : إن يوم القيامة لقربه
يشبه ما ليس بينكم وبينه إلا ليلة واحدة ، ولهذا روى عن النبي ﷺ أنه قال :
" اعمل الليلة صبيحتها يوم القيامة " وقالوا : أراد بتلك الليلة ليلة الموت .

١٠٨٩ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾
[الحشر: ٢١] الآية .

قيل : معناه : أنه سبحانه لو جعل في جبل على قساوته تمييزًا كما جعل في
الإنسان ثم أنزل عليه القرآن ، لتشقق خشية من الله تعالى وخوفًا أن لا يؤدي
حقه في تعظيم القرآن ، والمقصود توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه
عند تلاوة القرآن ، وإعراضه عن تدبير قوارعه وزواجه .

١٠٩٠ - فإن قيل : ما الفرق بين الخالق والبارئ حتى عطف تعالى
أحدهما على الآخر ؟

قلنا : الخلق هو المقدر لما يوجده ، والبارئ هو المميز بعضه عن بعض
بالأشكال المختلفة ، وقيل : الخالق المبدئ والبارئ المعيد .

سورة الممتحنة

١٠٩١ - فإن قيل : من ماذا استثنى قوله تعالى : ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [الممتحنة: ٤] ؟

قلنا : من قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] لأنه سبحانه أراد بالأسوة الحسنة قوله الذي حكاه عنه وعن اتباعه وأشباعه ليقنطروا به ويتخذوه سنة يستنون بها ، واستثنى سبحانه استغفاره لأبيه : لأنه كان عن موعده وعداها إياه .

١٠٩٢ - فإن قيل : فإن كان استغفاره لأبيه أو وعده لأبيه بالاستغفار مستثنى من الأسوة ، فكيف عطف عليه قوله : ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] وهو لا يصح استثناءه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ١٧] ؟

قلنا : المقصود بالاستثناء هو الجملة الأولى فقط ، وما بعدها ذكر لأنه من تمام كلام إبراهيم صلوات الله عليه لا بقصد الاستثناء ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما في طاقتي إلا الاستغفار .

١٠٩٣ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] ومعلوم أن النبي ﷺ لا يأمر إلا بمعروف ، فهلا اقتصر على قوله تعالى (ولا يعصينك) ؟

قلنا : فائدته سرعة تبادر الأفهام إلى قبح المعصية منهن لو وقعت من غير توقف الفهم على المقدمة التي أوردتم في السؤال .



سورة الصف

١٠٩٤ - فإن قيل : ما فائدة " قد " في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف: ٥] ؟

قلنا : فائدتها التأكيد ، كأنه قال : وتعلمون علماً يقيناً لا شبهة لكم فيه هذا جواب الزمخشري ، وقال غيره : فائدتها التأكيد ، لأن قد مع الفعل المضارع تارة تأتي للتقليل كقولهم : إن الكذوب قد يصدق ، وتارة تأتي للتأكيد كقول الشاعر :

قد أعسف النازج المجهود معسفة في ظل أخضر يدعو هامة البوم
وإنما يمتدح بما يكثر وجوده منه لا بما يقل .

١٠٩٥ - فإن قيل : كيف قال عيسى عليه السلام : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] ولم يقل : محمد ومحمد أشهر أسماء النبي ﷺ ؟
قلنا : إنما قال أحمد لأنه مذكور في الإنجيل بعبارة تفسيرها أحمد لا محمد ، وإنما كان كذلك لأن اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد ، فنزل في الإنجيل اسمه السماوي ، وقيل : إن أحمد أبلغ في معنى الحمد من محمد من جهة كونه مبنياً على صيغة التفضيل ، وقيل : محمد أبلغ من جهة كونه على صيغة التفضيل الذي هو للتكثير .

١٠٩٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف: ٩] ولم يقل سبحانه هذه ، والمشار إليه البينات وهي مؤنثة ؟
قلنا : معناه هذا الذي جئت به ، فالإشارة إلى المأتى به .

من غرائب آي التنزيل _____ ٤٢٧

١٠٩٧ - فإن قيل : ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصار الله

بقول عيسى عليه السلام : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [الصف: ١٤] ؟

قلنا : التشبيه محمول على المعنى تقديره : كونوا أنصار الله كما كان

الحواريون أنصاراً لعيسى عليه السلام حين قال لهم : (من أنصاري إلى الله) .

*** ** *

سورة الجمعة

١٠٩٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٩] والسعى العدو ، والعدو إلى صلاة الجمعة وإلى كل صلاة مكروه ؟

قلنا : المراد بالسعى القصد ، وقال الحسن : ليس هو السعى على الأقدام ، ولكنه على النيات والقلوب ، ويؤيد قول الحسن قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩] وقول الداعى فى دعاء القنوت : وإليك نسعى ونحفد، وليس المراد به العدو والإسراع بالقدم .

١٠٩٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ انْقَضُوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: ١١] والمذكور شيئان اللهو والتجارة ؟

قلنا : قد سبق جواب هذا فى سورة التوبة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤] والذى يؤيده هنا ما قاله الزجاج معناه : وإذا رأوا تجارة انقضوا إليها أو لهوا انقضوا إليه ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه بضمير التثنية ، وعليه فلا حذف .

*** **

سورة المنافقون

١١٠٠ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولُهُ﴾

[المنافقون: ١] ؟

قلنا : لو قال تعالى : قالوا : نشهد أنك لرسول الله ، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] لكان يوهم أن قولهم هذا كذب ، وليس المراد أن شهادتهم هذه كذب ، بل المراد أنهم كاذبون في غير هذه الشهادة ، وقال أكثر المفسرين : إنه تكذيب لهم في هذه الشهادة لأنهم أضمرُوا خلاف ما أظهروا ولم يعتقدوا أن رسول الله بقلوبهم ، فسماهم كاذبين لذلك ، فعلى هذا يكون ذلك تأكيداً .

١١٠١ - فإن قيل : المنافقون ما برحوا على الكفر ، فكيف قال تعالى :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: ٣] ؟

قلنا : معناه : ذلك الكذب الذى حكم عليهم به ، أو ذلك الإخبار عنهم بأنهم ساء ما كانوا يعلمون بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم : ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: ٣] بقلوبهم : ﴿فَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣] كما قال تعالى فى وصفهم : ﴿وَإِذَا لُفُّوا إِلَيْهِمْ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ الآية [البقرة: ١٤] ، الثانى أن المراد به أهل الردة منهم .

١١٠٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾

[المنافقون: ٤] ولم يقل : هى العدو ؟

قلنا : عليهم هو ثانى مفعولى يحسبون تقديره : يحسبون كل صيحة واقعة عليهم ، أى : لجنبهم وهلعهم ، فالوقف على قوله تعالى عليهم وقوله سبحانه :

٤٣٠ _____ مسائل الرازي وأجوبتها

﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾ [المنافقون: ٤] ابتداء كلام ، وقيل : إن المفعول الثانى هو قوله تعالى :
﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾ [المنافقون: ٤] ولكن تقديره : يحسبون أهل كل صيحة عليهم هم
العدو ، والأول أظهر بدليل عدم نصب العدو .

سورة التغابن

١١٠٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾

[التغابن: ٢] قدم الكافر في الذكر؟

قلنا : الواو لا تعطى رتبة ولا تقتضى ترتيباً كما قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ بَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥] وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال سبحانه : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر: ٣٢] وقال تعالى : ﴿ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ [الشورى: ٤٩] وقد ذكرنا في الآية الأخيرة معنى آخر في موضعها .

١١٠٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ [التغابن: ٦] يوهم

وجود التولى والاستغناء معاً بعد مجيء رسلكم إليهم ، والله تعالى لم يزل غنياً ؟

قلنا : معناه : وظهر استغناء الله تعالى عن إيمانهم وعبادتهم حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته تعالى على ذلك .

١١٠٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾

[التغابن: ١١] مع أن الهداية سابقة على الإيمان ، لأنه لولا سبق الهداية لما وجد الإيمان ؟

قلنا : ليس المراد ﴿ يَهْدِ ﴾ قلبه للإيمان ، بل المراد ﴿ يَهْدِ ﴾ قلبه لليقين عند نزول المصائب ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

الثاني : ﴿ يَهْدِ ﴾ قلبه للرضا والتسليم عند نزول المصائب .

الثالث : ﴿ يَهْدِ ﴾ قلبه للاسترجاع عند نزول المصائب ، وهو أن يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

الرابع: ﴿يَهْدِ﴾ قلبه: أى يجعله ممن إذا ابتلى صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر.

الخامس: ﴿يَهْدِ﴾ قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه، وقرئ: ﴿يَهْدِ﴾ بفتح الدال وبالهَمْز مَنْ الهدو وهو السكون، فمعناه: ومن يؤمن بالله إيمانًا خالصًا يسكن قلبه ويطمئن عند نزول المصائب والمحن ولا يجرع ويقلق.

حَسْبُهُ ﴿[الطلاق:٣]﴾ أى من يتق به فيما نابه كفاه الله شر ما أهمه ، وقد رأينا كثيراً من الناس يتوكل على الله فى بعض أمورهم وحوادثهم ولا يكفيهم الله تعالى همها ؟

قلنا : محال أنه يتوكل على الله حق التوكل ولا يكفيه همه ، بل ربما قلق وضجر واستبطاً قضاء حاجته بقلبه أو بلسانه أيضاً ففسد توكله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:٣] أى نافذ حكمه ، يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب ، وبقوله تعالى : ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣] أى : جعل لكل شىء من الفقر والغنى والمرض والصحة والشدة والرخاء ونحو ذلك أجلاً ومنتهى ينتهى إليه لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

١١٠٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَالَّتَى يَسْتَنِّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق:٤] علقه بشكنا مع أن عدتهن ذلك سواء وحد شكنا أم لا ؟

قلنا : المراد بالشك الجهل بمقدار عدة الأيسة والصغيرة ، وإنما علقه به لأنه لما نزل بيان عدة ذوات الأقراء فى سورة البقرة قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : قد بقى الكبار والصغار لا ندرى كم عدتهن ، فنزلت هذه الآية على هذا السبب : فلذلك جاءت مقيدة بالشك والجهل .

١١١٠ - فإن قيل : إذا كانت المطلقة طلاقاً بائناً تجب لها النفقة عند بعض العلماء ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق:٦] عند ذلك القائل ؟

قلنا : فائدته أن لا يتوهم أنه إذا طالت مدة الحمل بعد الطلاق حتى مضت مدة عدة الحامل سقطت النفقة ، ففى هذا الوهم بقوله : ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤] .

سورة التحريم

١١١٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَصَلِّحِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التحريم:٤] إن كان المراد به الفرد فأى فرد هو، وأيضا فإنه لا يناسب مقابلة الملائكة الذين هم جمع، وإن كان المراد به الجمع فهلا كان مكتوبا في المصحف بالواو ؟

قلنا : هو فرد أريد به الجمع كقولك : لا يفعل هذا الفعل الصالح من الناس ، تريد به الجنس كقولك : لا يفعله من صلح منهم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [المعارج:١٩] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر:٢] وقوله تعالى ﴿ وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ [الحاقة:١٧] وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [غافر:٦٧] ونظائره كثيرة .

الثانى : أنه لا يجوز أن يكون جمعا ، ولكنه كتب في المصحف بغير واو على اللفظ كما جاءت ألفاظ كثيرة في المصحف على اللفظ دون اصطلاح الخط .

١١١٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَالْمَلَتِكِكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم:٤] ولم يقل : ظهراء وهو خبر عن الجمع وهو الملائكة ؟
قلنا : هو فرد وضع موضع الجمع كما سبق .

الثانى : اسم على وزن المصدر كالزميل والديبب والصليل ، فيستوى فيه الفرد والتثنية والجمع .

الثالث : أن فعلا يستوى فيه الواحد ، والاثنان والجميع بدليل قوله تعالى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق:١٧] .

١١١٥ - فإن قيل : قوله تعالى ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ [التحريم:٤] تعظيم للملائكة ومظاهرتهم ، وقد تقدمت نصره الله تعالى وجبريل وصالح المؤمنين ، ونصرة الله

من غرائب آي التنزيل = ٤٣٧

سبحانه أعظم؟

قلنا : مظاهرة الملائكة من جملة نصره الله تعالى ، فكأنه فضل نصرته بهم على سائر وجوه نصرته لفضلهم وشرفهم ، ولا شك أن نصرته بجميع الملائكة أعظم من نصرته بجبريل وحده أو بصالح المؤمنين .

١١١٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مُّسْلِمًا مَّوَدَّكَ ﴾ [التحریم: ٥] إلى آخر الآية ، فأثبت الخيرية لمن باتصافهن بهذه الصفات ، وإنما تثبت لمن الخيرية بهذه الصفات لو لم تكن تلك الصفات ثابتة في نساء النبي ﷺ وهو ثابتة فيهن ؟

قلنا : المراد به خيراً ممنكن في حفظ قلبه ومتابعة رضاه ، مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة بينكن وبينهن .

١١١٧ - فإن قيل : كيف أخليت الصفات كلها عن الواو وأثبتت بين النيات والأبكار ؟

قلنا : لأنها صفتان متضادتان لا تجتمعان فيهن اجتمع سائر الصفات ، فلم يكن بد من الواو ، ومن جعلها واو الثانية فقدسها ، لأن واو الثانية لا يفسد الكلام بحذفها بخلاف هذه .

١١١٨ - فإن قيل : هذه الصفات إنما ذكرت في معرض المدح ، وأى مدح في كونهن نيات ؟

قلنا : التشيب مدح من وجه ، فإن الثيب أقبل للميل بالنقل وأكثر تجربة وعقلاً ، والبكارة مدح من وجه فإنها أطهر وأطيب وأكثر مراغبة وملاعبة .

١١١٩ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦] بعد قوله سبحانه : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ [التحریم: ٦] ؟

قلنا : قيل المراد بالأمر الأول : الأمر بالعبادات والطاعات ، وبالأمر الثاني : الأمر بتعذيب أهل النار ، وقيل هو تأكيد .

١١٢٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ تَوْبَةٌ نُّصُوحًا ﴾ [التحریم: ٨] ولم يقل : توبة نصوحة ؟

قلنا : لأن فعولاً من أوزان المبالغة الذى يستوى فى لفظه الذكور والإناث كقولهم : امرأة صبور وشكور ونحوهما .

١١٢١ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ ﴾ [التحریم: ١٠] ؟

قلنا : فائدته مدحهما والثناء عليهما بإضافتهما إليه إضافة التشريف والتخصيص كما فى قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى : ﴿ فَأَدْخَلْنِي فِي عِبْدِي ﴾ [الفجر: ٢٩] وهو مبالغة فى المعنى المقصود وهو أن الإنسان لا ينفعه إلا صلاح نفسه لا صلاح غيره ، وإن كان ذلك الغير فى أعلى مراتب الصلاح والقرب من الله تعالى .

١١٢٢ - فإن قيل : وكيف قال تعالى : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَلِيلِينَ ﴾ [التحریم: ١٢] ولم يقل سبحانه : من القانئات ؟

قلنا : معناه : كانت من القوم القانئين ، أى : المطيعين لله تعالى ، يعنى : رهنها وأهلها ، فكأنه تعالى قال : وكانت من بنات الصالحين ، وقيل : إن الله تعالى لما تقبلها فى النذر وأعطاه مرتبة الذكور الذين كان لا يصلح النذر إلا بهم ، عاملها معاملة الذكور فى بعض الخطاب إشارة إلى ذلك ، وقال تعالى : ﴿ وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَلِيلِينَ ﴾ [التحریم: ١٢] أو رعاية الفواصل .

سورة الملك

١١٢٣ - فإن قيل : ما فائدة تقديم الموت على الحياة في قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] ؟

قلنا : إنما قدم سبحانه الموت لأنه هو المخلوق أولاً ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : أراد به خلق الموت في الدنيا والحياة في الآخرة ، ولو سلم أن المراد به الحياة في الدنيا فالموت سابق عليها لقوله تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] .

١١٢٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣] مع أن في خلقه سبحانه تفاوتاً عظيماً ، فإن الأضداد كلها من خلقه عز وجل وهى متفاوتة ، والسموات أيضاً متفاوتة في الصغر والكبر والارتفاع والانخفاض وغير ذلك ؟

قلنا : المراد بالتفاوت هنا الخلل والعيب والنقصان في مخلوقه تعالى الذى هو السموات ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] أى : من شقوق وصدوع في السماء .

١١٢٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَمْ يَمُنُّونَ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] والله سبحانه وتعالى ليس في السماء ولا في غير السماء ، بل هو سبحانه منزّه عن كل مكان ؟

قلنا : من ملكوته في السماء ، لأنها مسكن ملائكته ومحل عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل أفضيته وكتبه وأوامره ونواهيّه .

الثانى : أنهم كانوا يعتقدون التشبيه ، وأنه سبحانه وتعالى في السماء فخطبوا على حسب اعتقادهم .

سورة ن " القلم "

١١٢٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ [القلم: ١٨] أى : ولا يقولون : إن شاء الله فسمى الشرط استثناء ؟

قلنا : إنما سماه استثناء لأنه فى معناه ، فإن معنى قولك : لأخرجن إن شاء الله ، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد ، وقال عكرمة : المراد به حقيقة الاستثناء ، أى : أنهم لا يستنون حق المساكين ، والجمهور على الأول .

١١٢٧ - فإن قيل : كيف سمي أوسطهم الاستثناء تسبيحاً فقال : ﴿أَلَمْزْ أَلْقُلْ لِّكُم مَّا لَوْ لَا تَسْبُحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] أى : لولا تسنون ؟

قلنا : إنما سماه تسبيحاً لاشتراكهما فى معنى التعظيم ، لأن الاستثناء تفويض إليه وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلا بمشيئته ، والتسبيح تنزيه له عن السوء .

الثانى : أنه كان استثناءؤهم قول : سبحان الله .

الثالث : أن معناه : لولا تنزهون أنفسكم وأموالكم عن حق الفقراء .

١١٢٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الْاَسْجُودِ﴾ [القلم: ٤٣] ولا تكليف فى الدار الآخرة ؟

قلنا : لا يدعون إليه تكليفاً وتعبداً ، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركه فى الدنيا .

١١٢٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الْاَسْجُودِ﴾ [القلم: ٤٣] وهم إنما كانوا يدعون إلى الصلاة ، فإن المراد بالآية دعاؤهم إلى الجماعات بأذان المؤذن حين يقول : حى على الصلاة ؟ .

سورة الحاقة

١١٣١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ يَرْيحُ صَرْصَرٍ ﴾ [الحاقة: ٦] ولم يقل : صرصرة ، كما قال تعالى : ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦] وهو صفة لمؤنث ، لأنها الشديدة الصوت أو الشديدة البرد ؟

قلنا : لأن الصرصر وصف مخصوص بالريح لا يوصف به غيرها ، فأشبهه باب حائض وطامث وحامل ، بخلاف عاتية فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به .

١١٣٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ [الحاقة: ٧] أى : فى تلك الليالى والأيام ، والنبي ﷺ ما رآهم ولا يراهم فيها ؟

قلنا : فيها ظرف لقوله تعالى صرعى ، لا لقوله تعالى : (فترى) ، والرؤية هنا من رؤية العلم والاعتبار ، فصار المعنى فتعلمهم صرعى فى تلك الليالى والأيام بإعلامنا حتى كأنك تشاهدهم .

١١٣٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَإِذَا تُفَخَّخِ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٣] إلى قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ [الحاقة: ١٨] والمراد بها هنا النفخة الأولى ، وهى نفخة الصعق بدليل ما ذكر بعدها من فساد العالم العلوى والسفلى ، والعرض إنما يكون بعد النفخة الثانية ، وبين النفختين من الزمان ما شاء الله تعالى فكيف قال سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ [الحاقة: ١٨] ؟

قلنا : وضع اليوم موضع الوقت الواسع الذى يقع فيه النفختان وما بعدهما .

١١٣٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ

حَسَابِيَّةٌ ﴿[الحاقة: ٢٠]؟

قلنا : معناه تيقنت ، والظن يطلق بمعنى اليقين كما في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

١١٣٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى في وصف أهل النار : ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴿[الحاقة: ٣٥، ٣٦] وقال سبحانه في موضع آخر : ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] وفي موضع آخر : ﴿إِنْ شَجَرَتِ الزُّوْمِ﴾ طَعَامُ الْأَثِيرِ ﴿[الدخان: ٤٣، ٤٤] وفي موضع آخر : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَاتُ الْمُنَالُونَ الْمُكْذِبُونَ﴾ لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُؤْمٍ ﴿فَالْيَوْمَ مِنْهَا الْبَطُونُ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٣] وفي موضع آخر : ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا الثَّانِ﴾ [البقرة: ١٧٤]؟

قلنا : معناه إلا من غسلين وما أشبهه ، أو وضع الغسلين موضع كل طعام مؤذ كربه .

الثاني : أن العذاب ألوان والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع ، لكل باب منهم جزء مقسوم .

١١٣٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤] يعني أن القرآن قول جبريل عليه السلام مع أن قول الله تعالى لا قول جبريل ؟
قلنا : معناه عند الأكثرين أن المراد به النبي ﷺ ، والمعنى أنه يقر له ويتكلم على وجه الرسالة من عند الله لا من تلقاء نفسه كما تزعمون .

١١٣٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] فوصف المفرد والجمع ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في آخر سورة البقرة .

سورة المعارج

١١٣٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩] ويفسره ما بعده الإنسان في حال خلقه ما كان موصوفًا بهذه الصفات ؟

قلنا : هلوغًا حال مقدرة ، فالمعنى مقدار فيه الهلع كما في قوله تعالى : ﴿ مُخَلِّقِينَ رُءُوسًا وَسُكَّرَ ﴾ [الفتح: ٢٧] وهم ليسوا محلّقين حال الدخول .

١١٣٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى أولاً : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٣] ثم قال تعالى ثانياً : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج: ٣٤] فهل بينهما فرق ؟

قلنا : المراد بالدوام المواظبة والملازمة أبداً ، وقيل : المراد به سكونهم بحيث لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً ، واختاره الزجاج ، وقال : اشتقاقه من الدائم بمعنى الساكن ، كما جاء في الحديث : " أنه ﷺ نهى عن البول في الماء الدائم " (١) قلت : وقوله " على " ينفي هذا المعنى ، فإنه لا يقال هو على صلاته ساكن ، بل يقال : هو في صلاته ساكن ، والمراد بالمحافظة عليها : أداؤها على أكمل وجوهاها جامعة لجملة سننها وآدابها ، فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة والمحافظة إلى أحوالها .



(١) البخاري (٢٣٢) ، ومسلم (٤٢٤) ، النسائي (٣٥) .

سورة نوح عليه السلام

١١٤٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٤] فإن كان المراد تأخيرهم به عن الأجل المقدر لهم في الأزل فهو محال لقوله تعالى : ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:١١] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح:٤] وإن كان المراد به تأخيرهم إلى مجيء الأجل المقدر لهم في الأزل ، فما فائدة تخصيصهم بهذا وهم وغيرهم في ذلك سواء على تقدير وجود الإيمان منهم وعدم وجوده ؟

قلنا : معناه : ويؤخركم عن العذاب إلى منتهى آجالكم على تقدير الإيمان فلا يعذبكم في الدنيا كما عذب غيركم من الأمم الكافرة فيها .

الثاني : أنه سبحانه قضى أنهم إن آمنوا عمرهم ألف سنة ، وإن لم يؤمنوا أهلكهم بالعذاب لتمام خمسمائة سنة ، فليل لهم : آمنوا يؤخركم إلى هذا الأجل .

١١٤١ - فإن قيل : كيف أمرهم بالاستغفار ، والاستغفار إنما يصح من المؤمن دون الكافر ؟

قلنا : معناه استغفروا ربكم من الشرك بالتوحيد .

١١٤٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] والحيوان ضد النبات ، فكيف يطلق على الحيوان أنه نبات ؟

قلنا : هو استعارة للإنشاء والإخراج من الأرض بواسطة آدم عليه السلام .

١١٤٣ - فإن قيل : كيف دعا نوح عليه السلام على قومه بقوله : ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح:٢٤] مع أنه أرسل ليهديهم ويرشدهم ؟

قلنا : إنما دعا عليهم بذلك بعد ما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون .

١١٤٤ - فإن قيل : كيف قال نوح : ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]

وصفهم بالفجور والكفر في حال ولادتهم وهم أطفال ، وكيف علم أنهم لا يلدون إلا فاجرًا كفارًا؟

قلنا : إنهم لا يلدون إلا من يفجر ويكفر إذا بلغ ، وإنما علم ذلك بإعلام الله تعالى ، أو وصفهم بما يؤولون إليه من الفجور والكفر ، وعلم ذلك بإعلام الله إياه .

سورة الجن

١١٤٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ [الجن: ١٩] ولم يقل سبحانه : رسول الله أو نبي الله المراد به النبي ﷺ ؟
قلنا : لأنه ﷺ لم يكن في ذلك المقام مرسلًا إليهم ، بل اتفق مرورهم به وجوازهم عليه ، فلو قال تعالى : رسول الله أو نبي الله لأوهم ذلك قصد أداء الرسالة إليهم .

١١٤٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ [نوح: ٢٥] مع أن الأمد اسم للغاية ، والغاية تكون زمانًا قريبًا وزمانًا بعيدًا ويؤيده قوله تعالى : ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] ؟

قلنا : أراد بالقريب الحال ، وبالمجوعول له الأمد المؤجل ، سواء كان الأجل قريبًا أو بعيدًا .



سورة المزمل

١١٤٧ - فإن قيل : ما معنى وصف القرآن بالثقل في قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أنه كان يثقل نزول الوحي على النبي ﷺ حتى يعرق عرقاً شديداً في اليوم الشاتئ .

الثاني : أن العمل بها فيه من التكاليف ثقل شاق .

الثالث : ثقل في الميزان يوم القيامة .

الرابع : أنه ثقل على المنافقين .

الخامس : أنه كلام له وزن ورجحان ، كما يقال للرجل العاقل ، رزين راجح .

السادس : أنه ليس بسفساف ، لأن السفساف من الكلام يكون خفيفاً .

١١٤٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿الْسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨] ولم يقل سبحانه : منفطرة به والسماء مؤنثة ؟

قلنا : هو على النسبة ، أي ذات انفطار : وقيل : ذكر السماء على معنى السقف ، وقيل : معناه السماء شيء منفطر به ، وقيل : السماء تذكر وتؤنث .

١١٤٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ [المزمل: ٦] ولم يقل : أن لن تحصوها ، أي لن تعرفوا تحقيق مقادير ساعات الليل والنهار ؟

قلنا : الضمير عائد إلى مصدر يقدر معناه : لن تحصوا تقديرهما .

سورة المدثر

١١٥٠ - فَإِنْ قِيلَ : ما فائدة قوله تعالى : ﴿غَيْرِ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠] بعد قوله

سبحانه : ﴿قَدْ لِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ ﴿١٠﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المدثر: ٩، ١٠] ؟

قلنا : قيل : معناه أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً ، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا ، وقيل : إنه تأكيد .

١١٥١ - فَإِنْ قِيلَ : ما فائدة التكرار في قوله تعالى : ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾

[المدثر: ٢٨] ومعناها واحد؟

قلنا : معناه لا تبقى للكفار لحماً ولا تذر لهم عظماً ، وقيل : معناه لا تبقيهم أحياء ولا تذرهم أمواتاً .

١١٥٢ - فَإِنْ قِيلَ : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر: ٣١] وما سبق من وصفهم بالاستيقان وازدياد الإيمان دل على انتفاء الارتياب ، والجمل كلها متعلقة بعدد خزنة النار ، والمعنى ليستيقن الذين أوتوا الكتاب أن ما جاء به محمد ﷺ حق ، حيث أخبر عن عدد خزنة النار بمثل ما في التوراة ، ويزداد الذين آمنوا من أهل الكتاب إيماناً بالنبى ﷺ والقرآن ، حيث وجدوا ما أخبرهم به مطابقاً لما في كتابهم ؟

قلنا : فائدته التأكيد والتعريض أيضاً بحال من عداهم من الشاكين وهم الكفار والمنافقون ، فمعناه : ولا يرتاب هؤلاء كما ارتاب أولئك .

١١٥٣ - فَإِنْ قِيلَ : كيف قال تعالى : ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾

[المدثر: ٣١] يعنى حصر عدد الخزنة في تسعة عشر وذلك ليس بمثل ؟

قلنا : هو استعارة من المثل المضروب مما وقع غريباً وبديعاً في الكلام

استغراباً منهم لهذا العدد واستبعاداً له ، والمعنى : أى شىء أراد الله بهذا العدد العجيب ، وأى حكمة قصد فى جعل الخزنة تسعة عشر لا عشرين .

الثانى : أن المثل هنا بمعنى الصفة كما فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد: ٣٥] والمعنى : ماذا أراد الله بهذا العدد صفة للخزنة .

١١٥٤ - فإن قيل : كيف طابق قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ [المذثر: ٤٢] وهو سؤال للمجرمين قوله تعالى : ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ [المذثر: ٤٠، ٤١] وهو سؤال عنهم ، وإنما المطابق يسألون المجرمين أو يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر ، أى : يسأل أهل الجنة بعضهم بعضاً عن أهل النار ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ [المذثر: ٤٢] ليس بياناً للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عن المجرمين ، فالمسؤولون من أهل الجنة ألقوا إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ، وذلك أن المؤمنين إذا أخرجهم الله تعالى من النار بعدما عذبهم بقدر ذنوبهم وأدخلهم الجنة يسألهم بعض أصحاب اليمين عن حال المجرمين وسبب تخليدهم ، فقال المسؤولون : قلنا لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ الآية [المذثر: ٤٢] ، وهؤلاء المؤمنون بعد إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة صاروا من أصحاب اليمين ، وقيل : المراد بأصحاب اليمين الملائكة عليهم السلام ، وقيل : الأطفال لأنهم لا يرتنون بذنوب إذ لا ذنوب لهم .

سورة القيامة

١١٥٥ - فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] والقارئ على النبي ﷺ إنما هو جبريل عليه السلام .

قلنا: معناه فإذا جمعناه في صدرك ، ويؤيده أول آية : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧] أى إن علينا جمعه وضمه في صدرك فلا تعجل بقراءته قبل أن يتم حفظه ، وقيل : إنما أضيفت القراءة إلى الله تعالى ، لأن جبريل عليه السلام يقرؤه بأمره كما تضاف الأفعال إلى الملوك والأمراء بمجرد الأمر ، مع أن المباشر لها أعوانهم أو أتباعهم .

١١٥٦ - فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ إلى ربها نَاطِرَةٌ [القيامة: ٢٢، ٢٣] والذي يوصف بالنظر الذي هو الإبصار والإدراك إنما هو العين دون الوجه .

قلنا: قيل: إن المراد بالوجوه هنا السعداء وأهل الوجاهة يوم القيامة لا الوجه هو العضو ، ولا أرى هذا الجواب مطابقاً لقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤] لأن العبوس والقطوب إنما يوصف به الوجه الذى هو العضو ومما يؤيد أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] الأعضاء المعروفة قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] .

١١٥٧ - فإن قيل: النطفة المنى ، فما فائدة قوله تعالى: ﴿أَلَرَيْكَ نُطْفَةً مِّنْ مَّتًى يُمْنٍ﴾ [القيامة: ٣٧] ؟

قلنا: النطفة استعملت هنا بمعنى القطرة لأن النطفة تطلق على الماء القليل والكثير ، ومنه الحديث : " حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوازاً " (١) أراد بحر المشرق والمغرب .

(١) إسناده ضعيف : تاريخ دمشق (١/ ٣٩٢) .

سورة الإنسان

١١٥٨ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢] فوصف المفرد وهى النطفة بالجمع وهو الأمشاج لأنه جمع مشج ، والأمشاج : الأخلاط ، والمراد أنه مخلوق من نطفة مختلطة من ماء الرجل والمرأة .

قلنا : قال الزمخشري رحمة الله تعالى عليه : أمشاج لفظ مفرد لا جمع ، كقولهم : برمة أعشار ، وبين أكباش ، وبر أهدام ، وقال غيره : الموصوف به أجزاء النطفة وأبعضها .

١١٥٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ نَبِّئْهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢] والابتلاء متأخر عن جعله سميعًا بصيرًا .

قلنا : قال الفراء ، فيه تقديم وتأخير تقديره : فجعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه وقال غيره : معناه ناقلين له من حال إلى حال نطفة ثم علقه ثم مضغه ، فسمى ذلك ابتلاء استعارة .

١١٦٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ قَوَارِيرًا ۖ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ١٦] والقوارير اسم لم يتخذ من الزجاج .

قلنا : معناه أن تلك الأكواب مخلوقة من فضة ، وهى مع بياض الفضة وحسنها فهى صفاء القوارير وشفيفها ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، وقوارير الجنة من فضة ويرى ما فيها من ورائها .

١١٦١ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥] .

قلنا : معناه تكونت ، فهى من قوله تعالى : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] وكذا

قوله تعالى: ﴿كَانَ مِرَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] .

١١٦٢ - فإن قيل : كيف شبه الله تعالى الوالدان باللؤلؤ المنشور دون المنظوم .

قلنا : إنما شبههم سبحانه وتعالى باللؤلؤ المنشور لأنه أراد تشبيههم باللؤلؤ الذى لم يثقب بعد ، لأنه إذا ثقب نقصت مائته وصفائه ، واللؤلؤ الذى لم يثقب لا يكون إلا منشورًا ، وقيل : إنما شبههم الله تعالى باللؤلؤ المنشور لأن اللؤلؤ المنشور على البساط أحسن منظرًا من المنظوم ، وقيل : إنما شبههم باللؤلؤ المنشور لانتشارهم وانبثاثهم فى مجالسهم ومنازلهم وتفريقهم فى الخدمة بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الإنسان: ١٩] ولو كانوا وقوفًا لشبهوا بالمنظوم .

١١٦٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] مع أن ذلك فى الدنيا إنما هو عادة الإماء ومن فى مرتبتهم .

قلنا : القرآن أول من خوطب به العرب ، وكان من عادة رجالهم ونسائهم من بيت المملكة التحلى بالذهب والفضة منفردين ومجتمعين .

الثانى : أن الاسم وإن كان مشتركًا بين فضة الدنيا والآخرة ، ولكن شتان ما بينهما قال النبى ﷺ : " المثقال من فضة الآخرة خير من الدنيا وما فيها " (١) وكذا كلام فى السندس والإستبرق وغيرهما مما أعده الله تعالى فى الجنة .

١١٦٤ - فإن قيل : أى شرف لتلك الدار يسقى الله عباده الشراب الطهور فيها مع أنه تعالى فى الدنيا سقاهم ذلك بدليل قوله تعالى : ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً قُرَاتًا﴾ وقوله تعالى : ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢] .

قلنا : المراد به فى الآخرة سقيهم بغير واسطة ، وشتان ما بين الشرايين

والآيتين أيضاً والمنزلتين .

١١٦٥ - فلن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطْع مِنْهُمْ مِثْمًا أَوْ كُفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٤] الضمير لمشركي مكة بلا خلاف ، فما معنى تقسيمهم إلى الآثم والكفور ، وكلهم آثم وكلهم كفور .

قلنا : المراد بالآثم عتبة بن ربيعة ، فإنه كان كاتباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق ، والمراد بالكفور الوليد بن المغيرة ، فإنه كان مغالياً في الكفر شديد الشكيمة فيه مع أن كليهما آثم وكافر ، والمراد به نهيهم عن طاعتهم فيما كانوا يدعونه إليه من ترك الدعوة وموافقتهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلال .

١١٦٦ - فلن قيل : ما معنى النهي عن طاعة أحدهما ، وهلا نهي عن طاعتها .

قلنا : قال بعضهم إن أو هنا بمعنى الواو كما في قوله تعالى : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا ﴾ [الأنعام: ١٤٦] .

الثاني : أنه لو قال تعالى ولا تطعها جاز له أن يطيع أحدهما ، وأما إذا قيل له ولا تطع أحدهما كان منهياً عن طاعتها بالضرورة .

١١٦٧ - فلن قيل : كيف قال الله تعالى هنا : ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: ٢٨] أي خلقهم ، وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ [الإنسان: ٢٨] .

قلنا : قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والأكثرون ، المراد به أنه ضعيف عن الصبر عن النساء ، فلذلك أباح الله تعالى له نكاح الأمة كما سبق قبل هذه الآية ، وقال الزجاج : معناه أنه يغلبه هواه وشهوته فلذلك وصف بالضعف ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: ٢٨] فمعناه ربطنا أوصالهم بعضها

من غرائب آي التنزيل ٤٥٥

إلى بعض بالعروق والأعصاب ، وقيل : المراد بالأسر العصعص ، فإن الإنسان في القبر يصير رفأاً إلا عصعصه فإنه لا يتفتت ، وقال مجاهد : المراد بالأسر مخرج البول والغائط ، فإنه يسترخى حتى يخرج منه الأذى ، ثم ينقبض ويجتمع ويشتد بقدرة الله تعالى .

سورة المرسلات

١١٦٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥]

ينفى وجود الاعتذار منهم ؛ لأن الاعتذار إنما يكون بالنطق ، فما فائدة نفى الاعتذار بعد نفى النطق .

قلنا : معناه أنهم لا ينطقون ابتداء بعذر مقبول وحجة صحيحة ، ولا بعد أن يؤذن لهم فى الاعتذار ، فإن الأسير والجانى الخائف عادة قد لا ينطق لسانه بعذره وحجته ابتداء لفرط خوفه ودهشته ، ولكن إذا أذن له فى إظهار عذره وحجته انبسط وانطلق لسانه ، فكانت الفائدة فى الجملة .

الثانى : نفى هذا المعنى ، أى : لا ينطقون بعذر ابتداء ولا بعد الإذن .

١١٦٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر: ٥٢]

يدل على وجود الاعتذار منهم ، فكيف التوفيق بينه وبين ما نحن فيه .

قلنا : قيل : المراد بتلك الظالمون من المسلمين ، وبما نحن فيه الكافرون

وآخر تلك الآية يضعف هذا الجواب ، أى قوله : ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢] .



سورة النبأ

١١٧٠ - فإن قيل : كيف اتصل وارتبط قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبأ:٦] بما قبله .

قلنا : لما كان النبأ العظيم الذى يتساءلون عنه هو البعث والنشور وكانوا ينكرونه ، قيل لهم : ألم يخلق من وعد بالبعث والنشور هذه المخلوقات العظيمة العجيبة الدالة على كمال قدرته على البعث .

١١٧١ - فإن قيل : لو كان النبأ العظيم الذى يتساءلون عنه ما ذكرتم لما قال الله تعالى الذى هم فيه مختلفون ؛ لأن كفار مكة لم يختلفوا فى أمر البعث ، بل اتفقوا على إنكاره .

قلنا : كان فيهم من يقطع القول بإنكاره ، وفيهم من يشك فيه ويتردد فثبت الاختلاف لأن جهة الاختلاف لا تنحصر فى الجزم ، بإثباته والجزم بنفيه .

الثنائى : أن بعضهم صدق به فأمن ، وبعضهم كذب به فبقى على كفره ، فثبت الاختلاف بالنفى والإثبات .

الثالث : أن الضمير فى يتساءلون وفى هم عائد إلى الفريقين من المسلمين والمشركين ، وكلهم كانوا يتساءلون عنه لعظم شأنه عندهم ، فصدق به المسلمون فأثبتوه ، وكذب به المشركون فنفوه .

١١٧٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ:٣٩] هو جزاء الشرط فأين الشرط ، وشاء وحده لا يصلح شرطاً لأنه لا يفيد بدون ذكر مفعوله ، وإن كان المذكور هو الشرط فأين الجزاء .

قلنا : معناه فمن شاء النجاة من اليوم الموصوف اتخذ إلى ربه مرجعاً بطاعته .

الثانى : أن معناه فمن شاء أن يتخذ إلى ربه مآبا كقوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أى : فمن شاء الإيمان ، فليؤمن ، ومن شاء الكفر فليكفر .

*** ** *

سورة النازعات

١١٧٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ [النازعات: ١، ٢] ذكرها بلفظ التأنيث ، وكذا ما بعده ، والكل أوصاف الملائكة ، والملائكة ليسوا إناثاً .

قلنا : هو قسم بطوائف الملائكة وفرقتها ، والطوائف والفرق مؤنثة .

١١٧٤ - فإن قيل : كيف أضاف الله تعالى الإبصار إلى القلوب في قوله تعالى : ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَرُوا حَشِيعَةً﴾ [النازعات: ٨، ٩] أى : ذليلة لمعاينة العذاب ، والمراد بها الأعين بلا خلاف .

قلنا : المراد أبصار أصحابها بدليل قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ﴾ [النازعات: ١٠] .

١١٧٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿فَأَرْزُقْهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٢٠] مع أن موسى عليه الصلاة والسلام أراه الآيات كلها بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ﴾ [طه: ٦٥] وكل آية كبرى .

قلنا : الإخبار في هذه الآية عن أول ملاقاته إياه ، وإنما أراه في أول ملاقاته العصا واليد ، فأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحاد معناهما ، وقيل : أراد بالآية الكبرى العصا ، لأنها كانت المقدمة ، والأصل والأخرى كالتبع لها لأنه كان يتبعها بيده ، ف قيل له أدخل يدك في جيبك .

١١٧٦ - فإن قيل : كيف أضاف الله تعالى الليل إلى السماء بقوله تعالى : ﴿وَأَغْطَسَ لَيْلَهَا﴾ [النازعات: ٢٩] مع أن الليل إنما يكون في الأرض لا في السماء .

قلنا : إنما إضافة إليها لأنه أول ما يظهر عند غروب الشمس إنما يظهر

٤٦٠ _____ مسائل الرازي وأجوبتها

في أفق السماء من موضع الغروب ، وأما قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾
[النازعات: ٢٩] فالمراد به ضوء الشمس بدليل قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾
[الشمس: ١] أي : وضوئها فلا إشكال في إضافته إليها .

سورة عبس

١١٧٧ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]

ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ [عبس: ١٢] ولم يقل ذكرها .

قلنا : الضمير المؤنث لآيات القرآن أو لهذه السورة ، والضمير في قوله تعالى ذكره راجع إلى القرآن ، وقيل : راجع إلى معنى التذكيرة وهو الوعظ والتذكير لا إلى لفظها .

١١٧٨ - فإن قيل : في قوله تعالى : ﴿وَفَكَهَأَ وَأَبَا﴾ [عبس: ٣١] روى أن

عمر رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الآية وقال ، كل هذا قد عرفنا فما الأب ، ثم قال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يا عمر أن لا تدري ما الأب ، ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه ، وهذا شبيه بالنهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته .

قلنا : لم يرد بقوله ما ذكرت ، ولكن الصحابة رضى الله عنهم كانت أكثر همهم عاكفة على العمل ، وكان الاشتغال بعلم لا يعمل به تكلفاً عندهم ، فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله تعالى للإنسان متاعاً له ولأنعامه ، فكأنه قال : عليك بما هو الأهم فالأهم وهو الشكر على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه تعالى ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص ، واكتف بمعرفته منه جملة إلى أن يتبين لك في وقت آخر ، وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن الأب ؟ فقال : أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت في كتاب الله بها لا علم لى به ، وأكثر المفسرين قالوا : الأب كل ما ترعاه البهائم .

سورة التكوير

١١٧٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] والسؤال إنها يحسن للقاتل لا للمقتول .

قلنا : إنها سؤاها لتبكيه قاتلها وتوبيخه بما تقوله من الجواب ، فإنها تقول : قتلت بغير ذنب ، ونظيره في التبكيه والتوبيخ قوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ [المائدة: ١١٦] حتى قال سبحانه : ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦] .

١١٨٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] فأثبت العلم لنفس واحدة ، مع أن كل نفس تعلم ما أحضرت يوم القيامة بدليل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] .

قلنا : هذا مما أريد به عكس مدلوله ، ومثله كثير في كلام الله تعالى وكلام العرب كقوله تعالى : ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] فإن رب هنا بمعنى كم للتكثير ، وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] ، وقول الشاعر :
قد أترك القرن مصفراً أنامله كأن أثوابه مجت بفرصاد



سورة الانفطار

١١٨١ - فإن قيل : لأى فائدة تخصيص ذكر صفة الكرم دون سائر صفاته في قوله تعالى : ﴿ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦] .

قلنا : قال بعضهم ، إنما قال ذلك لطفًا بعبدہ وتلقينًا له حجته وعذره ليقول: غرنى كرم الكريم ، وقال الفضيل رحمه الله : لو سألتنى الله تعالى هذا السؤال لقلت : غرنى ستورك المرخاة ، وروى أن عليًا كرم الله وجهه صاح بغلام له مرات فلم يلبه ، ثم أقبل فقال : ما لك لم تجبني ؟ فقال : لثقتى بحلمك وأمنى عقوبتك ، فاستحسن جوابه وأعتقه ، ولهذا فقالوا : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه ، والحق أن الواجب على الإنسان ألا يغتر بكرم الله تعالى وجوده في خلقه إياه وإسباغه النعمة الظاهرة والباطنة عليه فيعصيه ويكفر نعمته اغترارًا بتفضله الأول ، فإن ذلك أمر منكر خارج عن حد الحكمة ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لما قرأها : " غره جهله " ، وقال عمر رضى الله عنه : غره حمقه وجهله ، وقال الحسن : غره والله شيطانه الخبيث الذى زين له المعاصى ، فقال له : افعل ما شئت فإن ربك كريم .

١١٨٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [الانفطار:١٩] والنفوس المقبولة الشفاعة تملك لمن شفعت فيه شيئًا وهو الشفاعة .

قلنا : المنفى ثبوت النصره بالملك والسلطنة والشفاعة ليست بطريق الملك والسلطنة فلا تدخل في النفى ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار:١٩] وقال مقاتل : المراد بالنفس الثانية الكافرة ، والأصح أنه على العموم فى النفسين .

سورة المطففين

١١٨٣ - فإن قيل : هلا قال الله تعالى إذا اكتالوا أو اتزنوا على الناس يستوفون كما قال سبحانه في مقابله : ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣] .

قلنا : لأن المطففين كانت عادتهم أنهم لا يأخذون ما يكال وما يوزن إلا بالمكيال ؛ لأن استيفاء الزيادة بالمكيال كان أمكن لهم وأهون عليهم منه بالميزان ، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فيهما .

١١٨٤ - فإن قيل : كيف فسر سبحانه وتعالى سجيناً بكتاب مرقوم فقال تعالى : ﴿وَمَا أَذْرَنَّا مَا سَجِينٌ﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ [المطففين: ٨، ٩] وكذا فسر تعالى عليين به مع أن سجيناً اسم للأرض السابعة ، وهو فعيل من السجن ، وعليين اسم للجنة أو لأعلى الأمكنة ، أو للسماء السابعة ، أو لسدرة المنتهى .

قلنا : قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] وصف معنوى لكتاب الفجار ولكتاب الأبرار ، لا تفسير لسجين ولعليين تقديره : وهو كتاب مرقوم .



سورة الانشقاق

١١٨٥ - فإن قيل : أين جواب " إذا " في قوله تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] .

قلنا : فيه وجوه ، أحدهما أنه متروك لتكرار مثله في القرآن .

الثاني : أنه أذنت والواو فيها زائدة .

الثالث : أنه محذوف تقديره بعد قوله تعالى : ﴿وَحُكَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢] بعثم أو جوزيتم أو لاقيتهم ما عملتم ، ودل على هذا المحذوف قوله تعالى : ﴿فَمَلَأْنِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] .

الرابع : أن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره : يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه إذا السماء انشقت .



سورة البروج

١١٨٦ - فإن قيل : أين جواب القسم .

قلنا : فيه وجوه ، أحدها : أنه متروك .

الثاني : أنه قوله تعالى : ﴿قُتِلَ﴾ [البروج: ٤] أى لقد قتل ، أى لعن .

الثالث : أنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] .

الرابع : أنه محذوف تقديره ، لتبعثن أو نحوه .

الخامس : أنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا﴾ [البروج: ١٠] .



سورة الطارق

١١٨٧ - فإن قيل : أين جواب القسم .

قلنا : ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الطارق:٤] فإن بمعنى ما ، ولما بالتشديد بمعنى إلا ، فيكون المعنى : ما كل نفس إلا عليها حافظ ، ولما بالتخفيف ما فيه زائدة وإن هي المخففة من الثقيلة ، فيكون المعنى : إن كل نفس لعلها حافظ ، والقسم يتلقى بمعنى إن .

١١٨٨ - فإن قيل : ما وجه ارتباط قوله تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ [الطارق:٥] بما قبله .

قلنا : وجهه أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظاً أتبعه بوصية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى ، ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته ومجازاته، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، فلا يملأ على حافظه إلا ما يسره في عاقبته .

١١٨٩ - فإن قيل : ما فائدة الجمع بين فمهل وأمهل ، ومعناهما واحد .

قلنا : بالتأكيد ، وإنما خولف بين اللفظين طلباً للخفة .



سورة الأعلى

١١٩٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿قَدْ كَرَّانَ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩] مع أنه كان ﷺ مأمورًا بالذكرى نفعت أو لم تنفع .

قلنا : معناه إذ نفعت ، وقيل : معناه قد نفعت ، وقيل : إن نفعت وإن لم تنفع ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وذكر الماوردي أنها بمعنى ما ، وكأنه أراد معنى ما الظرفية ، وإن بمعنى ما الظرفية ليس بمعروف .

١١٩١ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١٣] مع أن الحيوان لا يخلو عن الاتصاف بأحد هذين الوصفين .

قلنا : معناه لا يموت موتًا يستريح به ، ولا يحيا حياة ينتفع بها ، وقال ابن جرير رحمة الله عليه : تصعد نفسه إلى حلقومه ثم لا تفارقه فيموت ولا ترجع إلى موضعها في من الجسم فيحيا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



سورة الغاشية

١١٩٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤] مع أن جميع أبدانهم أيضًا تصلى النار .

قلنا : الوجه يطلق ويراد به جميع البدن كما في قوله تعالى : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] وقيل : إن المراد بالوجوه هنا الأعيان والرؤساء ، كما يقال : هؤلاء وجوه القوم ، ويا وجه العرب ، أى ويا وجهيهم ، ويؤيد هذا القول ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : إن المراد به الرهبان وأصحاب الصوامع .

١١٩٣ - فإن قيل : كيف ارتبط قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] بما قبله ، وأى مناسبة بين السماء والإبل والجبال والأرض حتى جمع بينهما ؟

قلنا : لما وصف الله تعالى الجنة بما وصف ، عجب من ذلك الكفار ، فذكرهم عجائب صنعه ، وقال قتادة ، لما ذكر ارتفاع سرر الجنة قالوا : كيف نصعدها ، فنزلت هذه الآية : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ [الغاشية: ١٧] نظر اعتبار ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] للنهوض بالأثقال وحملها إلى البلاد البعيدة ، وجعلت تبرك حتى تحمل وتركب عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت ، فليس في الدواب ما يحمل عليه وهو بارك ويطيق النهوض إلا هى ، وسخرت لكل من قادها حتى الصبى الصغير ، ولما جعلت سفائن البر أعطين الصبر على احتمال العطش عشرة أيام فصاعدًا وجعلت ترعى كل نبات في البرارى والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم ، وإنما لم يذكر الفيل والزرافة والكركند وغيرها مما هو أعظم من الجمل لأن العرب لم يروا شيئًا من ذلك ولا كانوا يعرفونه ، ولأن

الإبل كانت أنفس أمواهم وأكثرها لا تفارقهم ولا يفارقونها ، وإنما جمع بينها وبين ما بعدها لأن نظر العرب قد انتظم هذه الأشياء في أوديتهم وبيواديهم ، فانتظما الذكر على حسب ما انتظما نظرهم وكثرة ملابتهم ومخالفتهم ، ومن فسر الإبل بالسحاب والماء قصد بذلك طلب المناسبة بطريق تشبيه الإبل بالسحاب في السير وفي النشاط أيضًا في بعض الأوقات ، لا أنه أراد أن المراد من الإبل السحاب حقيقة ، وقد جاء في أشعار العرب تشبيه السحاب بالإبل كثيرًا ، وقد شبه ابن دريد أيضًا بالسحاب في قصيدته ، وقرأ أبى بن كعب وعائشة رضى الله عنهما الإبل بتشديد اللام ، قال أبو عمرو : وهو اسم للسحاب الذى يحمل الماء ، والله أعلم.



سورة الفجر

١١٩٤ - فإن قيل : كيف نكر الليالي العشر دون سائر ما أقسم به ، وهلا عرفها بلام العهد وهي ليالى معلومة معهودة ، فإنها ليالى عشر ذى الحجة فى قول الجمهور .

قلنا : لأنها مخصوصة من بين جنس الليالى العشر بفضيلة ليست لغيرها فلم يجمع بينها وبين غيرها بلام الجنس ، وإنما لم تعرف بلام العهد لأن التنكير أدل على التفضيم والتعظيم بدليل قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦١] ونظيره قوله تعالى : ﴿لَا أُقْسِرُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] فعرفه ثم قال : ﴿وَوَالِدٍ﴾ [البلد: ٣] فنكره ، والمراد به آدم وإبراهيم أو محمد ﷺ أجمعين ، ولأن الأحسن أن تكون اللامات كلها متجانسة ، ليكون اللام أبعد عن الألغاز والتعمية ، وهي فى الباقي للجنس .

١١٩٥ - فإن قيل : كيف ذم الله تعالى الإنسان على قوله : ﴿رَبِّىْ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥] مع أنه صادق فيما قال ، لأن الله تعالى أكرمه بدليل قوله تعالى : ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ [الفجر: ١٥] كيف وأن هذا يحدث بالنعمة وهو مأمور به .

قلنا : المراد به أن يقول ذلك مفتخرًا على غيره ومتطاولًا به عليه ومعتقدًا استحقاق ذلك على ربه كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِى﴾ [القصص: ٧٨] ومستدلًا به على علو منزلته فى الدار الآخرة ، وكل ذلك منهى عنه ، وأما إذا قاله على وجه الشكر والتحدث بنعمة الله فليس بمذموم ولا منهى عنه .

١١٩٦ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى فى الجملة الأولى : ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ [الفجر: ١٥] ولم يقل فى الجملة الثانية : فأهانته .

من غرائب آي التنزيل = ٤٧١

قلنا : لأن بسط الرزق إكرام لأنه إنعام وإفضال من غير سابقة ، وقبضه ليس بالإهانة لأن ترك الإنعام والإفضال لا يكون إهانة بل هو واسطة بين الإكرام والإهانة ، فإن المولى قد يكرم عبده وقد يهينه ، وقد لا يكرمه ولا يهينه ، وتضييق الرزق ليس إلا عبارة عن ترك إعطاء القدر الزائد ، ألا ترى أنه يحسن أن تقول : زيد أكرمنى إذا أهدي لك هدية ، ولا يحسن أن تقول : أهاننى إذا لم يهد لك .

١١٩٧ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ؟ والحركة والانتقال على الله محالان لأنهما من خواص الكائن في جهة .

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : وجاء أمر ربك ، لأن في القيامة تظهر جلائل آيات الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقيل : معناه : وجاء ظهور ربك لضرورة معرفته يوم القيامة ومعرفة الشيء بالضرورة تقوم مقام ظهوره ورؤيته ، فمعناه : زالت الشكوك وارتفعت الشبه كما ترتفع عند مجيء الشيء الذى كان يشك فيه .

*** ** *

سورة البلد

١١٩٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ [البلد: ٣] ولم يقل سبحانه وتعالى : ومن ولد .

قلنا : لأن في " ما " من الإبهام ما ليس فى من ، فقصد به التفخيم والتعظيم كأنه تعالى قال : وأى شيء عجيب غريب ولد ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦] .

سورة الشمس

١١٩٩ - فإن قيل : كيف نكر الله تعالى النفس دون سائر ما أقسم به حيث قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] .

قلنا : لأنه لا سبيل إلى لام الجنس ، لأن نفوس الحيوانات غير الإنسان خارجة عن ذلك بدليل قوله تعالى : ﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨] ولا سبيل إلى لام العهد لأن المراد ليس نفساً واحدة معهودة ، وعلى قول من قال : إن المراد منه نفس آدم عليه السلام ، فالتنكير للفتخيم والتعظيم كما سبق في سورة الفجر .

١٢٠٠ - فإن قيل : أين جواب القسم ؟

قلنا : قال الزجاج وغيره : إنه قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] وحذفت اللام لطول الكلام ، وقال ابن الأنباري : جوابه محذوف ، وقال الزمخشري : تقدير ليدمد من الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمد على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه السلام ، قال : وأما : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] فكلام تابع لما قبله على طريق الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء .



سورة الليل

١٢٠١ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] مع أن الشقى أيضًا يصلها : أى يقاسى حرها وعذابها .

قلنا : قال أبو عبيدة : الأشقى هنا بمعنى الشقى ، والمراد به كل كافر ، والعرب تستعمل أفعل فى موضع فاعل ولا تريد به التفضيل ، وقد سبق تقرير ذلك والشواهد عليه فى سورة الروم فى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ، وقال الزجاج : هذه نار موصوفة معينة ، فهو درك مخصوص ببعض الأَشْقِيَاء ، ورد عليه ذلك بقوله تعالى : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧] والأتقى يجنب عذاب أنواع نار جهنم كلها ، والمراد بالأتقى هنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه بإجماع المفسرين ، ولهذا قال الزمخشري : إن الأشقى ليس بمعنى الشقى بل هو على ظاهره ، والمراد به أبو جهل أو أمية بن خلف ، فالآية واردة للموازنة بين حالتى أعظم المؤمنين وأعظم المشركين ، فبولغ فى صفتيهما المتناقضتين ، وجعل هذا مختصا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له لوفور نصيبه منها وجاء قوله تعالى : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧] على موازنة ذلك ومقابلته ، مع أن كل تقى يجنبها ، قال بعض العلماء : هذه الآية تدل على أن أبا بكر رضى الله عنه أفضل الصحابة لأنه وصفه بالأتقى ، وقال : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وإذا كان أكرم عند الله كان أفضل .



سورة الضحى

١٢٠٢ - فإن قيل : كيف وصف ﷺ بالضال والنبى ﷺ معاذ الله أن يكون ضالاً، أى كافراً لا قبل النبوة ولا بعدها ، والضال أكثر ما ورد فى القرآن بمعنى الكافر .

قلنا : المراد به هنا أنه تعالى وجده ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداه إليها ، هذا قول الجمهور .

الثانى : أنه ضل وهو صغير فى شعاب مكة فرده الله تعالى إلى جده عبد المطلب .

الثالث : أن معناه : ووجدك ناسياً فهداك إلى الذكر ، لأن الضلال جاء بمعنى النسيان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

١٢٠٣ - فإن قيل : لو كان الضلال بمعنى النسيان لما جمع بينهما فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢] .

قلنا : لا ندعى أنه حيث ذكر كان بمعنى النسيان ، فهو فى تلك الآية بمعنى الخطأ ، وقيل : بمعنى الغفلة .

الرابع : أن معناه ، ووجدك جاهلاً فعلمك .

١٢٠٤ - فإن قيل : كيف من سبحانه عليه بإخراجه من الفقر إلى الغنى بقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ [الضحى: ٨] أى : فقيراً ، والعائل الفقير سواء كان له عيال أو لم يكن .

قلنا : قال ابن السائب ، واختاره الفراء ، أنه لم يكن غناه بكثرة المال ، ولكن الله أرضاه بما آتاه ، ولم يكن ذلك الرضا قبل غنى القلب ، وقال غيره : المراد به أنه أغناه بمال خديجة عن مال أبى طالب ، والمراد به الإغناء بتسهيل ما لا بد منه وتيسيره ، لا الإغناء بفضول المال الذى لا يجامع صفة الفقر .



سورة الانشراح

١٢٠٥ - فإن قيل : أى فائدة فى زيادة ذكر لك وعنك والكلام تام بدونها .

قلنا : فائدته الإبهام ثم الإيضاح ، وهو نوع من أنواع البلاغة .

فلما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ ﴾ [الشرح: ١] فهم أن ثم مشروحا له ثم قال : ﴿ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١] فأوضح ما علم مبهماً بلفظ ذلك ، وكذا كلام فى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ ﴾ [الشرح: ٢] .

١٢٠٦ - فإن قيل : قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥] وكلمة مع للمصاحبة والقرآن ، فما معنى اقتران العسر واليسر .

قلنا : سبب نزول هذه الآية أن المشركين عيروا رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم بالفقر والضائقة التى كانوا فيها ، فوعدهم الله تعالى يسرا قريبا من زمان عسرهم ، وأراد تأكيد الوعد لتسليتهم وتقوية قلوبهم ، فجعل اليسر الموعود كالمقارن للعسر فى سرعة مجيئه .

١٢٠٧ - فإن قيل : ما معنى قول ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم وابن مسعود رضى الله عنه : " لن يغلب عسرٌ يسرين " ^(١) ، ويروى ذلك عن النبى ﷺ أيضا .

قلنا : هذا عمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء ، وإن وعد الله لا يحتمل إلا على أحسن ما يحتمله اللفظ وأكملة ، وأما حقيقة القول فيه فهو أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تأكيدا للأولى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَيَلْلُ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٤٩] وما أشبهه ، وكما فى قولك ، جاءنى رجل جاءنى

(١) الموطأ (١٦٢١) ، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٣٤٢) .

من غرائب آي التنزيل ٤٧٧

رجل ، وأنت تعنى واحدًا في الجملتين ، فعلى هذا يتحد العسر واليسر ، أو يكون تعريف العسر لأنه حاضر معهود ، وتنكير اليسر لأنه غائب مفقود ، وللتفخيم والتعظيم ، ويحتمل أن تكون الجملة الثانية وعدًا مستأنفًا فيتعدد اليسر حيثُذ على ما قيل ، ويؤيد أن الجملة الثانية للتأكيد أنه ليس في مصحف عبد الله بن مسعود إلا مرة واحدة .

١٢٠٨ - فإن قيل : وإذا ثبت في قراءته غير مكرر ، فكيف قال : والذي نفسى بيده لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، إنه لن يغلب عسر يسرين .

قلنا : كأنه نزل ما فيه من التفخيم والتعظيم بالتنكير منزلة التثنية ، لأن المعنى يسرًا وأى يسر ، وأما من فسر به يسرين فإنه قال : أحد اليسرين ما تيسر من الفتوح في زمن النبى ﷺ .

والثانى : ما تيسر بعده في زمن الخلفاء وقيل : هما يسر الدنيا ويسر الآخرة كقوله تعالى : ﴿ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢] وهما حسن الظفر وحسن الثواب .



سورة التين

١٢٠٩ - فإن قيل : كيف وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] .

قلنا : قال الأكثرون : والمراد بالإنسان هنا الجنس ، ويرده أسفل سافلين إدخاله النار ، فعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً بظاهر الاتصال ، ويكون قوله تعالى : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] قائماً مقام قوله تعالى فلا نردهم أسفل سافلين ، وأما على قول من فسر أسفل سافلين بالهرم أسفل هؤلاء كلهم ، فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً بمعنى لكن ، ومعنى قوله تعالى : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] أى غير مقطوع بالهرم والضعف الحاصل من الكبر ، أى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال شبابهم وقوتهم ، فإنهم إذا عجزوا عن العمل كتب لهم ثواب ما كانوا يعملونه من الطاعات والحسنات إلى وقت موتهم ، وهذا معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ، وقال بعض العلماء : الذين آمنوا وعملوا الصالحات في شبابهم وقوتهم فإنهم لا يردون إلى الخرف وأرذل العمر وإن عمروا طويلاً ، وتمسك بظاهر قول ابن عباس رضى الله عنهما .



سورة القدر

١٢١٣ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] وتنزله من الأمر لا معنى له .

قلنا : من هنا بمعنى الباء كما في قوله تعالى : ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] وقوله تعالى : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غافر: ١٥] أى لكل أمر قضاء الله تعالى في تلك السنة من ليلة القدر إلى مثلها تنزل الملائكة به من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وقيل : إلى الأرض .



سورة البينة

١٢١٤ - فإن قيل : المراد بالرسول هنا محمد ﷺ بلا خلاف ، فكيف قال تعالى : ﴿يَتْلُوا صُحُفًا﴾ [البينة: ٢] وظاهره يدل على قراءة المكتوب في الكتاب وهو منتفٍ في حقه ﷺ لأنه كان أميًا .
قلنا : المراد يتلوا ما في الصحف عن ظهر قلبه ، لأنه هو المنقول عنه بالتواتر .

١٢١٥ - فإن قيل : ما الفرق بين الصحف والكتب حتى قال تعالى : ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢، ٣] .
قلنا : الصحف القراطيس ، وقوله تعالى : مطهرة : أى من الشرك الباطل ، وقوله تعالى : ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة: ٦] أى : مكتوبة مستقيمة ناطقة بالعدل والحق ، يعنى الآيات والأحكام .

١٢١٦ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] أى النبى ﷺ أو القرآن ، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، وهم مازالوا متفرقين مختلفين يكفر كل فريق منهم الآخر قبل مجىء البينة وبعدها .

قلنا : المراد به تفرقهم عن تصديق النبى ﷺ والإيمان به قبل أن يبعث ، فإنهم كانوا مجتمعين على ذلك متفقين عليه بأخبار التوراة والإنجيل ، فلما بعث إليهم تفرقوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وقال بعض العلماء : المراد بالبينة ما فى التوراة والإنجيل من الإيمان بنبوته ﷺ ، ويؤيد هذا القول أن أهل الكتاب أفردوا بالذكر فى هذا التفرق مع وجود التفرق من المشركين أيضًا بعدما جمعوا مع المشركين فى أول السورة ، فلا بد أن يكون مجىء البينة أمرًا يخصهم ، ومجىء النبى ﷺ والقرآن العزيز لا يخصهم .

سورة الزلزلة

١٢١٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١] ما معنى إضافة الزلزال الذى هو المصدر إلى الأرض ، وهلا قال زلزلاً كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [الفجر: ٢١] وما أشبهه .

قلنا : معنا الزلزال الذى تستوجبه فى حكمة الله تعالى ومشيتته فى ذلك اليوم ، وهو الزلزال الذى ليس بعده زلزال ، ونظيره قولك : أكرم التقى إكرامه وأهن الفاسق إهانته ، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة ، ويموز أن يكون المراد بالإضافة الاستغراق معناه زلزالها كله الذى هو ممكن لها .

١٢١٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [الزلزلة: ٧] على العموم فيها ، وحسنات الكافر محبطة بالكفر ، وسيئات المؤمن معفو عنها مغفورة باجتناّب الكبائر ، فكيف تثبت رؤية كل عامل جزاء عمله .

قلنا : معناه فمن يعمل مثقال ذرة خيراً من فريق السعداء ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً من فريق الأشقياء ، لأنه جاء بعد قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصْدَرُ النَّاسُ شَتَاتًا ﴾ [الزلزلة: ٦] ، وذكر مقاتل أنها نزلت فى رجلين من أهل المدينة كان أحدهما يستقل أن يعطى السائل الكسرة أو الثمرة ويقول : إنما تؤجر على ما تعطيه ونحن نحبه ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول : إنما أوعده الله النار على الكبائر .

سورة العاديات

١٢١٩ - فلإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١] مع أنه تعالى أخبر بهم في كل زمان، فما وجه تخصيص ذلك اليوم. قلنا : معناه أن ربهم سبحانه مجازيهم يومئذ على أعمالهم ، فالعلم مجاز عن المجازاة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣] معناه يجازيهم على ما فيها ، لأن علمه شامل لما في قلوب كل العباد ، ويقرب منه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ بَكَرُزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦] .



سورة القارعة

١٢٢٠ - فلإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٨] أى : رجحت سيئاته على حسناته : ﴿فَأَمَّهُ رَاقِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] أى فمسكنه النار ، وأكثر المؤمنين سيئاتهم راجحة على حسناتهم . قلنا : قوله تعالى : ﴿فَأَمَّهُ رَاقِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] لا يدل على خلوده فيها ، فيسكن المؤمن بقدر ما تقتضيه ذنوبه ، ثم يخرج منها إلى الجنة ، وقيل : المراد بخفة الموازين : خلوها من الحسنات بالكلية ، وتلك موازين الكفار .



سورة التكاثر

١٢٢١ - فإن قيل : أين جواب : ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٥] ؟

قلنا : هو محذوف تقديره : لو تعلمون الأمر يقيناً لشغلكم عن التكاثر والتفاخر ، ثم ابتداء تعالى بوعيد آخر فقال سبحانه : ﴿لَتَرْوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] .

١٢٢٢ - فإن قيل : كل أحد لا يخلو عن نيل نعيم في الدنيا ، ولو مرة واحدة ، فما النعيم الذي يسأل عنه العبد .

قلنا : فيه سبعة أقوال ، أحدها : أنه الأمن والصحة .

والثاني : أنه الماء البارد .

الثالث : أنه خبز البر والماء العذب .

الرابع : أنه مأكل ومشروب لذيان .

الخامس : أنه الصحة والفراغ .

السادس : أنه كل لذة من لذات الدنيا .

السابع : أنه دوام الغداء والعشاء ، وقيل : إن السؤال خاص للكفار ، والصحيح أنه عام في كل إنسان وفي كل نعيم ، فالكافر يسأل توبيخاً والمؤمن يسأل عن شكرها ، ويؤيدها هذا ما جاء في الحديث أنه ﷺ قال : " يقول الله تعالى : ثلاث لا أسأل عبدي عن شكرهن وأسأله عما سوى ذلك ، بيت يكتنه ، وما يقيم به صلبه من الطعام ، وما يوارى به عورته من اللباس " (١) .

سورة العصر

١٢٢٣ - فإن قيل : الاستثناء الذى فى السورة لا يدل على أن المؤمنين الموصوفين فى ربح مع أن الاستثناء إنما سيق لمدحهم بمضادة حالهم لحال من لم يتناوله الاستثناء .

قلنا : الاستثناء وإن لم يدل بصريحه على أنهم فى أعظم ربح ، ولكن اتصافهم بتلك الصفات الأربعة الشريفة يدل على أنهم فى أعظم ربح ، مع أن لو قدرنا أنهم ليسوا فى ربح فالمضادة حاصلة أيضًا لأنهم ليسوا فى خسر بمقتضى الاستثناء .



سورة الهمزة

١٢٢٤ - فإن قيل : ما الفرق بين الهمزة واللمزة ؟

قلنا : قيل : إنها بمعنى واحد لا فرق بينهما ، وإنما الثانى تأكيد للأول ، وقيل : إنها مختلفان ، فقيل : الهمزة المغاب ، واللمزة العياب : وقيل : الهمزة العياب فى الوجه ، واللمزة فى القفا ، وقيل : الهمزة الطعان فى الناس ، واللمزة الطعان فى أنساب الناس ، وقيل : الهمزة يكون بالعين ، واللمزة باللسان وقيل : عكسه ، فهذه ستة أقوال .



سورة الفيل

١٢٢٥ - فإن قيل : ما معنى الأبايل ؟ وهل هو واحد أو جمع ؟

قلنا : معناها جماعات في تفرقة أى حلقة حلقة ، وقيل : التى يتبع بعضها بعضاً ، وقيل : الكثيرة : وقيل : المختلفة الألوان ، وقال الفراء وأبو عبيدة : لا واحد لها ، وقيل : واحدتها أبال وأبول وأبيل .

*** ** *

سورة قريش

١٢٢٦ - فإن قيل : بأى شىء تتعلق اللام في قوله تعالى : ﴿لَا يَلْفِ

قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] ؟

قلنا : قيل : إنها متعلقة بآخر السورة التى قبلها : أى فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، ويؤيد هذا أنها في مصحف أبى رضى الله عنه سورة واحدة بلا فصل ، والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيها بوهم ويحترموهم ، فينتظم لهم الأمر في رحلتهم ولا يجترئ أحد عليهم ، وقيل معناه : أهلكهم ليألف قريش رحلة الشتاء والصيف بهلاك من كان يخيفهم ويمنعهم : وقيل : إنها متعلقة بما بعدها وهو قوله تعالى : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣] ﴿إِذْ لَفِهُمُ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: ٢] ، معناه أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة .

وقيل : هى لام التعجب معناه أعجبوا لإيلاف قريش ، وكانت لقريش فى كل سنة رحلتان للتجارة التى بها معاشهم ، رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى الشام ، ثم قيل : الإيلاف هنا مصدر بمعنى الإلف تقول : ألفتة إيلافًا بالمد كما تقول ألفتة إلفًا بالقصر كلاهما متعد إلى مفعول واحد ، فىكون لإيلاف قريش لإلف قريش : أى لحبهم الرحلتين ، وقيل : ألف بالمد متعد إلى مفعولين ، يقال ألف زيد المكان وألف زيد عمرًا المكان ، فىكون معنى الآية لإيلاف الله تعالى قريشًا الرحلتين ، فعلى هذا الوجه فىكون المصدر مضافًا إلى المفعول ، وعلى الوجه الأول فىكون مضافًا إلى الفاعل ، وأما تكرار إضافة المصدر فى قوله تعالى : ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾ [إِلْفُهُمْ] [قريش: ١، ٢] فقيل : إن الثانى بدل من الأول ، وقيل : إنه للتأكيد كما تقول : أعطتك المال لصيانة وجهك صيانة عن ذل السؤال .



سورة الماعون

١٢٢٧ - فإن قيل : كيف توعد الله لساهى عن الصلاة ، والحديث ينفى مؤاخذاته وهو قوله ﷺ " رفع عن أمتى الخطأ والنسيان " .

قلنا : المراد بالسهو هنا التغافل عنها والتكاسل فى أدائها وقلة الالتفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشياطين من المسلمين ، وليس المراد ما يتفق فيها من السهو بوسوسة الشيطان أو حديث النفس مما لا صنع للعبد فيه ولا اختيار " وهو المراد فى الحديث " وكان النبى ﷺ يقع له السهو فى صلاته فضلاً عن غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ [الماعون: ٥] ولم يقل : فى صلاتهم ، وعن أنس رضى الله عنه أنه قال : الحمد لله على أن لم يقل فى صلاتهم .

سورة الكوثر

١٢٢٨ - فإن قيل : ما الكوثر ؟

قلنا : فيه قولان ، أحدهما : وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما أنه الخير الكثير فوعل من الكثرة كقولهم : رجل نوفل : أى كثير النوافل ، ومنه قول الشاعر :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرًا

قيل لأعرابية رجع ابنها من سفر : كيف آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر ، ولقد أعطى النبى ﷺ خيرًا كثيرًا ، فإنه آتاه الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا ، ومنهم من فسر هذا الخير الكثير بالنبوة ، ومنهم من فسره بالعلم والحكمة ، ومنهم من فسره بالقرآن .

والقول الثانى : أن الكوثر اسم نهر فى الجنة ، وهو قول أكثر المفسرين ، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : " الكوثر نهر وعدنيه ربي فى الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتى يوم القيامة " ^(١) وعنه ﷺ أيضًا فى الحديث أنه قال " بينا أنا أسير فى الجنة فإذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك ، فضرب الملك بيده فإذا طينه المسك الأذفر " وروى عن صفته " أنه أحلى من العسل ، وأشد بياضًا من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزبد " ^(٢) حافتاه الزبرجد ، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء ، لا يظمأ من شرب منه أبدًا .

(١) مسلم (٤٠٠) ، وأبو داود (٧٨٤) .

(٢) الترمذى (٣٣٦١) ، وصححه الألبانى .

سورة الكافرون

١٢٢٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] ولم يقل "من" مع "أنه القياس" .

قلنا : فيه وجهان : أحدهما : أنه إنما قال "ما" رعاية للمقابلة في قوله تعالى : ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:٢] .

الثاني : أن "ما" مصدرية : أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى ، وقال الزمخشري : إنما قال "ما" لأن المراد الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق ، وقال غيره : ﴿مَا﴾ فى الكل بمعنى الذى ، والعائد محذوف .

١٢٣٠ - فإن قيل : ما فائدة التكرار .

قلنا : فيه وجهان عليه السلام أحدهما : أنه للتأكيد وقطع أطماعهم فيما طلبوه منه .

الثانى : أن الجملتين الأوليين لنفى العبادة فى الحال ، والجملتين الأخريين لنفى العبادة فى الاستقبال فلا تكرر فيه ، وهذا قول ثعلب والزمجراج ، والخطاب لجماعة علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون ، وقال الزمخشري : يرد الوجه الثانى ، وذلك أن قال : ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ أريد به العبادة فى المستقبل ، لأن "لا" لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال ، فالجملتان الأوليان لنفى العبادة فى المستقبل والجملتان الأخريان لنفى العبادة فى الماضى ، فقوله : ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ [الكافرون:٤] أى ما عهدتم من عبادة الأصنام فى الجاهلية ، فكيف يرجى منى بعد الإسلام ، وقوله : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] أى ما عبدتم فى وقت ما أنا على عبادته ، ويرد على قوله والجملتان الأخريان لنفى العبادة فى الماضى أن اسم الفاعل المنون العامل عمل الفعل لا يكون إلا

بمعنى الحال أو الإستقبال وعابد هنا عامل في " ما " وكذلك عابدون ، وجوابه أنه على الحكاية كما قال تعالى : ﴿وَكَلَّبَهُمْ بِسِطْرٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] وأورد على هذا التقدير فقال .

١٢٣١ - فإن قيل : هلا قال تعالى : ولا أنتم عابدون ما عبدت ، بلفظ الماضي ، كما قال : ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ [الكافرون: ٤] .

قلنا : لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل بعثه ، وهو ما كان يعبد الله تعالى قبل بعثه ، بل بعد بعثه ، ويرد على هذا التقدير : أن أعظم العبادة التوحيد ، وكل الأنبياء كانوا موحدين بعقولهم قبل البعثة ، وقال بعض العلماء : إنها جاء الكلام مكرراً لأنه ورد جواباً لسؤالهم مناوية ، وكان سؤالهم مكرراً ، فإنهم قالوا : يا محمد تعبد آلهتنا كذا مدة ونعبد إلهك كذا مدة ، ثم تعبد آلهتنا كذا ونعبد إلهك كذا مدة ، فورد الجواب مكرراً ليطابق السؤال ، وهذا قول حسن لطيف .



سورة النصر

١٢٣٢ - فإن قيل : أى مناسبة بين الأمر بالاستغفار وبين ما قبله ، فإن مجيء الفتح والنصر يناسب الشكر والحمد لا الاستغفار والتوبة .

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما نزلت هذه السورة علم النبي ﷺ أنه نعتت إليه نفسه ، وقال الحسن : أعلم النبي ﷺ أنه قد اقترب أجله ، فأمر بالتسبيح والاستغفار والتوبة ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح ، فكان أكثر من قوله : " سبحانك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم " وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن هذه السورة تسمى سورة التوديع ، وروى أن النبي ﷺ عاش بعد نزولها ستين .

سورة تبت

١٢٣٣ - فإن قيل : كيف ذكره الله تعالى بكنيته دون اسمه ، مع أن ذلك إكرام واحترام .

قلنا : فيه وجوه ، أحدهما : يجوز أنه لم يعرف له اسم ولم يشتهر إلا بكنيته ، فذكره بما اشتهر به لزيادة تشهيره بدعوة لسوء عليه .

الثانى : أنه نقل أنه كان اسمه عبد العزى ، وهو كان عبد الله لا عبد العزى ، فلو ذكره باسمه لكان خلاف الواقع .

الثالث : أنه ذكره بكنيته لموافقة حاله لكنيته ، فإن مصيره إلى النار ذات اللهب ، وإنما كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما .



سورة الإخلاص

١٢٣٤ - فإن قيل : فالمشهور في كلام العرب أن الأحد يستعمل بعد النفى ، والواحد يستعمل بعد الإثبات ، يقال : فى الدار واحد ، وما فى الدار أحد ، وجاءنى واحد ما جاءنى أحد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله تعالى : ﴿ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩] ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٤] ﴿ لَا تَقْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٣٦] ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ [الحاقة: ٤٧] فكيف جاء هنا أحد فى الإثبات .

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهم : لا فرق بين الواحد والأحد في المعنى ، واختاره أبو عبيدة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ فَأَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِكَيْنِ ﴾ [الكهف: ١٩] وقولهم : أحد وعشرون وما أشبهه ، وإذا كان بمعنى واحد لا يختص أحدهما بمكان دون المكان ، وإن غلب استعمال أحدهما في النفي والآخر في الإثبات ، ويجوز أن يكون العدول عن الغالب هنا رعاية لمقابلة الصمد .



سورة الفلق

١٢٣٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق: ٢] يتناول كل ما بعده ، فما الفائدة في الإعادة .

قلنا : خص شر هذه الأشياء الثلاثة بالذكر تعظيماً لشرها ، كما في عطف الخاص على العام تعظيماً لشرفه وفضله ، أو خصها بالذكر لخفاء شرها ، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يشعر به ، ولهذا قيل : شر الأعداء المداجي ، وهو الذى يكيد الإنسان من حيث لا يعلم .

١٢٣٦ - فإن قيل : كيف عرف سبحانه النفاثات ونكر ما قبلها وما بعدها .

قلنا : لأن كل نفاثة لها شر وليس كل غاسق وهو الليل له شر ، وكذا ليس كل حاسد له شر ، بل رب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات ، ومنه قوله ﷺ " لا حسد إلا في اثنتين " الحديث .

وقال أبو تمام :

وما حاسد في المكرمات بحاسد

وقال : إن العلا حسن في مثلها الحسد .

سورة الناس

١٢٣٧ - فإن قيل : كيف خص الناس بالذكر في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] وهو رب كل شيء ومالكة وإلهه .

قلنا : إنما خصهم بالذكر تشريقاً لهم وتفضيلاً على غيرهم ، لأنهم أهل العقل والتمييز .

الثاني : أنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم ذكر مع ذلك أنه ربهم ليعلم أنه هو الذى يعيذ من شرهم .

الثالث : أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذى هو إلههم ومعبودهم ، كما يستغيث بعض العبيد إذا اعتراه خطب بسيدته ومخدومه وولى أمره .

١٢٣٨ - فإن قيل : هل قوله تعالى : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] بيان الذى يوسوس على أن الشيطان الموسوس ضربان جنى وإنسى كما قال تعالى : ﴿شَيْطَانُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] أو بيان للناس الذى أضيفت الوسوسة إلى صدورهم ، والناس المذكور آخرًا بمعنى الإنس .

قلنا : قال بعض أئمة التفسير ، المراد بالمعنى الأول ، كأنه قال : من شر الوسواس الجنى ، ومن شر الوسواس الإنسى ، فهو استعاذة بالله تعالى من شر الموسوسين من الجنسين ، وهو اختيار الزجاج ، وفي هذا الوجه إطلاق لفظ الخناس ، والنقل أنه اسم ، والنقل أنه اسم للجنى ، وقال بعضهم : المراد المعنى الثانى ، كأنه قال : من شر الوسواس الجنى الذى يوسوس فى صدور الناس من جنهم وإنسهم ، فسمى الجن ناسًا كما سماهم نفرًا ورجالاً فى قوله تعالى : ﴿أَنَّهُ

أَسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴿١﴾ [الجن: ١] وقوله تعالى : ﴿يُؤْذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فهو استعاذة بالله من شر الوسواس الذى يوسوس فى صدور الجن كما يوسوس فى صدور الإنس، وهو اختيار الفراء ، والمراد من الجنة هنا الشياطين من الجن على الوجه الأول ، ومطلق الجن على الوجه الثانى ، لأن الشيطان منهم هو الذى يوسوس لا غيره ، ومطلقهم يوسوس إليه ، واختار الزمخشري الوجه الأول وقال : ما أحق أن اسم الناس ينطلق على الجن ، لأن الجن سموا جنًا لاجتنانهم ، أى لاستتارهم ، والناس سموا أناسًا لظهورهم من الإناس وهو الإبصار ، كما سموا بشرًا لظهورهم من البشرة ، ولو صح هذا الإطلاق لم يكن هذا المجمل مناسبًا لفصاحة القرآن قال : وأجود منه أن يراد بالناس الأول الناسى كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] وكما قرئ : ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسِ﴾ بين الجنة والناس ، لأن الثقلين هما الجنسان الموصوفان بنسيان حقوق الله تعالى والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم بحمد الله تعالى

الفهرس

obeikandi.com

الفهرس

الصفحة	السورة
٣	مقدمة التحقيق
٤	التعريف بالمؤلف
٧	المقدمة
٨	سورة الفاتحة
١٠	سورة البقرة
٣٧	سورة آل عمران
٥٦	سورة النساء
٨١	سورة المائدة
١٠٢	سورة الأنعام
١١٤	سورة الأعراف
١٢٨	سورة الأنفال
١٣٧	سورة التوبة
١٥٣	سورة يونس
١٦٢	سورة هود
١٧٨	سورة يوسف
١٨٩	سورة الرعد
١٩٢	سورة إبراهيم

السورة	الصفحة
سورة الحجر	٢٠٣
سورة النحل	٢٠٦
سورة الإسراء	٢٢١
سورة الكهف	٢٣٩
سورة مريم	٢٥٣
سورة طه	٢٦٥
سورة الأنبياء	٢٧٤
سورة الحج	٢٨٢
سورة المؤمنون	٢٨٨
سورة النور	٢٩٠
سورة الفرقان	٢٩٧
سورة الشعراء	٣٠٢
سورة النمل	٣١٠
سورة القصص	٣١٨
سورة العنكبوت	٣٢٢
سورة الروم	٣٢٧
سورة لقمان	٣٣١
سورة السجدة	٣٣٥
سورة الأحزاب	٣٢٩

من غرائب آي التنزيل

٤٩٩

الصفحة	السورة
٣٤٩	سورة سبأ
٣٥١	سورة فاطر
٣٥٣	سورة يس
٣٥٧	سورة الصافات
٣٦٤	سورة ص
٣٦٨	سورة الزمر
٣٧٣	سورة غافر
٣٧٨	سورة فصلت
٣٨٠	سورة الشورى
٣٨٣	سورة الزخرف
٣٨٦	سورة الدخان
٣٨٨	سورة الجاثية
٣٨٩	سورة الأحقاف
٣٩٠	سورة محمد
٣٩١	سورة الفتح
٣٩٤	سورة الحجرات
٣٩٧	سورة ق
٤٠٠	سورة الذاريات
٤٠٣	سورة الطور

السورة	الصفحة
سورة النجم	٤٠٥
سورة القمر	٤٠٨
سورة الرحمن	٤١٠
سورة الواقعة	٤١٣
سورة الحديد	٣١٧
سورة المجادلة	٤٢١
سورة الحشر	٤٢٢
سورة الممتحنة	٤٢٥
سورة الصف	٤٢٦
سورة الجمعة	٤٢٨
سورة المنافقون	٤٢٩
سورة التغابن	٤٣١
سورة الطلاق	٤٣٣
سورة التحريم	٤٣٦
سورة الملك	٤٣٩
سورة القلم	٤٤٠
سورة الحاقة	٤٤٢
سورة المعارج	٤٤٤
سورة نوح	٤٤٥

من غرائب آي التنزيل

٥٠١

الصفحة	السورة
٤٤٧	سورة الجن
٤٤٨	سورة المزمل
٤٤٩	سورة المدثر
٤٥١	سورة القيامة
٤٥٢	سورة الإنسان
٤٥٦	سورة المرسلات
٤٥٧	سورة النبأ
٤٥٩	سورة النازعات
٤٦١	سورة عبس
٤٦٢	سورة التكويد
٤٦٣	سورة الانفطار
٤٦٤	سورة المطففين
٤٦٥	سورة الانشقاق
٤٦٥	سورة البروج
٤٦٦	سورة الطارق
٤٦٧	سورة الأعلى
٤٦٨	سورة الغاشية
٤٧٠	سورة الفجر
٤٧١	سورة البلد

٥٠٢ ===== مسائل الرازي وأجوبتها

الصفحة	السورة
٤٧٢	سورة الشمس
٤٧٣	سورة الليل
٤٧٤	سورة الضحى
٤٧٦	سورة الانشراح
٤٧٨	سورة التين
٤٧٩	سورة العلق
٤٨٠	سورة القدر
٤٨١	سورة البينة
٤٨٢	سورة الزلزلة
٤٨٣	سورة العاديات
٤٨٣	سورة القارعة
٤٨٤	سورة التكاثر
٤٨٥	سورة العصر
٤٨٥	سورة الهمزة
٤٨٦	سورة الفيل
٤٨٦	سورة قريش
٤٨٧	سورة الماعون
٤٨٨	سورة الكوثر
٤٨٩	سورة الكافرون

من غرائب آي التنزيل

٥٠٣

الصفحة	السورة
٤٩٠	سورة النصر
٤٩١	سورة المسد
٤٩١	سورة الإخلاص
٤٩٢	سورة الفلق
٤٩٣	سورة الناس
٤٩٥	الفهرس

تم الصف والإخراج الفني

بمركز الصفا للكمبيوتر

مصر - منية سمند - دقهلية

هاتف: ٠١٢٢٧٥١١٠٠٣ - ٠١٠٦٦٩٨٤٠٥٥